

للمرحوم فضيلة الشيخ

مصطفى الحصن المنصوري

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ

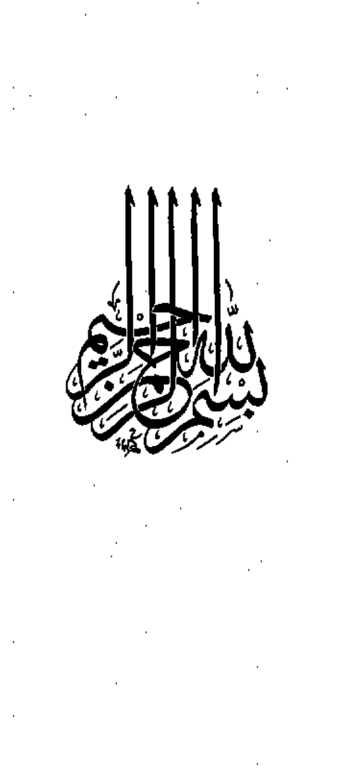
خادمُ الكتابِ والسُّنَّة

محمّد علي الصّابوني

المجلّد الثّالث

دار القلم
دمشق

الدار الشّاميّة
بيروت





مدنية وهي ثلاث وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾.

﴿الٓمٓر﴾ اسم السورة الكريمة، وعن ابن عباس معناه: أنا اللهُ أعلم وأرى، أي ما تعملون وتقولون ﴿ تِلْكَ﴾ أي آيات السورة المسماة بـ (آلمر) أشير به لفخامته ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني بالكتاب القرآن العظيم المعجز الذي فاق كل كتاب ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي والذي أُوحي إليك يا أيها الرسول في هذا القرآن، هو الحقُّ الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يحوم حوله الشكُّ، والتعرض لوصف الربوبية، مضافاً إلى ضميره ﷺ من الدلالة على فخامة المُنزل، وتشريف المنزل إليه مما لا يخفى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قيل هم كفار مكة، وقيل: هم اليهود والنصارى، والأولى أنْ يُراد أكثرهم مطلقاً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الحق المبين، لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٍ﴾ أي خلقهن مرتفعات بغير دعائم والعماد ما يسند به ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ أي بغير عمد أصلاً حال كونكم ترونها كذلك، لا تستند على شيء، والمراد أنها قائمة بقدرة الله سبحانه وتعالى، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، تعالى شأنه ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ استواء يليق بذاته[1]، وليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش، لأن إيجاده قبل إيجاد السماوات ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ ذلَّلهما لما أراد منهما من مصالح العباد، كالحركة المستمرة على حدٍّ من السرعة، تنفع في حدوث الكائنات وبقائها ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجۡرِى﴾ يسير في المنازل والدرجات حسبما أريد منهما ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، وتتحقق بها مصالح العباد، كما في قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل﴾ وهو المروي عن ابن عباس، واللام تجيء بمعنى «إلى» أي كل منهما يجري كل يوم، على مدار معين من المدارات اليومية، كالسنة للشمس، والشهر للقمر، والجملة بيان لحِكَم تسخيرهما ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام، في العالم العلويّ والسفليّ، والمراد أنه سبحانه يقضي ويُقدِّر ويتصرف في ذلك حسب الحكمة والمصلحة ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي ينزلها ويبينها مفصلة، والمراد بها آيات القرآن الكريم، أو الآيات الكونية ﴿لَعَلَّكُم﴾ عند معاينتكم لها تتفكرون فيها، وتتحققون كمال قدرته ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ﴾ بملاقاته ﴿تُوقِنُونَ﴾ فإنَّ من تدبرها حقَّ التدبر، وتحقَّق كمال قدرته، أيقن أن من قَدَر على إبداع هذه الصنائع البديعة، قدر على الإعادة والجزاء.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٦٩: يُمرُّ كما جاء من غير تكييفٍ، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً.

ولمَّا قرَّر الشواهد العلوية، أردفها بذكر الدلائل السفلية، فقال سبحانه:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسطها طولاً وعرضاً، لتثبت عليها الأقدام، وينقلب عليها الحيوان، وقد ثبت بالدلائل القطعية أنَّ الأرض كروية، وكونها كروية لا ينافي بسطها، لأن الكرة إذا كانت في غاية الكبر، كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ مع أن الناس يستقرون عليها ويبنون، ومن علماء المسلمين كالغزالي، والفخر الرازي وأبي السعود، وابن تيمية قالوا بكروية الأرض، وظواهر النصوص أدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ فهذا يدل على استدارة الأرض، فإن التكوير هو اللفُّ على المستدير، كتكوير العمامة. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت، من رسى الشيءُ إذا ثبت وفي الخبر «لمَّا خلق الله الأرضَ جعلت تميدُ، فخلق الله تعالى الجبال عليها فاستقرت» ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ ضمها إلى الجبال، وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها، وهو مبني على ما ذهب إليه بعض الفلاسفة، من أن الجبال لتركبها من أحجار صلبة، إذا تصاعدت إليها الأبخرة، احتبست فيها، فتنقلب مياهاً، وربما خرقتها فخرجت، والذي تدل الآثار عليه أنها تنزل من السحاب، لكنْ لمَّا كان نزولها عليها أكثر، كانت كثيراً ما تخرج الأنهار منها، ويكفي هذا لتشريكهما إلى عامل واحد، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال ﷺ «سَيْحانُ، وجَيْحَانُ، والفراتُ، والنيلُ، كلٌّ من أنهار الجنة»[1] وسيحان وجيحان، هما نهران في أرض الترك، وهما غير سيحون وجيحون بالواو، وفي كون هذه الأنهار من الجنة، تشبيهُ مياهها بمياه الجنة، والإخبار بامتيازها على ما عداها، ومثله

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة رقم ٢٨٣٩ باب ما في الدنيا من أنهار الجنة.

كثير في الكلام ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات، صنفين اثنين: كالحلو، والحامض، والأسود والأبيض، والصغير والكبير، والحار والبارد، وما أشبه ذلك ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يلبسه مكانه، فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً، وإن احتمل العكس أيضاً فإنَّ الأنسب بالليل، أن يكون هو الغاشي ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكر من مد الأرض، وتثبيتها بالرواسي، وإجراء الأنهار، وإغشاء الليل ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ باهرة جلتْ حكمةُ صانعها ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن التفكر فيها، يؤدي إلى الحكم بأن تكوين كل من ذلك، على هذا النمط الرائق، لا بدَّ له من مكوِّنٍ قادر حكيم، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ أي بقاع كثيرة مختلفة الأوصاف بعضها طيبة وبعضها سبخة، وبعضها رخوة، وبعضها صلبة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر[1]، وبعضها بالعكس، ولولا تخصيص قادر، موقع لأفعاله على وجه دون وجه، لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي متلاصقات والمقصود الإخبار بتفاوت أجزاء الأرض المتلاصقة ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي بساتين كثيرة ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي من أشجار الكرم

---

(١) المراد من الآية الكريمة بيان قدرة الله العجيبة، فإن الأرض واحدة، والتربة واحدة، والماء واحد، وتخرج الثمار مختلفة في الشكل، والقدر، والطعم، والرائحة، فمنها أبيض ومنها أسود، ومنها حلو ومنها مرٌّ، ومنها ما له بذر ومنها ما له نوى، ومنها الجيد ومنها الرديء، وخروج الأشجار والثمار المختلفة الأصناف والأشكال، والألوان والطعوم والروائح، مع اتحاد الأصول والأسباب، دلالة ظاهرة على عظمة الله وجلاله، وعلى وحدانيته وكامل قدرته.

﴿وَزَرْعٌ﴾ من كل نوع من أنواع الحبوب، ولعل تقديم ذكر الأعناب على الزرع مع كونها عماد المعاش، لما في صنعة الأعناب مما يبهر العقول، ولو لم يكن فيها إلا أنها مياه متجمدة، في ظروف رقيقة، حتى إن منها شفاف لا يحجب البصر عن إدراك ما في جوفه لكفى ﴿وَنَخِيلٌ﴾ تأخيره لئلا يقع فاصلة بينها وبين صفاتها، وهي قوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ جمع صنو، وهي نخلات أصلها واحد، وغير صنوان مختلفة الأصول، وأصلُ الصِّنْو المِثْلُ، ومنه قيل: «العم صنو أبيه» ﴿يُسْقَىٰ﴾ أي ما ذكر من القِطع، والجنات، والزرع، والنخيل ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ لا اختلاف في طبعه، سواء كان بماء الأمطار، أو بماء الأنهار ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ أي مع وجود أسباب التشابه بمحض قدرتنا ﴿بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر منها ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ بضم الهمزة والكاف أي فيما يؤكل وهو هنا الثمر والحب ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ الذي فُصِّل من القطع والجنات، لآيات كثيرة، عظيمة ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعلمون بمقتضى عقولهم، فإن من عقل تلك الأحوال العجيبة، من خروج الثمار المختلفة، في تلك القطع المتلاصقة، مع اتحاد ما تُسقى به، بل وسائر أسباب نموها، لا يتردّد في الجزم بأن لذلك صانعاً حكيماً، قادراً مدبِّراً لها، لا يعجزه شيء، ومن قدر على إبداع ما ذكر، قادر على إعادة ما أبداه. وقال الحسن في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، فينزل من السماء تذكرة، فترق قلوب فتخشع، وتقسو قلوب فتلهو ولا تسمع، قال الله تعالى: ﴿ونُنَزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾[1].

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٢.

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ يا رسول الله من شيء ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أي فاعجب من قولهم بعد مشاهدة الآيات، الدالة على عظيم قدرته تعالى، أي فليكن عجبك من قولهم ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا ﴾ إلى آخره، فإنه الذي ينبغي أن يتعجب منه، والاستفهام إنكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار ﴿ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾؟ أي أنُعاد خلقاً جديداً بعد الموت؟ وتكريرُ الهمزة لتأكيد الإنكار، ويجوز أن يكون الخطاب لكل من يصلح له، أي إن تعجب يا من ينظر في هذه الآيات، على قدرة مَنْ هذه أفعاله، فازدد تعجباً ممن ينكر قدرته تعالى على البعث؟ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المنكرون للبعث بعد أن عاينوا من آيات ربهم الكبرى، ما يرشدهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ فإن إنكارهم لقدرته تعالى على البعث كفر به، وفيه دليل على أن من أنكر البعث فهو كافر بالله عز وجل ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ﴾ مقيدون أي يُغلّون يوم القيامة، والأغلال جمع غُل وهو طوق من حديد يجعل في العنق ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا ينفكون عنها، وتوسيطُ ضمير الفصل، ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث، بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أُولئِكَ الذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وذلك يدل على أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ بالعقوبة وذلك أنهم استعجلوا بما هُدِّدوا به من عذاب الدنيا استهزاء ﴿ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ أي العافية والسلامة منها أخرج ابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية: هؤلاء مشركو العرب، استعجلوا بالشر قبل الخير، فقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَينَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] وإنما سموا العذاب بالسيئة

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

لأنـه ممَّـا يسوؤهـم ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ﴾ المَثُلَـة بفتـح الميـم وضم الثاء: نقمةٌ تنزل بالإنسان فيجعل مثلاً ليرتدع به غيره، والمَثُلةُ العقوبةُ، الفاضحةُ، وفسرها ابن عباس بالعقوبة المستأصلة للعضو كقطع الأذن ونحوه، سميت به لما بين العقاب والمعاقَب به من المماثلة، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة ﴿لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ بالكفر والمعاصي، والمعنى: أن ربك لذو ستر على عباده، ومغفـرة لذنوبهـم، لا يعجّـل لهـم العقوبـات وإن كانـوا ظالمين لأنفسهم، بـل يمهلهـم بتأخيرهـا، وقـال ابـن عبـاس: معناه إنه تعالى لذو تجاوزٍ إن تابـوا وآمنـوا. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لتحقيـق الوعيـد، وإن كانـوا تحت ستره وإمهاله، والمراد بالناس الجنس، والتخصيص للكفار غير مختار.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المستعجلون وإنما عدل عن الإضمار ذماً لهم، ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى، حيث لم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدُّوها من الآيات وقالوا ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على الرسول ﷺ ﴿ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ مثل آيات موسى وعيسى عناداً ومكابرة، وإلا ففي أدنى آيةٍ أُنزلت عليه ﷺ غُنية وعبرة لأولي الألباب، والتعبير بالمضارع ﴿ويقول﴾ إشارة إلى أن ذلك القول ديدنُهم ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مرسل للإنذار كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يثبت نبوتك، من جنس المعجزات، لا بما يقترحون ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي نبيٌّ داعٍ إلى الحق، مرشد إليه، بآية تليق به وبزمانه، ثم عقب بما يدل على كمال علمه وقدرته، وشمول قضائه على الحِكَم والمصالح، تنبيهاً على أن تخصيص كل قوم بنبي وكل

نبي بجنس معين من الآيات، إنما هو للحِكَم الداعية إلى ذلك، فقال سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ أي ما تحمله كل أنثى في بطنها على أيِّ حالٍ هو، من الأحوال الحاضرة والمترقبة ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ ﴾ أي وما تُنقصه وما تزداده في الجثة، كالخديج والتام، وفي المدة كالمولود في أقل مدة الحمل وفي أكثرها، وفيما بينهما وفي الصفة من الذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، وغير ذلك ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ﴾ من الأشياء ﴿ عِندَهُۥ ﴾ سبحانه ﴿ بِمِقۡدَارٍ ﴾ بقدرٍ لا يجاوزه، ولا ينقص عنه كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فإنه تعالى خصَّ كل حادث بوقت، وحال معينين، وهيأ له أسباباً تقتضي ذلكَ.

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ الغائب عن الحق ﴿ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ الحاضر له، عبَّر عنهما بها مبالغة، وقيل: أُريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود، وهذا كالدليل لما قبله من قوله تعالى: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىَ﴾ ﴿ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ﴿ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته بذاته، وسائر صفاته سبحانه، والمنزه عن نعوت المخلوقات.

﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ ﴾ أخفاه في نفسه ولم يتلفظ به ﴿ وَمَن جَهَرَ

بِهِۦ﴾ أظهره لغيره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ﴾ مبالغ في الاختفاء كأنه مختف ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ وطالب للزيادة ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ظاهر فيه، من سَرَبَ سُروباً من باب قعد ذهب في النهار، وقيل: إنه حقيقة في الظاهر.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١)﴾.

﴿لَهُۥ﴾ أي للإنسان لكل ممن أسرَّ أو جهر ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه، وكلاءته، يُقال: عقبه، إذا جاء على عقبه، كأن بعضهم يعقب بعضاً، بعضهم بالليل، وبعضهم بالنهار، يتعاقبون في حفظه، والتاء في المعقبة للمبالغة كالعلامة، لأن الملائكة غير مؤنثين، فمعنى معقبات جماعات كل جماعة منها معقبة ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي محيطة به من جوانبه، من أمام الإنسان ومن ورائه ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي يحفظونه من المضارّ والأخطار بأمره تعالى، ويراقبون أحواله، وقيل «مِنْ» هنا بمعنى «الباء» أي بأمر الله، وفي الصحيح «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر..»[1] الحديث، وذكروا أن مع العبد، غير الملائكة الكرام الكاتبين، ملائكة حفظة، واستشكل أمرُ الحفظ بأن المقدَّر لا بد أن يكون، فالحفظُ لأيِّ شيء؟ وأجيب بأن من القضاء والقدر ما هو معلَّق، فيكون الحفظ منه، يقال: إنه جلت عظمته جعل أولئك الحفظة أسباباً للحفظ، كما جعل الجفنَ للعين، سبباً لحفظها، والعلمُ بأن أفعاله تعالى لا تخلو عن الحِكَمِ والمصالح على الإجمال، مما يكفي المؤمن، ويقال نحو هذا في أمر الكرام الكاتبين، فهم موجودون بالنص، وقد جعلهم تعالى حفظةً، لأعمال العبد، ونحن نؤمن

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/٢٨ في مواقيتِ الصلاة، ومسلم رقم ٦٣٢ في المساجد.

بذلك، وإن لم نعلم ما قلمُهم؟ وما مدادُهم؟ وما قرطاسهم؟ وكيف كتابتُهم؟ وما حكمة ذلك؟ مع أن علمه تعالى كافٍ في الثواب والعقاب.

ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر إحاطة علمه بالعباد، وأن لهم معقبات، نبَّه على لزوم الطاعة ووبال المعصية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة، ومن الأعمال الصالحة والملكات التي فطر الناس عليها إلى أضدادها لا مجرد تركها، واستشكل ظاهر الآية بما قرر له الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة ومنه قوله سبحانه: ﴿واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾ وقوله ﷺ: «إن النَّاسَ إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده يوشك أن يعمهم الله سبحانه بعقاب»[1] والحق أن المراد أن ذلك عادة الله الجارية في الأكثر، لا أنه سبحانه لا يصيب قوماً إلا بتقدم ذنب منهم ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ فلا ردَّ له، والسوء يجمع كلَّ ما يسوء الإنسان من مرض، وفقر، وغيرهما من أنواع البلاء ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ سبحانه ﴿مِن وَالٍ﴾ ممن يلي أمرهم، فيدفع عنهم السوء، وفيه إيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث، واستعجال السيئة، واقتراح الآية، قد غيّروا ما بأنفسهم من الفطرة، فاستحقوا حلول غضب الله وعذابه.

> ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصاعقة ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث، وتقديم الخوف لما أن المخوف عليه النفس، والمطموع فيه الرزق المترقب، وعن الحسن أنه قال خوفاً لأهل البحر، وطمعاً لأهل البر

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٠٥٩ في أبواب تفسير القرآن، وابن ماجه في الفتن رقم ٤٠٠٥.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ الغمام المنسحب في الجو ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالماء، وهي جمع ثقيلة كامرأةٍ كريمة، ونسوةٍ كرام، وُصف بها السحابُ، لكونه اسم جنس في معنى الجمع.

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ أي يسبّح سامعوه من العباد الراجين للمطر، ملتبسين ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي يقولون سبحان الله وبحمده، وإسناده إلى الرعد لحمله لهم على ذلك، أو يسبح الرعد نفسه، على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على تنزيهه تعالى عن الشريك، ولما فيهما من الدلالة على صفات الكمال، وعن ابن عباس «الرّعدُ مَلَك من الملائكة موكَّلٌ بالسحاب»[1] والتجربة دالة على أن للتضرع والدعاء، في انعقاد السحاب، ونزول الغيث، أثراً عظيماً، وهو يأبى أن يكون ذلك للطبيعة، فليس كلُّ ذلك إلاّ بإحداث محدث، حكيم قادر، يخلق ما يشاء، وكان رسولُ الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق، قال: «اللهمَّ لا تقتلنا بغضبك، ولا تُهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»[2] ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وإجلاله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ جمع صاعقة والمراد بها هنا النار النازلة من السحاب مع صوت شديد ﴿فَيُصِيبُ﴾ سبحانه ﴿بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ إصابته بها، فيهلكه بذلك ﴿وَهُمْ﴾ أي الذين كفروا وكذّبوا الرسول ﷺ ﴿يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ حيث يكذّبون الصادق، فيما أخبر عنه، من كمال العلم والقدرة، والتفرد بالألوهية ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٥/ ٢٧٤ وقال: حديث حسن غريب، ورواه أحمد والنسائي في قصة طويلة عن اليهود، وانظر تمامه في الدر المنثور ٤/ ٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي وإسناده ضعيف، وانظر المنتقى المختار من الأذكار صفحة ٦٨ للإمام النووي.

﴿ٱلْمِحَالِ﴾ أي والحال أنه تعالى شديد القوة، والبطش والنكال، والمماكرة لأعدائه، من مَحَل بفلانٍ إذا كايده، وعرَّضه للهلاك، فهو مصدر كالقتال[1].

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَهُۥ﴾ أي لله تعالى ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي الدعاء والتضرع المجاب عند وقوعه، والمراد أن إجابة ذلك له تعالى دون غيره، ويؤيده ما بعده، وعن عليّ كرم الله وجهه ﴿دَعْوَةُ الحَقِّ﴾ التوحيدُ، وعن ابن عباس ما هو أعم من ذلك وقيل دعوةُ الحق: الدعاءُ عند الخوف، فإنه لا يُدعى إلا اللهُ سبحانه، وقيل المراد به العبادة، وحاصل المعنى: أن الذي يحق أن يُعبد هو الله تعالى دون غيره، فالوجه أن ذلك وعيد للكفرة، على مجادلتهم الرسول ﷺ بحلول نقمته بهم، وتهديدهم بإجابة دعائه ﷺ إن دعا عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله تعالى، لأن معناه متجاوزين له تعالى، وتجاوزهم إنما هو بعبادتها. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاءً، ولا يسمعون لهم نداء ﴿لَهُم﴾ أي للمشركين ﴿بِشَىْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة، إلا كاستجابة الماء، لمن بسط كفيه إليه من بعيد، يطلبه ويدعوه ﴿لِيَبْلُغَ﴾ أي الماء بنفسه من غير أن يأخذ بشيء من إناء وغيره ﴿فَاهُ وَمَا هُوَ﴾ أي الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي ببالغ فيه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه، وبسط يده إليه، شبّه حال المشركين في دعاء آلهتهم، بحال عطشان قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى

---

(١) أي أنه تعالى شديد المكر والكيد لأعدائه، يهلكهم من حيث لا يعلمون، فالمحالُ بمعنى المماحلة أي المكايدة.

يديه[1] ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ في ضياع وخسار وباطل، والمراد بهذا الدعاء دعاء آلهتهم لكشف الضر عنهم.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿يَسۡجُدُ﴾ يخضع وينقاد لا لشيء غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من الملائكة والثقلين ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ فإن خضوع الكل لعظمة الله عز وجل، لإحداث ما أراده فيهم، من أحكام التكوين والإعدام، شاؤوا أو أبوا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُون﴾ ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي تنقاد له تعالى ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩﴾ والمراد بهما الدوام، وتخصيص الوقتين، لأن الامتداد والتقلص أظهر فيهما، والغدوُّ جمع غَدَاة وهي الضحى، والآصالُ: جمعُ أصيل، وهو ما بين العصر والمغرب، وقيل: إن المراد حقيقة السجود، فإن الكفرة حالة الاضطرار يخصون السجود به تعالى، قال سبحانه ﴿فإذا رَكِبوُا فِي الفُلْكِ دَعَوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين﴾[2] ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاماً وعقولاً تسجد لله تعالى، كما خلق ذلك للجبال، حتى اشتغلت بالتسبيح، وظهر فيه آثار التجلي، واختار المحققون أن مساق الآية، إنما هو أن العالم كله خاضع لما أراد سبحانه منه، مقصور على مشيئته تعالى، ويدلُّ على هذا تشريك الظلال في السجود، وهي ليست أشخاصاً يُتصور منها السجود بالهيئة فهو تمثيلٌ للخضوع والإذعان.

---

(١) مثل في منتهى الإبداع والإعجاز، مثّل تعالى لحال هؤلاء المشركين، في عبادتهم للأصنام، ودعائهم لها، بحال إنسان اشتد به العطش، فهام على وجهه يبحث عن الماء، فلما رأى الماءَ أخذ يبسط كفيه إليه يدعوه ليذهب غُلّته، والماء جماد لا يحس ولا يشعر بعطشه، فكذلك حال هؤلاء المشركين مع الأصنام، ويا له من تمثيل بديع!!.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٥.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي منْ خالقهما ومتولي أمرهما؟ أي قل يا رسول الله لهؤلاء الكفار: من ربُّ هذه الأجرام العظيمة، العلوية والسفلية؟ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أجبْ عنهم بذلك، إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه البيِّنُ الذي لا يمكن المِرَاءُ فيه، ويجوز أن يكون ذلك تلقيناً للجواب ليبين لهم ما هم عليه من مخالفتهم لما علموه ﴿ قُلْ ﴾ إلزاماً لهم ﴿ أَفَٱتَّخَذْتُم ﴾ أي أعلمتم أن ربهما هو الله سبحانه فاتخذتم عقيبه ﴿ مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ عاجزين ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ﴾ وهي أعز عليهم منكم ﴿ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ يستجلبونه أو يدفعونه عنها، فضلاً عن القدرة على جلب النفع للغير، ودفع الضر عنه، وهذا دليل ثانٍ على ضلالهم، وفساد رأيهم في اتخاذهم الأولياء، رجاء أن ينفعوهم ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله تصويراً لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أي هل يستوي المشرك الضال الذي يشبه الأعمى، والمؤمن الموحّد الذي هو البصير؟ والمراد لا يستوي المؤمن والكافر كما لا يستوي الأعمى والبصير[1] ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾؟ الظلمات هي عبارة عن الكفر والضلال، والنورُ هو عبارة عن الإيمان

(١) هذا تمثيل لضلال المشركين في عبادة غير الله، والمراد بالأعمى الكافرُ، وبالبصير المؤمنُ، كما أن المراد بالظلمات الكفر والضلال، وبالنور الهدى والإيمان، والمعنى: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء، فالفارق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور الفارق بين النور والظلام، والله أعلم بمراده.

والتوحيد، وجمع الظلمات لتعدد أنواع الكفر ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ بل أجعلوا، الهمزة للإنكار ﴿ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴾ سبحانه ﴿ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي تشابه عليهم خلق الله وخلقهم، والمعنى: إنهم ما اتخذوا لله شركاء قادرين مثله جلَّ وعلا حتى يتشابه عليهم الخلق، فيقولوا هؤلاء الشركاء خلقوا كما خلق الله، فاستحقوا العبادة، ولكنهم اتخذوا شركاء، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً عما يقدر عليه الخالق، وليس لهم شبهة تصلح أن تكون منشأً لغلطهم، وإذا كان الأمر كذلك، كان فعلهم محضَ السَّفه والجهل ﴿ قُلِ ﴾ يا رسول الله تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إليه ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لا خالق سواه ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ ﴾ المتوحِّد بالألوهية ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الغالب على كل شيء، فكيف يُتوهم أن يكون له شريك؟ وهذا كالنتيجة لما قبله.

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾.

﴿ أَنزَلَ ﴾ الواحد القهار ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من جهتها ﴿ مَاءً ﴾ كثيراً وهو ماء المطر ﴿ فَسَالَتْ ﴾ بذلك ﴿ أَوْدِيَةٌ ﴾ أي أنهار، جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة، فاتُّسع فيه، واستُعمِل للماء الجاري، وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار، أو بمقدارها في الصغر والكبر ﴿ فَاحْتَمَلَ ﴾ أي حمل، وجاء «افتعل» بمعنى المجرَّد، كاقتدر وقدر، أي رفع وحمل ﴿ السَّيْلُ ﴾ الماء الجاري في تلك الأودية حمل معه بسبب السيل ﴿ زَبَدًا ﴾ أي غثاءً منتفخاً يشبه الرغوة، والزبد: هو الغثاء الذي يطرحه الوادي إذا تدفق ماؤه ﴿ رَّابِيًا ﴾ أي عالياً منتفخاً فوق الماء، يضمحل عمَّا قريب، فالحقُّ الثابت هو الماء، والزبد الزائل هو الباطل، وذلك شأن الزبد، وهنا

تمَّ المثل، ثم ابتدأ بمثل آخر فقال سبحانه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ لإذابته نحو الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب زينة فإن أكثر الزين من الذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ وهو ما يتمتع وينتفع به كالأواني، وآلات الحرب، والحرث، التي تستخرج من النحاس والحديد والرصاص، تذاب فيتخذ منها الأواني وآلات الحروب والحرث ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي ومنه ينشأ زَبَدٌ مثل زَبَد الماء، يعلو عليه إذا أُذيب وهو الخَبَثُ، يطفو ولكنه بعدُ خَبَث يذهب، ويبقى المعدن الصافي في نقاء، ذلك مثل الحق والباطل، فالباطل يطفو ويعلو ويبدو رابياً منتفخاً، لا يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا بقاء، والحق يظل هادئاً ساكناً، ولكنه الباقي في الأرض كالماء الذي فيه حياة، والمعدن الصافي الذي فيه النفع. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع، المشتمل على نكت رائعة ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي يضرب مَثَل الحق، ومَثَل الباطل، فمثَلُ الحق في ثباته واستقراره، كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض، فينبت به أنواع الخضار والثمار، ومَثَل الباطل في زواله واضمحلاله، كمثل الزبد والغثاء ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من كل منهما من السيل وما يوقدون عليه ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ مرمياً به، يقذف به السيل، فيتفرق ويتمزَّق ويذهب في أطراف الوديان ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ منهما كالماء الصافي، والفلز الخالص من الخبث ﴿فَيَمْكُثُ﴾ أي يبقى ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فينتفع منه الناس، أمَّا الماء فيسلك بعضه في عروق الأرض، إلى العيون والآبار، وأما الفلزات فيصاغ من بعضه أنواع الحلي، ويُتخذ من بعضه آلات وأدوات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التمثيل العجيب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ في كل باب، إظهاراً لكمال اللطف، والعناية في الإرشاد، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل، وتأكيد لقوله تعالى: ﴿كذلك يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ﴾.

وبعد ما بيَّن الله شأن حال كلٍّ منهما أكمل بيان، شرح مصير كل منهما مآلا، تكميلاً للدعوة، وترغيباً وترهيباً فقال سبحانه:

﴿ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٨ ﴾.

﴿ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ﴾ أي للمؤمنين الصادقين، الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة ودعاهم إلى الحق بفنون الدعوة التي من جملتها ضرب الأمثال ﴿ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة، قاله قتادة والجمهور، وقال مجاهد: لهم الحياةُ الحسنى، أي الطيبة التي لا يشوبها كَدرٌ أصلاً ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ ﴾ سبحانه، وعاندوا الحق الجلي ﴿ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ من أصناف الأموال ﴿ جَمِيعٗا ﴾ بحيث لم يشذ منه شاذ في أقطارها ﴿ وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ ﴾ أي لبذلوا فداءً لأنفسهم جميع ما في الأرض، ليتخلصوا به من العذاب، وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ أي يحاسبون بذنوبهم كلها، فلا تقبل حسناتهم، ولا تُغفر سيئاتهم ﴿ وَمَأۡوَىٰهُمۡ ﴾ أي مرجعهم ﴿ جَهَنَّمُۖ ﴾ نار جهنم يخلَّدون فيها ﴿ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ أي المستقر، والمخصوص بالذم محذوف أي بئست جهنم مهادهم وفراشهم.

﴿ ۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩ ﴾.

﴿ ۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ أي القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد وهو النور الوهاج، والإبريز الخالص في المنفعة والجدوى ﴿ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ الذي لا حق وراءه فيستجيب له، ويؤمن به، ويعمل بما فيه ﴿ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ ﴾؟ أي أعمى القلب، لا يشاهد أنوار الدين، ولا يدرك محاسنه، فيبقى حائراً في ظلمات الجهل، يتخبَّط في مهاوي الضلال؟ وأريد بلفظ العمى زيادة تقبيح حاله، فعبَّر عنه بالأعمى، فالعالم بالشيء كالبصير، والجاهل به كالأعمى، وليس أحدهما كالآخر، إذ الأعمىٰ إذا أخذ يمشي بغير قائد، إمّا يقع في

مهلكة، وإمّا يفسد ما كان على طريقه، أما البصير فيكون آمناً من الهلاك والإهلاك ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أي يتعظ بما ذُكر من الآيات ﴿ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي ذوو العقول الخالصة، المبرَّأة من معارضة الوهم.

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾.

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ أي بما عقدوه على أنفسهم، من الاعتراف بربوبيته تعالى، والعمل بشريعته المطهرة، ويدخل فيه الإتيان بجميع المأمورات، والانتهاء عن كل المنهيات ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ ما وثّقوه على أنفسهم وقبلوه من المواثيق، وفيه تأكيد للاستمرار من صيغة المستقبل.

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ الظاهر العموم في كل ما أمر الله تعالى به، في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ من صلة الرحم، وموالاة المؤمنين، والإيمان بجميع الأنبياء، من غير تفريق بين أحد منهم، ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس، من النصح، والإحسان إليهم، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، وإفشاء السلام، وعيادة مرضاهم ونحوها، حتى تدخل فيه حقوق الحيوانات ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ وعيده سبحانه، والظاهر أن المراد مطلقاً أي يخافون ربهم إجلالاً وتعظيماً، فلا ينتهكون محارمه ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، وفيه دلالة على فظاعته وشدته، وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام، للاهتمام.

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على كل ما تكرهه النفس، من الأفعال، ومن المصائب المالية والبدنية ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه خاصة، لا رياء، أو سمعة والإنسان يصبر إما ليقال ما أكمل صبره، وإما لئلا يعاب بالجزع، وإما لئلا تحصل شماتة الأعداء، فهذه الوجوه ليست لابتغاء وجه الله تعالى، وأما إذا صبر لعلمه بأنه قِسمة القَسّام، ورضي بذلك، يصدق عليه أنه صبر ابتغاء وجه ربه، كما أن العاشق يرضى بضرب المعشوق ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة، وداموا عليها، بإتمام أركانها، وشرائطها ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي بعضها الذي يجب عليهم إنفاقه، وهو الزكاة ﴿سِرًّا﴾ أي ينفقها في الخفاء خشية الرياء، فإن لم يُتَّهم بترك الزكاة، فالأولى أداؤه سراً، وإلاَّ فعلانية، أو ينفق سراً لمن تمنعه المروءةُ من أخذه ظاهراً ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمن لم يكن كما ذكر ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يجازون السيئة بالإحسان، أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها وفي الحديث الشريف «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة، وليس المراد بهم أناساً بأعيانهم ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي عاقبة الدنيا المحمودة وما ينبغي أن يكون مآل أهلها، وهي الجنة دار السرور، من غير خوف بدخول النار.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من عقبى الدار ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يقيمون فيها ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ جمع أبوي كل واحد منهم، فكأنه قيل: من آبائهم وأمهاتهم ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي زوجاتهم ونسائهم المؤمنات، ليأنسوا بلقاء الأهل والأولاد، ويتمَّ لهم السرور ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي أولادهم وأحفادهم، والمعنى: أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم، وإن لم يبلغ مبلغاً من فضلهم، تبعاً لهم، تعظيماً لشأنهم، وتتميماً لسرورهم، وفي التقييد بالصلاح قطعٌ للأطماع الفارغة، لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب، وإنما يلحق الله

الذرية والأولاد بالآباء، لأنه من أعظم موجبات سرورهم، أن يجتمعوا فيتذكروا أحوالهم في الدنيا، ثم يشكرون الله على الخلاص منها، والفوز بالجنة قال الله تعالى في أهل الجنة: ﴿ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾[1] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي من أبواب المنازل، يدخلون لإتحافهم بأنواع التحف قائلين:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ بشارة لهم بدوام السلامة ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي هذه الكرامة العظمى بسبب صبركم، وتخصيصُ الصبر بما ذُكر من الصلاة السابقة، لما أن له دخلاً في كل منها، ومزية زائدة من حيث ملاك الأمر في كل منها، وأن شيئاً منها لا يُعتدُّ به إلاّ أن يكون لابتغاء وجه الرب تعالى ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي فنعم عاقبة الدنيا: الجنةُ، وقد كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[2].

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أُريد بهم من يقابل الأولين، ويخالفهم في الاتصاف بنقائض صفاتهم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي من بعد ما أوثقوه من الاعتراف والقبول، قيل الآية نزلت في أهل الكتاب ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء الآمرين بالتوحيد، ومن حقوق الأرحام، وموالاة المؤمنين وغير ذلك، مما لا يراعون حقوقه، وإنما لم

---

(١) سورة يس، آية: ٢٧.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري عن محمد بن إبراهيم ٣/ ١٣٩.

يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحاً لدلالة النقض والقطع على ذلك ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالظلم وتهييج الفتن، وبالكفر والعصيان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿لَهُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾ الإبعاد من رحمة الله ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ أي يوسّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي يضيّقه، والمراد بالرزق الدنيوي، لا ما يعم الأخروي يقال: قَدَر اللهُ الرزق يقدِرُه من باب ضرب ضيَّقه على ما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة، من غير أن يكون لأحد مدخل في ذلك، فربما يبسط للكافر ابتلاءً واستدراجاً، وربما يضيّقه على المؤمن، زيادة على أجره فلا يُقال: كيف يكون الكافر مع ما عليه من الضلال في سعة من الرزق؟ فبيَّن سبحانه أن سعة رزقهم ليس تكريماً لهم، كما أن تضييق رزق بعض المؤمنين ليس للإهانة لهم، بل لحِكَمٍ إلَهية يعلمها سبحانه ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أهل مكة فرح أَشَر وبطر، لا فرح سرور بفضل الله تعالى ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بما بسط لهم من نعيمها ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بما بسط لهم فيها من النعم ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في جنب نعيم الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ إلا شيء تافه حقير يتمتع به، كعجالة الراكب وزاد الراعي، يعني شيء قليل النفع، وسريع الفساد، وذلك لا يوجب الفرح[1]. عن عبد الله بن مسعود قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثَّر في جنبه، فقلنا يا رسول الله: لو اتخذنا لك وطاءً ـ أي فراشاً ليناً ـ فقال:

(١) المتاعُ: كلُّ ما يتمتع به الإنسان ثم يضمحل ويفنى، والمراد أن نعيم الدنيا وشهواتها وملاذَّها شيء قليل ذاهب، ومتاع حقير بالنسبة لنعيم الآخرة.

«ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا، إلاَّ كراكب استظلَّ تحت شجرة، ثم رَاحَ وتركها»[1].

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي هلاَّ أنزل على محمد آية أي معجزة، كمعجزة العصا لموسى، وإحياء الموتى لعيسى؟ ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ إضلاله باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات، وهو كلامٌ جارٍ مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة، التي أوتيها ﷺ لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن آية، فإذا جحدوها ولم يعتدُّوا بها، كان ذلك موضعاً للتعجب، فما أعظم عنادهم، وما أشد كفرهم!! والله تعالى يخلق فيمن يشاء الضلال، لسوء استعداده، كمن كان على صفتكم في المكابرة والعناد، والغلو في الفساد، فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءته كل آية ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى جانبه العلي الكبير، هداية موصلة إليه ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي أقبل إلى الحق، ورجع عن العناد وأناب إليه سبحانه، والآية صريحة لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة في نسبة الخير والشر إليه عزَّ وجل.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بدل ممن أناب أي هم الذين آمنوا بالله، وصدَّقوا رسوله، وأيقنوا بالآخرة والحساب والجزاء ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم ﴾ أي تأنس وتسكن ﴿ بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي بكلامه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وصحَّحه رقم ٢٣٧٨.

ولا من خلقه، وإطلاق الذكر على ذلك شائع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وسبب اطمئنان قلبهم بذلك، علمهم أن لا آية أعظم منه، ولذلك لا يقترحون الآيات كغيرهم، والعدول إلى صيغة المضارع، لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده، بحسب تجدّد المنزل من الذكر ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي تأنس وتسكن قلوبهم بذكره، دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنيويات، وفيه إشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب معتبرة، حيث لم يطمئنوا بذكر الله، فإن قيل: قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والوَجَلُ ضد الاطمئنان!! قلنا: المراد ههنا حصول الطمأنينة لهم، لكونه حقاً وارداً من عند الله سبحانه، والوجلُ خوفُ الجلالة، والعظمة والهيبة، أي وجلت قلوبهم من هيبته عز شأنه، وذلك دليل الإيمان، فلا تعارض بين الآيات.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي أمّا المؤمنون الصادقون، الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي أحسنوا في الدنيا، فيقال لهم ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ عن ابن عباس معناه: فرحٌ، وقرّةُ عين لهم، وعن الضحاك: غبطةٌ لهم، وعن قتادة حسنى لهم، ويرجع ذلك إلى معنى العيش الطيب لهم ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ المرجع والمقرُّ وهي الجنة، وهذا وعدٌ من الله تعالى لهم ترغيباً لطاعته.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل إرسال الرسل قبلك ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ شبه إرساله ﷺ بإرسال من قبله، وإن لم يجر لهم ذكر، لدلالة قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ كثيرة قد أرسل إليهم رسل، فليس ببدع إرسالك إليها ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الكتاب الذي أوحيناه إليك ﴿وَهُمْ﴾ والحال أنهم ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي يكفرون بالرحمن رب العزة والجلال، الذي أحاطت بهم نعمته، ووسعت كل شيء رحمته، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن عليهم الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية، نزلت في مشركي أهل مكة، حين قيل لهم: اسجدوا للرحمٰن، قالوا وما الرحمن؟ وأوثر هذا الاسم الدال على المبالغة في الرحمة، للإشارة إلى أن الإرسال ناشيء منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله: إن الرحمٰن الذي أنكرتم معرفته ﴿هُوَ رَبِّى﴾ أي خالقي ومبلغي إلى مراتب الكمال ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري لا على أحد سواه ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي توبتي ورجوعي ومرجعكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ أي قرآناً ما، وكتاباً من الكتب السماوية ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي نُقلت من أماكنها وزعزعت من رواسيها، وهذا لبيان عظم شأن القرآن العظيم وتأثيره على النفوس ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي شققت وجعلت أنهاراً وعيوناً أو جعلت قطعاً متصدعة، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله﴾ ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي كلّم أحدٌ به الموتى، بأن أحياهم بقراءته، فتكلم معهم،

وجواب الشرط محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكونه غايةً في الهداية والتذكير، ونهاية في الإنذار والتخويف، وقال الزجاج: تقديره لما آمنوا، لغلوهم في المكابرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد، فلو أنَّ قرآناً فُعلت به هذه الأفاعيل العجيبة، لكان هذا القرآن المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين[1] ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ أي له جلَّ وعلا الأمر الذي عليه يدور فلك الأكوان، وجوداً وعدماً، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو إضراب عما تضمنته الشرطية من معنى النفي أي لو أن قرآناً جُعل به ما ذُكر، لكان ذلك هذا القرآن العظيم، ولكنْ لم يفعل سبحانه بل فعل ما عليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده، روي أن بعض المؤمنين قالوا يا رسول الله: أجب هؤلاء الكفار إلى ما اقترحوه من الآيات، فعسى أن يؤمنوا فقيل: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي أفلم يقنط المؤمنون، عن إيمان هؤلاء الكافرين، بعدما رأوا كثرة عنادهم، وبعدما شاهدوا الآيات؟[2] ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ أي ألم يعلموا أن الله لو شاء هدايتهم لهداهم، وأنه سبحانه لم يشأ ذلك ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي كفار مكة ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من الكفر وسوء الأعمال، ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي داهية تقرعهم وتقلعهم، بما يحلُّ بهم في كل وقت، من صنوف البلايا والمصائب، في نفوسهم وأولادهم، والقارعةُ: الشديدة من شدائد الدهر، من القرع وأصله ضرب شيء بشيء بقوة، والمراد بها هنا ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب، من القتل، والأسر، والنهب ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾ تلك

---

(١) الغرض تعظيم شأن القرآن، والرد على المشركين الذين كابروا في كون القرآن آية، واقترحوا آية غيرها، فنبههم تعالى أنه آية الآيات، ومعجزة المعجزات.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿أفلم ييأس﴾ أفلم يعلم ويتبيّن، وهي لغة هوازن وهذا التفسير منقول عن بعض السلف، ولكن لا ضرورة لإخراج الكلمة عن معناها الأصلي، ما دام يمكن أن يفهمها على الوجه المتبادر، فمعنى أفلم ييأس أي أفلم يقنط المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة؟ فهو أظهر وأشهر.

القارعة ﴿قَرِيبًا﴾ مكاناً قريباً ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ فيفزعون منها، ويتطاير شررها عليهم، وشبَّه القارعة بالعدو المتوجه إليهم فأسند إليها الإصابة تارة، والحلول أخرى ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ بموتهم أو هلاكهم أو بمجيء القيامة، أو فتح مكة، فإن كلاً منها وعد محتوم، وفيه دلالة على ما يصيبهم عند ذلك من العذاب، ثم حقق ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ الميعاد بمعنى الوعد، لامتناع الكذب في كلامه تعالى، أي لا يخلف وعده بنصرة أنبيائه.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ كثيرة خلت ﴿مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمستهزئين، والإملاءُ: أن يترك الشيء في دَعَةٍ وأمن، كما يُملى للبهيمة في المرعى، والمعنى: إن ذلك ليس مختصاً بك، بل هو أمر مطّرد، قد فُعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك، فأمهلت الذين كفروا ما فعلوه بهم مدة من الزمن ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي ثم أخذتهم بالعذاب فكيف عقابي لهم؟ أي سأنتقم من هؤلاء أيضاً، كما انتقمت من أولئك المتقدمين.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ رقيب عليها ومهيمن ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، فيثيبها إن أحسنت، ويعاقبها إن أساءت، كمن ليس كذلك، بل هو عاجز عن نفسه وهي الأصنام، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُق

كَمَنْ لاَ يخْلُقُ﴾؟ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي أفمن هو بهذه الصفة لم يوحّدوه، وجعلوا له شركاء لا شريكاً واحداً ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تبكيتٌ إِثْرَ تبكيت لهم، أي سمُّوهم من هم؟ وما هي أسماؤهم؟ وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة، ويستأهلون الشركة؟ وإنما يقال ذلك في الأمر المستحقر، يعني أنه أخسُّ من أن يُسمَّى ويُذكر ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ أي بل أتخبرونه تعالى ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي شركاء مستحقين للعبادة، لا يعلمهم سبحانه وتعالى، والمراد نفيها بنفي لازمها على طريق الكناية، لأنه سبحانه إذا كان لا يعلمها وهو الذي لا يَعْزُبُ عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فهي لا حقيقة لها أصلاً، وتخصيص الأرض بالذكر، لأن المشركين إنما زعموا أنه سبحانه له شركاء فيها ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي بل أتسمونهم شركاء، بظاهر من القول، من غير أن يكون له حقيقة، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب، ينادي على نفسه بالإعجاز، فتبارك الله رب العالمين!! ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إضراب عن الاحتجاج عليهم، كأنه قيل: دع ما ذكر من الدليل، فإنه لا فائدة فيه، لأنه زُيِّن لهم كفرهم و﴿مَكْرُهُمْ﴾ كيدهم للإسلام بشركهم وتمويههم الاباطيل ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الحق بختم الله تعالى على قلوبهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يخلق فيه الضلال لسوء اختياره ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يوفقه للهدى ويوصله إلى ما فيه نجاته.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾ شاق ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل، والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب، فإنها إنما تصيبهم عقوبة من الله على كفرهم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ من ذلك بالشدة والمدة ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه سبحانه ﴿مِن وَاقٍ﴾ من حافظ يحفظهم من ذلك.

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي صفاتها العجيبة في الغرابة كالمثل ﴿ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار الجنة ﴿ أُكُلُهَا ﴾ ثمرها ﴿ دَآئِمٌ ﴾ لا ينقطع أبداً ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أيضاً دائم لا ينسخ كما تنسخ ظلال الدنيا بالشمس ﴿ تِلْكَ ﴾ الجنة الموصوفة بما ذكر ﴿ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ الكفر والمعاصي أي مآلهم ومنتهى أمرهم ﴿ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ لا غير، وفيه ما لا يخفى من إطماع المتقين، وإقناط الكافرين.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هم المسلمون من أهل الكتاب، كعبد الله ابن سلام وأصحابه، ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً، أو عامتهم، فإنهم يفرحون بما يوافق كتبهم، وعن الحسن وقتادة: المراد بالكتاب «القرآن» وأهل القرآن ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ إذ هو الموعود في التوراة والإنجيل ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ أي ومن أحزاب أهل الكتاب وهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن الأشرف، والسيد، والعاقب وأتباعهم، والأحزاب جمع حزب: الطائفةُ المتحزبةُ، أي المجتمعةُ لأمرٍ ما كالحرب ونحوه ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ أي ينكر بعض القرآن عناداً، مع يقينهم بصدقه لأنه موافق لما عندهم ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله إلزاماً لهم، ورداً لإنكارهم، صادعاً بالحق ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ﴾ أي قل لهم: إنما أمرت فيما أُنزل إليَّ بعبادة الله وتوحيده، ولا سبيل لكم إلى إنكاره، لإطباق جميع الأنبياء والكتب الإلَهية على ذلك كقوله تعالى: ﴿يا أهل

الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾[1] فما لكم تشركون به سبحانه عزيراً والمسيح؟ ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله تعالى، وإلى ما أمرت به من التوحيد ﴿أَدْعُواْ﴾ الناس، لا إلى غيره، ولا إلى شيء آخر ﴿وَإِلَيْهِ﴾ إلى الله تعالى وحده ﴿مَئَابِ﴾ أي مرجعي للجزاء، وقوله: ﴿أمرت أن أعبد الله﴾ يدل على أن العبادة غاية التعظيم وقوله: ﴿ولا أشرك به﴾ يدل على نفي الإشراك، وقوله: ﴿إليه أدعو﴾ إشارة إلى نبوته ﷺ وقوله: ﴿وإليه مآب﴾ إشارة إلى الحشر والنشر.

ثم شرع في رد إنكارهم لفروع الشرائع، ببيان الحكمة في ذلك فقال سبحانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع حسبما تقتضيه الحكمة ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي حاكماً يحكم في القضايا والواقعات بالحق، والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم، لتوضيح وجوب مراعاته ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجماً بلسان العرب، إذْ بذلك يسهل فَهمُه، وإدراكُ إعجازه بالنسبة للعرب ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم، والصلاة إلى قبلتهم، وترك الدعوة إلى الإسلام ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ العظيم الشأن، الفائض عليك من ذلك الحكم العربي ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من جنابه العزيز، والالتفاتُ وإيراد الاسم الجليل، لتربية المهابة في النفس ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك، وينصرك على من يبغيك الغوائل ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من مصارع السوء، وأمثالُ هاتيك القوارع والزواجر، إنما هي لقطع أطماع

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٤.

الكفرة، وتهييج المؤمنين على الثبات على الدين، لا للنبي ﷺ فإنه بمكان لا يحتاج إلى باعث أو مهيّج، ولذا قيل: الخطابُ لغيره.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا ﴾ كثيرة ﴿ مِّن قَبْلِكَ ﴾ بشراً مثلك ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ نساء وأولاداً، كما جعلناها لك، روي أن اليهود عيّرت رسول الله ﷺ، وقالوا لا نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء، فنزلت رداً عليهم، حيث تضمنت أن التزوج لا ينافي النبوة، وأن الجمع قد وقع في رسل كثيرين، وفي تكثير نسائه ﷺ فوائد جمة، ولو لم يكن فيه سوى الوقوف على استواء سره وعلنه لكفى، لأن النساء من شأنهن أن لا يحفظن سراً كيف ما كان، وروي أنهم طعنوا في نبوته ﷺ بعدم الإتيان بما يقترحونه من الآيات فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي ما صح وما استقام ولم يكن في وسع رسول من الرسل، الذين من قبلك أن يأتي بآية مما اقترح عليه إلا بتيسير الله عليه، ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ ﴾ أي لكل مدة ووقت من الأوقات ﴿ كِتَابٌ ﴾ حكم معين يكتب على العباد، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم، في المبدأ والمعاد، ومن قضية ذلك أن تختلف باختلاف أحوال الأمم، كاختلاف العلاج حسب اختلاف المرضى.

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أي ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام، لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ بدله ما فيه المصلحة، أو يبقيه على حاله غير منسوخ، أو يمحو سيئات التائب، ويثبت مكانه الحسنة،

قال الله تعالى: ﴿فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ وعن ابن عباس ﴿يَمحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثبِتُ﴾ من أمور العباد، إلا السعادة، والشقاوة، والآجال، فإنها لا محو فيها[1] وقيل: هو عام في الرزق، والأجل، والسعادة، والشقاوة، ونُسب إلى جماعة من الصحابة والتابعين، كانوا يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداء، وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت ويقول: «اللهمَّ إن كنت كتبتَ عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحه، واجعله سعادة ومغفرة، فإنك تمحو ما تشاءُ وتُثبتُ وعندك أم الكتاب»[2] وقيل: ما من شيء إلاَّ ويمكن تبديله حتى القضاء الأزلي، واستدل لذلك بأمور منها أنه قد صحَّ من دعائه ﷺ في القنوت «وقني شرَّ ما قضيت» وفيه طلب الحفظ من شر القضاء الأزلي، ولو لم يمكن تغييره، ما صحَّ طلبُ الحفظ منه، ومنها ما صحَّ في حديث التراويح قال ﷺ: «خشيت أن تفرض عليكم» فإنْ سَبَق القضاء بأنها ستفرض، لا معنى لهذه الخشية فتفرض، وإن سبق القضاء أن لا تفرض فمحالٌ أن تُفرض[3] ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، إذ ما من كائن إلاَّ وهو مكتوب فيه كما قال الله تعالى: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[4] وقال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي

---

(١) رواه عنه ابن مردويه، وذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٥٣٨.

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب، وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٣٧.

(٣) قال ابن عطية: والذي يتلخص من الآية، أن الأشياء التي قدَّرها الله تعالى في الأزل، لا يصح فيها محوٌ ولا تبديل، وهي التي كُتبت في أم الكتاب ـ يعني اللوح المحفوظ ـ وسبق بها القضاء، وأما الأشياء التي أخبر الله أنه يُبدّل فيها وينقل، كمغفرة الذنوب بعد تقررها، وكنسخ آية بعد تلاوتها، ففيها يقع المحو والتثبيت، فيما يقيّده الحفظة ونحو ذلك، وأما إذا رُدَّ الأمر إلى القضاء والقدر، فقد محا الله ما محا، وأثبت ما أثبت. ا هـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٨/ ١٨٢.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

كِتَابٍ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وكلَّ شيءٍ أحْصَيْنَاهُ في إمَامٍ مُبِينٍ﴾[2] وجمهور العلماء على أن هذه الآيات كلها في معنى واحد، روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غلبت غضبي»[3] وروى البخاري عن عمران بن حصين مرفوعاً: «وكتب في الذكر كل شيء» وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عَمرو بن العاص مرفوعاً «كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[4] وروى أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت مرفوعاً «أول ما خلق الله القلم ثم قال: اكتبْ فجرى بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[5] ومذهب السلف أن نؤمن بالقلم الإلهي، واللوح المحفوظ، وما كتب القلم في اللوح من مقادر الخلق، ونحو ما ورد، من غير أن نحكم بآرائنا في صفة شيء، وتفسير أم الكتاب بعلم الله تعالى، ممَّا رواه عبد الرزاق وابن جرير عن كعب.

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ المراد بعض الذي وعدناهم من إنزال العذاب عليهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ لا غير، أي فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة، لا تحقيق ما بلغته من الوعيد ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي علينا حسابهم وجزاؤهم، فلا تهتمَّ بما وراء ذلك، فنحن نكفيكه، ونتمُّ ما وعدناك من الظفر، ولا يُضْجِرك تأخره، فإن ذلك لما

---

(١) سورة طه، آية: ٥٢.

(٢) سورة يس، آية: ١٢.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ١٣/ ٤٠٤ ومسلم رقم ٢٧٥١ في التوبة.

(٤) أخرجه مسلم في القَدَر رقم ٢٦٥٣ والترمذي رقم ٢١٥٧ في القَدَر أيضاً.

(٥) أخرجه الترمذي في القَدَر رقم ٢١٥٦ وأحمد في المسند ٥/ ٣١٧.

نعلم من المصالح الخفية، ثم إنه سبحانه طيّب نفسه ﷺ بطلوع تباشير الظفر، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ استفهام إنكاري، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي أأنكروا نزول ما وعدناهم ولم يروا ﴿ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ ﴾ أرض الكفرة ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيئاً فشيئاً، ونلحقها بدار الإسلام، ونذهب منها أهلها بالقتل، والأسر، والإجلاء، فانتقاصُ أرضهم وقواهم وازدياد قوة المسلمين، من أقوى العلامة على إنجاز الوعد، نظيره قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرَافِهَا، أَفَهُمُ الغَالِبُونَ﴾[1] ؟ وأخرج الحاكم عن ابن عباس وصححه أن انتقاص الأرض موتُ أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ ﴾ ما يشاء كما يشاء، وقد حكم للإسلام بالعزَّة والإقبال، وعلى الكفر بالذلة والإدبار، حسبما يشاهده ذوو الأبصار ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ أي لا رادَّ له، والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ فمما قيل يحاسبهم ويجازيهم بأفانين العذاب في الآخرة، وعن ابن عباس معناه سريع الانتقام.

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ﴾ الكفار ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ خلوا ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل كفار مكة بأنبيائهم، وبالمؤمنين منهم، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ بأنه لا عبرة بمكرهم، ولا تأثير، ولم يصرح سبحانه لدلالة القصر في قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٤.

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ﴾ أي جنس المكر ﴿جَمِيعٗاۖ﴾ أي لا وجود لمكرهم أصلاً، إذ هو عبارة عن إيصال المكروه إلى الغير، وحيث كان جميع ما يأتون بعلمه وقدرته سبحانه، وأعمالهم مجرد الكسب حسبما بينه سبحانه بقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ ومن قضية عصمة أوليائه، وعقاب الماكرين بهم، ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة إلى مكر الله بهم عين ولا تأثير، على معنى أن ذلك ليس مكراً بالأنبياء، بل هو بعينه مكرٌ من الله عزَّ وجلَّ بهم، وهم لا يشعرون، حيث لا يحيق المكر السيِّئ إلاَّ بأهله ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ﴾ المراد الجنسُ أي جميع الكفار، الذين كذبوا برسالة محمد ﷺ حين تُوفَّى كلُّ نفس جزاء ما كسبته ﴿لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة الحميدة من الحزبين، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ يقول كفار مكة لرسول الله ﷺ لست يا محمد مرسلاً من عند الله، وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ فإنه تعالى قد أظهر على رسالتي من الحجج القاطعة، والبينات الساطعة، ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي علم القرآن، وما عليه من النظم المعجز، وإخباره عن الغيوب، وقيل: المراد بالكتاب التوراةُ والإنجيلُ، فالمراد بمن عنده علمها الذين أسلموا من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه، أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الرعد»

* * *



مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾.

﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ أي السورة المسماة بـ: ﴿الٓر﴾ كتاب عظيم ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ وفي إسناد الإنزال إلى ضمير العظمة، ومخاطبته ﷺ مع إسناد الإخراج إليه في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لا يخفى من التفخيم والتعظيم، والمراد من الناس جميعهم، أي أنزلناه إليك لتخرجهم كافة من عقائد الكفر والضلال، إلى الحق المؤسس على التوحيد، الذي هو نور بحت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقه وتسهيله، وفيه استعارة تمثيلية، بتصوير الهدى بالنور، والضلال بالظلمة، والمنغمس في ظلمة الكفر والضلال لا يتسهل له الخروج إلى نور الإيمان، إلا بتفضل الله تعالى بإرسال الرسل الكرام ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ تخصيص الوصفين بالذكر، للترغيب في سلوكه، ببيان ما فيه من الأمن، والعاقبة الحميدة، وللتنبيه على أنه لا يذلُّ سالكه، ولا يخيب سائله ﴿الحميد﴾ بحمده لنفسه أولاً، وبحمد عباده له أبداً.

﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهِ ﴾ عطف بيان للعزيز لاختصاصه بالمعبود الحق، لأنه أجري مجرى أسماء الأعلام لغلبته، ثم لا يخفى عليك أنه عند الأئمة المحققين عَلَمٌ لا كالعلم ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ ﴾ خلقاً وملكاً ﴿ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ ما وجد فيهما، ففيه بيان فخامة الصراط، وإظهاره لتحتم سلوكه على الناس قاطبة ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب، ولم يخرج من الظلمات إلى النور ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ معدٌّ لهم في الآخرة.

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ يختارونها عليها فالسين للطلب، والمحبة مجاز عن الاختيار، وقد جمع الله سبحانه هذين الوصفين، ليبين بذلك أن المحبة للدنيا وحده لا يكون مذموماً، إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، فهذا المذموم ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يصرفون الناس عن دين الله تعالى، والإيمان به ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ أي يبغون لها فحذف الجار أي يطلبون لها ﴿ عِوَجًا ﴾ أي زيفاً واعوجاجاً، أي يقولون لمن يريدون صده وإضلاله عن السبيل: هي سبيل زائفة وغير مستقيمة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق، والبعد وإن كان من أحوال الضال، إلا أنه قد وُصف فعله مجازاً للمبالغة، كجدَّ جدُّه، ثم قوله تعالى: ﴿أولئك في ضلال﴾ دون أن يقول أولئك الضالون ضلالاً، للدلالة على تمكنهم فيه، تمكن المظروف في الظرف، وتصوير اشتمال الضلال عليه من كل جانب.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا ﴾ في الأمم الخالية من قبلك ﴿ مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ أي متكلماً بلغة قومه الذي هو منهم، أو بعث فيهم ﴿ لِيُبَيِّنَ ﴾ ذلك الرسول ﴿ لَهُمْ ﴾ لأولئك القوم ما أمروا به، فيتلقَّوه عنه بيسر وسرعة، ويعملوا بموجبه من غير حاجة إلى الترجمة ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يخلق فيه الضلال، ويخذله فلا يلطف به، لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه ﴿ وَيَهْدِى ﴾ أي يخلق الهداية، أو يمنح الألطاف ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ هدايته لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق، يعني أن الرسول ليس عليه إلا التبليغ والتبيين، والله الهادي والمضل، يفعل ما يشاء والالتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل، لتفخيم شأنهما ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب على مشيئته ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا لحكمة.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ ﴾ تسلية وتصبير للرسول ﷺ على أذى قومه، بذكر قصص بعض الرسل ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ وهي المعجزات التي أظهرها الله على يديه، وهي كما قال مجاهد وعطاء: الآياتُ التسع ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ أي بني إسرائيل، والمعنى: أرسلناه وقلنا له: أخرجْ قومك ﴿ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ من الكفر والجهالة، التي أدتهم إلى أن يقولوا: «يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة» ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائر ما أمروا به ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ أي بنعمائه وبلائه، كما روي عن ابن عباس واختاره الطبري، وعن أبي بن كعب أنه فسر الأيام في الآية

بنعم الله وآلائه، والالتفات بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل، للإيذان بفخامة شأنها، أي عظهم بالترغيب والترهيب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في التذكير بها ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة تدل على وحدانيته، وقدرته، وعلمه، وحكمته تعالى ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلاء ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، فإنه إذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء، وأفيض عليهم من النعماء، اعتبر وتنبّه لما يجب عليه من الصبر والشكر، وقيل المراد لكل مؤمن، وإنما عبَّر بذلك عنهم بذلك، تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان المؤمن، الدال على ما في باطنه، وتخصيص الآية بالصبّار الشكور، لأنه المنتفع بها، وتقديم الصبر لما أن الصبر مفتاح الفَرَج، المقتضي للشكر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا نعمته وقت إنجائه آباءكم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ المراد بالعذاب ههنا غير المراد في سورة البقرة والأعراف، لأنه مفسر بالتذبيح والقتل هناك ومعطوف عليه التذبيح ههنا، وهو استعبادهم، واستعمالهم بالأعمال الشاقة ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ من حيث إنه إقدار الله تعالى إياهم، وإمهالهم فيه ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ابتلاء منه، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء، والمراد بالبلاء النعمة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من جملة مقال موسى أي اذكروا نعمة الله، واذكروا إذ تأذّن ربكم وهو نعمة من الله عليهم، لما فيه من الترغيب

والترهيب، الباعثين على خير الدنيا والآخرة ﴿تأذّن﴾ أي آذن إيذاناً بليغاً، لا تبقى معه شبهة، لما في صيغة التفعل من معنى التكلف أي أعلم إعلاماً بليغاً ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما خوّلتكم من نعمة الإنجاء، وإهلاك العدو، وغير ذلك من النعم وقابلتم بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلى نعمة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وعصيتموني ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فأعذبكم على الكفر عذاباً شديداً، ومن عادة أكرم الأكرمين، أن يصرّح بالوعد، ويُعرِّض بالوعيد، فلذا لم يقل لأعذبنكم كما قال: ﴿لأزيدنكم﴾ وعذابُ الكفر أما في الدنيا فسلب النعمة، وأما في العقبى فتوالي النقم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لعله عليه السلام قاله، عندما عاين منهم دلائل العناد، وتيقن أنه لا ينفعهم التذكير ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾ نعمه تعالى ﴿أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم وشكر غيركم ﴿حَمِيدٌ﴾ مستوجب للحمد بذاته لكثرة أياديه، وهو محمود تحمده الملائكة، بل كل ذرات العالم، كالتعليل لما ذُكر، أي إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم، حيث حرمتم أنفسكم مزيد الإنعام، وعرضتموها للعذاب الشديد، فاللهُ لا تنفعه طاعةٌ، ولا تضرُّه معصية.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ شروع في

الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية، أي ألم يسمعوا ما جرى عليهم، ليتدبروا ما أصاب كل واحد منهم، فيقلعوا عما لهم عليه من الشرك، وينيبوا إلى الله عز وجل؟ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ﴾ أي من بعد المذكورين ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ أي إنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسّابون، لأنهم يدّعون علمها، وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحات، فبيَّن كلُّ رسول منهم لأمته طريق الحقّ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدر عنها[1] ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي على زعمكم، وهي البينات التي أظهروها حجة على صحة رسالتهم، وحاصله أنهم أشاروا إلى جوابهم هذا، كأنهم قالوا هذا جوابنا لكم، وليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق، والأيدي والرد مجاز عن الإشارة، أو وضعوا أيديهم على أفواههم، مشيرين بذلك للرسل أن يكفُّوا ويسكتوا ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾ عظيم ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد ﴿مُرِيبٖ﴾ موقع في الريبة، وهو قلق النفس وعدم الاطمئنان، بادروا أولاً إلى الكفر، وهو التكذيب المحض، ثم أخبروا أنهم في شك وهو التردد في دعوة الرسل.

﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾.

---

(١) المراد أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مبالغةً في السخرية والتكذيب، وتوضيح هذا أنهم لمَّا سمعوا كلام الرسل، عجبوا من ذلك وضحكوا على سبيل السخرية، فعند ذلك وضعوا أيديهم على أفواههم، كما يفعل ذلك من غَلَبه الضحكُ، فوضع يده على فمه.

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ ﴾ منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقى ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾؟ أي أنتم في شك في شأنه سبحانه، ووجوده، ووحدانيته، وهو أظهر من كل ظاهر؟ أي ليس في الله شك، وحيث كان مقصدهم الدعوة إلى الإيمان، وكان إظهار البينات وسيلةً إلى ذلك، لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ واقتصروا على ما هو الغاية القصوى، وهو الشكُّ في وجوده تعالى، ثم عقبوا ذلك بالشواهد الدالة على الوحدانية فقالوا: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وما فيهما، على نظام أنيق شاهد على وجوده ووحدانيته، ثم نبهوا على عظم كرمه ورحمته فقالوا: ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى الإيمان ببعثه إيانا، ولا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم ﴿مما تدعوننا إليه﴾ ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم ﴾ أي يدعوكم لأجل المغفرة ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعضها، وهو ما عدا المظالم، وحقوق العباد، فإن الإسلام يجبُّه دون مظالم العباد، ولم تجيء مع «مِنْ» إلا في خطاب الكافرين، وقال تعالى في خطاب المؤمنين ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وذلك للتفريق بين الخطابين فالمؤمنون تغفر لهم جميع ذنوبهم تفضُّلاً وكرماً ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى وقت سماه الله تعالى، فلا يعاجلكم بعذاب الاستئصال ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ ﴾ أي ما أنتم ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ من غير فضل يؤهلكم لما تدَّعونه من الرسالة ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ بما تتصدون له من الدعوة والإرشاد ﴿ أَن تَصُدُّونَا ﴾ أي أن تصرفونا بتخصيص العبادة لله تعالى ﴿ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ عما استمر عليه آباؤنا من غير شيء يوجبه ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ يدلُّ على فضلكم، وعلى صحة ادعائكم النبوة؟ كأنهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البينات، واقترحوا عليهم آية أخرى، تعنُّتاً ولَجَاجاً.

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ مجاراة معهم في أول مقالاتهم ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ كما تقولون ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ ﴾ أي يتفضّل بالنبوة ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى، يعطيها من يشاء من عباده، بمحض الفضل، والبشرية غير مانعة لمشيئته تعالى، ولا يخفى ما في العدول عن قولهم: «ولكنَّ الله منَّ علينا» إلى ما في النظم الجليل، من التواضع منهم عليهم السلام ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ ﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ ﴾ أي بحجة من الحجج الواضحة، فضلاً عن السلطان المبين، الذي اقترحتموه ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فإنه أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى، إن شاء كان، وإلاَّ فلا ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ وحده دون غيره ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أمر منهم للمؤمنين كافة، وقصدوا به أنفسهم، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله، في الصبر على معاندتكم، ومما يدلُّ على أنهم قصدوا أنفسهم قولُهُم:

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾؟ أيْ أيُّ عذرٍ لنا أن لا نتوكل على الله؟ ﴿ وَقَدْ هَدَىٰنَا ﴾ أي والحالُ أنه قد فعل بنا ما يوجبه حيث هدانا ﴿ سُبُلَنَا ﴾ أي أرشد كلاً منَّا سبيله ومنهاجه، الذي شُرع له، وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب الاضطراب، قالوا مظهرين لكمال العزيمة ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ أي ولنصبرن على أذاكم لنا بصنوف الأذى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ خاصة ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أي فليثبت المؤمنون المتوكلون على الله، فمن توكل على الله كفاه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ ﴾ أي قال الكفار للرسل الأطهار، متوعدين ومهدّدين: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ حلفوا على أن يكون أحد الأمرين: إما إخراجهم من الأوطان، أو عودهم في ملتهم، ولم يقنعوا بعصيانهم الرسل، والعود باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل، أي لترجعن أنتم وأتباعكم إلى ديننا، والأنبياء لم يكونوا على دينهم قط، فإنهم نشأوا على التوحيد، وفي أول الأمر ما أظهروا المخالفة، فالقوم ظنوا أنهم كانوا على دينهم، فلذا قالوا أو لتعودُنَّ ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى الرسل ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ مالك أمرهم عند تناهي عتوٍّ المشركين ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ على إضمار القول، أي قائلاً لنهلكن المشركين المتناهين في الظلم والطغيان.

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي أراضيهم وديارهم ﴿ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد إهلاكهم، جعل الله عزَّ وجلَّ عقوبتهم لقولهم بإخراج الرسل، إخراجَهم من الدنيا، وتوريث أرضهم وديارهم للمؤمنين ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين، وإسكان المؤمنين ديارهم، أي ذلك أمرٌ محقَّق ثابت ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ وهو الموقف الذي يقف فيه العباد، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي وعيدي بالعذاب، وفي الآية دلالة على أن من توكل على ربه في دفع عدوه كفاه الله أمر عدوه.

﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ ﴾ أي سألوا الله النصر والفتح على أعدائهم، والضمير للرسل عليهم السلام، أي استنصر الرسل وطلبوا من الله أن ينصر المحقَّ، ويهلك المضل ﴿ وَخَابَ ﴾ أي خسر وهلك ﴿ كُلُّ جَبَّارٍ ﴾ عات متكبر

عن عبادة الله سبحانه وطاعته ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق، مباهٍ بما عنده، ففي الكلام إيجاز الحذف، أي استفتحوا ففتح لهم، وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم المعاندون، وإنما ذكر كل جبار عنيد موقع ضميرهم، ذماً لهم، وتسجيلاً عليهم.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ من بين يديه، فإنه مرصد لها، واقف على شفيرها في الدنيا، مبعوثٌ إليها في الآخرة ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ عطف على مقدر كأنه قيل: يلقى فيها ويسقى ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿صَدِيدٍ﴾ هو قيح أو دم مختلط، يسيل من أجساد أهل النار، عطف بيان لما أبهم أولاً، ثم بُيِّن تهويلاً لأمره، وتخصيصُه بالذكر من عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه، وأفظعه، وأشنعه.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يتكلف جرعه أي يشربه جرعة جرعة، لغلبة العطش، واستيلاء الحرارة عليه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه؟ بل يغص به فيطول عذابه، تارة بالحرارة والعطش، وتارة بشربه على تلك الحال ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أي أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي فتحيط به من جميع الجهات الستّ، أو من كل مكان من جسده، حتى من أصول شعره، وإبهام رجله، وإطلاق المكان على الأعضاء مجاز ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي والحال أنه ليس بميت حقيقة فيستريح ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ومن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يستقبل في كل وقت، عذاباً أشدَّ وأشقَّ مما هو عليه، ففيه دفع ما يتوهم من الخفة، بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا، وقيل: هو الخلود الأبديُّ في النار.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) ﴾.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ ﴾ صفتهم وحالتهم العجيبة الشأن التي هي كالمثل في الغرابة ﴿ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ أعمالهم التي عملوها في وجوه البر، كصلة الأرحام، وعتق الرقاب، وقرى الأضياف، وغير ذلك ﴿ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ فنسفته وطيّرته ﴿ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ ﴾ أي ريحه عاصف أي شديدٌ قويٌّ، وصف به زمانه ـ اليوم ـ للمبالغة، كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم، شبَّه به أعمالهم في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً[1] ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ ﴾ يوم القيامة ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ من تلك الأعمال ﴿ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ﴾ لحبوطه، فلا يرون له أثراً من الثواب ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ما دل عليه التمثيل من ضلالهم مع حسبانهم أنهم على شيء ﴿ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ عن طريق الحق، والصواب، فإنه الغاية في البعد عن طريق الهدى والرشاد.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته والرؤية قلبية ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي ألم تعلم أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما فيهما ﴿ بِٱلْحَقِّۚ ﴾ أي ملتبسة بالحكمة الجليلة، والوجه

---

(١) مثَّل تعالى لأعمال الكفار، التي عملوها في الدنيا يبتغون بها الأجر، من صدقة وصلة رحم وغيرها، بمثل رمادٍ وهو التراب الناعم، عصفت به الريح فجعلته هباءً منثوراً، فكما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف، كذلك تذهب أعمال الكفار ضياعاً ودماراً.

الصحيح الدال على عظمة الخالق، يعني لم يخلقهما عبثاً وإنما خلقهما لأمر عظيم وغرض صحيح ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم بالمرة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سواكم خلقاً آخر، أعبد لله منكم وأطوع، رتَّب تعالى قدرته على ذلك، على قدرته على خلق السماوات والأرض، إرشاداً إلى طريق الاستدلال، فإنَّ من قدر على خلق الأجرام العظيمة، كان على تبديل خلقٍ آخر بهم أقدر، ولذلك قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي إذهابكم والإتيان بخلق آخر مكانكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بصعبٍ ولا عسير، بل هو سهل يسير، فإنه عزَّ وجل قادرٌ على جميع الممكنات.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)﴾.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة، لأمر الله تعالى ومحاسبته، وإنما ذكر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ أي الأتباع جمع ضعيف يريد به ضعاف الرأي والعقل ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ أي لرؤسائهم الذين أغووهم وأضلوهم عن دين الله ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل، والإعراض عن نصائحهم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أريد بالاستفهام التوبيخُ والتقريعُ، والغناءُ بمعنى الفائدة، وضُمِّن معنى الدفع، ولذا عُدّي بعن أي إنَّا اتبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال، فهل أنتم اليوم دافعون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي بعض الشيء الذي حلَّ بنا؟ ﴿قَالُوا۟﴾ أي المستكبرون جواباً واعتذاراً عما فعلوا بهم ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمان ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكن ضللنا فضللناكم، أي اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾ مما لقينا، جَزِع الرجلُ إذا ضَعُف عن حمل ما نزل به ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على ذلك، أي مستوٍ علينا الجزعُ والصبرُ،

ولمَّا كان عتاب الأتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك، فقالوا: ﴿ مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي من منجى ومهرب من العذاب، والمحيصُ: المنجى والمهرب.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي إبليس الذي أضل كلا الفريقين ﴿ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي أحكم وفُرغ منه، ودخل أهل الجنةِ الجنَّة، وأهلُ النار النَّار، قام خطيباً في أشقياء من الثقلين. أخرج ابن جرير عن الحسن قال: إذا كان يوم القيامة، قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ وعداً حقاً، وعد من أطاعه الجنة، ومن عصاه النار، فوفَّاكم وأنجزكم ذلك ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾ وعد الباطل، وهو أن لا بعث ولا حساب، ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ أي كذبتكم وأخلفتكم الوعد، جعل تبين خلاف وعده، كالإخلاف منه وظهر كذبه ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ من تسلُّط فألجئكم إلى الكفر والمعاصي ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ أي إلاَّ دعائي إياكم إلى الضلالة ﴿ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أسرعتم إجابتي باختياركم ﴿ فَلَا تَلُومُونِي ﴾ بوسوستي فقد حذَّركم الله مني، وأخبركم عداوتي ﴿ وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ حيث استجبتم لي باختياركم، ولم تطيعوا ربكم، لمَّا دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج، وليس مراد اللعين التنصل عن توجّه اللائمة إليه، بل بيان أنهم أحق بها منه، وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان هو الذي يختار السعادة والشقاوة، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين ﴿ مَّآ أَنَا۠

﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمغيثكم من العذاب، يقال: استصرخني فأصرخته[1]، أي استغاثني فأغثته، وأصله من الصراخ وهو مدُّ الصوت، والهمزة للسلب، كأن المغيث يزيل صراخ المستغيث ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ بمغيثي مما أنا فيه، وإنما تعرض لذلك للتذكير بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به، ومحتاج إلى الإغاثة ﴿إِنِّى كَفَرْتُ﴾ اليوم ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي كفرت بالذي أشركتمونيه، وهو الله تعالى، لطاعتكم إياي فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها ومعنى كفره بإشراكهم، تبرئه واستنكاره له كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[2] ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ابتداء كلام من الله تعالى، وفي حكاية أمثال ذلك لطف بالسامعين، وإيقاظ لهم، حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبَّروا عواقبهم.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإذن الله وأمره، والمدخِلون هم الملائكة، ولمَّا ذكر الله تعالى مآل الكفار، ذكر مآل أمر المؤمنين، من إدخالهم الجنة، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميرهم، مزيدُ اللطف بهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي تحيِّيهم الملائكةُ فيها بالسلام، أو الرب سبحانه يحيِّيهم بالسلام، كما قال سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ وهو مشتق من السلامة أي أنهم سلموا من آلام الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) الصارخُ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعاونة، والمصْرِخُ هو المغيث. اهـ القرطبي ٩/٣٥٧.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي كيف بيَّنه ووضعه في موضعه اللائق به ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ هي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أي حكم بأنها مثلها، لا أنه صيَّرها مثلها في الخارج كقولك شرَّف الأمير زيداً كساه حُلَّة، وكونُ الشجرة طيبة، إما كونها طيبة المنظر، أو طيبة الرائحة، أو طيبة الثمرة، أو طيبةً بحسب المنفعة، وإذا اجتمعت فيها هذه الأمور يحصل كمال الطيب ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أي أعلاها، وسمي الأعلى فرعاً لتفرعه عن الأصل، ولهذا أفرد، ويجوز أن يراد به الفروع، لأنه مضاف والإضافة تَرِدُ للاستغراق، فكأنه قيل وفروعها ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي في جهة العلو.

﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا ﴾ تعطي ثمرها ﴿ كُلَّ حِينٍۭ ﴾ وقَّته الله تعالى لإثمارها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادة خالقها وتكوينه، والمراد بالشجرة المنعوتة النخلة وروي عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرة شِبْهُ الرجل المسلم، لا يتحاتُّ ورقُها، تؤتي أكلها كل حين؟ قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فقال ﷺ: هي النخلة، فحكيتها لأبي فقال: يا بنيَّ لو كنتَ قلتها لكانت أحبَّ إليَّ من حُمْرِ النَّعَم»[1] وقيل: كلُّ شجرة مثمرة، طيبة الثمار، كالنخلة، والتين، والعنب، والرمان، ونحو ذلك، وأنت تعلم

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٦/٩٩ ورواه أحمد في المسند ٢/١٢ ومسلم رقم ٢٨١١ باب «مَثَلُ المؤمن كمثل النخلة».

أنه إذا صح الحديث لا ينبغي العدول عنه، ووجهُ تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة «أن لا إله إلا الله» بهذه الشجرة المنعوتة، أن أصل تلك الكلمة، هو الإيمان الثابت في قلوب المؤمنين، وما يتفرع منها من الأعمال الصالحة يصعد إلى السماء، وما يترتب على ذلك من ثواب الله ورضاه، هو الثمرة التي تؤتيها كل حين ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإن فيه تصوير المعاني العقلية، بصور المحسوسات، وبه يرتفع التنازع بين الحسِّ والخيال.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الكفر وتكذيب الحق، وما يعم كل كلمة قبيحة عند الله سبحانه ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ كمثل شجرة ﴿خَبِيثَةٍ﴾ كالحنظل ونحوه ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ اقتُلعت من أصلها، وحقيقةُ الاجتثاثِ: أخذ الجثة وهي شخص الشيء كله ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لأن عروقها قرينة منه ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ استقرار، والكلمة المشبهة هي الإشراك بالله سبحانه، فإنَّ الكفر أول الآفات، ورأس الشقاوات، فخبثُه لا يخفى، ليس له حجة ولا قوة، بل هو داحض غير ثابت.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثبت بالحجة عندهم، وتمكَّن في قلوبهم، وهو قول: ﴿لا إله إلا الله﴾ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يزيغون إذا افتتنوا في دينهم، كما جرى لبلال وكثير من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي بعد الموت وذلك في القبر، الذي

هو أول منزل من منازل الآخرة عند سؤال منكر ونكير، وفي مواقف القيامة فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدهم هناك، ولا تُدهشهم الأهوال، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: «﴿يُثَبِّتُ اللهُ﴾ وفي الآخرة: القبرُ»[1] ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم فلا يهتدون إلى الحق، فلا يثبتون في مواقع الفتن، والمراد بهم الكفرة، ووصفهم بالظلم باعتبار ظلمهم لأنفسهم، باختيار الضلال، فالمراد بالذين آمنوا المخلصون في الإيمان، والراسخون في الإيقان، كما ينبىء عنه التثبيت ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من تثبيت بعض، وإضلال آخرين، من غير اعتراضٍ عليه، حسبما توجبه مشيئته، التابعةُ للحِكم البالغة، وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعين، من الفخامة، وتربية المهابة ما لا يخفى.

﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ۞أَلَمْ تَرَ ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد مما صنع الكفرة أي ألم تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي شكر نعمته تعالى، بأن وضعوا موضعها ﴿ كُفْرًا ﴾ عظيماً، أو بدلوا نفس النعمة كفراً، فإنهم لما كفروها سُلبت منهم، كأهل مكة، خلقهم الله تعالى، وأسكنهم حرمه، وجعلهم قُوَّام بيته العتيق، ووسَّع عليهم أبواب رزقه، وشرفهم برسول الله ﷺ، فكفروا بذلك، فقُحطوا سبع سنين، وقُتلوا وأُسروا، فصاروا أذلاء مسلوبي النعمة بعد الرفاهية والعزة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى

---

(١) الحديث أخرجه ابن مردويه من رواية أبي سعيد الخدري، وروى البخاري عن البراء ابن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا. . وفي الآخرة﴾» وانظر فتح الباري على البخاري ٨/ ٣٧٨.

الذين﴾ قال: هم كفار مكة ﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أي أنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ دار الهلاك الذي لا هلاك وراءه، يُقال: بَارَ الشيء يبور بَوْراً هلك، وأصله فرط الكساد المؤدِّي إلى الفساد، كما قيل: كَسَد حتى فسد، عبَّر به عن الهلاك.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيانٍ لها، وفي الإبهام، ثم البيان ما لا يخفى من التهويل ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يقاسون حرها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ بئس المقر جهنم مسكناً ومستقراً لهم.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿وَجَعَلُواْ﴾ أي جعلوا في اعتقادهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفرد الذي ليس كمثله شيءٌ ﴿أَندَادًا﴾ أشباهاً وأمثالاً في العبادة والتسمية ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾ قومهم الذين يشايعونهم ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد، ليوقعوهم في ورطة الكفر والضلال ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله تهديداً لأولئك المضلين الضالين ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بما أنتم عليه من الشهوات، التي من جملتها كفران النعم، واستتباع الناس في الضلال، وجَعَل ذلك متمتَّعاً به تشبيهاً له بالمشتهيات المعروفة، لتلذذهم به كتلذذهم بها ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ الأمرُ أمرُ تهديدٍ، وهذا كقول الطبيب لمريضٍ يأمره بالاحتماء فلا يحتمي، كلْ ما تريد، فإن مصيرك إلى الموت، فإن المقصود منه التهديد، ليرتدع ويقبل ما يقول.

ثم إنه تعالى أمر نبيه ﷺ أن يأمر عباده الصالحين، بالعبادة البدنية، والمالية وبطاعة الله ورسوله فقال تقدست أسماؤه:

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خصهم بالإضافة تنويهاً بهم، وتشريفاً لهم ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ ومقولُ القول محذوفٌ، دلَّ عليه ﴿ يُقِيمُوا ﴾ أي قل لهم أقيموا الصلاة، وأنفقوا، يقيمون وينفقون ويفعلون بالأمر، لصدق إيمانهم، فهم متى أُمروا امتثلوا، ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي خفية وجهراً، والأحب في الإنفاق إخفاء التطوع، وإعلان الواجب، والمراد من الأمر حث المؤمن على الشكر لنعم الله عزَّ وجل، بالعبادة البدنية والمالية، وترك الركون إلى متاع الدنيا، كما هو صنيع الكفرة ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ فيبتاع المقصِّر ما يتدارك به تقصيره أو يفتدي به نفسه، ﴿ وَلَا خِلَالٌ ﴾ ولا مخالة أي صداقة فيشفع لك خليل.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ أي أخرج به أنواع الحبوب والثمار، تعيشون به، وهو يشمل المطعوم، والملبوس ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ ﴾ بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها، بما ألهمكم كيفية ذلك ﴿ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ ﴾ جرياً تابعاً لإرادتكم حيث توجهتم ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بمشيئته تعالى، ويندرج في تسخير الفلك تسخير البحر والرياح ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم حيث تشربون منها وتسقون بها زروعكم.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ أي دائمين في الحركة إلى انقضاء عمر الدنيا، وأصل الدأب العادة المستمرة، وتسخير هذين الكوكبين جعلُهما منيرين، مصلحين ما نيط بهما صلاحه، ولولا ذلك ما كان كون ولا حياة، ولا ليل ولا نهار، ولا مأكولات ولا حيوانات ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ يتعاقبان لسُباتكم ومعاشكم وفي إبراز كل من هذه النعم، في جملة مستقلة، تنويه لشأنها، وتنبيه على رفعة مكانها وتنصيص على كون كل نعمة جليلة مستوجبة للشكر.

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ ﴾ أي أعطاكم من كل شيء سألتموه شيئاً، فإن الموجود من كل صنف، بعض ما في قدرة الله تعالى، ولعل المراد بما سألتموه، ما كان حقيقاً بأن يُسأل لاحتياج الناس إليه. أي أعطاكم من كل ما تحتاجونه، سئل أو لم يُسأل، حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما أنعم به عليكم والمراد به الجمع، كأنه قيل: وإن تعدُّوا نِعَم الله ﴿ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾ لا تحصروها ولا تطيقوا عدَّ أنواعها، فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية، وإن رمت العثور على حقيقة الحقِّ، فاعلم أن الإنسان لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلّهية، لما استقرَّ له القرار، وما من فرد من أفراد الناس ـ وإن كان في أقصى مراتب الفقر ـ فهو بحيث لو تأملته لوجدته في نِعَمٍ لا تحدُّ، فإن كنت في ريب من ذلك، فتصوَّرْ مَلِكاً مَلَك أقطار العالَم، وحاز جميع ما في الدنيا من الأموال، ثم قُدِّر أنه قد حُبس عليه النَّفَسُ، أو

حُبِس عليه البولُ، وأتاه الموت من كل مكان، أمَا يعطي ذلك بمقابلة نَفَسٍ واحد أموال الدنيا بجملتها؟ وهذا من الظهور ما لا يخفى على أحد، فاتضح أنه سبحانه يفيض علينا كلَّ آنٍ نِعَماً لا تتناهى، سبحانك ما أعظم شأنك!! سبحانك ما أعظم سلطانك!! ونحن في معرفتك حائرون، وفي إقامة شكرك قاصرون، نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ يظلم نفسه بأن يُعرضها للحرمان، بسبب الكفران، وقيل: ظلومٌ في الشدة، يشكو ويجزع، كفَّارٌ في النعمة، يجمع ويمنع، ويضع نعم الله في غير موضعها و(أل) في الإنسان للجنس، ويدخل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفراً.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي اذكر وقت قول إبراهيم تأكيداً لما سلف من تعجيبه ﷺ ببيان فن آخر من جناياتهم، حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم، بعدما كفروا بالنعم العامة، وعصوا أباهم إبراهيم حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى، وسأله أن يجعلها بلداً آمناً، ويرزقهم من الثمرات، وتهوي قلوبُ الناس إليهم، فاستجاب الله دعاءه، وجعله حَرَماً آمناً، يُجبَىٰ إليه ثمراتُ كلِّ شيء، فكفروا بتلك النعم العظام، واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي مكة ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن لمن فيها أيْ اجعله من البلاد الآمنة ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ بعِّدْني وإيَّاهم، وأصلُ التجنب جعلُ الشيء على جانب وفيه معنى الإبعاد، وهذا الدعاء مختصٌ بالمؤمنين، لقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ منّي﴾ والمرادُ هنا طلب الثبات والدوام على التوحيد والإسلام، أي وثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد والإيمان ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي اجعلنا من الذين اجتنبوا عبادة الأصنام

فإن قيل: إن الأنبياء عليهم السلام معصومون، فما الفائدة في الطلب؟ أجيب إنما ذَكَر هذا هضماً لنفسه، وإظهاراً للحاجة إلى فضل الله سبحانه في كل المطالب.

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فلذلك سألت منك العصمة، واستعذت بك من إضلالهن، وإسناد الإضلال إلى الأصنام باعتبار السببية، لأنهن جمادات لا تعقل، وإنما نسب إليهن الإضلال، لأن الناس ضلوا بسببهن، فكأنهن أضللنهم، كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرتهم أي افتتنوا واغتروا بسببها، وهذا تعليل لدعائه، وصُدِّرَ بالنداء، إظهاراً للاعتناء به، ورغبةً في استجابته ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ من الناس فيما أدعو إليه، من التوحيد والإسلام ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي هو من أهل ديني ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ أي لم يتبعني، وعصى أمري في غير الشرك ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تقدر أن تغفر له وترحمه، فإنك يا رب غفار الذنوب، رحيم بالعباد.

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿رَّبَّنَآ﴾ كرر النداء رغبة في الإجابة، والالتجاء إليه تعالى ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي أسكنت ذريةً من ذريتي، والمراد به إسماعيل عليه السلام وبنيه، وهذا الإسكان بعدما كان بينه وبين أهله ما كان، وذلك أن هاجر أم إسماعيل، كانت أَمَةً لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام، فلما ولدت إسماعيل غارت منها فأخرجها وابنها إلى أرض مكة، فوضعها عند

البيت، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندهما جِرَاباً فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماء، ثم قفى راجعاً فتبعته هاجر، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب؟ فجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آللهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيّعنا، ثم رجعتْ وانطلق عليه السلام حتى إذا كان عند الثنيّة، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات المباركات ﴿ بِوَادٍ﴾ هو وادي مكة ﴿ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ فإنها حجريَّةٌ لا تنبت، ووصفُه في ذلك دون «غير مزروع» للمبالغة، لأن المعنى غير صالح للزرع ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ الإضافة للتشريف، وسمي محرّماً لأنه عظيم الحرمة، حرَّم الله التعرض له بسوء، فلم يزل مهاباً، تهابه الجبابرة في كل عصر، وسمَّاه بيتاً باعتبار ما سيكون بعد ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللام لام كي، أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله. وهذا الحصر مستفاد من السياق، فإنه لما قال: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ نفى أن يكون إسكانهم للزراعة ولما قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ﴾ أثبتَ أنه مكان عبادة، ونفى أن يكون إسكانهم للتجارة والكسب، مع ما في ﴿ رَبَّنَا﴾ من الإشارة أن ذلك هو المقصود ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أفئدة بعض الناس، و«مِنْ» للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم جميع الناس، وأهل فارس والروم ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي تسرع إليهم شوقاً ووداداً وتُقبل نحوهم من البلاد الشاسعة، وأول آثار هذه الدعوة، ما روي أنه مرت رفقة من جُرْهم تريد الشام، فرأوا الطير تحوم على الجبل، فقالوا: إن هذا الطائر يحوم على الماء، فأشرفوا فإذا هم بهاجر، فقالوا لها: إن شئتِ كنا معكِ وآنسناك، وتشركينا في مائك، ونشركك في ألباننا، فأذنت لهم، وكانوا معها إلى أن شبَّ إسماعيل فتزوج منهم، كما هو المشهور ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي ارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك، يعني وارزقهم كما رزقت سكان القرى، أصحاب الماء والزروع، وإنه ليجتمع فيه الفواكه الربيعية، والصيفية، والخريفية في يوم واحد ﴿ لَعَلَّهُمْ

﴿يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة، فأجاب الله تعالى دعوته، فجعله آمناً يُجبى إليه ثمرات كل شيء، ولا يخفى ما في دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب، والمحافظة على قوانين الضراعة، وعرض الحاجة، واستنزال الرحمة، ولذا منَّ الله عليه بحسن القبول، واستدل به على أن تحصيل منافع الدنيا إنما هي للاستعانة بها على أداء العبادات.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ﴾ أي تعلم سرنا كما تعلم علننا، والمعنى: إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم بنا منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكنا ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستعجالاً لنيل ما عندك، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع، وضمير الجماعة ليس مجرد علمه تعالى بما يخفى وما يعلن، بل بجميع خفايا المُلْكِ والمَلَكوت، وقد حقَّقه بقوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا يغيب عليه تعالى شيء في الكائنات، لما أنه عزَّ وجل عالم بالذات، فما من أمرٍ كائناً ما كان إلا وجوده في ذاته علم بالنسبة إليه سبحانه ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾؟.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي مع كبر سني، ويأسي عن الولد، فعلى بمعنى «مع» والتقييد بذلك استعظاماً للنعمة، واستظهاراً لشكرها ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ﴾ روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحق لمائة واثنتي عشرة سنة، وهذه الرواية عن ابن عباس ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ أي خالقي ومالك أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي مجيب الدعاء، من قولك:

سمع الملكُ كلام فلان، إذا تلقاه بالقبول، وفيه إشعار بأنه عليه السلام دعا ربه، وسأل منه الولد، فأجابه ووهب له سؤله، حينما وقع اليأس منه، ليكون من أجلِّ النعم، وأحلاها.

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي محافظاً عليها، مقيماً لها على الوجه الذي يرضيك، وتوحيد الضمير للإشعار بأنه المقتدى به في ذلك ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ ﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة أيضاً ولا يُفرّط فيها ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ أي استجب دعائي، وتقبل عبادتي.

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى ﴾ ما فرط مني من ترك الأولى في باب الدين، مما لا يسلم البشر منه ﴿ وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ أي لأمي وأبي، وكانت أمه ـ على ما رُوي عن الحسن ـ مؤمنة، وأمّا استغفاره لأبيه، فقد قيل: إنه كان قبل أنْ يتبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله سبحانه، وقالت الشيعة: إن والديه كانا مؤمنين، ولذا دعا لهما، وأما الكافر فالمراد به عمه، وهو قول من لم يدرك النصوص القرآنية، ولم يعرف السنة النبوية ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من ذرية إبراهيم وغيرهم، وهذا من باب ذكر العام بعد الخاص ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ أي يثبت ويتحقق، ويقوم الناس لرب العالمين للحساب والجزاء، وفي هذا الدعاء بشارة للمؤمنين، لأنه سبحانه لا يردُّ دعاءَ خليله.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ، أي لا تظنن يا محمد أن الله ساهٍ وغافل عن أفعال الظلمة، وفيه

تسلية للمظلوم، وتهديد للظالم، والمراد بالظالمين كفار مكة، ممن عُدَّت مساوئهم، أو جنس الظالمين، وهم داخلون في الحكم، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يؤخر عقوبتهم، وإنما أسند التأخير إليهم لتهويل الخطب، ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب وتأخيره للتشديد والتغليظ ﴿لِيَوْمٍ﴾ هائلٍ عصيبٍ رهيب ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي تشخص فيه أبصارهم، فلا تقرُّ في أماكنها، من هول ما ترى، يقال: شَخَص الرجلُ بصَرَه إذا فتح عينه لا يطرف، وهذا إنما يكون من شدة الهول والفزع.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين إلى الداعي، بالخوف والذل، وأصل الهَطْع: هو الإقبال على الشيء، هَطَع الرجل من باب فَتَح، إذا أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم مع إدامة النظر، من غير التفات إلى شيء[1] ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يرجع إليهم نظرهم، بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي خالية من العقل والفهم، لفرط الحيرة والدهشة، ومنه قيل للجبان والأحمق: قلبُه هواءٌ أي لا قوة ولا رأي فيه، وهذا يكون وقت الحساب، وقيل: عند إجابة الداعي والقيام من القبور.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾.

---

(١) هذا هو المشهور عند أهل اللغة لمعنى الإقناع، وهو أن يرفع رأسه مديماً للنظر، وقال المبرّد: «يقال: أقنع الرجل إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلاً وخضوعاً، فهو من الأضداد، قال: ويجوز أن يرفع رأسه مديماً للنظر، ثم يطأطئه خضوعاً وذلاً». اهـ وانظر معاني القرآن للنحاس بتحقيقنا ٣/ ٥٣٩.

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ خطاب لسيد الرسل ﷺ والمراد بالناس: الكفارُ المعبَّر عنهم بالظالمين، والعدول من الإضمار، للإشعار بأن المراد هو الزجر، عما هم عليه من الظلم، شفقةً عليهم، أي خوّفهم ذلك اليوم الرهيب، وقيل: الناسُ جميعاً، فإن الإنذار عام كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والشدائد ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ بالشرك والتكذيب أي فيقولون، والعدول عنه للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بأن ما لقوه إنما هو لظلمهم ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي أخر العذاب عنا، وردَّنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى زمن قريب لنستدرك ما فات ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أي نجب الدعوة إليك، وإلى توحيدك ﴿ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ ﴾ أي فيما جاؤوا به أي نتدارك ما فرطنا به من إجابة الدعوة ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ على إضمار القول أي فيقال لهم توبيخاً: ألم تؤخروا في الدنيا؟ وألم تكونوا أقسمتم بألسنتكم وحلفتم بطراً وجهلاً ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ مما أنتم عليه، من التمتع بالحظوظ الدنيوية، وأنكم لا تنتقلون من دار الفناء إلى دار البقاء، والغرض أنهم ينكرون البعث بعد الموت، ويقسمون على أن لا حساب ولا جزاء. ذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: «لأهل النار خمسُ دعوات، يجيبهم الله تعالى في أربع منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً: الأولى يقولون: ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾؟ فيجيبهم الله تعالى: ﴿ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ ثم يقولون: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحَاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فيجيبهم جلَّ شأنه: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ الآية ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحَاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾؟ فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ فيجيبهم الله عزَّ وجل: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُون﴾ فلا يتكلمون بعدها». اللهمَّ إنا نعوذ بك من غضبك، ونلوذ بكنفك من عذابك، ونسألك التوفيق للعمل

الصالح، في يومنا لغدنا، والتقرب إليك بما يرضيك، قبل أن يخرج الأمر من يدنا، عزَّ جارك، وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك.

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥ ﴾.

﴿ وَسَكَنتُمْ ﴾ من السكنى بمعنى التَّبَوُّء والاستيطان، أي سكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناكم، فهلاَّ اعتبرتم بما جرى عليهم!! ﴿فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصي، كعاد وثمود سائرين سيرتهم في الظلم والفساد ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ بينا لكم في القرآن العظيم وعلى ألسنة الأنبياء ما حلَّ بهم، فلم تعتبروا منهم، فأنتم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب.

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦ ﴾.

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ﴾ أي فعلنا بهم ما فعلنا، والحال أنهم قد مكروا في إبطال الحق، وتقرير الباطل ﴿ مَكْرَهُمْ﴾ العظيم وجاوزوا فيه كل حدّ محدود، والمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فُعل بهم ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي جزاء مكرهم الذي فعلوه، وتسميته مكراً لكونه بمقابلة مكرهم ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في العظم والشدة ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ وعبَّر عن ذلك بكونه معداً لإزالة الجبال عن مقارها، لكونه مثلاً في ذلك، لشدة المكر، وضخامة السعي في الإجرام، فكأنهم بمكرهم الخبيث يكادون يقتلعون الجبال.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ تثبيت له ﷺ على ما هو عليه، من الثقة بالله سبحانه، والتيقن بإنجاز وعده تعالى، بتعذيب الظالمين، كما يفصح عنه الفاء، لا وعده بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالبٌ لا يُماكر، وقادر لا يُدافع ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ينجزه ﴿يَومَ تُبَدَّلُ الأَرضُ﴾ ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾عطف على الأرض، وتقديره والسمواتُ غير السماوات والتبديل قد يكون في الذات، وقد يكون في الصفات، والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين، روى البخاري عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراءَ ـ يعني شديدة البياض ـ كقرصة النقي ـ أي الخبز النقي في اللون ـ ليس فيها عَلَم لأحد»[1] أي علامة من الأبنية والزراعة والمساكن ﴿ وَبَرَزُوا۟﴾ أي الخلائق من أجداثهم ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ لمحاسبته ومجازاته، وذكرُه بالوصفين، للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة، فإن الأمر إذا كان لواحدٍ غلَّاب لا يُغالب، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٣٢٣ ومسلم رقم ٢٧٩٠ في البعث والنشور.

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي قُرِن بعضهم مع بعض مع الشياطين، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أيديهم وأرجلهم تُربط إلى رقابهم بالأغلال، كحال الأشقياء في الدنيا يربطون بالسلاسل والقيود ﴿ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي في القيود، جمع صَفد، والصَّفدُ: القيدُ، وقيل الغُلُّ، وأصله الشدُّ.

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ قمصانهم جمع سربال ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو أسود منتن تشتعل فيه النار بسرعة، وهو إن سال بنفسه يُقال: زفتٌ وإن كان بالصناعة فقطران، ففي سرابيلهم تشبيه بليغ، وذلك أن المقصود أنه تُطلى جُلودُ أهل النار بالقطران، حتى يعود طلاؤه كالسرابيل، وذلك ليجتمع عليهم ألوان العذاب: لذعُه، وحَرْقُه، ونتنه، واللونُ الموحش على أن التفاوت بين القَطْرانين كالتفاوت بين النارَيْن، وكلُّ ما وعد الله أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي تعلوها وتحيط بها نار جهنم، لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق، ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم، التي خلقت لأجله، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُون في النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم ذُوقُوا مسَّ سَقَر﴾.

﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ ﴾ أي يفعل بهم ذلك ليجزي الله ﴿ كُلَّ نَفْسٍ ﴾ مجرمة بقرينة المقام ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي، جزاءً وفاقاً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأنٌ عن شأن، فيتمه في أعجل ما يكون من الزمان، وعن ابن عباس المراد سريع الانتقام.

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى القرآن وما فيه من العظة ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ كفاية في التذكير والموعظة ﴿ لِّلنَّاسِ ﴾ أي لجميع الخلق من إنس وجن ﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ بهذا البلاغ ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ ﴾ بالتأمل فيه من الدلائل الواضحة، التي هي إهلاكُ الأمم، وإسكان الآخرين مساكنهم ﴿ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لا شريك له، ولا مثيل، ولا نظير ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي أصحاب العقول السليمة، فيرتدعوا عمّا يُرديهم من الصفات التي يتصف بها الكفار، وفي تخصيص التذكر بأولي الألباب، إعلاءٌ لشأنهم، لأنهم المنتفعون بالمواعظ والأحكام، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه، إنه سميع مجيب الدعاء.

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم»

* * *



مكية وهي تسع وتسعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾.

﴿الٓرۚ﴾ اسم للسورة أي هذه السورة مسمَّاة بـ: الٓر[1] ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات الكتاب الكامل في الفصاحة والبيان، الذي يعجز عنه البشر، الجدير بأن يسمى الكتاب الكامل، في أسلوبه وأحكامه ﴿وَقُرۡءَانٖ﴾ عظيم الشأن، وتنكيرُه للتفخيم ﴿مُّبِينٖ﴾ أي واضح بيّن، لا خلل فيه ولا اضطراب، فارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾.

﴿رُّبَمَا﴾ ربَّ حرف جر، و «ما» كافة مصححة لدخوله على الفعل، وربَّ على كثرة وقوعها في كلام العرب، لم تقع في القرآن إلاَّ في هذه الآية، وهي للتقليل غالباً، وللتكثير نادراً كما في هذه الآية[2] ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ

---

(١) قدَّمنا فيما مضى أن الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، للتنبيه على إعجاز القرآن، كأنه يقول: هذا الكتاب المعجز العجيب كلام الله تعالى، وهو منظوم من أمثال هذه الحروف المقطعة من ألف ولام وراء وأمثالها فإذا شككتم فيه فأتوا بمثله.

(٢) أنكر الزجاج أن تجيء «ربَّ» للتكثير، وقال: هذا ضدُّ ما تعرفه العرب، وهي على أصلها، للتقليل، والآية خارجة مخرج الوعيد، وكذلك قال النحاس في تفسيره =

كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ أي سيتمنى الكفار محققاً يوم القيامة أن لو كانوا مسلمين في الدنيا، ويندمون على عدم الإيمان، كما جاء في الحديث الشريف «إن ناساً من أمتي يُعذَّبون بذنوبهم، ثم يعيِّرهم أهلُ الشرك، ويقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نَفَعكمَ؟ فلا يبقى موحِّد إلاَّ أخرجه الله تعالى من النار، ثم قرأ ﷺ الآية»[1].

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾.

﴿ ذَرْهُمْ ﴾ أي دعْهم واتركهم عما هم عليه، إذ لا سبيل إلى ارعوائهم، والمراد التخلية بينهم وبين شهواتهم، كأنه قيل: خلِّهم وشأنهم ﴿ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ أي يأكلوا كما تأكل البهائم، ويستمتعوا بدنياهم الفانية ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ أي يشغلهم الأمل عن التفكر فيما يصيرون إليه ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءهم يوم القيامة.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ ﴾.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا ﴾ شروع في بيان سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة ﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴾ من القرى بالخسف بها وبأهلها، كما فُعل ببعضها ﴿ إِلَّا وَلَهَا ﴾ في ذلك الشأن ﴿ كِتَابٌ ﴾ أجل مقدّر، مكتوب في اللوح بحيث لا يمكن تبديله، والمراد به أجل إهلاكهم ﴿ مَّعْلُومٌ ﴾ لا يُنسى ولا يغفل عنه.

= معاني القرآن ٤/٨ حيث قال: فأمّا معنى «ربَّ» ههنا فإنما هي في كلام العرب للتقليل، وأن فيها معنى التهديد، وهذا تستعمله العرب كثيراً لمن تتوعده وتهدده، يقول الرجل للآخر: ربما ندمتَ على ما تفعل، ولا يشكّون في ندمه ولا يقصدون تقليله، بل حقيقة المعنى أنه يقول: لو كان هذا مما يقلّ، أو يكون مرة واحدة لكان ينبغي أن لا تفعله. قال: وأما قول من قال إن «ربَّ» تقع للتكثير فلا يعرف في كلام العرب، والدليل على أنه وعيد وتهديد قوله سبحانه بعده: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾. اهـ وهو كلام نفيس.

(١) الحديث أخرجه الطبراني وابن مردويه، وانظر مختصر ابن كثير ٢/٣٠٧.

﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥ ﴾.

﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ من الأمم المهلكة وغيرهم، أجلها المكتوب في كتابها أي لا يجيء هلاكها قبل مجيء أوانه ﴿ وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾ أي وما يتأخرون عنه برهة من الزمن، واستدل بالآية على أن كل من مات أو قُتل،، فإنما هو ميّتٌ بأجله.

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾ نادوا به الرسول ﷺ والقائلون هم مشركو مكة، وذلك لغاية تماديهم في العتو، خاطبوا به الرسول ﷺ لا تسليماً بنبوته بل استهزاءً، أي يا من تدّعي الرسالة إنك لتقول قول المجانين، وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاماً يستبعده: أنت مجنون، وقد سبقهم إلى نظيره فرعون بقوله في حق موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ رَسُوْلَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ ﴾.

﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا ﴾ كلمةُ «لو» عند تركبها مع «ما» تفيد ما تفيده عند تركبها مع «لا» من معنى امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى التحضيض، والمراد هنا التحضيضُ، أي هلاَّ تأتينا ﴿ بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ يشهدون لك ويساعدونك في الإنذار، كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾؟[1] ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في دعواك أنك رسول الله؟ فإن قدرة الله على ذلك محققة!! قال تعالى رداً عليهم:

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٧.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ الضمير للجلالة من التنزيل، وهذا مسوق منه سبحانه إلى نبيه ﷺ جواباً لهم عن مقالتهم المحكية، ورداً لاقتراحهم الباطل، الصادر عن محض الكبرياء والعناد، فالملائكة لعلو رتبهم، أعلى من أن يكون مقصد حركاتهم، أولئك المعاندين لرسل الله، وإنما لهم مهمة أسمى ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق، أي بالوجه الذي قدَّره سبحانه، واقتضته حكمته، والذي اقترحوه من التنزيل، لأجل الشهادة لديهم، ومنزلتهم في الحقارة والهوان منزلتهم، لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلاً، وإنما الذي يدخل في حقهم هو التنزيل في التعذيب والاستئصال، كما فُعل بأضرابهم من الأمم السالفة، ولو فُعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ جزاء الشرط المقدّر، تقديره: ولو نزّلنا الملائكة ما كانوا أيضاً منظرين، كدأب سائر الأمم المكذبة، مع استحقاقهم لذلك، ومقتضى الحكمة التشريعية والتكوينية، أن يكون الملائكة منزلين بصورة البشر، وتنزيلهم كذلك يوجب اللبس، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾[1] فلا ينتفعون، وما كانوا إذاً منظرين لأنا نهلكهم ولا نؤخرهم، لأنه قد جرت عادتنا في الأمم قبلهم، أنا لم نأتهم بآية اقترحوها، إلاَّ والعذاب في إثرها إن لم يؤمنوا، فقد جرى قلم القضاء، بتأخير عذاب هؤلاء حسبما أُجمل في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا﴾ فلم يُهلكوا.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ ردٌّ لإنكارهم واستهزائهم، أي نحن بعظيم شأننا، وعلو جنابنا نزّلنا عليك يا محمد هذا القرآن العظيم، المعجز في

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩.

بيانه، الساطع في برهانه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من كل ما يقدح فيه، كالتحريف، والزيادة، والنقصان، وغير ذلك، حتى إن الشيخ المهيب، لو غيَّر نقطة يردُّ عليه الصبيان، ويقولون له: الصوابُ كذا، ولم يحفظ سبحانه كتاباً من الكتب كذلك، وتولّى حفظ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظاً أولاً وآخراً، ومصوناً عن جميع جهات التحريف، مع أن الدواعي من الملحدين، واليهود، والنصارى متوافرة، ومتهالكة على إفساده[1]، فكان ذلك الحفظ والحماية من أعظم المعجزات، وتحقق بذلك الوعد الربّاني، وجاءت الجملة الثانية اسمية ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ للدلالة على دوام الحفظ، فهو محفوظ بحفظ الله إلى قيام الساعة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ أي أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً، كما روي عن ابن عباس، وإنما لم يُذكر لدلالة السياق والسِّباق ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي فرقهم وطوائفهم، وتُطلق على الأعوان، وهي المتفقة على طريقة ومذهب، وأصبح لفظ «الشيعة» يطلق على قوم مخصوصين، يزعمون أنهم أتباع علي رضي الله عنه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) تكفل الله جلَّ ثناؤه بحفظ هذا القرآن المجيد، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان، ولا على التبديل فيه والتغيير، كما جرى لغيره من الكتب كالتوراة والإنجيل، المحرَّفة بالنص القاطع ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ وذلك لأن الله تعالى وَكَلَ حفظَها إلى أهلها كما قال سبحانه: ﴿بمَا استحفظوا من كتاب الله﴾ أي أُمروا بصيانته وحفظه، فحرّفوا وبدّلوا، وأما القرآن العظيم فقد تكفل ربُّ العزة والجلال بحفظه، فلم يستطع أحد من البشر التلاعب فيه، بالتحريف والتبديل على كثرة الأعداء من اليهود والنصارى والملحدين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ أي ما أتى شيعة من الشيع من رسول خاص بها ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كما يفعله هؤلاء الكفرة، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، بأن هذه شنشنة جُهَّال الأمم مع المرسلين، والسبب الذي يحمل الجهَّال على هذا أمور:

الأول: أنهم يستثقلون التزام الطاعات والعبادات، لغطرستهم وكبريائهم.

الثاني: أن الرسول يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من عاداتهم الرديئة، وذلك شاق على الطباع.

الثالث: أن الرسول قد يكون فقيرا، فالمتنعمون يثقل عليهم اتّباعه، ونحو ذلك من الأمور.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك السلك والإدخال الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم، وبما جاؤوا من الكتب ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ أي ندخل الباطل والضلال ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي في قلوب مشركي مكة، وغيرهم من الضالين المستهزئين بأنبياء الله، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب الضالين من قومك، والسلكُ: إدخال شيء في شيء، كالخيط في المِخْيَط، وفيه دليل على أن الله عزَّ وجلَّ يدخل الضلال في قلوبهم كما اختاروه، لأنهم من أهل الخذلان، ليس عندهم استعداد لقبول الحق.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي لا يصدّقون بالقرآن العظيم، ولو جاءتهم كل آية بيّنة ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي وقد مضت طريقة الأولين، وعادة الله فيهم بإهلاك الطغاة المجرمين، حين كذبوا رسلهم واستهزؤوا بهم.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ على هؤلاء المقترحين المعاندين ﴿ بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي باباً يصعدون فيه إلى السّماء، ويسّرنا لهم الرقيّ والصعود إليه ﴿ فَظَلُّوا۟ فِيهِ ﴾ في ذلك الباب، يُقال: ظل يفعل كذا إذا فعله نهاراً، كما يقال بات يفعل كذا إذا فعله بالليل ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون فيرون ما فيها من الملائكة والعجائب طول نهارهم.

﴿ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ لَقَالُوٓا۟ ﴾ لفرط عنادهم، وغلوّهم في المكابرة ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ﴾ أي سُدَّتْ من الإحساس، ومنعت عن الإبصار حقيقة، وما نراه تخييل لا حقيقة له، وهو من السكر بالفتح ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ قد سحرنا محمد ﷺ بذلك، كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات، وفي هذه الآية دلالة على أنهم ما كفروا إلا على علم، معاندين باغين، فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه، لكنهم قوم سجيتهم العناد، ثم إنه تعالى بعد أن ذكر حال منكري النبوّة، ذكر دلائل التوحيد، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ أي منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب العظيمة ﴿ وَزَيَّنَّـٰهَا ﴾ أي السماء بالنجوم ﴿ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ أي للمتفكرين المستدلين بذلك على قدرته تعالى، فتزيينها ظهورها على نظام بديع، مستتبع للآثار الحسنة.

﴿ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ فلا يقدر أن يصعد إلى السماء، ويقف

على أحوالها، والرجيمُ: المطرودُ عن الخيرات، المرميُّ بالنجوم والمراد بحفظها: منعُهُم عن التعرض لها، والوقوف على ما فيها من أحاديث الملائكة والوحي.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ ﴾ استراق السمع اختلاسه سراً، شبه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ﴾ والمراد بالسمع: المسموعُ ﴿ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ ومعنى أتبعه تبعه، والشهاب الشعلةُ الساقطة من النار الموقدة، ومن العارض في الجو، والمبين الظاهر أمره للمبصرين. فإن قيل: جعلُ الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها، وجعلها رجوماً يقتضي زوالها؟ قلنا: جعلها رجوماً للشياطين، ليس بأجرام الكواكب، بل بِشُعَلٍ من الكواكب، وما ذاك إلا كقبس أُخذ من نار، كما قال تعالى: ﴿يجد لَهُ شِهَاباً رَصَدَاً﴾.

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ﴾ بسطناها، والظاهر أن المراد بسطها وتوسيعها ليحصل بها الانتفاع لمن حلّها، ولا يلزم من ذلك نفي كرويتها، لما أن الكرة العظيمة لعظمها تُرى كالسطح المستوي ﴿ وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض ﴿ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ مقدَّرٍ بمقدارٍ معيَّن تقتضيه حكمته، ومستحسن مناسب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس وغيرهما

مما يتعلق به البقاء ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ العيالِ، والخَدَم، والمماليك، وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم، فإن الله يرزقهم وإياهم، والمعنى: جعلنا لكم معايش، ولمن لستم له برازقين من الخَدَم والعبيد.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد، ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي إلاَّ عندنا خزائنه ومستودعاته، والخزائن جمع خزانة بمعنى المخزن، وهو ما يُحفظ فيه نفائس الأموال، شُبّهت المقدورات التي قدَّرها الله بنفائس الأموال المخزونة على طريقة الاستعارة التخييلية، وأنه تعالى حافظها والمتولي تدبيرها. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي وما نوجد وما نكوِّنُ شيئاً من تلك الأشياء ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إلاَّ ملتبساً بمقدار معيَّن، تقتضيه الحكمة، وتستدعيه المشيئة، والمراد من الإنزالِ: الإحداثُ والإبداع، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وإنما عبر عن إيجاد ذلك بالتنزيل، لما أنه بالتفضل من العالم العلوي إلى العالم السفلي، وجيء بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي حوامل، شبَّه الريح التي جاءت بخير، من إنشاء سحاب ماطر بالحامل، كما شبه ما لا يكون كذلك بالعقيم، أو ملقحات للشجر، تلقّ الشجر فيتفتح عن أوراقه وأكمامه، وتلقح السحاب فيدرُّ بالماء ويمطر ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعدما أنشأنا سحاباً ماطراً ﴿مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ جعلناه لكم سقيا، تسقون به مزارعكم ومواشيكم، وهو أبلغ من سقيناكم لما فيه من الدلالة على جعل الماء معداً لهم ينتفعون به متى

شاؤوا يُقال: سقيتهُ إذا كان بيدك، وأسقيته إذا جعلته له سقيا ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي ولستم بقادرين على حفظه وخزنه، بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم، في العيون والآبار والأنهار سقيا لكم، مع أن طبيعة الماء تقتضي الغَوْر، فوقوفُه ومكوثه في الأرض لا بدَّ له من مخصّص، وذلك يدلُّ على مدبِّر حكيم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها عنها، وقد يعم الإحياء والإماتة لما يشمل الحيوان والنباتات، وتقديم الضمير للحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الباقون إذا ماتت الخلائق كلها، وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم، كما يتراءى من ظاهر الحال، وتفسير الوارث بالباقي مروي عن سفيان وغيره.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ من تقدم منكم ولادة وموتا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من تأخر ولادة وموتاً، قال ابن عباس: المستقدمون: كلُّ من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حيٌّ ومن سيأتي إلى يوم القيامة[1] وهو بيان لكمال علمه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته، لأن القادر على كل شيء، لا بدَّ من علمه بما يصنعه.

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣١٠ وهذا القول اختيار ابن جرير الطبري، وعلى هذا القول يكون المعنى: لقد أحطنا علماً بالخلق أجمعين، الأموات منهم والأحياء، من تقدَّم منهم ومن تأخر، والغرض بيان كمال علمه سبحانه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ لا محالة للجزاء، وتوسيطُ الضمير للدلالة على أنه القادرُ، والمتولي لحشرهم لا غير، وكانوا يستبعدون ذلك، ويقولون: من يحي العظام وهي رميم؟ ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ بالغ الحكمة متقن في أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ وسع علمه كل شيء.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ﴾ أي هذا النوع، بأن خلقنا أصله، وأول فرد من أفراده، خلقاً بديعاً، منطوياً على خلق سائر أفراده، والإنسان من الناس اسم جنس، يقع على الذكر والأنثى، والواحد والجمع ﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ أي طين يابس، يصلصل أي يصوّت إذا نُقِرَ، كائنٍ ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ من طين تغيَّر واسودَّ بطول مجاورة الماء ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي منتن متغيّر وقيل: مصبوب من سنَّ الماءَ، إذا صبَّه، أي مفرغ على هيئة الإنسان كما تُفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب، وأصل الإنسان كان تراباً، فعُجِن بالماء، فصار طيناً، فمكث مدة من الزمن فصار حمأً، فخلص فصار سلالةً، فصُوِّر فصار مسنوناً، ويبس فصار صلصالاً، ثم نفخ فيه الروح، فكان بشراً سوياً، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين !!.

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَالْجَانَّ ﴾ اسم جمع للجن، وقيل: إبليس فإنه أبو الجن، والقول الأول أصح كما هو الظاهر من الإنسان لأن تشعب الجنس، لمّا كان من شخص واحد، خُلق من مادة واحدة، كان الجنس بأسره مخلوقاً منها، والجِنُّ والجِنَّةُ خلافُ الإنس ﴿ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل خلق الإنسان ﴿ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ أي الريح الحارة التي تقتل، وأكثر ما تهبُّ في النهار،

وسُميت سموماً لأنها تنفذ مسامَّ البدن، وقوله من نار باعتبار الغالب، كقوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ ومساق الآية للدلالة على كمال قدرته.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ الظاهر أن المراد جميع الملائكة ملائكة السماء والأرض ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا ﴾ إنساناً والمراد به آدم عليه السلام ﴿ مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أي من طين يابس متغيّر.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ فعلت فيه ما يصير به مستوياً ومعتدلاً، مستعداً لفيفان الروح فيه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ النفخ إجراء الريح من الفم وغيره، والإضافةُ تشريفٌ له، أي وأفضتُ عليه من الريح التي هي خلق من خلقي، فصار بشراً سوّياً، والروح من أمر الله جل وعلا قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي: خاضت الفِرَقُ غمرة الكلام في الروح، فما ظفروا بطائل، ولا رجعوا بنائل، وفيها أكثر من ألف قول، وليس فيها قول صحيح، بل كلها قياسات عقلية، وجمهور أهل السنة أنها جسم لطيف، متصرف في البدن، حالّ فيه حلول الزيت في الزيتون، يعبَّر عنه أنا وأنت، بقاؤه في الجسم حياة، وانفصاله عنها موت، وبالجملة فإن الوقوف على حقيقة الروح أمر عسير، والطريق إليه وعرٌ، وقد جعلها الله تعالى من أعظم آياته، الدالة على جلال ذاته ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ أي خرّوا له ساجدين، سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ لم يشذَّ منهم أحد ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ بحيث لم يتأخر واحدٌ منهم، وليس المأمور به مجرد الانحناء، بل السجود بالمعنى المتبّادر أي اسجدوا له تحية وتعظيما، أو اسجدوا لله تعالى على أنه بمنزلة القبلة.

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ ﴾ استثناء منقطع لأنه كان جنياً، مغموراً بألوف من الملائكة، أي لكنْ إبليس امتنع من السجود استكباراً وعصياناً فعدَّ منهم تغليباً ﴿ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾.

﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾ أيْ أيُّ سببٍ لك ﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ أي مع الملائكة الساجدين لآدم مع أنهم هم، ومنزلتهم في الشرف رفيعة، وقد سجدوا له؟ والظاهر أن قول الله تعالى له ذلك لم يكن بواسطة.

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني وينافي حالي أن أسجد ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ جسماني كثيف وأنا روحاني؟ ﴿ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ اقتصر ههنا على الإشارة الإجماليةِ إلى ادعاء الخيرية، اكتفاء بما صرح به حين قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وقد أخطأ اللعين، حيث ظن أن الفضل كله باعتبار

المادة، بل إن ملاك الفضل والكمال، هو التخلي عن المَلَكات الردية والتحلي بالمعارف الربانية.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ الضمير للسماء، وأُيد بظاهر قوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من الخير، فإن من يطرد يرجم بالحجر، وقد تضمن هذا الكلام، الجواب عن شبهته، فكأنه قيل: إن المانع لك عن السجود شقاوتك، وبعدك عن الخير، لا شرف عنصرك الذي تزعمه، وفي تفسير ﴿الرجيم﴾ بالمرجوم بالشهب، إشارة لطيفة إلى أن اللعين لما افتخر بالنار، عُذّب بها في الدنيا، فهو «كعابد النّار يهواها وتحرقه».

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥ ﴾.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ ﴾ أي هذا الطرد والتبعيد والظاهر أن المراد لعنة الله لقوله سبحانه: وإن عليك لعنتي ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ إنما حد اللعن به لأنه أبعد غاية يضربها الإنسان في كلامهم، كقوله تعالى: ﴿ما دامت السماوات والأرض﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي أمهلني وأخرني إلى اليوم الذي يبعث فيه آدم وذريته للجزاء، أراد أن يجد فسحة في الإغواء، ونجاة من الموت، إذ لا موت بعد البعث، فأجابه تعالى إلى الأول دون الثاني.

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الرب سبحانه ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ أي إنك من جملة الذين أخّرتُ آجالهم أزلاً، حسبما تقتضيه حكمة التكوين.

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ وهو النفخة الأولى عند الجمهور، كما رُوي عن ابن عباس.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ أي بسبب إغوائك إيَّاي ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ ﴾ المعاصي ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لذرية آدم ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ أي لأحملنهم على الغواية ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي كلّهم.

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ بفتح اللام أي الذين أخلصتهم لطاعتك، وطهّرتهم من الشوائب، فلا يعمل فيهم كيدي.

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ ﴾ أي حقّ عليَّ أن أراعيه وأحفظه ﴿ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي لا انحراف عنه، والإشارة إلى ما تضمّنه الاستثناء هو تخليص المخلصين من إغوائه.

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ تسلُّطٌ وتصرفٌ بالإغواء، والمراد من العباد جند الله المخلصون ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ الاستثناء منقطع، وإن إغواءَهم ليس بطريق القهر والتسلّط، بل بطريق الاتباع له بسوء اختيارهم، وفيه تفخيم لشأن المخلَصين.

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾ لموعد الغاوين أو المتبعين لإبليس ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي جميعاً وهو تأكيد للضمير.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ يدخلون فيها لكثرتهم، وطبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ ﴾ من الأتباع ﴿ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي جزء معّين حسبما يقتضيه استعداده.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي اتقوا ربهم من الكفر والفواحش وما يخدش الإيمان من الكبائر، وظاهر الآية يقتضي حصول الجنات، لكل من اتقى من ذنبٍ واحد، إلا أن الأمة مجتمعة على أن التقوى عن الكفر، شرط في حصول هذا الحكم، فثبت أن الحكم يتناول جميع القائلين «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ولو كانوا من أهل المعصية ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي في البساتين والحدائق الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء السلسبيل، ويحتمل أن تكون العيون هذه الأنهار، ويحتمل أن تكون منابع مغايرة لتلك الأنهار، وهو الظاهر.

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ على إرادة القول أي يُقال لهم ادخلوا هذه الجنات، وهو أمرٌ من الله تعالى بالدخول في الجنان ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أي سالمين من الآفات والأسقام والأكدار، ﴿ آمِنِينَ ﴾ من الموت ومن زوال هذا النعيم، لا يخرجون منها أبداً كما قال سبحانه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ ويراد بالأمن في الحاضر والمستقبل.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أي حقد ويطلق على الحسد ونحوه من الخصال المذمومة، الكائنة في القلب، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «يُحبس أهلُ الجنة حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظُلاَماتهم في الدنيا، ويدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل»[1] ومعنى الآية: طهَّر الله قلوبهم عن التحاسد في الدرجات في الجنة، ونزع سبحانه منها كل غل، وألقى فيها التواد والتحابّ ﴿ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ وفي كونهم على سرر إشارة إلى أنهم في رفعة وكرامة، وجه بعضهم لبعض، وهذا معنى التقابل، وروي عن مجاهد أن الأسرَّة تدور بهم حيثما داروا.

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب بأن لا يكون لهم ما يوجبه من الكدِّ في تحصيل ما لا بد لهم منه، لحصول كل ما يريدونه، من غير مزاولة عمل أصلاً أو بأن لا يعتريهم ذلك وإن باشروا الحركات لكمال قوتهم ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فإن تمام النعمة بالخلود.

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ والمراد من «عبادي» قيل مطلقاً،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري بلاغاً، وروي في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، يُقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة». تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٢ .

وقيل: الذين عبَّر عنهم بالمتقين، أي أخبرهم بأني أنا الغفور الرحيم، الساتر لذنوب عباده، الرحيم الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء.

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ أي وأخبرهم أن عذابي شديد وأليم، لمن أصرَّ على المعاصي والآثام، وفي توصيف ذاته تعالى بالرحمة والمغفرة، دون التعذيب، حيث لم يقل «وأني أنا المعذّب المؤلم» ترجيح لجانب الوعد على الوعيد، ويقوّي أمر الترجيح، الإتيان بالوصفين بصيغتي المبالغة[1]، وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سبحانه، خلق الرحمة يوم خلقها، مائة رحمة، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فبها يتراحمون، ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة، لم ييأس من الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب، لم يأمن من النار»[2].

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي الملائكة الذين بشروه بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، وإنما سموا ضيفاً لأنهم كانوا في زي الضيف.

﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ أي اذكر وقت دخولهم عليه ﴿ فَقَالُوا۟ ﴾ عند ذلك ﴿ سَلَٰمًا ﴾ أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمنا عليك سلاماً ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ

---

(١) قال في البحر ٥/٤٥٧: وجاء قوله: ﴿وأن عذابي﴾ في غاية اللطف، إذ لم يقل على وجه المقابلة: وأني المعذّب المؤلم، وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والمغفرة.

(٢) أخرجه البخاري ١٠/٤٣١ في الأدب ومسلم رقم ٢٧٥٢ في التوبة.

﴿وَجِلُونَ﴾ أي خائفون، وَجِل من باب تَعبِ إذا خاف، قاله عليه السلام حين امتنعوا من الأكل، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ وإنما لم يذكر هنا، اكتفاء بذكره في غير هذا الموضع، كما لم يذكر هنا رد السلام عليهم.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ أي لا تَخَفْ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ تعليل للنهي عن الوَجَل ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحق عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسحَاق﴾ والتنوين للتعظيم، أي بغلام عظيم القدر ﴿عَلِيمٍ﴾ ذو علم كثير، وفي الآية إشارة إلى أنه يكون نبياً، كما في قوله سبحانه: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسحَاق نَبِيًّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بذلك ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ تعجب عليه السلام من أن يولد له ولد مع سنّ الكِبَر ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي بأيّ شيء تبشرونني؟ فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادةً، بشارةٌ بغير شيء، وأراد أن يتحقق من الأمر.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بما يكون لا محالة، وباليقين الذي لا لَبْس فيه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ من الآيسين من ذلك، فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فانٍ، وعجوز عاقر؟ وكأنَّ مقصوده عليه السلام استعظام نعمته عزَّ وجل عليه، في ضمن الاستعجاب العادي، وليس استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه، كما ينبىء عنه قول

الملائكة ﴿فَلَا تَكُن مِنَ القَانِطِينَ﴾ ولم يقولوا من الممترين، ولذلك جاء الجواب من خليل الرحمن.

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ وَمَن يَقْنَطُ ﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط ﴿ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ أي المخطئون طريق المعرفة، فلا يعرفون سعة رحمة الله، وكمال علمه وقدرته، كما قال تعالى: ﴿إنه لا يَيأسُ مِنْ رَوْحِ الله إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ ومراده نفي القنوط عن نفسه، أي ليس بي قنوط، وإنما الذي أقول لبيان حالي، لفيضان تلك النعمة الجليلة، والقنوط بالضمِّ: اليأسُ من رحمة الله تعالى.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾؟ الخطب الأمر الشديد ينزل بالإنسان ﴿ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أيها الرسل الكرام ملائكة الرحمن؟ أي أخبروني ما أمركم الهامُّ العظيم الذي جئتم له سوى البشرى؟.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ هم قوم لوط، وُصفوا بالإجرام ذماً لهم لفعلهم الشنيع القبيح.

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ أي إلاَّ أتباع لوطٍ وأهله المؤمنين، فسننجيهم من العذاب ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ أي ممّا يُعذَّب به القوم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لوط وآله منجون كافة، فلا ينزل بهم شيء من العذاب.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ استثناء من آل لوط ﴿ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي الباقين مع الكفرة، لتهلك معهم، فإن قيل: كيف أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، مع أنه لله تعالى؟ أجيب لما لهم من الاختصاص بالله تعالى، كما يقول خاصة الملك دبّرنا كذا، والمدبِّر هو المِلكُ.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۙ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ شروع في بيان إهلاك المجرمين، وتنجية آل لوط، أي فلما أتى رسل الله لوطاً عليه السلام.

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ إنما قاله عليه السلام حين ضاقت عليه الحيل، ولم يشاهد من الضيوف عند مقاساة الشدائد من قومه، الذين يريدون بهم ما يريدون، ما هو المعتاد من الإعانة، حيث لم يكونوا مباشرين معه لأسباب المدافعة، لا أنه قاله عند ورودهم له، على معنى إنكم قوم تنكركم نفسي، وتنفر منكم ولا أعرفكم.

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي بالعذاب الذي كنت تتوعدهم به، فيمترون ويكذّبونك فيه، وبيّنوا له جلية الأمر، فـ «بل» للإضراب عما حسبه من ترك النصرة عليه، والمعنى: ما خذلناك بل جئناك بما يدمّرهم، من العذاب الذي يشكّون فيه.

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ باليقين في عذابهم ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي صادقون فيما نقول، عبّر عنه بذلك للتنصيص على نفي الامتراء منه.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي في طائفة من الليل، أو في آخره ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي وكن على أثرهم، تذودُهم وتسرع بهم، وتَطَّلِعُ على حالهم ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ ﴾ أي منك ومنهم ﴿ أَحَدٌ ﴾ فيرى ما وراءه من الهول، أو فيصيبه العذاب، فالالتفات على ظاهره، وخلاصة ذلك، وفائدة الأمر والنهي: أن يهاجر على وجه يمكنه وأهله، وفيه إرشاد إلى ما هو أدخل في الحزم للسير، وأدب المسافرة، وتنبيه على كيفية السفر الحقيقي، فلله تعالى در التنزيل!! والطائفة التي لا تحصى ﴿ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ إلى حيث أمركم الله بالمضي إليه.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَضَيْنَآ ﴾ أي أوحينا ﴿ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ أي دابر هؤلاء المجرمين أنهم يستأصلون عن آخرهم ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي وقت دخولهم في الصبح، حتى لا يبقى منهم أحد، وفي لفظ القضاء، والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بذلك، وإبهامه أولاً ثم تفسيره، من الدلالة على فخامة الأمر ما لا يخفى.

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ المدينة «سدوم» وأهلها أولئك القوم المجرمون، والتعبير عنهم بذلك للإشارة إلى كثرتهم، مع ما فيه من الإشارة إلى فظاعة حالهم، فإن اللائق بأهل المدينة أن يكرموا الغرباء، ويحسنوا المعاملة معهم، فهم عدلوا عن هذا اللائق، بل قصدوا الواردين بالفاحشة، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، أي جاء أهل سدوم منزل لوط عليه السلام ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ بأضياف لوط طمعاً فيهم، أي يبشّر بعضهم بعضاً، والاستبشار إظهارُ الفرح والسرور، إذ قيل لهم إن عنده أضياف في غاية الحسن، فطمعوا فيهم، قاتلهم الله.

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي ﴾ قاله عليه السلام لأنهم في زيّ الضيف، والتأكيد ليس لإنكارهم، بل لحمايتهم من السوء، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ أي فلا تفضحوني عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء، فيعلموا أنه ليس لي عندكم قدر.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في مباشرتكم العمل القبيح ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ ولا تذلوني بسببهم، من الخزي وهو الهوان، وإنما لم يصرّح بالفاحشة لرعاية مزيد الأدب مع ضيفه، كما قيل: ويرى الحر الموت ألذَّ طعماً منه.

﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ من أن تجير منهم أحداً، وتمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان ينهاهم عن ذلك وكانوا

أوعدوه وقالوا «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾[1] ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه.

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ أي نساء القوم تزوّجوا بهن بطريق الحلال، ولا تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشهوة.

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ قسم من الله تعالى بعمر نبينا ﷺ، على ما عليه جمهور المفسرين، عن ابن عباس قال: «ما خلقَ اللهُ نفساً أكرمَ عليه من محمد ﷺ، وما سمعتُ الله سبحانه أقسم بحياة أحدٍ غيره، قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾»[2] «العَمْرُ» بالفتح: البقاءُ، والحياةُ، قال الأعشى: «لَعَمْرُ من جَعَلَ الشُّهورَ عَلاَمَةً» ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾ أي لفي غوايتهم التي أزالت عقولهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيَّرون، فكيف يسمعون نصحك؟.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ العظيمة الهائلة صيحة جبريل قال ابن جريج: الصيحةُ مثل الصاعقة، فكل شيء أُهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ داخلين في شروق الشمس، أي وقت إشراق الشمس، والجمع بين «مصبحين» و «مشرقين» باعتبار الابتداء والانتهاء، بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح، وانتهاؤه عند الشروق، وقوله تعالى: ﴿مقطوع﴾ بمعنى يُقطع عن قريب.

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٦٧.

(٢) أخرجه البيهقي، وأبو نعيم، وابن مردويه عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٥.

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أي قلبنا بهم دورهم، فجعلنا أعالي المنازل أسافلها ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر، من طين متحجر، طُبخ بالنار، والتعبيرُ بالمطر يوحي بالشدَّة والكثرة، كأنه غيثٌ ماطر، وبركان ثائر!!.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر من القصة ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ علامات يستدل بها على حقيقة الحق ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قيل للناظرين المعتبرين المتأملين بعين الفكر والبصيرة، أخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «اتَّقُوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله تعالى، ثم قرأ الآية»[1] وكان بعض المالكية يحكم بالفراسة في الأحكام جرياً على طريق إياس بن معاوية.

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهَا ﴾ أي القرى ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها في ديار المعذَّبين.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر ﴿ لَآيَةً ﴾ عظيمة ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنهم يعرفون أنَّ ما حاق بهم إنما حاق لسوء صنيعهم، وأما غيرهم فيحملون ذلك على اتفاق، أو على الأوضاع الفلكية.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٢٧ والسيوطي في الدر المنثور ١٠٣/٤.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾ وهو قوم شعيب كانوا يسكنون الغيضة، فبعثه الله إليهم فكذبوه، فأهلكوا بالظلة، والأيكةُ: الشجرة المتكاثفة ﴿ لَظَٰلِمِينَ ﴾ متجاوزين الحد في البغي والعصيان.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ جازيناهم على جنايتهم بالعذاب، روي عن قتادة أنه قال: إنه جلَّ شأنه سلَّط عليهم الحرَّ سبعة أيام، ثم بعث سبحانه عليهم سحابة، فجعلوا يلتمسون الرَّوْح منها، فبعث عليهم منها ناراً فأكلتهم، فهو عذاب يوم الظلة ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أي محلَّيْ قوم لوط، وقوم شعيب ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ لبطريق واضح، والإمام اسم لما يؤتمُّ به، سُمِّي به الطريق لأنها مما يؤتم به لأن المسافر يتبع به إلى الموضع الذي يريده.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ﴾ يعني ثمود، والحجر: اسم واد بين المدينة والشام، كان يسكنه ثمود عن أبي هريرة قال: لمَّا أتى ﷺ الحجر، قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلاَّ أن تكونوا باكين، ثم قنَّع رأسه، وأسرع السير، حتى جاوز الوادي»[١] ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ حين كذبوا رسولهم صالحا عليه السلام، فإن من كذب واحداً من رسل الله سبحانه، فقد كذب الجميع، لاتفاقهم على التوحيد، والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٣٧٨/٦ في الأنبياء، ومسلم رقم ٢٩٨٠ في الزهد.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أي معجزاتنا كالناقة، وسقيها، وشربها، ودَرِّها، فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتعظون، من شقاوتهم وضلالهم.

﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ من الانهدام والسقوط، ونقب اللصوص، وتخريب الأعداء لها، لأنها محصَّنة في الجبال، وقيل: آمنين من الموت، لاغترارهم بطول الأعمار، ومن نزول العذاب بهم.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب وقت الصباح، ووقع في سورة الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ ووفق بينهما أن الصيحة تفضي إلى الرجفة.

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم ﴾ لم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعدد.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي ملتبساً بالحق، والحكمة والمصلحة، بحيث لا يلائم استمرار الفساد، واستقرار الشرور،

ولذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء، دفعاً لفسادهم، وإظهاراً للحق والعدل والإنصاف ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فينتقم الله لك منهم، فالجملة الأولى إشارة إلى عذابهم الدنيوي، والثانية إلى عقابهم الأخروي، وفي كلتا الجملتين تسلية له ﷺ ﴿فَٱصْفَحِ﴾ أي أعرض عنهم ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ تحمَّلْ أذيتهم، ولا تعجل بالانتقام منهم، والصفح أبلغ من العفو، وهو ما خلا عن عتاب، وفي أمره ﷺ بذلك، إشارة إلى أنه ﷺ قادر على الانتقام منهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، وحاصل أمره ﷺ بمخالقتهم بخلق رضي، وحلم وتأن، بأن ينذرهم ويدعوهم إلى الله تعالى قبل القتال، وعلى هذا فالآية غير منسوخة، وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنها منسوخة بآية السيف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالك وأحوالهم، فلا يخفى عليه شيء مما جرى بينك وبينهم، فهو حقيق بأن تَكِلَ جميع الأمور إليه، ليحكم بينكم، وهو الخلاق العليم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ أي سبع آيات، وهي الفاتحة، روي ذلك عن عمر، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وروى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال: قال ﷺ: «الحمد لله رب العالمين هي السبعُ المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته[1]» وعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين أم القرآن، وأم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٨١.

الكتاب، والسبعُ المثاني»[1] والمثاني بيان للسبع وهو جمع مثنى بمعنى مردَّد ومكرّر، وإطلاق ذلك على الفاتحة لأنها تكرر قراءتها في الصلاة ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ أي ولقد آتيناك القرآن العظيم فهو من عطف الكل على الجزء.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب، ولا تدم نظرك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ من زخارف الدنيا وزينتها، ومحاسنها وزهرتها ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة: اليهود، والنصارى، والمشركين، فإن ما في الدنيا من أصناف الأموال بالنسبة إلى ما أوتيته مستحقر، لا يعبأ به أصلاً، والخطاب للرسول ﷺ والمراد أمته، لأنه كان أزهد الناس في الدنيا ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث لم يؤمنوا، وكان ﷺ يودُّ أن يؤمن كلُّ من بُعث إليه، ويشق عليه بقاء الكفرة على كفرهم، ولذا قيل ﴿وَلاَ تَحزَن عَليهم﴾ أي لا تتأثر على عدم إيمانهم وليس المعنى لا تحزن على تمتعهم بذلك ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تواضعْ لهم وارفق بهم، وخفضُ الجناح: كناية عن اللين والرفق.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَقُلْ﴾ يا رسول الله لهم ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي المنذر، المظهرُ لنزول عذاب الله، إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

(١) أخرجه أبو داود رقم ١٤٥٨ والترمذي رقم ٣١٢٤ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أي أنزلنا عليك القرآن، كما أنزلنا على أهل الكتاب التوراة والإنجيل.

﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ أي قسموه إلى حق وباطل، حيث قالوا عناداً وعداوة، بعضُه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، وهذا مروي عن ابن عباس[1] والحسن، وجوز أن يُراد بالمقتسمين جماعة من كفرة قريش، أرسلهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، ليقفوا على مداخل طرق مكة، وينفروا الناسَ عن الإيمان برسول الله ﷺ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر، والعضةُ: القطعةُ من الشيء والجزءُ منه[2] فالمعنى: جعلوا القرآن أجزاءً، وفي التعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية، التي هي تفريق الأعضاء من ذي الروح، المستلزم لإزالة حياته، وإبطال اسمه للتنصيص على قبح ما فعلوه.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لنسألنَّ يوم القيامة أصناف الكفرة مطلقاً، المتآمرين وغيرهم، سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من قول وفعل، ليجزيهم جزاءاً موفوراً.

---

(١) روى البخاري ٨/ ٣٨٢ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿جعلوا القرآنَ عِضِين﴾ قال: «هم أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ جزَّءوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه».

(٢) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٥٥: عِضِينَ مأخوذ من الأعضاء أي فرَّقوه فرقاً وجعلوه أعضاء، وفي الصحاح للجوهري: أصله عِضْوة من عضوتُه أي فرَّقته، لأن المشركين فرَّقوا أقاويلهم فيه، فجعلوه كذباً، وسحراً، وكهانة، وشعراً.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فاجهر به، من صَدَع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، ولم يزل ﷺ مستخفياً قبل نزول ذلك، فلما نزلت خرج هو وأصحابه، روي ذلك عن ابن مسعود ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ فلا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم.

﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ بتدميرهم وإهلاكهم، ودلَّ القرآن الكريم على أن الله تعالى أفناهم، وأزال كيدهم، وكانوا خمسة من رؤساء الطغيان، دعا عليهم الرسول ﷺ فأهلكهم الله وكفى رسوله شرَّهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ ﴾ وصفهم بذلك تسلية لرسول الله ﷺ بإعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به ﷺ، بل اجترؤوا على العظيمة التي هي الإشراك بالله تعالى ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين.

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ من الشرك، والطعن في القرآن، والاستهزاء به وبالرسول، وكان يضيق صدره ﷺ لأن الجبلَّة البشرية تضعف عن الاحتمال.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فافزع إلى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر بالتسبيح، متلبّساً بحمده، أي قل: «سبحان الله وبحمده» يكفك، ويكشف الغمَّ عنك ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي المصلين، وفي أمره ﷺ بما ذكر إرشاد إلى ما يكشف به الغم الذي يجده، ولمزيد الاعتناء بأمر الصلاة، جيء بالأمر بها، وقد كان ﷺ إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة، وفي الآية إشارة إلى الترغيب بالجماعة فيها.

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ أي دم على ما أنت عليه، من عبادته تعالى، وإيثارُ الإظهار لتأكيد إظهار اللطف به ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ أي الموت فإنه متيقن لحاقه كل حي، والمعنى: فاعبده ما دمتَ حياً، ولا تُخِلَّ بالعبادة لحظة، فليس المراد ما زعمه بعض الملحِدين مما يسمونه بالكشف والشهود، وقالوا: إن العبد متى حصَّل ذلك، سقط عنه التكليف بالعبادة، وهي ليست إلا للمحجوبين، ولقد خرجوا بذلك من الدين، وجماعةِ المسلمين، ولم يزل ﷺ ما دام حياً آتياً بمراسم العبادات، فيقال: إنه لم يأته ﷺ اليقين حتى توفي؟ وافترى بعضهم أنه ﷺ لم يتضح له ليلة المعراج صبح الكشف والشهود، ولا يتجاسر على ذلك من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، أو حبة خردل من عقل، ينتظم به في سلك الإنسان، ونسأل الله سبحانه أن يحفظنا من سوء القضاء، ويمنَّ علينا بالتوفيق إلى ما يحبُّ ويرضى، وصلى الله على نبينا محمد ﷺ وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر»

* * *



مكية وهي مائة وثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي الساعة، عبَّر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل، وللإيذان بأن إتيانُه منوط بحكمه وقضائه، وإتيانه عبارةٌ عن دنوِّه واقترابه، أو على إتيان مباديه القريبة، والمعنى: دنا واقترب ما وعدتم به أيها الكفرة، وقرب قيام الساعة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الخطاب للكفرة خاصة، واستعجالهم وإن كان بطريق الاستهزاء، لكنَّه حُمل على الحقيقة، ونُهوا عنه بضربٍ من التهكم، ولما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين، ويشير بأصبعيه السبَّابة والوسطى»[1] ولمَّا قالوا: إن صحَّ مجيء العذاب فالأصنام تخلصنا بشفاعتها، رد ذلك فقال ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرأ عن أن يكون له شريك، فيدفع ما أراد الله بهم من العذاب.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/٦٩١ ومسلم رقم ٢٩٥١ في الفتن، والترمذي رقم ٢٢١٤.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ المراد بالملائكة: جبريل عليه السلام ومن معه من حفظة الوحي ﴿ بِٱلرُّوحِ ﴾ أي بالوحي الذي من جملته القرآن الكريم، على نهج الاستعارة، فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ﴿ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ أي حال كونه ناشئاً عن إرادته وأمره ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ أن ينزلهم به عليهم من الأنبياء والمرسلين، لاختصاصهم بصفات تؤهلهم لذلك ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ ﴾ أي ينزلهم بأن أنذروا أي بهذا القول، والمخاطبون به الأنبياء، والآمر هو الله سبحانه، والملائكة نَقَلَةٌ للأمر أي أعلمُوا الناس ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ خطاب للمستعجلين، أي فخافوا عذابي وانتقامي، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على قدرته ووحدانيته فقال تقدست أسماؤه:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ أي أوجدهما على ما هما عليه، بالحق الثابت، والحكمة الفائقة على الوجه اللائق ﴿ تَعَٰلَىٰ ﴾ تقدَّس بذاته، لا سيما بأفعاله التي من جملتها إبداع السماوات والأرض ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي عن إشراكهم المعهود.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ أي هذا النوع البشري ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ جماد لا قدرة له، سيَّال لا يحفظ شكلاً ولا وضعاً ﴿ فَإِذَا هُوَ ﴾ بعد الخلق ﴿ خَصِيمٌ ﴾ مجادل عن نفسه، مخاصم لخالقه ﴿ مُّبِينٌ ﴾ واضح الخصومة كأنه قد لُقِّن بها، لأن النفوس البشرية من أول الفطرة أقلُّ فهماً من سائر الحيوانات،

ألا ترى أنَّ ولد الدجاجة، كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق، فيهرب من الهرة، ويلتجىء إلى الأم، ويميّز بين الغذاء الذي يوافقه أو لا يوافقه، أما ولد الإنسان فإنه لا يميّز حين الولادة بين العدو والصديق، ولا بين الضار والنافع، ثم بعد كبره يقوى عقلُه، ويعظم فهمُه، بحيث يعرف أصناف المخلوقات والفلكيات والعنصريات، فالانتقال من تلك البلادة، إلى هذه الكياسة، نعمةٌ عظمى من فاعل مختار حكيم، فالواجب عليه أن يعرف خالقه، وتلك النعمة، ويشكر خالقها، وهو على العكس منكرٌ له، ومخاصم لخالقه، والغرضُ منه وصفُ الإنسان بالإفراط في الوقاحة، والتمادي في الكفر والعصيان.

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾.

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ﴾ وهي الأزواج الثمانية، من الإبل، والبقر، والضأن، والمعز ﴿خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ وهو ما يدفأ به من لباس معمول، من صوف، أو وبر، أو شعر، فيقي من البرد ﴿وَمَنَـٰفِعُ﴾ هي دَرُّها، وركوبها، وحملُها، والحراثة بها، وغير ذلك، وإنما عبر عنها بالمنافع بها ليتناول الكل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي ما يؤكل منها من اللحوم، والشحوم، والألبان.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ مع ما فُصّل من أنواع المنافع ﴿جَمَالٌ﴾ أي زينة في أعين الناس، ووجاهة عندهم ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردّونها من مراعيها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تخرجونها بالغداة من حظائرها إلى مسارحها[1]، وتعيين الوقتين

---

(١) قدَّم الإراحة على السرح، مع أنها مؤخرة، لأن الأنعام وقت الإراحة، أجمل وأحسن من سرحها، لأنها تجيء مالئة البطون، حافلة الضروع.

لأن ما يدور عليه أمر الجمال، من تزيين الأفنية والأكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها، إنما هو عند ورودها وصدورها.

﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ ﴾.

﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ ﴾ جمع ثِقَل، وهو متاعُ المسافر، مثل سبب وأسباب ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ ﴾ أي عام لكل بلد سحيق ﴿ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ ﴾ واصلين إليه بأنفسكم لولا الإبل ﴿ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ ﴾ الشقُّ: المشقة، أي لم تصلوا إليه إلا بمشقة عظيمة ﴿ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة، ويسَّر لكم الأمور الشاقة.

﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨ ﴾.

﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ ﴾ الخيل اسم جنس للفرس، لا واحد له من لفظه، أي خلق الخيلَ، والبغالَ، والحمير ﴿ لِتَرۡكَبُوهَا ﴾ تعليل بمعظم منافعها، وإلا فالانتفاع بها بالحمل أيضاً، مما لا ريب في تحققه ﴿ وَزِينَةٗۚ ﴾ أي وهي كذلك زينة وجمال، واستدل بعض العلماء بهذه الآية على حرمة أكل لحم الخيل، وعلل ذلك بأنها خُلقت للركوب والزينة، وقال البغوي: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم، بل المراد منها تعديد النعمة، والتنبيه على كمال قدرته تعالى ﴿ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ من أصناف خلائقه مما لا تعلمون كنهه وكيفية خلقه[1].

---

(١) ظهرت في هذه الأزمان، وسائل للحمل والركوب كالسيارات والقاطرات، والطائرات النفاثة وغيرها من الآلات الحديثة المخترعة، وكلها من تعليم الله عزَّ وجل للإنسان، =

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ القَصْدُ: مصدر بمعنى الفاعل، يقال: سبيلٌ قصدٌ أي مستقيم أي، حقٌّ عليه سبحانه وتعالى، بموجب رحمته ووعده، بيان الطريق المستقيم، الموصل لمن يسلكه إلى الحق الذي هو التوحيد، بنصب الأدلة، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه، أي عليه تعالى تقويمها وتعديلها بحيث يصل سالكها إلى الحق. «**مسألة الوجوب على الله عزَّ وجلَّ**» لا يجب عليه سبحانه شيء بحكم غيره، عند أهل السُنَّة، إذ لا سلطان فوق سلطانه، فيوجب عليه ويجعله مسؤولاً، ومذهبُ السلف الصالح في هذه المسألة أنه لا يجب على الله تعالى إلا ما أوجبه وكتبه على نفسه، وما هو مقتضى صفاته كالعدل والرحمة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ والأشاعرة ينقلون عن المعتزلة قولهم: بأنه يجب على الله كذا وكذا، فيدل نقلهم على أنهم يوجبون على الله تعالى إصلاح من يكون مكلفاً ومسؤولاً، وهذا حكم غريب وعجيب، مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة، من أنه لا يجب على الله شيء، إلا ما أوجبه سبحانه تفضلاً منه وكرماً، ثم اعلم أنّ تقويم وتعديل السبيل، على الله عزَّ وجل، لكنْ لا بعدما كانت في نفسها منحرفة عنه، بل إبداعها ابتداءً على نهج قول القائل: سبحان من صغَّر

= فسبحان من أبدع بهذه العبارة القصيرة، ما يتمخض عنه العلم في المستقبل من أنواع الاختراعات الحديثة، ولو أن القرآن العظيم أخبرهم في ذلك الزمان، أنه ستكون هناك مراكب فضائية، وعربات لا تجرُّها الخيل، وسيطيرون بين السماء والأرض بالطائرات النفاثة، لسارعوا إلى تكذيب القرآن، ولهذا تدرج معهم بالأسلوب الحكيم مراعاةً لعقولهم وأفكارهم، وقد قال عليٌّ رضي الله عنه: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم، أتحبُّون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُه»؟.

البعوض، وكبَّر الفيل، وهذه هي الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة، فإن ذلك ليس بحق على الله تعالى، لا بحسب ذاته، ولا بحسب رحمته، بل هو مخل بحكمته، حيث يستدعي تسوية المحسن والمسيء ﴿وَمِنْهَا﴾ أي بعض السبيل ﴿جَآئِرٌ﴾ أي مائل عن الحق لا يوصل سالكه إليه، وهو طريق الضلال، التي لا يكاد يحصى عددها، ومعنى الجور في اللغة: الميل عن الحق، جار عن الطريق: مال، وعن عبد الله بن المبارك: قصد السبيل: السُنَّةُ، والجائر: البدعة ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو شاء أن يهديكم إلى ما ذُكر من التوحيد هداية موصلة إليه البتة، مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك، ولكنْ لم يشأ لأن مشيئته تعالى تابعة للحكمة الداعية إليها، ولا حكمة في تلك المشيئة، لما أن الذي عليه يدور فلك التكليف، وإليه ينسحب الثواب والعقاب، إنما هو الاختيارُ الجزئي الذي عليه تترتب الأعمال، التي بها نِيْطَ الجزاء.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي مطراً ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ أي ما تشربونه ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ أي ومنه يحصل شجر، والمراد به ما ينبت من الأرض، سواء كان له ساقٌ أو لا ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون، من سامت الماشية، وأسامها صاحبها: أرسلها لترعى العُشب.

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم ﴾ أي الله تعالى ﴿ بِهِ ﴾ بما أنزل من السماء ﴿ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم

من الأرض، وإيثار صيغة الاستقبال، للدلالة على التجدد والاستمرار، وأنها سنة جارية على مرِّ الدهور، ولم يقل «كلَّ الثمرات» لأن كلَّها لا يكون إلاّ في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعضها للتذكرة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في إنزال الماء، وإنبات ما فصل ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على تفرده تعالى بالألوهية، لاشتماله على كمال العلم، والقدرة، والحكمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن من تفكّر في أن الحبة والنواة، تقع في الأرض، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أسفلها فيخرج منه عروق، تنبسط في أعماق الأرض، وينشق أعلاها ويخرج منه ساق فينمو، ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار، مشتملة على أجسام مختلفة الأشكال، والألوان، والخواص، والنواة قابلةٌ لتوليد الأمثال مع اتحاد المواد، واستواء نسبة الطبائع السفلية، والتأثيرات العلوية، بالنسبة إلى الكل، علم أن من هذه أفعاله وآثاره، لا يمكن أن يشبهه شيء من صفات الكمال، فضلاً عن أن يشاركه أخسُّ الأشياء في أخص صفاته التي هي الألوهية، وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات ختم الآية الكريمة بالأمر بالتفكر ﴿لآيةً لِقوْمٍ يَتفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خلفة، لمنامكم ومعاشكم، ولعقد الثمار ونضاجها ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي مسخّرةَ لمصالحكم ومنافعكم بتسهيله تعالى وتيسيره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من التسخير ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ باهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وحيث كانت هذه الآثار المتعدّدة ـ الدَّالةُ، بما فيها من عظيم القدرة، على الوحدانية ـ أظهرُ جميع الآيات، وعُقلت بمجرد العقل، قيل: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ أي وما خلق ﴿ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ من حيوانٍ ونباتٍ حال كونه ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾ أي أصنافه، فإن اختلافها غالباً يكون باختلاف اللون، واختلاف المخلوقات مع كثرتها لا يشبه بعضه بعضاً من كل الوجوه فيه دليل على كمال قدرته تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر من التسخيرات ﴿ لَأٓيَةً ﴾ بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد لا ندَّ له ولا ضدَّ ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي يتَّعظون فيعتبرون بذلك، ويستدلون على التوحيد، فإن ذلك غير محتاج إلا إلى التذكر.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ أي جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب، والغوص، وصيد الأسماك ﴿ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ أي غضاً وهو السمك، ووصفُه بالطراوة، للإشعار بلطافته، والتنبيه على وجوب المسارعة إلى أكله، كيلا يتسارع إليه الفساد، وللإيذان بكمال قدرته تعالى، خَلَقه الله عذباً طرياً، في ماءٍ زعاف، حيث إنه حدث لا بحسب الطبيعة بل بقدرة الله تعالى وحكمته، أظهرَ الضدَّ من الضدِّ ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً ﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ عبَّر في مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم، لكون لبسهنَّ لأجلهم ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ ﴾ أي السفن ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ أي جواري فيه، مقبلةً ومدبرة، ومعترضة، بريح واحدة تشقه في سيرها، من المَخْر وهو شقُّ الماء ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ ﴾ عطفٌ على تستخرجوا أي ولتطلبوا ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ من سَعَة رزقه بركوبها للتجارة

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تعرفون حقوق نعمه الجليلة، فتقومون بأداء شكرها، بالإيمان، والطاعة، ففي ركوب السفن قطعٌ لمسافةٍ طويلة، مع أحمال ثقيلة، في مدة قليلة، مع أنها طريق في طريق المهالك.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، أو لئلا تميد بكم، فإن الأرض قبل أن تُخلق فيها الجبال، كانت كرةً خفيفة، وكان من حقها أن تتحرك بأدنى سبب محرّك، فلما خُلقت الجبال تفاوتت حافاتها، وتوجَّهت الجبالُ بثقلها فصارت كالأوتاد، والله أعلم ﴿وَأَنْهَارًا﴾ أي وجعل فيها أنهاراً ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها إلى مقاصدكم.

﴿وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ أي معالم يستدل بها المسافرون بالنهار، من جبل، وسهلٍ، ومياهٍ، وريح ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي يهتدون بها بالليل في البراري والبحار، حيث لا علامة غيرها، والمراد بالنجم الجنس، والعرب مشهورون بالاهتداء بالنجوم، ومن الفقهاء من يجعل ذلك، دليلاً على أن المسافر إذا عميت عليه القبلة، فعليه أن يستدلَّ بالنجوم وبالعلامات.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ هذه المصنوعات العظيمة ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئاً أصلاً، وهو تبكيتٌ للكفرة، وتنبيه على كمال قبح ما فعلوه، والمراد بمن لا يخلق الأوثان والأصنام، وكل ما هذا شأنه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ألا

تلاحظون فلا تتذكرون ذلك، فإنه لوضوحه لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر.

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾.

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ تذكير إجمالي لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ ﴾ حيث يستر ما فرَّطتم من كفرانها، ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع.

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) ﴾.

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾ أي ما تضمرونه من العقائد والأعمال مما كانوا يمكرون ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي تظهرونه منهما من الإيذاء وفيه من الوعيد ما فيه.

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي والآلهة الذين يعبدهم الكفار ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ سبحانه ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ من الأشياء أصلاً، أي ليس من شأنهم ذلك ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية، فهم مخلوقون صنعهم البشر بأيديهم، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله؟ ثم زاد تعالى في التوضيح والبيان فقال:

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) ﴾.

﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ أي ميتة لا حياة فيها، ﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أي لا يعتريها الحياة أصلاً وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي تلك الآلهة ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي

عبدتهم، وهذا على طريق التهكم بهم، لأن شعور الجمادات بديهي الاستحالة.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا يشاركه شيء في الألوهية، فهو واحد أحد، فرد صمد ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وأحوالها التي من جملتها البعث ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ للوحدانية وللآيات الدالة عليها ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتراف بها، والكفر بالآخرة يؤدي إلى قصر النظر على العاجل، والإعراض عن الدلائل السمعية والعقلية.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم سرَّهم وجهرهم، لا تخفى عليه خافية ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد، أي لا يحب جنس المستكبرين، فكيف بمن استكبر عن التوحيد والإيمان؟ عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْرٍ، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حَسَناً، ونعلُه حسناً!! فقال ﷺ: ليس ذاك، إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْرُ بَطر الحقِّ، وغمْطُ الناس»[1].

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٩١ في الإيمان، ومعنى «بطر الحق» أي دفعه وعدم قبوله، و«غمط الناس» أي احتقارهم وازدراؤهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم ﴾ لأولئك المنكرين المستكبرين ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ أنزل ربكم؟ أو ما الذي أنزله؟ ﴿ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء: ما تدَّعون نزوله أحاديث الأولين وأباطيلهم، وليس من الإنزال في شيء، وهؤلاء القائلون هم المقتسمون، الذين اقتسموا مداخل مكة ينفِّرون الناسَ عن رسول الله ﷺ عند سؤال وفود الحجاج عما نزل عليه ﷺ، وعن نبوَّته ورسالته.

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أي قالوا ما قالوا، ليحملوا ذنوبهم الخاصة بهم، وهي أوزار إضلالهم ﴿ كَامِلَةً ﴾ لم يكفَّر منها شيء، بنكبةٍ أصابتهم في الدنيا، كما تُكفَّر أوزار المسلمين، وهذا يدلُّ على أنه سبحانه، قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ أي ومن بعض أوزار من ضلَّ بإضلالهم، وهو وزرُ الإضلال، لأنهما شريكان في الإجرام ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي يضلونهم غير عالمين بأن ما يدعون إليه طريق الضلال، أو يضلون من لا يعلم أنه ضلال، وفائدة التقييد بها الإشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذي لب، وإنما يتبعهم الأغبياء والجهلة، والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذراً، إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميّزوا بين المحقِّ والمبطل ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي بئس شيئاً يحملونه على ظهورهم يوم القيامة، والوزرُ: الإثمُ، جمعه أوزار، مثل حمل وأحمال.

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وعيد لهم برجوع مكرهم إلى أنفسهم، كدأب من قبلهم من الأمم الخالية، الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل، وهو عام في جميع المبطلين ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾ أي قلع الله بنيانهم من قواعده وأسسه ﴿بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ وهي الأعمدة التي تعمده فضعضعت أركانه ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ أي سقط عليهم سقف بنيانهم بعد تهدم القواعد، شُبهت حال أولئك الماكرين، في تدبيرهم المكائد التي أرادوا بها الإيقاع برسل الله، وفي إبطاله تعالى تلك المكائد، بحال قوم بنوا بنياناً، وعمَّدوه بالأساطين، فأتى الخراب للبنيان من قِبَل أساطينه، بأن ضُعضعت أركانه، فسقط عليهم السقف فهلكوا[1] ﴿ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي الهلاك والدمار ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ولا يدرون، ولا يخطر على بالهم، فالمعنى: إن هؤلاء الماكرين والقائلين للقرآن العظيم أساطير الأولين، سيأتيهم من العذاب العاجل وهم لا يحتسبون.

﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

(١) الآية مشهد كامل للهلاك والدمار، الذي أصاب أولئك المجرمين، وفيه سخرية بمكر الماكرين، فقد مثَّل تعالى لما دبَّره أولئك الأشقياء، بحال قوم بنوا بنياناً شديد الدعائم، فخرَّب الله عليهم أصوله وأساسه، فذهب الأساس، وهدمت القواعد، وسقط عليهم البنيان، فهلكوا وبادوا، وهو تمثيل بادي الروعة فائق الجمال.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ عطف على مقدّر، أي هذا عذاب هؤلاء وجزاؤهم في الدنيا، ويوم القيامة يخزيهم أي يذلهم بعذاب الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿وَيَقُولُ﴾ الله تعالى لهم تفضيحاً ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضافهم إليه سبحانه، حكايةً لإضافتهم الكاذبة، ففيه توبيخٌ مع الاستهزاء بهم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ ؟ أي تخاصمون الأنبياء في شأنهم، حين بيّنوا لكم بطلانها، والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة والمدافعة، على طريق الاستهزاء والتبكيت ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الموقف، وهم الدعاة الصادقون، والمؤمنون الذين أُوتوا علماً بدلائل التوحيد، وكانوا يدعونهم في الدنيا إلى التوحيد، فيجادلونهم ويتكبرون عليهم يقولون توبيخاً لهم، وتحقيقاً لما أوعدوهم به: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي الفضيحة والذل ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب الشديد ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالى، وبآياته ورسله، وكتبه والبعث.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي على الكافرين المستمرين على الكفر ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي حال كونهم ظالمين لأنفسهم، وأيُّ ظلم أكبرُ من هذا الظلم حيث عرّضوها للعذاب المخلّد، وبدلوا فطرة الله تبديلاً ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي استسلموا وانقادوا، أي فيسالمون حين يعاينون الموت ويتركون المشاقة، وينزلون عمّا كانوا عليه في الدنيا من الكبر، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في الدنيا ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ من شرك، قالوه منكرين لصدوره عنهم، كقولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1] وإنما عبروا عنه بالسوء، اعترافاً بكونه سيئاً ﴿بَلَىٰٓ﴾ ردٌّ عليهم من قِبَل أولي العلم، وإثبات لما نفوه، أي

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٢٣.

بلى كنتم تعملون ما تعملون من الجرائم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٨﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أوانه، فلا يفيد إنكاركم وكذبكم على أنفسكم، ثم صرَّح بذكر العقاب فقال:

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩﴾.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أي ادخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً، وذوقوا أصناف عذابها، وهذا يدل على تفاوت منازلهم في العقاب ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي عن التوحيد كما قال الله تعالى: ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾[1] وذكرهم بعنوان التكبر، للإشعار بسبب خلودهم فيها، والمعنى: بئست جهنم منزلاً ومقاماً للمتكبرين.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣٠﴾.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ أي المؤمنين، وصفوا بالتقوى إشعاراً بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشىء عن التقوى ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾؟ أي أنزل خيراً، وهو هذا الكلام الجامع، قالوه ترغيباً للسائل وهو جواب مطابق للسؤال سبكاً، وللواقع في نفس الأمر مضموناً، وأما الكفرة ـ خذلهم الله ـ فقد غيّروا الجواب عن نهج الحق، روي أن أحياء العرب، كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد كفه الكفار وأمروه بالانصراف، وقالوا إن لم تلقه كان خيراً لك، فيقول: أنا شرُّ وفدٍ إن رجعتُ إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد ﷺ فيلقى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين ﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي لهؤلاء المحسنين الذين أحسنوا أعمالهم، أو فعلوا الإحسان

---

(١) سورة النحل، آية: ٢٢.

﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ﴾ أي مثوبة حسنة مكافأة فيها ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي مثوبتهم فيها ﴿خَيْرٌۚ﴾ مما أوتوا في الدنيا من المثوبة ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي دار الآخرة، حُذف لدلالة ما سبق عليه، وهو كلام مبتدأ مدح الله به المتقين، ووعدهم بذلك ثوابي الدنيا والآخرة.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي لهم جنات عدن أي إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي يدخلونها للإقامة لا يخرجون منها أبداً ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا﴾ في تلك الجنات ﴿مَا يَشَآءُونَۚ﴾ من أنواع المشتهيات وهذا كقوله تعالى: ﴿وفيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾[1] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي كل من يتقي من الشرك أو المعاصي، ويدخل فيه المذكورون دخولاً أولياً، ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تقبض أرواحهم ملائكة الرحمة ﴿طَيِّبِينَۙ﴾ أي طيبة نفوسهم بلقاء الله، طاهرين من دنس الظلم لأنفسهم، طيبي النفوس ببشارة الملائكة إياهم بالجنة ﴿يَقُولُونَ﴾ أي قائلين لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ قال القرظي: إذا استدعيت نفسُ المؤمن، جاءه ملك الموت، فقال: السلام عليك يا وليَّ الله، اللهُ تعالى يقرأ عليك السلام، وبشَّره بالجنة ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي جنات عدن، والمراد دخولهم في وقته بعد البعث والحساب، فإن ذلك بشارة عظيمة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب

(١) سورة الزخرف، آية: ٧١.

ثباتكم على التقوى والطاعة، فإن قلت: كيف الجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» المرويُّ في الصحيحين، قال النووي: لا تعارض بين الآية والحديث، لأن معنى الآية أن دخول الجنة بسبب الأعمال، والتوفيق للإخلاص وقبوله بفضل من الله تعالى.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظر كفار مكة ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي ملائكة العذاب لقبض أرواحهم الخبيثة، والتعبير بانتظاره تصوير لهجومه عليهم بمخاوفه، فكأنهم يترصّدون وروده ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي العذاب الدنيوي لا القيامة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل فعل هؤلاء، من الشرك والظلم، والتكذيب والاستهزاء ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتعذيبهم وإهلاكهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟﴾ أي بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم، لأن عاقبة ظلمهم راجعٌ إليهم.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي أصابهم عقوبات أعمالهم السيئة ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي أحاط بهم، والحيقُ لا يستعمل إلا في الشرّ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي كفرة قريش، وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الإضمار لتقريعهم ودمغهم بالشرك ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ أي لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره، لما عبدنا ذلك ﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الذين نقتدي بهم في ديننا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ من السوائب والبحائر وغيرهما، وإنما قالوا ذلك تكذيباً للرسول ﷺ، وطعناً في الرسالة، متمسكين بأن ما شاء الله يجب، وما لم يشأ يمتنع، وحيث عبدنا غيره فهو واقع بمشيئته، ولو شاء لمنعنا من ذلك، وهذا عين ما حكاه الله تعالى في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآية فأجيب بقوله عزَّ وجلَّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك القول الشنيع ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم، أي أشركوا بالله، وحرموا ما أحلَّه، وردوا رسله وجادلوهم بالباطل، حين نبهوهم على الخطأ ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ الذين يبلغون رسالات الله ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ليست وظيفتهم إلا تبليغ الرسالة، وأما إلجاؤهم إلى الإيمان، فليس ذلك من وظيفتهم، ولا من الحكمة التي يدور أمر التكليف عليها، والفاء للتعليل كأنه قيل: كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل، فإن الرسل ليس شأنهم إلاَّ تبليغ أمر الله تعالى ونواهيه، لا تحقيق مضمونهما على الناس قسراً وإلجاءً.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ أي بعثنا في كل أمة من الأمم الخالية رسولاً خاصاً بهم، كما بعثنا فيكم الرسول ﷺ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي بأن اعبدوا الله وحده ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ كل ما يدعو إلى الضلالة ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى الحق الذي هو توحيده وعبادته ﴿وَمِنْهُم مَّنْ

﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ أي وجبت وثبتت إلى حين الموت لعناده وإصراره عليها، وعدم صرف قدرته إلى تحصيل الحق ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يا معشر الكفرة أي امشوا في أكنافها ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ من عاد وثمود، ممن حقت عليهم الضلالة والعذاب، لعلكم تعتبرون حين تشاهدون آثار الهلاك.

﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾.

﴿إِن تَحۡرِصۡ﴾ خطاب للرسول ﷺ ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ أي إن تطلب هدايتهم بجهدك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً، فيمن أصرَّ على الضلالة، بسوء اختياره، والمراد به كفرة قريش أي إن تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك، لأن الله لا يهدي من يضله، وهؤلاء من جملتهم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرهم في الهداية، أو يدفع العذاب.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ شروع في بيان فن آخر من أباطيلهم، وهو إنكارهم البعث ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ جاهدين في أيمانهم ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ واستدلوا بأن الشيء إذا فني وصار عدماً محضاً، لا يعود بعينه، بل العائد يكون شيئاً آخر، فردَّ الله تعالى بقوله الحق ﴿بَلَىٰ﴾ يبعثهم ﴿وَعۡدًا﴾ أي وعد بذلك وعداً ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي وعداً ثابتاً عليه إنجازه، لامتناع الخُلْف في وعده ﴿حَقّٗا﴾ صفة أخرى له ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لجهلهم بشؤون الله عز وجل، من العلم والقدرة والحكمة، وغيرها من صفاته تعالى، وعدم وقوفهم على سر التكوين.

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ متعلق بما دلَّ عليه «بلى» من البعث أي يبعثهم ليبين لهم بذلك ﴿ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من الحق المنتظم لجميع ما خالفوه، ممَّا جاء به الشرع المبين ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي وليعلم الجاحدون بالله، والمنكرون للبعث ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ في كل ما يقولونه، لا سيما في قولهم ﴿لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث، المقتضي له، من حيث الحكمة، وهو التمييز بين المطيع والعاصي، والمحق والمبطل.

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا ﴾ استئناف لبيان كيفية التكوين، أيَّ لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء، فإنا نقول ﴿ لِشَىْءٍ ﴾ أيَّ شيءٍ كان عزَّ أو هان ﴿ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ ﴾ أي وقت إرادتنا لوجوده ﴿ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ والمعنى: أن إيجاد كل مقدَّر على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعثُ، الذي هو بعضٌ منها؟.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ ﴾ أي في دين الله ورضاه، ولوجهه سبحانه ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ الذين ظلمهم كفرة مكة وأخرجوهم من ديارهم، فهاجروا إلى الحبشة، ثم بوَّأهم الله تعالى المدينة المنورة حسبما وعد بقوله سبحانه ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ تبوئة حسنة، أي نسكنهم مسكناً حسناً خيراً مما فقدوه، قال ابن عباس: بوأهم الله المدينة المنورة، فجعلها لهم دار

هجرة.. والآية تدلُّ على فضل المهاجرين، إلا أنها إذا لم تكن خالصة لله عزَّ وجلَّ لم يكن لها موقع، وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى آخر ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ ﴾ أي أجر أعمالهم المذكورة في الآخرة ﴿ أَكْبَرُ ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا، وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً، قال له: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا، وما ادّخر في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ الضمير للكفار، أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم في الدين.

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على الشدائد، من أذية الكفار، ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ خاصة ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يفوّضون الأمر لله، ويرضون بما أصابهم في الدين، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام التوكل.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ ﴾ وهذا ردٌّ على كفرة قريش حين قالوا: الله أجلُّ من أن يكون له رسول من البشر، فهلاَّ بعث إلينا ملكاً!! فنزلت الآية أي جرت السُنَّة الإلَهية حسبما اقتضته الحكمة، بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً، يوحي إليهم بواسطة المَلَك، أوامره ونواهيه، ليبلّغوها للناس، ولمَّا كان المقصود من الخطاب للرسول ﷺ، تنبيه الكفار على مضمونه، صَرَفَ الخطابَ إليهم فقيل: فإن شككتم فيه ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ أي أهل الكتاب وهم العلماء بالتوراة والإنجيل، ليعلموكم ذلك ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وإنما أُمروا بذلك، لأنهم يعتقدون أن

أهل الكتابِ أهل العلم والذكر، وفيه دلالة على أنه تعالى لم يرسل للدعوة العامة، مَلَكاً، ولا امرأةً ولا صبيّاً، وقوله تعالى: ﴿جاعِلِ المَلاَئِكَةِ رُسلاً﴾ معناه رسلاً إلى الأنبياء، وفيه إشارة إلى وجوب الرجوع إلى العلماء، فيما لا يعلم من الأمور الدينية.

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ الباء متعلقة بمقدَّر، وقع جواباً عن سؤال كأنه قال: بِمَ أُرسلوا؟ فقيل: أُرسلوا ﴿بالبيِّنات والزُّبُر﴾ أي بالمعجزات والكُتب ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي القرآن، سُمّي به لأنه تذكيرٌ وتنبيهٌ للغافلين ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ كافة ويدخل فيه أهل مكة ﴿ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ في ذلك الذكر، من الأحكام والشرائع وغير ذلك، بياناً شافياً كما يُنبىء عنه صيغة التفعيل «نُزِّلَ» ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي إرادة أن يتأملوا فينتبهوا للحقائق، وما فيه من العبر، ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين.

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ هم كفرةُ قريش، الذين مكروا برسول الله ﷺ، وراموا صدَّ أصحابه عن الدخول في الإسلام ﴿ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ كما فعل بقارون ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه أي في حالة غفلتهم.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي يهلكهم في أثناء أسفارهم ومتاجرتهم ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ أي على مخافةٍ وحذر من الهلاك، بأن يهلك قوماً قبلهم، فيتخوفوا، فيأخذهم العذاب وهم متخوفون مترقبون لنزوله، فإنه يكون أشد على النفس، وقيل: التخوف هو التنقص، والمراد منه ما يقع في أطراف بلادهم كما قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتي الأرض نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؟[1] والمراد بذكر الأحوال الثلاثة، بيان قدرة الله سبحانه على إهلاكهم، بأي وجه كان، لا الحصر فيها ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة مع استحقاقكم لها.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ استفهام إنكاري، أي ألم ينظروا ولم يروا ﴿ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من كل شيء له ظل كالجبل، والشجر، والبناء ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ﴾ أي يرجع شيئاً فشيئاً حسبما تقتضيه إرادة الخالق تعالى، فإن التفيؤ مطاوع الإفاءة ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ أي ألم يروا الأشياء التي لها ظلال، متفيئة عن أيمانها وشمائلها، أي عن جانبي كل منها ﴿ سُجَّدًا لِّلَّهِ ﴾ والمراد بسجودها: انقيادها لإرادته تعالى في الامتداد والتقلص وغيرهما، وكان الحسن رحمه الله يقول: ظِلُّك يا بن آدم يسجد لربك، وأما أنت فلا تسجد؟ ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي صاغرون، منقادون لله عزَّ وجلَّ، دخر الشخص دخوراً ذلَّ وهان، والمعنى: ترجع الظلال من جانب إلى جانب، بارتفاع الشمس وانحدارها، تتحرك على مدار معين، بتقدير العزيز العليم، منقادة لما قُدِّر لها، ملتصقة بها على هيئة الساجد الخاشع المنيب، منقادة لحكمه تعالى.

---

(١) سورة الرعد، آية: ٤١.

إن الله تعالى قد أعطى لكل شيء من المخلوقات، سمعاً، وبصراً، وفهماً، ولساناً، به يسمع كلام الحق، ويبصر شواهد الحق، ويفهم إشارة الحق، فكل شيء يسبح الله بذلك اللسان، ويسجد له بذلك الطوع، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] فلا يبعد أن يسجد لله كل شيء، وإن لم نفقه سجوده.

ثم بعدما بيَّن سجود الظلال، شرع في بيان سجود المخلوقات فقال:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ﴾ أي له تعالى وحده، يخضع وينقاد، لا لشيء غيره ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ قاطبة ﴿ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ كائناً ما كان ﴿ مِن دَآبَّةٖ ﴾ أي مما يدبّ فيهما من مخلوقات، ملائكة أو بشراً، لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية، سواء كان في الأرض أو في السماء ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي بما فيهم الملائكة الأبرار الأطهار ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الملائكة مع علو شأنهم ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن السجود له عزَّ وجلَّ.

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم ﴾ أي يخافون ربهم مالك أمرهم ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ يخافونه خوف هيبةٍ وإجلال، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ به من الطاعات، وبعدما بين أن جميع الموجودات يخضعون الخضوع التام الكامل لله عزَّ وجلَّ، أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه للمكلفين عن الإشراك فقال سبحانه:

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ ﴾ تعالى لجميع المكلفين ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ ﴾ أي لا تعبدوا إلهين، فإن الإله الحق لا يتعدد، وإنما ذكر العدد، مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك، للدلالة على أن مساق النهي هي الاثنينية وأنها منافية للألوهية، كما أن وصف الإله بالوحدة، للدلالة على أن المقصود، إثبات الوحدانية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ والنهي عنه هو الإشراك به تعالى، ألاَ تَرى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكّده، خُيِّل إليك أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية، فمن أجل ذلك جاء لفظ ﴿واحد﴾ ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ التفات من الغَيْبة إلى التكلم، لتربية المهابة، وإلقاء الرهبة في القلوب ولذلك قُدم المفعول، وكُرر الفعل، أي إن كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون أي فخافون دون سواي.

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ خَلْقاً وملكاً، تعليل لانقياد ما فيهما له سبحانه خاصة ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ ﴾ أي الطاعة والانقياد ﴿ وَاصِبًاۚ ﴾ واجباً، ثابتاً لا زوال له، فهو الإله الحقُّ، الحقيق بأن يُرهب ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾؟ الهمزة للإنكار، أي كيف تتقون وتخافون غيره، ولا نفع ولا ضر إلاَّ بيده؟.

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَا بِكُم ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ نلتموه ممَّا يلابسكم ويصاحبكم ﴿ مِّن نِّعۡمَةٖ ﴾ أيَّ نعمةٍ كانت ﴿ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ فهي من الله تعالى، وهو المتفضل بها على عباده ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ ﴾ أي إذا أصابتكم المكاره، والشدة والأمراض ونحوها ﴿ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾ أي تضرعون في كشفه، ليس لكم

غيره تعالى، والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، أي إليه وحده تجأرون، لعلمهم بأنه لا مفزع للخلق إلاَّ هو، فكأنه تعالى قال لهم: فأين أنتم في حال السلامة؟.

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ ﴾ أي إذا أزال الشدة والضر، والبلاء عنكم ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ الخطاب للمشركين، و «من» للبيان كأنه قيل: إذا فريق منكم كافر، وهم أنتم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ والتعرض لوصف الربوبية، للإيذان بكمال قبح ما ارتكبوه، من الإشراك والكفران بالمنعم المتفضل جلَّ وعلا.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة، وإنكار كونها من الله تعالى، لأنهم يضيفون كشف الضر إلى الأسباب، ولا يضيفونها إلى الله تعالى، ألا ترى أن العليل إذا اشتد وجعه، تضرَّع إلى الله تعالى، فإذا زال أحال زواله إلى الدواء، وهذه الحالة تجري مجرى الصفة اللازمة لجوهر نفس الإنسان ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ أمر تهديد أي فعيشوا فيما أنتم فيه، إلى المدة التي ضرب الله عز وجل لكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمركم وكفركم.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾ هذا تعداد لجناياتهم الشنيعة ﴿ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لما لا يعلمون حقيقته، وقدره الخسيس من الجمادات، التي يتخذونها شركاء لله

تعالى، جهالة منهم وسفاهة، ويزعمون أنها تنفعهم وتشفع لهم عند الله ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الزرع والأنعام، تقرباً إلى الأصنام وهي جمادات ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ سؤال توبيخ وتقريع، أقسم تعالى بنفسه على نفسه ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا بأنها آلهة، وتختلقون الكذب على الله، والغرض من الآية التوبيخ لهم على عبادة الأوثان، وهي جمادات لا تضر ولا تنفع.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ هم خزاعة، وكنانة، الذين كانوا يقولون: الملائكةُ بنات الله، وإنما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة، لاستتارهم عن العيون كالنساء ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له عزَّ وجل، عن مضمون قولهم الفاجر، وتعجيبٌ من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ من البنين!! وهو كقوله تعالى: ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾؟ ثم ذكر تعالى أن الواحد منهم لا يرضى بالبنت لنفسه، فكيف ينسبها لله عز وجل؟.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي أُخبِر بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ أي صار دوام النهار ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة والحياء من الناس، والاسوداد كناية عن الاغتمام والتشويش، لأن الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره، وانبسط روحه، ووصل إلى الأطراف، ولا سيما إلى الوجه، فتلألأ الوجه، وإذا اشتد غم الإنسان، احتقن الروح ولم يبق منه أثر قوي في وجهه، فيصفرُّ ويسودّ وجهه ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممتلىءٌ حنقاً وغيظاً من المرأة.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿ يَتَوَارَىٰ﴾ أي يستخفي ﴿ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت، والتعبير عنها بـ «ما» لإسقاطها عن درجة العقلاء، ثم تردَّد في أمره، محدِّثاً نفسه في شأنه ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ أي ذلٍّ وهوان ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ ﴾ أي يخفيه ﴿ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ بالوأد، دسَّه في التراب دسّاً: دفنه فيه، وكلُّ شيء أخفيتَه فقد دسسته، ومنه يقال للجاسوس: دسيس القوم.

قال أهل التفسير: إن مُضَر، وخُزاعة، وتميماً، كانوا يدفنون البنات أحياء، والسبب في ذلك، إمَّا خوف الفقر، وكثرة العيال، أو الحميَّة، فيخافون عليهن من الأسر، ونحوها، وكانوا في الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم، توارى من القوم، إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً، ابتهج وسُرَّ بذلك، وإن كانت أنثى، حزن ولم يظهر أمام الناس أيَّاماً، حتى يفكِّر ما يصنع بها، فإذا أراد أن يستحييها تركها، حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر، وجعلها ترعى الإبل أو الغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها، قال لأمها: زيِّنيها حتى أذهبَ بها إلى أحمائها، ويكون قد حفر لها حفرة في الصحراء، فإذا بلغ بها تلك الحفرة، دفعها من خلفها في تلك البئر، ثم يهيل التراب على رأسها، وقيل: إنهم كانوا مختلفين في قتل البنات، فمنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها، ومنهم من يذبحها ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم، من الهُونِ، والازدراء، والحقارة، لله المتعال عن الصاحبة والولد، وقيل معناه: ألا ساء ما يحكمون في وأد البنات.

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ممن ذكرت قبائحهم ﴿ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أي صفة السوء، الذي هو كالمثل في القبح، وهي إيثار الذكور، ووأد البنات لدفع

العار وخشية الإملاق ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ وهو الوجود الذاتي، والغنى المطلق، والجودُ الواسع، والنزاهةُ عن صفات المخلوقين، فإن قيل: كيف جاء ﴿وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلى﴾ مع قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾؟ قلنا: المثلُ الذي يذكره الله حقٌّ وصدقٌ، والذي يذكره غيره فهو باطل، أي لا تمثّلوا لله بالأمثال الباطلة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي المتفرِّدُ بكمال القدرة ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يفعل بمقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ ﴾ أي الكفار ﴿ بِظُلۡمِهِم ﴾ بكفرهم ومعاصيهم، التي من جملتها ما عُدّد من قبائحهم ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا ﴾ أي على الأرض ﴿ مِن دَآبَّةٖ ﴾ أي ما ترك شيئاً من دابة قط بل أهلكها بالمرة، بشؤم ظلم الظالمين، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[1] فإن قيل: لم يصدر عن الدابة ذنبٌ، فكيف يجوز إهلاكها بسبب ظلم الناس؟ أُجيب بأنها مخلوقة لمنافع البشر، فهي عذاب للبشر أيضاً ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ ﴾ أي إلى وقت معيَّن تقتضيه الحكمة ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ أي فإذا جاء الوقت المحدَّد لهلاكهم، لا يتأخرون برهة يسيرة من الزمن ولا يتقدمون عليها، ولا يلزم من عموم الناس، وإضافة الظلم أن يكونوا كلهم ظالمين، لجواز أن يضاف إليهم بما شاع فيهم، وصدر عن أكثرهم.

﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ أي ينسبونه إليه سبحانه في زعمهم ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم، مما ذُكر من البنات، وأراذل الأموال، ولأصنامهم أكرمها، وهو تكرار لما سبق للتقريع ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي تقول الكذب[1]، وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي العاقبة الحسنى عند الله تعالى وهي الجنة كقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ فإن قيل: كيف يقولون بذلك، وهم كانوا منكرين للقيامة؟ قلنا: نعم إنهم كانوا منكرين، فلعلّهم قالوا: إن كان البعث حقاً فإنه يحصل لنا العاقبة الحسنى، بسبب هذا الدين الحق الذي نحن عليه، وقيل: كان في العرب جمعٌ يقرُّون بالبعث، ولذلك كانوا يربطون البعير على قبر الميت، ويتركونه إلى أن يموت، ويقولون: إن ذلك الميت إذا حُشر فإنه يُحشر معه مركوبُه فيركب عليه ﴿لَا جَرَمَ﴾ ردٌّ لكلامهم ذلك، وإثبات لنقيضه، أي حقاً ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ مكان ما أمّلوا من الحسنى ﴿النَّارَ﴾ التي ليس وراء عذابها عذاب ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي مقدّمون إليها ومعجّلون، من أفرطتُه أي قدّمته في طلب الماء، والفَرَط: بفتحتين المتقدم لطلب الماء.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما يناله من جهالة الكفرة، ووعيد لهم على ذلك، أي أرسلنا إليهم رسلاً فدعوهم إلى الحق، فلم يجيبوا إلى ذلك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي قرينهم في الدنيا يغريهم ويغويهم ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو عذاب النار.

---

(١) حكي أن أبا يوسف ردَّ الشهادة على واحد من أقرباء هارون الرشيد، فشكى للخليفة فقال هارون: لمَ رددت شهادته؟ قال: لأني سمعته يوماً بين يديك يقول: عبدُك، فإن كان صادقاً، فلا تقبل شهادة للعبد، وإن كان كاذباً فلا شهادة للكاذب!!.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أي القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ ﴾ أي ما أنزلناه عليك لعلة من العلل إلا لتبين وتوضِّح ﴿ لَهُمُ ﴾ أي للناس ﴿ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ من التوحيد، والقدر، وأحوال المعاد ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي للهداية والرحمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المغتنمون من آثاره، ولا ينفي كونه كذلك في حق الكل.

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ هذا تكرير لما سبق، تأكيداً لمضمونه، وتوطئةً لما يعقبه من أدلة التوحيد، لأن المقصود الأعظم من القرآن الكريم تقرير أصول أربعة: الإلٰهيات، والنبوات، والمعاد، وإثبات القضاء والقدر، والأحرى بالبيان أولاً تقرير الإلهيات، فلهذا السبب، كلما امتدَّ الكلام في فصل من الفصول، عاد إلى تقرير الإلٰهيات ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ بما أنبت به فيها من النباتات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ أي يبسها ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في إنزال الماء، وإحياء الأرض الميتة به ﴿ لَـَٔايَةً ﴾ دالة على وحدانيته سبحانه، وعلمه، وقدرته، وحكمته ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سمع إنصاف وتدبر وتفكر، لا سماع الآذان لأن من لا يسمع بقلبه، فكأنه لم يسمع.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ وأيَّ عبرة تحار في دركها العقول ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ أي بطون الأنعام والتذكير لمراعاة جانب اللفظ، فإنه اسم جمع

كالرهط، والقوم، فهو بحسب اللفظ مفرد، وبحسب المعنى جمع، وقال في سورة المؤمنين: ﴿فِي بُطُونِهَا﴾ ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ الفرث، فُضالة ما يبقى من العلف في الكرش، المنهضم بعض الانهضام، وكثيف ما يبقى في المِعَىٰ، فإذا خرج من الكرش لا يسمى فرثاً، وذلك أن الحيوان إذا تناول الغذاء، وصل ذلك إلى معدته إن كان إنساناً، وإلى كرشه إن كان من الأنعام، فإذا حصل الهضم الأول فيه، فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي في الكبد، ينطبخ فيها ويصير دماً، وهو الهضم الثاني، فالدم يذهب في الأوردة، وهناك يحصل الهضم الثالث، وبين الكبد وبين الضروع عروق كثيرة، فينصبُّ بعض الدم من تلك العروق إلى الضروع، فيبيض لمجاورته لحومها الغددية البيض، ويلذُّ طعمه فيصير لبناً، ومن تدبَّر في بدائع صنعه تعالى، فيما ذكر من أخلاطٍ، وألبان، والأسباب المولدة لها، وتسخير القوى المتصرفة فيها، كل وقت على ما يليق به، اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه تعالى، وقدرته، وحكمته، ورأفته، ورحمته ﴿لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ صافياً لا يستصحب لون الدم، ولا رائحة الفرث، ومصفى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة ﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ سهل المرور في حلقهم، قيل: إنه لم يغص أحد باللبن قطُّ.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ أي ولكم عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل ﴿وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ والسَّكَرُ مصدر سمّي به الخمر، والسكر يكون من العنب، أو عصير الرطب إذا اشتد وأسكر ﴿وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ كالتمر، والدبس، والزبيب، والخل، والآية إن كانت سابقة النزول على تحريم الخمر، فدالة على كراهتها، وإلا فجامعة بين العتاب والمنة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ باهرة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في الآيات، بالنظر والتأمل، ويعلمون بالضرورة، أن هذه الأحوال لا يقدر عليها أحد إلا الله.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي ألهمها وركّز في أنفسها هذه الأعمال العجيبة، التي يعجز عنها العقلاء من البشر ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ أي بأن اتخذي ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي أوكاراً، وإنما سمي بيتاً، لما فيه من حسن الصنعة، التي لا يقوى عليها حُذّاق المهندسين، إلاّ بآلات وأنظار ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي يعرشه الناس، أي يرفعه من كرم أو سقف والمعنى: اتخذي بيوتاً لنفسك من الجبال، والشجر، وإلاّ فاتخذي ما يعرشونه لك، وإيراد حرف التبعيض «من» لما أنها لا تبني في كل جبل، وفي كل شجر، بل في البعض.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من كل ثمرة تشتهيها حلوها ومرها ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي مسالكه التي برأها، بحيث يحيل فيها بقدرته تعالى، النَّوْر المرَّ عسلاً من أجوافك، أو فاسلكي الطرق التي ألهمك في عمل العسل، راجعة إلى بيوتك لا تتوعر عليك ولا تلتبس ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول، أي مذللة غير متوعرة، ذللها الله سبحانه وسهّلها لك ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ عدل به عن الخطاب ليظهر منها من تعاجيب صنع الله التي هي موضع العبرة بعدما أُمرت بما أمرت ﴿شَرَابٌ﴾ أي عسل لأنه مشروب، واحتج به وبقوله كل من زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرة، فتستحيل في بطنها عسلاً، ثم تقيأ ادخاراً للشتاء وقيل: هو أنه يحدث في الهواء طَلٌّ لطيف في الليالي، ويقع ذلك الطلُّ على أوراق الأشجار والأزهار، فتكون تلك الأجزاء لطيفة صغيرة، والنحل تلتقط تلك الذرات بأفواهها وتذهب بها إلى

بيوتها لتدخر لنفسها غذاءها، والقائلون بهذا فسروا البطون بالأفواه لأن كل تجويف في داخل البدن فإنه يسمى بطناً، وكذا ههنا (من بطونها) أي من أفواهها، والقول الأول أولى وأصح، لأنا نشاهد أنه يوجد في طعم العسل، طعم تلك الأزهار التي تأكلها النحل، وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضاً، لا ما قاله الآخرون من أنه طلٌّ، لأنه لو كان طلاً لكان على لون واحد، وطبيعة واحدة، والله أعلم ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ ما بين أبيض، وأصفر، وأسود، لاختلاف سنّ النحل، والفصل، والذي أخذت منه العسل ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلَّما يوجد معجون لا يكون فيه عسل، مع أن التنكير فيه مُشْعِرٌ بالتبعيض، ويجوز كونه للتفخيم، فإن قالوا: كيف يكون شفاءً للناس، وهو يضر بالصفراء ويهيج المرارة؟ قلنا: إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس، أو لكل داء، وفي كل حال، بل لمَّا كان شفاءً للبعض، ومن بعض الأدواء، صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء. روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنُه، فقال ﷺ: «اسقه عسلاً، فسقاه ثم جاء فقال إني سقيته عسلاً فلم يزده إلاَّ استطلاقاً، فقال له ذلك ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: اسقه عسلاً فقال لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً فقال ﷺ: «صدق الله، وكذبَ بطنُ أخيك، فسقاه فبرأ»[1] اعترض بعض الملحدين على هذا الحديث، فقال: إن الأطباء مجمعون على أن العسل مسهِّل، فكيف يوصى لمن به الإسهال؟ أجيب بأن المسهِّل يقطع الإسهال بالتنقية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى ﴿لَأٓيَةً﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ من تفكَّر في اختصاص النحل بتلك الصنائع الدقيقة، والأفعال العجيبة، جزم قطعاً بأن لها خالقاً قادراً، يلهمها ذلك، ويهديها إليه، وألهمها أيضاً أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب ١٠/١٣٩ ومسلم رقم ٢٢١٧ باب التداوي بسقي العسل.

تجعل عليها أميراً نافذ الحكم فيها، ويكون هذا الآمر أكبرها جثة، وهي تطيعه، وتمتثل أمره، وألهمها الله تعالى أيضاً، أن جعلت على باب كل خلية بواباً، لا يمكّن غير أهلها من الدخول إليها، وأنها تخرج من بيوتها وتدور وترعى ثم ترجع إلى بيتها، ولا تضل عنها، ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف، بهذه الخواص العجيبة، الدالة على مزيد الذكاء والفطنة، دل ذلك على الإلهام الإلَهي.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾ أي أوجدكم من العدم، وأخرجكم إلى الوجود، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجائب أحوال ما ذكر من الماء، والنبات، والأنعام، والنحل، أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر. من أول عمره إلى آخره فقال: ﴿والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وقد ضبطوا مراتب العمر في أربع: الأولى: سن النشوء والنماء، ونهايته إلى ثلاثين سنة، والثانية: سن الوقوف وهو يتم بالأربعين، والثالثة: سنُّ الكهولة وهو يتمُّ بالستين، والرابعة: سنُّ الشيخوخة وهو بعد الستين، وطول الأعمار ليس من الجود الخاص، الذي يختص الله به بعض عباده كالرسالة، وإنما طول الأعمار وقصرها، وحدوث الأمراض التي تعرض للبشر، على وفق السنن العامة، ولذلك كانت عامة في المؤمن والكافر، فهي كمسألة الرزق، في سعته وضيقه، كما قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[1] ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حِكَم بالغة، بآجال مختلفة، أطفالاً وشباباً، وكهولاً وشيوخاً ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ ﴾

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٠.

قبل موته ﴿إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ أي أخسّه وأضعفه، وإيثار الرد على البلوغ، للإيذان بأن بلوغه إليه، رجوع في الحقيقة إلى الضعف بعد القوة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ﴾[1] ولا عمر أسوأ حالاً من عمر الهَرِم، الذي يشبه الطفل، وقيل: ليس هذا في المسلمين، لأن المسلم لا يزاد في طول العمر، إلا كرامة من عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[2] عن أنس قال: كان ﷺ يدعو بهذه الدعوات «اللهم إني أعوذ بك من البخل، والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات»[3] ﴿لِكَىۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٍ﴾ كثير ﴿شَيۡـًٔا﴾ من العلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعماركم ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء أراده، يميت الشاب النشيط، ويبقي الهرم الفاني، مع نقصان العقل والقوة، وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال، ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ولو كان ذلك مقتضى الطبائع، لما بلغ التفاوت هذا المبلغ.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ أي جعلكم متفاوتين؛ فمنكم غني ومنكم فقير، وهذا التفاوت غير مختص بالمال، بل هو حاصل في الذكاء، والبلادة، والحسن والقبح، والعقل والحمق، والصحة والسقم، وهذا بحر لا ساحل له، وهذا اعتبارٌ لحالٍ أخرى من أحوال الإنسان، وذلك أنَّا نرى أكيس الناس، يفني عمره في طلب المقدر من الدنيا، ولا

---

(١) سورة يس، آية: ٦٨.

(٢) سورة التين، الآيتان: ٥ و٦.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء رقم ٢٧٠٦.

يتيسَّر ذلك له، ونرى أجهل الخلق تنفتح عليه أبواب الدنيا، ولو كان السبب الجهدَ والعقلَ، لما رأينا هكذا، فعلمنا أن ذلك بسبب قسمة القسَّام كما قال تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ وقد كنتُ مصاحباً لبعض الناس في بعض الأسفار، وكان ذلك كثير المال، ربما حضرت الأطعمة الشهية، والفواكه العطرة عنده، وما كان يمكنه تناول شيء منها ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ فيه على غيرهم ﴿بِرَآدِّي﴾ أي بمعطي ﴿رِزْقِهِمْ﴾ الذي رزقهم إياه ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية، والمرزوقية ﴿فَهُمْ﴾ أي المُلَّاكُ والمماليك ﴿فِيهِ﴾ في الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾ أي لا يردُّونه عليهم بحيث يساوونهم في التصرف، فحيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لأنفسهم، وهم أمثالهم بالبشرية والمخلوقية، وهم أُسْوَةٌ لهم في استحقاق الرزق، فما بالهم يشركون بالله سبحانه بعض مخلوقاته، الذي هو بمعزل من درجة الاعتبار؟ وهذا كما ترى مثَلٌ ضُرب لقباحة ما فعله المشركون، كقوله تعالى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاء﴾؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون من الإشراك، فإن ذلك يقتضي أن يضيفوا نعم الله سبحانه إلى شركائهم، ويجحدوا كونها من عند الله تعالى، كما أن أهل الطبائع يضيفون الأشياء إلى الطبيعة.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم[1] ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ وضع الظاهر

(١) لقد شرع الله عزَّ وجل الزواج حفظاً للنسل، وصيانة للبشر من الأمراض والآثام، =

للإيذان بأن المراد جعل لكل منكم، من زوجه لا من زوج غيره ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ جمع حافد، وهو الذي يسرع في الخدمة، ومنه قول القانت: «وإليك نسعى ونحفد» أي جعل لكم خدماً يسرعون في خدمتكم والمراد بهم أولاد الأولاد، حَفَد من باب ضرب أسرع وحَفَده خدمه، فهو حافد، والجمع حفدة، مثل كافر وكفرة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من اللذائذ أو من الحلالات ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؟ الفاء للعطف على مقدر، أي أيكفرون بالله الذي شأنه هذا فيؤمنون بالباطل؟ ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾الفائضة عليهم مما لا يحيط به دائرة البيان ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث يضيفونها إلى الأصنام؟ وتقديم الصلة للاهتمام ولرعاية الفواصل.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عطف على ﴿يكفرون﴾ داخل تحت الإنكار، أي أيكفرون بنعمة الله، ويعبدون من دونه؟ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي شيئاً ما، قليلاً أو كثيراً، والرزق الذي يأتي من جانب السماء هو الغيث، أي ما لا يقدر على أن يرزقهم شيئاً من السماوات والأرض ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ولا يمكنهم أن يملكوه، إذ لا استطاعة لهم رأساً، لأنها مَوات لا حراك بها.

= واحتراماً للعلاقات الاجتماعية، ومعاونة على الحياة بين الزوجين، لتدوم بينهما المودة والرحمة كما قال سبحانه: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ ووضع أحكاماً للزواج منها ولي الأمر وهو الأب أو الأخ أو غيرهما من العصبات، ومنها الشهود، ورضى الزوجة البالغة، والمهر، وغير ذلك تقديراً منه لأهمية الدور العظيم الذي يتم عليه بناء الأسرة، وهذه الشروط وضعها الإسلام لتكون الأعراض مصونة من المجون والعبث، فتدبَّر حكمة الله سبحانه!!.

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ التفات إلى الخطاب للاهتمام بشأن النهي، أي لا تشركوا به شيئاً، والتعبير عن ذلك بضرب المثل، للقصد إلى النهي عن الإشراك به تعالى في شأن من الشؤون، فإن ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة، أي لا تشبّهوا بشأنه تعالى شيئاً من الشؤون ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ أي إن الله يعلم فساد ما تقولون، وعظم جرمكم فيما تفعلونه ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي إنه تعالى يعلم كنه الأشياء، وأنتم لا تعلمون، فدعوا رأيكم، وقفوا مواقف الامتثال، لما ورد عليكم من الأمر والنهي، ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك، فتقعون في مهاوي الردى والضلال.

﴿ ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي أورد شيئاً يستدل به على تباين الحال، بين الله عزَّ وجلَّ وبين ما أشركوا به ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ وُصف العبدُ بالمملوكية، للتمييز عن الحر، وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون، واحتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئاً ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا ﴾ أي من جانبنا ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي حلالاً طيباً ﴿ فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ ﴾ تفضلاً وإحساناً ﴿ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ إنفاق سر، وإنفاق جهر، والمراد بيان إنفاقه وشمول إنعامه لمن لا يرضى قبوله جهراً، والإشارة إلى أصناف نعم الله الباطنة والظاهرة ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بما ذكر؟ فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برزّاق العالمين حيث تشركون به ما لا حياة له من الجماد ولا نفع؟ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي كله

لله، لأنه مولي جميع النعم، لا يستحقه أحد غيره، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما ذكر فيضيفون نعمه تعالى إلى غيره، ويعبدونها لأجلها، ونفي العلم عن الأكثر، إشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك، وإنما لا يعملون بموجبه عناداً.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ آخر يدل على ما دلَّ عليه المثل السابق، على وجه أوضح ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ الأبكمُ: هو من وُلِد أخرس، وعن الزجاج أنه الذي لا يسمع ولا يبصر ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره، لقلة فهمه، وسوء إدراكه، وهو إشارة إلى عجزه التام ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ أي ثقيل عالةٌ على سيده، والكلُّ بالفتح الثقل ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ الذي يلي أمره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي حيث يرسله مولاه في أمر ولو كان مصلحة يسيرة ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي لا يُفلحُ ولا ينجح ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ مع ما فيه من الأوصاف المذكورة ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾؟[1] أي من هو منطيق، فَهِمٌ، ذو رأي وكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل

---

(١) ضرب الله تعالى مثلين بديعين: **الأول**: ضربه لنفسه سبحانه وللأوثان، فالله هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عباده، ليلاً ونهاراً، والأوثان والأصنام مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لله، ويعبدونها من دون الله، مع التفاوت العظيم بين الإِله القادر، والوثن العاجز؟ **والمثل الثاني**: ضربه الله للصنم الذي يعبد من دونه، ومثل له بصورة رجل أخرس، بليد الحس والذهن، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، ومع هذا هو عاجز لا يقدر على شيء مطلقاً، أينما أرسلته لا يأتِكَ بخير، ولا يقضِ لك حاجة، هل يتساوى مع رجل بليغ متكلم، ينطق بأفصح بيان، وهو على طريق مستقيم؟.

﴿وَهُوَ﴾ في نفسه مع ما ذكر ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على سيرة صالحة، ودين قويم، وهذا مثل ثانٍ ضربه الله عزَّ وجلَّ لنفسه، ولما يُفيض على عباده من إنعامه، وللأصنام التي هي جماداتٌ لا تنطق ولا تسمع، وهي كَلٌّ على عابديها، لأنها تحتاج إلى الحمل والخدمة.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا لأحد غيره، أي الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة، بحيث لا سبيل لهم إليها، لا مشاهدة ولا استدلالاً، وفيه إشعار بأن علمه سبحانه حضوري، ولذلك لم يقل: ولله علم غيب السموات والأرض ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي هي أعظم الغيوب، فإن وقت وقوعها مختصٌ به سبحانه، أي ما شأنها في سرعة المجيء ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ أي كرجع الطرف، من أعلى الحدقة إلى أسفلها ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي بل هو أقرب من ذلك وأسرع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء، وقدرته لا حدَّ لها، ومن جملة الأشياء، أن يجيء بها أسرع ما يكون، فهو قادر على ذلك، فيقدر على أن يحيي الخلائق دفعة، كما قدر على إحيائهم متدرجاً، وقد قرَّب العلمُ في هذا العصر، أمر البعث من العقول، بما قرَّره من كون كل ما في العالم، ثابت أصله لا يزول، وإنما هلاك الأشياء وفناؤها، عبارةٌ عن تحلل موادِّها، وتفرقها، وبما أثبته من تركيب المواد المتفرقة، وإرجاعها إلى تركيبها الأول في غير الأحياء، بل تصدى بعض علماء الألمان، لإيجاد البشر بطريقة علمية صناعية، بتنمية البذرة التي يولد منها الإنسان، وزعم أنه يمكن باتخاذ وسائل لتغذية المضغة، في حرارة كحرارة الرحم، أن تتولد فيها الأعضاء، حتى تكون إنساناً، وقد بيَّن تجربته ونظرياته في خطاب قرأه على طائفة إلى علماء الكون، فأُعجبوا بنظرياته، ولم ينكر أحد منهم إمكان ذلك، وهذا وإن

أمكن، ولكنْ أنّىَ لهم أن ينفخوا فيه الروح، ليصبح بشراً سويّاً؟ فهل يعجز عنه خالق البشر؟ قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ منتظم معه في أدلة التوحيد ﴿ مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي غير عالمين شيئاً أصلاً ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ أي جعل لكم هذه الأشياء آلات، تحصلون بها العلم والمعرفة، بأن تُحسُّوا بمشاعركم الأشياء، وتدركوها بأفئدتكم، فإذا أبصر الطفل شيئاً مرة بعد أخرى، ارتسم في خياله ماهية ذلك المبصر، وكذا إذا سمع شيئاً، وكذا القول في سائر الحواس، والأفئدة جمع فؤاد، وهو وسط القلب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كي تعرفوا ما أنعم الله به عليكم فتشكروه، فقد جعل لكم السمع، لتسمعوا مواعظ الله، والأبصار لتبصروا دلائل الله، والأفئدة لتعقلوا عظمة الله عزَّ وجلَّ.

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ أي ألم ينظروا إليها، جمع طائر ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مذلّلات للطيران، بما خلق لها من الأجنحة، والأسباب المساعدة له، وتسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء، وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبيعة الطير، بل ذلك بتسخير الله تعالى ﴿ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في الهواء المتباعد من الأرض، والجوُّ: هو الفضاء الواسع بين السماء

والأرض ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو حين قبض أجنحتهن، وبسطها، ووقوفهن ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ عزَّ وجل بقدرته الواسعة، فإن ثقل جسدها، ورقة الهواء يقتضيان السقوط، ولا علاقة من فوقها، ولا دعامة من تحتها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من تسخير الطير للطيران، بأن خلقها خلقة تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة، وأذناباً كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها، انعدم ثقلها فتخرق ما تحتها من الهواء وتخرق ما بين يديها من الهواء ولأنها لا تلاقيها بحجم كبير ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي من شأنهم أن يؤمنوا بأن المخلوق لا غنى به عن الخالق، وإن كانت هذه الآيات آيات لكل ذوي العقول.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ أي لمصلحتكم ومنفعتكم، وهذا نوع آخر من دلائل التوحيد، التي ذكرها الله عزَّ وجل في هذه السورة الكريمة، أي جعل لكم ومن أجل راحتكم ومصلحتكم ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ التي تبنونها من الحجر والمدر ﴿سَكَنًا﴾ أي موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم، وتطمئنون به، من غير أن ينتقل من مكانه ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ أخرى مغايرة لبيوتكم، هي الخيامُ، والقباب، والأخبية، والفساطيط ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفة، يخفُّ عليكم حملها ونقلها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ أي يوم ارتحالكم، في الحمل والنقل، يقال: ظَعَن ظعناً أي ارتحل ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وقت نزولكم في المساكن والبناء ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ أي وجعل لكم من أصواف الضأن، وأوبار الإبل، وأشعار المعْز ﴿أَثَٰثًا﴾ أي متاع البيت ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي شيئاً يتمتع به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى مدة من الزمان.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ﴾ من غير صنع من قِبَلِكُم ﴿ ظِلَٰلًا ﴾ أشياء تستظلون بها من الحر، كالغمام، والشجر، والجبل، وغيرها، امتن سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ مواضع تسكنون فيها من الكهوف، والمغارات، والسروب ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ ﴾ جمع سربال، وهو الثوب الذي يلبس، أي جعل لكم ثياباً من القطن، والكتان، والصوف وغيرها ﴿ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ خصَّه بالذكر اكتفاءً بأحد الضدين، ولأن الوقاية من الحر أهم عندهم ﴿ وَسَرَٰبِيلَ ﴾ من الدروع والحديد ﴿ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ أي في الحرب من الضرب والطعن، ولقد منَّ الله سبحانه على عباده، حيث ذكر نِعَمه الفائضة على جميع الطوائف، فبدأ بما يخصُّ المقيمين حيث قال: ﴿مِن بُيُوتِكُم سَكَنًا﴾ ثم بما يخص المسافر بقوله: ﴿مِن جُلُودِ الأَنعَامِ﴾ ثم بما يعمُّ من لا يقدر على الخيام حيث قال: ﴿مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ ثم لا بدَّ لكل أحد من الستر حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ﴾ ثم قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنعام ﴿ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ من النعم الظاهرة والباطنة، فتعرفوا حق منعمها، فتؤمنوا به وحده، وتذروا ما كنتم به تشركون ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أي تنقادون لأوامره جلَّ جلاله، ولتتفكروا فيها، فتؤمنوا به، فتَسْلَموا من عذاب الله.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ فإن أعرضوا عن الإسلام، ولم يقبلوا منك ما ألقي إليهم من البينات، والعبر، والعِظات ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ دعوة الله، وقد فعلتَهُ، وحسابُهم على الله تعالى.

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي يعرفون عن يقين نِعم الله تعالى التي أنعم بها عليهم، ويقولون: إنها من عند الله ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها، وقيل: نعمة الله نبوة الرسول ﷺ، عرفوها بالمعجزات، كما يعرفون أبناءهم، ثم أنكروها عناداً، ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي المنكرون بقلوبهم غير معترفين بما ذكر.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ يشهد لهم بالإيمان، أو بالكفر والعصيان، وهو نبيها كما قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في الاعتذار لقوله تعالى: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ وقيل لا يؤذن في الكلام أصلاً، وهو عندما يقال لهم: ﴿اخْسَئُوا فيها وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي لا يقال لهم: أرْضُوا ربَّكم، إذ الآخرة دار الجزاء، لا دار العمل، مأخوذ من العُتبى وهي الرضا، عَتَبَ عليه: لاَمَه في تسخط، وأعتبني أي أزال الشكوى والعتاب، واستعتب طلب الإعتاب، والعُتبى اسم من الإعتاب.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ الذي يستوجبونه، وهو عذاب جهنم، ووصلوا إليه فعند ذلك ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ العذاب ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي

يُمهلون، كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾[1].

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ يوم القيامة ﴿ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ الذين يدعونهم في الدنيا وهم الأوثان والشياطين ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ﴾ أي نعبدهم ونطيعهم، وهذا اعتراف بأنهم كانوا مخطئين، وقالوا ذلك طمعاً في توزيع العذاب بينهم، كما ينبيء عنه قوله سبحانه: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ ﴾ أي شركاؤهم ﴿ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم، لأن الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم[2]، فكأنَّ عبادتهم لم تكن لهم، وإنما عبدوا أهواءهم، ولا يمتنع إنطاق الله الأصنام به، فيزدادون بذلك غماً وندامة، كما قالت الملائكة: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ﴾ وكما قال الشيطان: ﴿ومَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي الذين ظلموا وأشركوا ﴿ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾ أي الاستسلام لأمر الله وحكمه، بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي ضاع وبطل ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ من أن لله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٠.

(٢) فإن قيل: كيف أثبت للأصنام نطقاً ونفاه عنها في سورة الكهف: ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ فالجواب أن هنا النطق بتكذيب المشركين، والمنفي عنها النطق بالإذن بالشفاعة، فلا تنافي بين النصين، والله أعلم.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّوا۟﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام، والحمل على الكفر ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ الذي كانوا يستحقونه بكفرهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ أي زدنا عذابهم، بسبب استمرارهم على الإفساد، وهو الصدُّ المذكور.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ تثنية للتهديد وهو نبيهم ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من جنسهم، قطعاً لمعذرتهم، وفي قوله عليهم إشعار بأن شهادة أنبيائهم تكون بمحضر منهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا رسول الله وإيثار لفظ المجيء على البعث، لكمال العناية بشأنه ﷺ ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الأمم وشهدائهم كقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾؟ وقيل على أمتك والمراد به يوم القيامة، وتم الكلام ههنا ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ أي توضيحاً شافياً وبياناً بليغاً ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يتعلق بأمور الدين، ومن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم، فيكون كالدليل على كونه ﷺ شهيداً عليهم، وكونه تبياناً لكل شيء باعتبار أن فيه نصاً على بعضها، وإحالة لبعضها على السُّنَّة، حيث أمر باتباع النبي ﷺ وحثاً على الإجماع، وقال ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[1] وقد اجتهدوا وقاسوا، فكانت السنةُ، والإجماعُ، والقياسُ

(١) الحديث أخرجه رُزَين، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، ونسبه لابن عساكر، =

مستنداً إلى تبيان الكتاب، ولم يضر ما في البعض من الخفاء في كونه تبياناً، فإن المبالغة باعتبار الكمِّية، دون الكيفيَّة ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للعالمين، فإن حرمان الكفرة من مغانم آثاره، من تفريطهم لا من جهة الكتاب ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ﴾ فيما نزّله تبياناً لكل شيء ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ بمراعاة التوسط بين طرفي الإفراط، والتفريط، وهو رأس الفضائل كلها، ويندرج تحتها فضيلة الاعتقاد كالتوحيد، المتوسط بين التعطيل والتشريك، وفضيلة الأخلاق كالجود المتوسط بين البخل، والتبذير، والشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن، وفضيلة العمل كأداء الواجبات المتوسطة بين البطالة والترهب، فظهر بهذه الأمثلة أن العدل واجبُ الرعاية في جميع الأمور[1]، ومنَ الكلمات المشهورة «بالعدل قامت السماوات والأرض» والعدل في الحقوق بالتسوية في الخصومة، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حق إلى حقه ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ الإتيان بما أمر به على الوجه اللائق، وهو ما بحسب الكميّة كالتطوع بالنوافل، أو بحسب الكيفية كما يشير إليه، قول النبي ﷺ: «الإحسانُ: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإن الله يراك» والإحسان في المكافأة أن تحسن إلى من أساء إليك، ومن الإحسان الشفقةُ

= ورواه ابن عبد البر في جامع العلم ٢/٩ ولا يخلو إسناده من ضعف، وانظر الروايات في جامع الأصول ٨/٥٥٦.

(١) العدل بين العبد وبين الله: إيثار حقِّ الله على حق نفسه، بملازمة جميع الأوامر، والاجتناب عما نهى الله عنه، والعدل بينه وبين نفسه: منعها مما فيه هلاكها وإذلالها والعدلُ بينه وبين الخلق: بذل النصيحة إليهم وترك الخيانة معهم.

على خلق الله[1] وأجلُّها صلةُ الرحم، ولذا أفرده بالذكر، فقال: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهو تخصيص بعد التعميم اهتماماً بشأنه ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ عن الإفراط في متابعة القوة الشهوانية، كالزنا فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها، وقيل: الفحشاء ما قبح من الفعل، والقول، فيدخل فيه جميع الأفعال القبيحة، والأقوال المذمومة ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما ينكر شرعاً وعقلاً على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ الاستعلاء والاستيلاء على الناس، والتجبر عليهم، وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية، التي هي حاصلة من القوتين: الشَهَوانية، والغضبية، وليس في البشر شر، إلاّ وهو مندرجٌ في هذه الأقسام الثلاثة، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هي أجمعُ آية في القرآن، للخير والشر، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة، لكفت في كونه تبياناً لكل شيء»[2] ﴿يَعِظُكُمْ﴾ بما يأمر وينهى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ طلباً لأن تتعظوا بذلك.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي بكل أمرٍ يجب الوفاء به، من مبايعة للرسول ﷺ أو عهدٍ قطعه على نفسه، وسائر ما يلتزمه الإنسان باختياره ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ أي حافظوا على حدود ما عاهدتم الله تعالى، وبايعتم به رسول الله ﷺ ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ التي تحلفون بها عند المعاهدة، أو مطلق الأيمان، وخَصَّ الأيمان بالذكر، تنبيهاً على أنه أولى أنواع العهد

---

(١) روى مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن المقسطين عند الله، على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم وما ولوا».

(٢) أقول: ولهذا يقرأها كل خطيب على المنبر في صلاة الجمعة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون﴾ لتكون عظة جامعة للناس كلهم.

بوجوب الرعاية ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها باسم الله عزَّ وجلَّ، وإنما قال: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ للفرق بين الأيمان المؤكدة بالعزم أو بالعقد، وبين اليمين اللغو، يقال في اللغة أكَّد، ووكَّد، لغتان فصيحتان ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي شاهداً ورقيباً، والواو للحال، أي لا تنقضوها وقد جعلتم الله كفيلاً، بسبب ذلك الحلف، فإن الكفيل مراعٍ، ومراقب لحال المكفول به، ومهيمن عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض الأيمان والعهود، فيجازي على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ﴾ عامٌّ دخله التخصيصُ، لقوله ﷺ: «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، ثم ليكفر عن يمينه»[1] ففيه ترغيبٌ وترهيب، والمراد فيجازيكم على ما تفعلون.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ أي ما غزلته، مصدر بمعنى المفعول أي مغزولها ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي من بعد إحكام وإبرام ﴿أَنْكَاثًا﴾ أي أنقاضاً، والمراد تقبيح حال الناقض، بتشبيهه بمن هذا شأنُه، وقيل هي امرأة حمقاء اتخذت مغزلاً فكانت تغزل هي وجواريها، من الصباح إلى الظهر، ثم تأمرهنَّ فينقضن ما غزلن، فكان هذا دأبها، وقد ضربه الله مثلاً لكل ناكث للعهد، ومخلفٍ للوعد ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حال من الضمير أي ولا تكونوا مشابهين لامرأة شأنها هذا، حال كونكم متخذين

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان.

أيمانكم حيلةً ومفسدة بينكم، وأصل الدَّخَل، ما يدخلُ الشيء على سبيل الإفساد ما لم يكن منه، وقيل: الدَّخَلُ أن يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه ﴿أَن تَكُونَ﴾ أي لأن تكون ﴿أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ﴾ أي أزيد عدداً، وأوفر مالاً. هذا والزيادةُ قد تكون في العدد، أو في القوة، أو بالشرف ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ من جماعة أخرى، أي لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم، أو لقوة عدوكم، وضعف حلفائكم، وهذا نهي لمن يحالف قوماً، فإن وجد أكثر منهم ترك العهد مع من حالفه، كقريش فإنهم كانوا إذا رأوا شوكةً في أعادي حلفائهم، نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي يختبركم بكونكم أربى، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله، وبيعة رسوله، أم تغترّون بكثرتكم، وقلة المؤمنين وضعفهم؟ ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ حين يجازيكم بأعمالكم، فيتميز المحق من المبطل.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مشيئة قسرٍ وإلجاء ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقة على الإسلام ﴿وَلَٰكِن﴾ لا يشاء ذلك لكونه مخالفاً لقضية الحكمة بل ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله، حسبما يصرف اختياره ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته حسبما يصرف اختياره إلى تحصيلها ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ جميعاً يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وهذا إشارة إلى الكسب الذي عليه يدور أمر الهداية والضلال.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ تصريح بالنهي عنه بعد التضمين، تأكيداً ومبالغةً في قبح المنهي عنه، أي لا تتخذوا أيمانكم مكراً وغدراً، وتجعلوها خديعة تغرُّون بها الناس، لتحصلوا على بعض منافع الدنيا، قال المفسرون: هذا النهي للذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، لأن الوعيد الذي بعده وهو قوله تعالى ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ لا يليق بنقض غيره أي فتزل عن محجة الحق، بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها بالإيمان، وهذا مَثلٌ يُذكر لكل من وقع في بلاء ومحنة، بعد عافية ونعمة، أو سقط في ورطة بعد سلامة[1] ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب الدنيوي ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ أو بصد غيركم لأن من نقض العهد سن سنة سيئة لغيرهم لأمد ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي ينتظم الوفاء بالعهود والأيمان ﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ذلك الجزاء الذي تذوقونه عقاب شديد.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً يريد عرض الدنيا، وهو ما كانت كفرة قريش، يَعِدُون من حطام الدنيا ضعفاء المسلمين، ويشترطون عليهم الارتداد ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من النصر، والتغنيم، والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يعدونكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهي على طريقة التحقيق.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٣٤٥: هذا مَثَلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة عن الصدِّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام ولهذا قال: ﴿وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾.

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ تعليل للخيرية، أي ما تتمتعون به من نِعَم الدنيا ـ وإن جلَّ وكَثُر ـ ينفَدُ ويفنى ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من خزائن رحمته الدنيوية والأخروية ﴿ بَاقٍ ﴾ أي لا نفاد له، أما الأخروية فظاهرة، وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالأخروية، فقد انتظمت في سمط الباقيات الصالحات، والآية دليل على أن نعيم الجنة باق وخالد، لا كما زعم بعض الفلاسفة أنه منقطع ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾ بنون العظمة تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا عَنْدَ اللهِ باقٍ﴾ على نهج التوكيد القسمي، مبالغة في الحمل على الثبات في الدين، أي والله لنجزينَّ ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ ﴾ على أذى الكفار، وعلى مشاق التكاليف، التي من جملتها الوفاء بالعهود ﴿ أَجْرَهُم ﴾ أي لنعطينهم أجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور، وإنما أُضيف إليه «أحسن» للإشعار لكمال حسنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾[1] لا لإفادة قصر الجزاء، على الأحسن منه دون الحسن، على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم، نعطيه الفرد الأعلى منها.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أيَّ عملٍ كان، وهو ما كان لوجه الله ورضاه، ليس فيه هوى ورياء ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ بيَّنه بالنوعين، دفعاً للتخصيص، ومبالغة في بيان شموله للكل ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ قيَّده به إذ لا اعتداد بأعمال

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤٨.

الكفرة في استحقاق الثواب لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[1] وإنما المتوقع تخفيف العذاب، وتدل هذه الآية الكريمة، أن الإيمان مغايرٌ للعمل الصالح، لأنه تعالى جعل الإيمان شرطاً، في كون العمل الصالح موجباً للثواب، وشرطُ الشيء مغايرٌ لذلك الشيء ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا، يعيش عيشاً طيباً، أما إن كان موسراً فظاهر، وأما إن كان معسراً فيطيب عيشه بالقناعة، والرضا بالقسمة، وتوقع الأجر العظيم، كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله، بخلاف الفاجر فإنه إن كان معسراً فهو التعيس، وإن كان موسراً فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ حسبما نفعل بالصابرين، ونعطيهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال، مع التجاوز عن السيئات.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي إذا أردت قراءته، وهو من إطلاق اسم المسبب على السبب ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي فاسأله أن يُعيذك ويجيرك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ من وساوسه كيلا يوسوس لك عند القراءة، وتخصيص قراءة القرآن، من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة للتنبيه على أهمية القرآن وعظم شأنه، ليستنير بنور القرآن، ويدفع عنه وساوس الشيطان[2]، والأمر للندب، وهذا مذهب الجمهور وعند بعضهم للوجوب، وظاهر الآية يدل

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٢) هذا هو الهدف من الاستعاذة، أن يدفع القارىء عن نفسه، وساوس الشيطان وهواجسه، ويصفو قلبه عند تلاوة القرآن، فيستنير بنور ضيائه، ويدرك معانيه وأسراره، دون أن يعبث الشيطان بروحه وقلبه، ولهذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يستعيذ في بعض الأحيان بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من نفْخه، ونفْثه، وهَمْزه» حمانا الله من شر إبليس اللعين!.

على أن الاستعاذة بعد القراءة لأن الفاء للتعقيب، ومذهب الجمهور من الصحابة والتابعين على خلافه، فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة، وعن ابن مسعود قال: «قرأت على الرسول ﷺ فقلت: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال ﷺ قل: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن اللوح المحفوظ».

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾.

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ﴾ أي للشيطان ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾ تسلُّطٌ وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي إليه يفوّضون أمرهم، وبه يعوذون في ما يأتون وما يذرون، فإن وسوسته لا تؤثر فيهم، إلا على غفلة، ولذلك أمروا بالاستعاذة.

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾.

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ﴾ أي تسلطه وولايته، بدعوته المستتبعة للاستجابة، لا سلطانه بالقسر أو الإلجاء، فإنه منتفٍ عن الفريقين ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ أي يتخذونه ولياً، ويستجيبون لدعوته ويطيعونه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ أي بسبب الشيطان مشركون بالله، إذ هو الذي حملهم على الإشراك، وقَصْرُ سلطانه عليهم دليل على أن لا واسطة في الخارج، بين التوكل على الله وبين تولي الشيطان، وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم في سلك من يتولى الشيطان، من حيث لا يحتسب، ففيه مبالغة في الحمل على التوكل، والتحذير عن مقابله.

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ أي إذا أنزلنا آية من القرآن، مكان آية منه، بأن ننسخها بها ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ أولاً وآخراً حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإن كل وقت مقتضٍ غير مقتضىٰ الآخر، فكم من مصلحة في وقت تنقلب في وقت آخر مفسدة، الانقلاب الداعية إلى ذلك، وما الشرائع إلا مصالح للعباد، في المعاش والمعاد، تدور حسبما تدور المصالح، كما أن الطبيب يأمر المريض بشربة، ثم بعد مدة ينهاه عنها ويأمره بضدها[1] ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ متقول على الله، تأمر بشيء ثم يبدو لك غيرُه فتنهىٰ عنه، وقد كان المشركون يقولون: إن محمداً يأمر بأمر اليوم، وينهى عنه غداً، ويأتي بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، وحكاية هذا القول للكفرة ناشئة من نزغات الشيطان ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن في النسخ حِكَماً بالغة، وإسناده إلى الأكثر لما أن فيهم من يعلم ذلك، وإنما ينكره عناداً.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ ﴾ أي القرآن ﴿ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي جبريل عليه السلام، أي الروح المطهَّر من أدناس البشرية ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ من عنده تعالى ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي ملابساً بالحق الثابت الموافق للحكمة ﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ على الإيمان بأنه كلامه تعالى، فإنهم إذا سمعوا الناسخ، وتدبروا ما فيه من

[1] مَثَل آيات الذكر الحكيم، كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات، حتى يماثل به إلى الشفاء، ثم يستبدل به الغذاء، فيعطيه ما يناسبه من الأطعمة، ويمنعه من بعضٍ منها، مراعاةً لظروفه الصحية، كذلك كان القرآن يتنزَّل ببعض الأحكام ثم ينسخها بما هو ملائم لتطور الزمن.

رعاية المصالح، رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ كان كفار مكة يقولون: إنه أي محمد ﷺ يستفيد هذه الكلمات من إنسان آخر ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ يعنون بذلك «جبر الرومي» كان يصنع السيوف بمكة، ويقرأ التوراة والإنجيل وكان ﷺ يمر عليه ويسمع ما يقرأه ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ أي لغة الرجل الذي يميلون ويشيرون إليه أعجمي، والعجميُّ: هو الذي لا يُفصح في كلامه ﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن الكريم ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، والقرآن معجز بنظمه، كما أنه معجز بمعناه، فإن زعمتم أن بشراً يعلّمه معناه، فكيف يعلّمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا؟ والتشبث بأذيال هذه الخرافات، دليل على كمال عجزهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يصدقون أنها من عند الله، ويقولون فيها ما يقولون، يسمونها تارة افتراءً، وتارة أساطير، وأخرى معلَّمةً من البشر ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلى الحق، وإلى سبيل النجاة لسوء حالهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، وهذا تهديد ووعيد لهم.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية ردٌّ لقولهم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ ردَّ وقَلَبَ الأمرَ عليهم، ببيان أنهم هم المفترون، فالمفتري هو الذي يُكذِّب بآيات الله، ويقول: إنه افتراء من صنع البشر، وكلمة «إنما» للحصر، والمعنى: إن الكذب والفرية، لا يقدم عليهما إلاَّ من كان غير مؤمن بآيات الله، لأنه لا يترقَّبُ عقاباً عليه، ليرتدع عنه، وأما من يؤمن بها، فإنه يخاف من العقاب، فلا يصدر عنه تكذيب وافتراء، وهذا تهديدٌ لهم ووعيد، روي أن النبي ﷺ قيل له: هل يكذب المؤمن؟ قال: لا، ثم قرأ الآية: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ على الحقيقة، والكاملون في الكذب، إذ لا كذب أعظم من تكذيب آيات الله تعالى!!

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ تلفَّظ بألفاظ الكفر ﴿مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعد إيمانه، وحُذف جوابه كأنه قيل: من كفر بالله بعد إيمانه فعليه غضبُ الله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على ذلك بأمر يخاف على نفسه، أو على عضوٍ من أعضائه ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ أي إلا من أُكره فكفر والحال أن قلبه مطمئنٌ بالإيمان، ولم تتغير عقيدته، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديقُ بالقلب، رُوي أن كفرة قريش، أكرهوا عماراً وأبويه على الارتداد، فأباه أبواه فقتلوهما، وهما أول شهيدين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل يا رسول الله: إن عماراً كفر، فقال ﷺ: «كلا إن عماراً مُلىء إيماناً من قرنه إلى قدمه، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال: ما

لك؟! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»[1]. وفي هذا دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر، عند الإكراه الملجىء، وإن كان الأفضل أن يجتنب عنه، إعزازاً للدين، كما فعل أبواه ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي اعتقده وطاب به صدراً ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ عظيم كائن ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لعظم جرمهم حيث كفروا بعد الإيمان.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الوعيد المذكور ﴿ بِأَنَّهُمُ ﴾ بسبب أنهم ﴿ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي آثروها ﴿ عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ﴾ إلى الإيمان، وإلى ما يوجب الثبات عليه، هداية قسر وإلجاء ﴿ ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ما داموا مختارين الكفر، فلا يعصمهم عن الزيغ.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ أي الموصوفون بما ذكر ﴿ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ ﴾ فلا يتدبرون ولا يلتفتون إلى المواعظ، ولا يبصرون طريق الرشاد ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ أي الكاملون في الغفلة، إذ لا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العاقبة.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١/٤٦٦ المختصر، وهي رواية عن ابن عباس، وقد ذَكر أن أمه «سُميَّة» أول شهيدة في الإسلام، قتلها أبو جهل اللعين، وانظر مختصر ابن كثير ٢/٣٤٨.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي حقاً إنهم الخاسرون، إذ ضيَّعوا أعمارهم، وصرفوها إلى ما يفضي إلى العذاب المخلد، ورأسُ مال الآخرة الإيمانُ، ومن ضيَّع رأس ماله فهو خاسر.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ ﴾ إلى دار الإسلام، وهم عمار وصحبه ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ أي عُذّبوا على الارتداد، وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالإيمان ﴿ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ ﴾ في سبيل الله ﴿ وَصَبَرُوٓا۟ ﴾ على مشاق الجهاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد المهاجرة والمجاهدة ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لما فُعل من قبل ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ ينعم عليهم مجازاة لهم على ما صنعوا وتحمَّلوا في سبيل الإسلام.

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي ﴾ أي يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ أي عن ذاتها تسعى في خلاصها لا يهمُّها شأنُ غيرها، فتقول: نفسي، نفسي، كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي تعطى وافياً كاملاً ﴿ مَّا عَمِلَتْ ﴾ جزاء ما عملت ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا ينقصون من أجورهم، ولا يزاد في عقابهم.

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ أي مثَّل لأهل مكة بقصة قرية كفرت نعمة الله، وجعلها مثلاً لأهل مكة خاصة، لأنهم كانوا في الأمن، والطمأنينة، والخصب، ثم أنعم الله تعالى عليهم بالنعمة العظمى، وهو بعثته ﷺ فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فلا جرم سلط الله عليهم البلاء، وعذبهم بالجوع سبع سنين، حتى أكلوا الجِيَف، فعذبهم الله بعذاب الدنيا لكفرهم النعم، والآية عامة لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا، فبدل الله نعمتهم بالنقمة ﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً ﴾ أي ذات أمن من كل مخوف، لا يُغار عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمَاً آمِنَاً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ والأمر في مكة كان كذلك، لأن العرب كان يغير بعضهم على بعض، وأما أهل مكة فقد كانوا يحترمونهم، ويخصُّونهم بالتعظيم ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ أي لا يزعج أهلَها مزعجٌ، فهم في أمن واطمئنان، ورفاهية وسعادة، الهواء عليل، والصحة وافرة، وكما قيل: ثلاثةٌ ليس لها نهاية: الأمنُ والصحةُ والكفاية ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا ﴾ أقواتُها والخيرات والأرزاق بسعة وكثرة، وورد النص بصيغة المضارع ﴿يأتيها﴾ لأن رزقها متجدد، وكونها آمنة ومطمئنة مستمر ﴿ رَغَدًا ﴾ واسعاً ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من نواحيها لإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام، وهو قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[1] ﴿ فَكَفَرَتْ ﴾ أي أهلها ﴿ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ نعم الأمن والرزق، وإيثار جمع القلة ﴿أَنْعُمِ﴾ للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة؟ ﴿ فَأَذَاقَهَا

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

﴿ٱللَّهُ﴾ أي أذاق أهلها ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ شبه أثر الجوع والخوف، والضرر المحيط بهم، باللباس المحيط باللابس فاستعير له لفظ الإذاقة على طريق الاستعارة المكنية، روي أن ابن الراوندي قال لابن الأعرابي: هل يُذاق اللباس؟ قال ابن الأعرابي: لا بأس ولا لباس يا أيها النسناس، هب أنك تشك أن محمداً ما كان نبياً، أما كان عربياً[(١)]!! وكان مقصود ابن الراوندي الطعن في هذه الآية، وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس، فردَّ عليه شيخ العربية بأن هذا من أساليب العرب البليغة، وهو من أبلغ الكلام وأفصحه، كما قال الشاعر:

فطعـم المـوت فـي أمـر حقيـر كطعـم المـوت فـي أمـر عظيـم

والمـوت ليس طعـامـاً حتى يشعـر الإنسـان بطعمـه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ من الكفر والجحود على وجه الاستمرار بحيث صار كفران النعمة كأنه صنعة لهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ من تتمة المثل أي ولقد جاء أهل تلك القرية ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من جنسهم وقومهم، يعرفونه بأصله ونسبه، فأنذرهم سوء العاقبة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته، وفيما أخبرهم به ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المستأصل لشأفتهم بعد ما ذاقوا نبذة منه ﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ أي حال التباسهم بما هم عليه من الظلم، الذي هو كفران النعمة، وتكذيب

(١) ابن الراوندي هذا كان معروفاً بميله إلى الإلحاد، وفي قلبه ظلمة الشكِّ والضلال، ولهذا ردَّ عليه شيخ العربية ابن الأعرابي بهذا الجواب الشديد، الذي فيه غلظةٌ وجفاء.

رسوله، وفيه دلالة على تماديهم في الكفر والعناد، وبه يتم التمثيل، فإن حال أهل مكة ـ سواء ضرب المثل لهم خاصة، أو لمن سار سيرتهم كافة ـ مشابهةٌ لحال أهل تلك القرية، من غير تفاوت بينهما، كيف لا، وقد كانوا في حرم آمن، ويتخطف الناس من حولهم، وما يمر ببالهم طيف من الخوف، وكانت تجيء إليهم ثمرات كل شيء، ولقد جاءهم رسول منهم، فكفروا بأنعم الله، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف، حيث أصابهم ما أصابهم، وقد ضاقت عليهم الأرض، بما أصابهم من الجدب، حتى استنجدوا برسول الله ﷺ لكشف الضر عنهم، فلما فرّج الله عنهم الكربة، عادوا إلى الكفر والضلال.

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ فَكُلُواْ ﴾ مفرّع على نتيجة التمثيل، وتحذير لهم عما يؤدي إلى مثل عاقبته، والمعنى: وقد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله تعالى، وتكذيب الرسول، وما حلّ بهم بسبب ذلك، فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعمة، وتكذيب الرسول، كيلا يحلّ بكم مثل ما حلّ بهم، واعرفوا حقّ نعم الله، وأطيعوا رسوله، وكلوا ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ حال كونه ﴿ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها ﴿ وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ ولا تقابلوها بالكفران ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي تطيعون، إن صحّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة، عبادته تعالى!!.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي إنما حرَّم الله عليكم هذه الأشياء الضارة كالميتة، والدم ولحم الخنزير. . الخ.

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾أي لا تقولوا الكذب في شأن ما تصفه ألسنتكم، من البهائم بالحل والحرمة، فتحلّلوا وتحرّموا من تلقاء أنفسكم، من غير دليل ولا برهان، وتقولوا ﴿ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ وكان العرب في الجاهلية، يحلّون أشياء، ويحرمون أشياء من عند أنفسهم، وينسبون ذلك إلى الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿تَصِفُ أَلسِنَتُكُمُ الكَذِبَ﴾ من فصيح الكلام وبليغه، كأن ماهيَّة الكذب، وحقيقته مجهولةٌ، وكلامُهم يكشف حقيقته للناس ويعرِّفه، كقولهم: وجهُها يصفُ الجمالَ، وعينُها تصِفُ السِّحْرَ ﴿ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ ﴾ فإن مدار الحلِّ والحرمة، ليس إلا بأمر الله تعالى، من غير دخل لأحدٍ في التحليل أو التحريم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ في أمر من الأمور ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي لا يفوزون بمطالبهم.

﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ أي منفعتهم فيما هم عليه، منفعةٌ قليلة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لهم عذاب مؤلم موجع في الآخرة.

لمَّا حصر تعالى المحرمات، بالغ في تأكيد ذلك الحصر بهذه الآية.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ خاصةً دون غيرهم ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ في سورة الأنعام ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ بذلك التحريم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فعلوا ما عُوقبوا به، وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم، وأن التحريم كما يكون للمضرة، يكون للعقوبة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي بسبب جهالة، ليعمَّ الجهل بالله وبعقابه[1]، وعدم التدبر في العواقب، لأنَّ السوء لفظ جامعٌ لكل فعل قبيح، وكل من يفعله إنما يفعله بجهالة، لأن العاقل لا يرضى بفعل القبيح، والجاهلُ إنما يفعل القبيح للذّة الهوىٰ، لا لعصيان المولى ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعدما عملوا، والتصريح به للتأكيد والمبالغة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء ﴿رَحِيمٌ﴾ يثيب على طاعته، وتكرار ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ لتأكيد الوعد.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على انفراده، لحيازته من الفضائل البشرية، ما لا تكاد توجد إلا متفرقة في أمة جمة، حسبما قيل:

وليس على الله بمستنكرٍ ... أن يجمعَ العالَمَ في واحد

وهو رئيس أهل التوحيد، وقدوة أصحاب التحقيق، جادل أهل الشرك ببينات باهرة، وأبطل مذاهبهم بالبراهين القاطعة، وإيراد ذكره عليه السلام، عقيب تزييف مذاهب المشركين، لأنهم يعترفون به وبحسن طريقته، ليصير حاملاً لهؤلاء على الإقرار بالتوحيد، والرجوع عن الشرك ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعاً له، قائماً بأمره ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في أمر من أمور الدين، صرَّح بذلك مع ظهوره،

---

(١) الجهل أقبح من الخطأ وفوق الخطأ، فالمجتهد إذا أخطأ لا يسمى جاهلاً، ومن يفعل القبيح فهو الجاهل، الذي يستحق العقاب، ولهذا جاء اللفظ في الآية: ﴿عملوا السوء بجهالة﴾ ولم يقل بخطأ، فتدبر دقائق التعبير القرآني.

ليردَّ على كفار قريش في قولهم نحن على ملة أبينا إبراهيم، وعلى اليهود في زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً لقوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[1].

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أوثر صيغة جمع القلة، للإيذان بأنه عليه السلام لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة ﴿ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾ للنبوّة ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إليه سبحانه، وهو دين الإسلام.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي حالة حسنة جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا، والثناء بين الناس، حتى إنه ليس من أهل دينٍ، إلاّ وهم يحترمونه ويجلّونه ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي من أصحاب الدرجات العالية في الجنة.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ مع علو طبقتك، وسموّ رتبتك، وفي «ثُمَّ» تعظيمُ منزلة نبينا ﷺ، والإيذان بأن أشرف ما أُوتي خليل الله عليه السلام من الكرامة، اتباع رسولنا ملته ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ والمراد بملته الإسلام، الذي عبر عنها آنفاً بالصراط المستقيم، والمأمور به الاتباع في الأصول، دون الشرائع المتبدلة بتبدّل الأعصار، ويحتمل أن تكون المتابعة، في كيفية

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٧.

الدعوة إلى التوحيد، وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معناه أنه كان من الموحدين في الصغر والكبر، وفيه تعريض بإشراك اليهود والنصارى.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي فُرض تعظيمه، والتخلي فيه للعبادة، وترك الصيد فيه، وهذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين﴾ فإن اليهود كانوا يدَّعون أن السبت من شعائر الإسلام، وأن إبراهيم عليه السلام كان محافظاً عليه، أي ليس السبت من شعائر شريعة إبراهيم، التي أُمرتَ باتباعها، وإنما شُرع ذلك لبني إسرائيل بعد مدة طويلة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ روي أن موسى عليه السلام أمر اليهود أن يجعلوا في الأسبوع يوماً واحداً للعبادة، وأن يكون ذلك اليوم يوم الجمعة، فأبوا عليه، وقالوا: نريد السبت، فأذن لهم في السبت، وابتلاهم الله بتحريم الصيد فيه، فاصطادوا فيه، فمسخهم الله قردة وخنازير، فاختلافهم في السبت، كان اختلافاً على نبيهم، لأن اليهود طبيعتهم التمرد والعصيان ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين المختلفين فيه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل فريق، بما يستحقه من الثواب والعقاب.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿ٱدْعُ﴾ أي أُدع يا محمد الناس إلى دين الله، وشريعته القدْسية ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي إلى الإسلام الذي عبر عنه بالصراط المستقيم

﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي بالأسلوب المقنع، والعبر النافعة، بما يؤثِّر فيهم وينجع، لا بالقسوة والشدة ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة، من الرفق واللين، واختيار الوجه الأيسر، واستعمال المقدمات المشهورة تسكيناً لشَغَبهم، وإطفاء لِلَهَبِهم، كما فعله إبراهيم الخليل عليه السلام، فقصر الدعوة على هذين القسمين، وأما الجدل فليس من باب الدعوة، بل الغرضُ منه إلزام الخصم، ولذا قُطِعَ الجدلُ عن باب الدعوة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي ما عليك إلا ما ذُكر من الدعوة، والمجادلة، وأما حصول الهداية والضلال، بموجب استعداده المكتسب فإلى الله سبحانه، إذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال، وبمن يهتدي إليه، وبعدما أمره ﷺ فيما يختص به من شأن الدعوة، عقَّبه بخطاب يعمُّ الكمال فقال تقدست أسماؤه:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟﴾ أي إن أردتم المعاقبة، على طريقة قول الطبيب: «إنْ أكلتَ فكُلْ قليلاً» فعاقبوا ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[1] أي بمثل ما فُعِل بكم، عبَّر عنه بالعقاب، على طريقة «كما تدين تُدان» والمقصود إيجابُ مراعاة العدل، فإن الدعوة المأمور بها لا تنفك عن ذلك ﴿وَلَئِن

---

(١) نزلت هذه الآية تسلية للنبي ﷺ حين قُتِل عمه حمزة رضي الله عنه، فلما رأى رسول الله ﷺ ما مثَّل المشركون به، حيث شقوا بطنه، وأخذوا كبده، وقطعوا أنفه، ومثَّلوا به وبسائر قتلى المسلمين تمثيلاً شنيعاً، قال ﷺ: «أمَا واللهِ لئن أظفرني الله بهم لأمثلنَّ بسبعين مكانك. .» فنزلت الآية، وانظر كامل القصة في تفسير تنوير الأذهان من روح البيان بتحقيقنا ٢/٣٢٧.

﴿صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة بالمثل ﴿لَهُوَ﴾ أي لصبركم ذلك ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من الانتصار بالمعاقبة، وإنما قيل: ﴿لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ مدحاً لهم ثم أُمر ﷺ صريحاً بما نُدب إليه غيره، لأنه أولى الناس بعظائم الأمور، لزيادة علمه ﷺ بشؤونه سبحانه، فقال جل ثناؤه:

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي على ما أصابك من فنون الآلام ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي وما صبرك على الشدائد والمكاره، إلا بذكر الله وبتوفيقه وتثبيته ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكافرين بوقوع اليأس من إيمانهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ أي في ضيق صدرٍ، بالفتح والكسر، وهما لغتان أي لا يضق صدرك بمكرهم، وبما يقولونه من السفه والجهل، والفائدةُ في هذا التعبير، هي أن الضِّيق إذا عظم وقوي، صار كالشيء المحيط به، فذكر هذا اللفظ بهذا المعنى ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي من مكرهم بك فيما يستقبل، فالأول نهيٌ عن التألم بمطلوب فات، والثاني نهيٌ عن التألم بمحذور من جهتهم آت، وهما من لوازم الصبر، لزيادة التأكيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ تعليل لما سبق من الأمر والنهي، والمراد بالمعية الولاية الدائمة، لا يحوم حول صاحبها شائبة شيء، من الجزع والحزن، وضيق الصدر ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم، وقد نبَّه تعالى على أن كلاً من الصبر، والتقوى، من قبيل الإحسان، كما في قوله

تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] قيل لهَرَم ابن حيَّان عند القرب من الوفاة: أوصِ، فقال: إنما الوصية من المال، ولا مال لي، ولكني أوصيكم بخواتيم سورة النحل.

الحق عزيز، والطريق بعيد، والمركب ضعيف، والحقائق مصونة، والأسرار فيما وراء الغيب مخزونة، وبيد الخلق القيل والقال، والكمال ليس إلا لله ذي الكرم والجلال، سبحان ربنا رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل خلقه وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل»

* * *

(١) سورة يوسف، آية: ٩٠.



سورة الإسراء

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾.

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ﴾ سبحان اسم للتسبيح ومعناه: تنزيه الله تعالى من كل نقص وسوء، وتصدير الكلام به، للتنزيه عن العجز عما ذكر بعده، والإسراء معناه السفر ليلاً، وهو ثابت بهذا النظم الكريم، ومفصَّل بالأحاديث النبويَّة الصحيحة، وذلك يعطيه قوة اليقين، ومنكر الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كافرٌ، لأنه أنكر القرآن الكريم، وإنكار المعراج فسق ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ أجمع المفسرون والعلماء على أن المراد بعبده رسول الله ﷺ ولم يختلف أحد من علماء الأمة في ذلك، وإيثار لفظ «العبد» للإيذان بتمحضه ﷺ في عبادته سبحانه وتعالى، وبلوغه في ذلك غاية الغايات، حسبما يلوح به مبدأ الإسراء ومنتهاه ﴿ لَيْلًا ﴾ قيَّده بالليل - والإسراءُ لا يكون إلا بالليل - للتأكيد، وليدلَّ التنكير على تقليل مدة الإسراء، وأنه تعالى أسرى به في بعض الليل لا في كله[1] ﴿ مِنَ الْمَسْجِدِ

---

(١) إنما ورد اللفظ ﴿ليلاً﴾ بالظرف ليفيد أنه كان في جزء وطائفة من الليل، ولو قال أسرى بعبده الليل لأفاد جميع الليل، فتنبه لدقائق أسرار القرآن.

﴿ٱلْحَرَامِ﴾ اختلف في مبدأ الإسراء، فقيل: هو المسجد الحرام، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، روي عنه ﷺ أنه قال: «بينما أنا في المسجد الحرام، في الحِجْر عند البيت، بين النائم واليقظان، إذْ أتاني جبريلُ بالبراق»[1] الحديث، وقيل: أُسري به من دار «أم هانيء بنت أبي طالب» وهذا قول الأكثر، وعلى هذا القول المراد بالمسجد الحرام الحرمُ أي مكة المكرمة، فإنها كلها حرم وكان قبل الهجرة بسنة، وكان بالروح والجسد، لا كما زعم بعضهم أنه كان روحانياً، والحق أنه كان جسمانياً، على ما ينبيء عنه التصدير بكلمة ﴿سُبحَانَ﴾ المفيدة للتنزيه، وما في ضمنه من التعجب، فإن الإسراء الروحاني ليس في الاستبعاد والاستنكار، وخرق العادة بهذه المثابة، لأن كثيراً من المؤمنين يسيرون بأرواحهم إلى أقاصي الدنيا، ويشاهدون ما فيها من العجائب، فإذا كان الإسراء بالروح فقط فأين الاختصاص والامتياز؟ ولذلك تعجبت منه قريشٌ وأحالوه وأنكروه، ولو كان بالمنام لما أنكروه، فالأكثرون على أنه أُسري بجسده، والأقلون قالوا: أُسري بروحه. وقال أهل التحقيق: إن العبد اسمٌ لمجموع الجسد والروح، وعلى الأول الجمهور، إذ لا فضيلة للحالم، ولا مزية للنائم، وفي هذا الحكم والاختلاف برهانٌ قويٌّ عَلى قوة الدين الإسلامي، الذي لا يأخذ أتباعه إلاَّ بالوضوح والصراحة التامة، وقال طائفة كان الإسراء إلى بيت المقدس بالجسد، وإلى السماء بالروح، محتجين بأن الله تعالى جعل المسجد الأقصى غاية للإسراء، ولو كان زائداً عليه لذكره، وقال النووي: الذي عليه معظم السلف وأكثر المفسرين والمحدثين أن المعراج كان بجسده في يقظته ﷺ، والمعروف عند الجمهور أن ليلة الإسراء هي السابعة والعشرون من ليالي رجب، في السنة الحادية عشرة من النبوة، وقيل غير هذا، ولا خطر ولا ضرر في تحديد اليوم ، فالعبرة في حدوث الشيء لا

---

(١) انظر تمام الحديث في صحيح البخاري كتاب التفسير ٨/٣٩١ وفي الإسراء من صحيح البخاري.

وقت وقوعه. ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ أي بيت المقدس، سمي به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ولِبُعْد المسافة ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ ببركات الدين والدنيا، لأنه مهبط الوحي، ومتعبَّد الأنبياء عليهم السلام، وهو محفوف بالأنهار الجارية، والأشجار المثمرة، فدمشق والأردن، وفلسطين من المدن التي حوله، وجُعل الإسراء إلى بيت المقدس، كالتوطئة لمعراجه ﷺ وتقريباً للإسراء إلى قبول السامعين، كما سألوا وقالوا: هل تستطيع أن تصف لنا المسجد؟ قال: نعم، فجلى الله له بيت المقدس، فنعته فقالوا: أما النعت فقد أصاب، ومع ذلك كابروا وجحدوا ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ غاية الإسراء ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل، مسيرة شهر، ومشاهدة بيت المقدس، وتمثُّل الأنبياء له، ووقوفه ﷺ على مقاماتهم العلية، والالتفات إلى التكلم لتعظيم تلك البركات ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقواله ﷺ ودعائه ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بأفعاله فيكرمه ويقربه بحسب ذلك، وفيه إيماء إلى أن الإسراء ليس إلا لتكرمته ﷺ، ورفع منزلته، وإلاَّ فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة إلى التقريب، والالتفات إلى الغيبة لتربية المهابة.. **حكمة الإسراء**: كان ﷺ قد ذهب إلى الطائف، يدعو أهلها إلى الإسلام، فما أحسنوا استقباله، بل أساؤوا إليه، فرجع حزيناً إلى مكة، لوقوف قريش بالمرصاد في طريق رسالته، فكأنما طاف بنفسه وروحه العالية، وكأنما رأى أنه محوط بأعداء الإسلام من كل جانب، مع قلة أنصاره، فكان في حالة لا يمكن التعبير عنها بالقلم، لشدة حرصه على خير العالم، وعظيم شوقه إلى انتشار الإسلام، وحينئذٍ كان الإسراء والمعراج، ليبشره الله تعالى عمليّاً بما يزيل من نفسه عوامل الحزن والأسف، فالإسراء بمثابة «مرسوم ملكي» أُعلِن فيه الرسولُ ﷺ ما هو قريب حصوله من إقبال الناس على دين الله، وقد تسلَّم ﷺ هذا المرسوم الجليل، في حفلة كاملة، حضرها الأنبياء والمرسلون، والملائكة المقربون، وفيها حِكَم كثيرة غير هذا.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي التوراة، وفيه إيماء إلى دعوته عليه السلام إلى الطور، وما وقع فيه من المناجاة، أي آتيناه بعدما أسرينا به إلى الطور، ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه للرسول ﷺ، وذكر في هذه الآية إكرامه لموسى عليه السلام ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أي ذلك الكتاب ﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ يهتدون بأنواره ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ ﴾ أي لا تتخذوا ﴿ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ أي ربّاً تكلون إليه أموركم.

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ نُصب على الاختصاص، يعني قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً، يا ذرية من حملنا مع نوح، والمراد تذكيرهم بإنعامه تعالى، في ذكر إنجاء آبائهم من الغرق، في سفينة نوح عليه السلام، فجميع الناس من ذرية من أنجي في السفينة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ كثير الشكر في حالاته، روي أنه عليه السلام كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا قال: الحمد لله، وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه، ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَقَضَيْنَآ ﴾ أي أعلمناهم وأوحينا إليهم ﴿ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي في التوراة ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ المراد بالأرض أرض فلسطين ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ مخالفة لحكم التوراة أي تفسدنَّ إفساداً عظيماً مرتين، وذلك بسفك

الدماء، وقتل الأنبياء، وقتل زكريا ويحيى، وقصد قتل عيسى عليهم السلام ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه بالظلم والعدوان، وتفرطن في ذلك مجاوزاً للحدود.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي حان وقت حلول الغضب لأولى المرتين من الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي بعثنا عليكم لمؤاخذتكم بجناياتكم أناساً جبارين للانتقام منكم، ذوي قوة وبطش في الحروب[1]، والمقصود هو أنهم لما أكثروا الظلم والمعاصي سلَّط الله عليهم أقواماً قتلوهم وشرَّدوهم ﴿فَجَاسُوا﴾ أي ترددوا في طلبكم وطافوا ﴿خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ في أواسطها فقتلوا كبارهم، وسَبَوْا صغارهم، وحرَّفوا التوراة، وخرَّبوا المسجد، وذلك تولية بعض الظالمين بعضاً، مما جرت به السُنَّة الإلَهية ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ لا محالة بحيث لا صارف له.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ أي الدَّوْلة والغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين فعلوا بكم ما فعلوا، حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو، وذلك حين

---

(١) قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما انتهكوا المحارم، وسفكوا الدماء، سلَّط الله عليهم بختنصَّر المجوسي ملك بابل، فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وهذا أول الإفسادين في الأرض، وقضاء الله على بني إسرائيل ليس قضاء قهر وإلزام، وإنما هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم، حسب علمه الأزلي سبحانه وتعالى منهم، فهو قضاء علمٍ بما سيحدث، فتنبه والله يرعاك!

قتل داودُ عليه السلام جالوت ﴿وَأَمْدَدْنَكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ كثيرة بعدما نُهبت أموالكم ﴿وَبَنِينَ﴾ بعدما سُبيت أولادكم ﴿وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم، والنفيرُ من ينفر مع الرجل لنصرته، جمع نفر، وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ أعمالكم على الوجه اللائق، وفعلتم الإحسان ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابها لها ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أعمالكم وفعلتم الإساءة ﴿فَلَهَا﴾ أي فعليها وبالها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي حان وقتُ ما وُعد من عقوبة المرة الأخيرة ﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ليسُؤوا وجوهكم أي ليجعلوها بادية فيها آثار المساءة ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ أي يُهلكوا ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ ما غلبوه واستولوا عليه ﴿تَتْبِيرًا﴾ فظيعاً لا يوصف، وقد سلَّط الله عزَّ وجلَّ عليهم الروم، فغزاهم «قسطنطين» ملك الروم، ودخل مذبح قرابينهم، فوجد فيه دماً يغلي فقتل على ذاك الدم ألوفاً، فلم يهدأ الدم، ثم قال: إن لم تصدقوني ما تركتُ منكم أحداً فقالوا: إنه دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، فقال: لمثل هذا ينتقم ربكم منكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصي ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى ما كنتم من الفساد مرة أخرى ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم، وقد عادوا فأعاد الله النقمة بتسليط الأكاسرة، وضرب الأتاوة

عليهم، ونحو ذلك، وعن الحسن فبعث الله تعالى الرسول ﷺ فقتل قريظة وأجلى بني النضير، وضرب الجزية على الباقين، هذا لهم في الدنيا ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ سجناً لا يقدرون على الخروج منه أبداً.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ الذي آتيناك يا محمد ﴿يَهْدِي﴾ أي الناس كافة ﴿لِلَّتِي﴾ أي للطريقة التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي أقوم الطريق وأسدُّها أعني ملة الإسلام والتوحيد، وترك ذكرها لغاية ظهورها، لا سيما بعد ذكر الهداية، التي هي من روادفها وقوله: ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ يدل على أن هذا الدين أقوم من سائر الأديان ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما في تضاعيفه من الشرائع، والأحكام ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي الأعمال الصالحة التي يحبها الله عزَّ وجل ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بحسب الذات، وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعداً.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدِّقون بلقاء الله، ولا يؤمنون بالبعث والحساب والعذاب ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي أعددنا قلبت الدال تاءً ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو عذاب جهنم أي أعددنا لهم بسبب كفرهم بالآخرة، عذاباً أليماً، وهو أبلغ في الزجر، لما أن إتيان العذاب من حيث لا يحتسب أفظع والآية ترد على القول بالمنزلة بين المنزلتين، التي قال بها المعتزلة، حيث ذكر تعالى المؤمنين وجزاءهم، والكافرين وجزاءهم.

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ المرادُ بالإنسان الجنسُ، حكى عنه حالَه في بعض أحيانه، وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو شر من العذاب المذكور كدأب من قال منهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي مثل دعائه بالخير ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي يسارع إلى طلب ما يخطر بباله، متعامياً عن ضرره، كما هو حاله عند الغضب، يدعو على نفسه، وأهله، وماله بما هو شر، وكان الإنسان بحسب جبلَّته ﴿عجولاً﴾، ضَجراً لا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يعتريه، ولا ينظر إلى عاقبته قال ابن عباس: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده عند الضجر، بما لا يحبُّ أن يستجاب له: اللهم أهلكه، اللهم دمِّره ونحوه[2].

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا (١٢)﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ شروع في بيان بعض وجوه ما ذُكر من الهداية، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية، التي كل واحدة منها برهان نيِّرٌ لا ريب فيه، وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي، إذ منه ينسلخ النهار، وفيه تظهر غرر الشهور، ولترتب آية النهار عليها بلا واسطة، أي جعلنا الليل والنهار بهيآتهما، وتعاقبهما، واختلافهما في الطول والقصر، على وتيرة عجيبة، تحار في فهمهما العقول، آيتين تدلان على أن لهما صانعاً حكيماً، قادراً، عليماً، تهديان لملة التوحيد، أي جعلناهما علامتين عظيمتين على وحدانية الله، وكمال قدرته جلَّ وعلا.

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/ ٢٢٥.

ثم إن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي فمحونا الآية التي هي الليل، فجعلناه مظلماً، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة، أي مشرقاً بالنور والضياء ليحصل به الإبصار، يريد الشمس والقمر، فمحو القمر حيث لم يخلق له شعاعاً، بل هو مستفاد من الشمس، وإبداعها على ذلك وأهل التجارب الفلكية، بينوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادر النور، له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً﴾ أي مضيئة يُبصر فيها الأشياء، وأبدعها مضيئة بالذات، تظهر فيها الأشياء المظلمة ﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾ أي لتطلبوا لأنفسكم ﴿فَضۡلًا﴾ أي رزقاً، إذ لا يتسنّى ذلك في الليل ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ من مربيكم ورازقكم، وفي التعبير عن الرزق بالفضل، وعن الكسب بالابتغاء، دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير، سوى الطلب، وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه، لا بطريق الوجوب عليه، بل بفضله، بحكم الربوبيَّة للعباد ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ﴾ أي لتعلموا بتفاوت الليل والنهار من حيث الإظلام والإضاءة ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ عدد الأيام والشهور والأعوام، لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ أي حساب الأوقات أي الأشهر والأيام، ولولا ذلك لما علم أحد حساب الأوقات، ولم يدر أوقات الشرع، والديون، وغير ذلك ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعاد ﴿فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ أي بينّاه في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ مكلف ﴿أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي عمله الصادر عنه باختياره، كأنه طار إليه من عُشّ الغيب، ووكر القَدَر، أو ما وقع له في

القسمة الأزلية، من قولهم طار له سهم كذا ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ تصوير لشدة اللزوم، وكمال الارتباط، أي ألزمناه عمله بحيث لا يفارقه أبداً، بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق، فإن كان عمله خيراً، كان كالحلي يزيِّنه، وإن شراً كان كالغُلّ يشينه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ مسطوراً فيه ما ذكر من عمله صغيراً أو كبيراً نقيراً أو قِطْميراً ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ أي الإنسان ﴿مَنشُورًا﴾ ونظيره: ﴿وَإِذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قال الحسن البصري: «بُسطت لك يا بن آدم صحيفة، ووكل لك مَلَكان فهما عن يمينك وعن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، حتى إذا متَّ، طُويت صحيفتك، وجُعلت معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة، ويقال لك:

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ قال قتادة: يقرأ ذلك اليوم، من لم يكن قارئاً في الدنيا ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي نفسك والباء زائدة، واليوم ظرف لكفى، وحسيبا تمييز بمعنى الحاسب، أو بمعنى الكافي، ووضع موضع الشهيد.

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي من اهتدى بهدايته، وعمل بما فيه من الأحكام، وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه، لا يتخطاه إلى غيره ممن لم يهتد، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الطريقة التي يهديه إليها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي فإنما وبال ضلاله عليها، لا على من عداه ممن لا يباشره والآية دالة على أن العبد متمكن من الخير والشر، وأنه غير مجبور على

عمل بعينه أصلاً ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس حاملةٌ للوزر، وزرَ نفس أخرى، حتى يمكن تخليص النفس الثانية عن وزرها، وإنما تحمل كل منهما وزرها، وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وأمّا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ليحملوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ الآية من حملِ الغير وزرَ الغير، وانتفاعِه بحسنته، فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه، وتضرُّرٌ بسيئاتها، فإن جزاء الحسنة والسيئة، اللتين يعملهما العامل، لازمٌ له، وإنما الذي يصل إلى من يشفع جزاء شفاعته، لا جزاء أصل الحسنة، وكذا جزاء الضلال مقصورٌ على الضالين، وما يحمله المضلون إنما هو جزاء الإضلال، لا جزاء الضلال، وإنما خص التأكيد بالجملة الثانية، قطعاً للأطماع الفارغة، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق، فالتبعة على أسلافهم الذين قلّدوهم، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ بيان للعناية الربانية أي وما صحَّ وما استقام منا، في سنتنا المبنية على الحكم البالغة، أن نعذب أحداً اكتفاءً بقضية العقل ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ﴾ إليهم ﴿رَسُولًا﴾ يهديهم إلى الحق، ويردعهم عن الضلال، ويقيم الحجج، ويمهد الشرائع، والمراد بالعذاب المنفي إمَّا عذاب الاستئصال وهو المناسب لما بعده، أو الجنس الشامل للدنيوي والأخروي.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي إذا تعلقت إرادتنا بإهلاك قرية، بأن نعذّب أهلها بعذاب الاستئصال ﴿أَمَرْنَا﴾ بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ متنعميها وجبَّاريها، والمترف: المتنعّم الذي أبطرته النعمة خصَّهم بالذكر لأنهم أسرع إلى الحماقة، وأقدر على الفجور، وعدم التعرض للمأمور به، لظهوره، وأنَّ المراد به الحق والخير، لأن الله لا يأمر

بالفحشاء، قال أكثر المفسرين معناه: أنه تعالى أمرهم بالأعمال الصالحة، والقوم خالفُوا وفسقوا، ويدلُّ على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب إثر ما ظهر منهم الفسق والطغيان ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ بتدمير أهلها ﴿تَدْمِيرًا﴾ لا يكتنه كنهه ولا يوصف.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً ما أهلكنا ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيان «كم» وتمييزٌ له، والمراد به الأمم الكافرة ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ من بعد زمانه عليه السلام، كعاد، وثمود، ومن بعدهم، وعدم نظم قوم نوح في تلك القرون المهلكة، لظهور أمرهم، على أن ذكره عليه السلام رمز إلى ذكرهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أي كفى ربك ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يحيط علمه بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله التي يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالأسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بهم الكفرة وأكثر الفسقة وأهل الرياء والنفاق ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فقط من غير أن يريد معها الآخرة، والمراد بالعاجلة الدنيا، وبإرادتها إرادة ما فيها ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي في تلك الدنيا ﴿مَا نَشَآءُ﴾ أي ما نشاء تعجيله له، من نعيمها، لا كل ما يريد ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ تعجيل ما نشاء له وتقييد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لما أن الحكمة لا تقتضي وصول كل طالب لمرامه، وهكذا الحال، ترى كثيراً من هؤلاء الفجار

يتمنون ما يتمنون، ولا يُعطون، فاجتمع عليهم فقر الدنيا، وفقر الآخرة ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ﴾ مكان ما عجلنا ﴿ لَهُۥ جَهَنَّمَ ﴾ وما فيها من أصناف العذاب ﴿ يَصْلَىٰهَا ﴾ يدخلها ﴿ مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً من رحمة الله، وهذا زجر عظيم لهؤلاء الضالين الذين يتركون الدين لطلب الدنيا وربما فاتتهم الدنيا، فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم، ومن الجهال من ساعدته الدنيا فاغترَّ بها، وظن كون ذلك لأجل كرامته على الله تعالى، كما قال بعض المشركين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أكثر أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ والدنيا قد تحصل للكافر، مع أن عاقبتها المصير إلى عذاب الله.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ بأعماله ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي السعي اللائق بها، وهو الإتيان بما أمر الله، والانتهاء عما نهى عنه ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إيماناً صادقاً صحيحاً، وإيراد الإيمان بالجملة الحالية ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ للدلالة على اشتراط مقارنته ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة ﴿ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ من الله تعالى أي مقبولاً عنده، فإن شكر الله تعالى، الثواب على الطاعة وعن بعض السلف، من لم يكن معه ثلاث، لم ينفعه عمله: إيمانٌ ثابت، ونيّة صادقة، وعملٌ مصيب، وتلا هذه الآية.

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ كُلًّا ﴾ أي كل واحد من الفريقين ﴿ نُّمِدُّ ﴾ نزيد مرة بعد مرة، ما عُجِّل لأحدهما من العطايا العاجلة، وما أُعد للآخر من العطايا الآجلة ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ الذين أرادوا الدنيا ﴿ وَهَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ وهؤلاء المشكور سعيهم، ﴿ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ أي من عطائه الواسع، تفضلاً وإحساناً منه جلَّ وعلا ﴿ وَمَا كَانَ

﴿عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ دنيوياً كان أو أخروياً، وإنما أظهره إظهاراً، لمزيد الاعتناء بشأنه ﴿مَحْظُورًا﴾ أي ممنوعاً ممن يريده، بل هو فائض بموجب المشيئة الإلهية.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ٱنظُرْ﴾ بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فيما أمددناهم به من العطاء العاجل، فمن وضيع ورفيع، ومالكٍ ومملوك، وموسرٍ وصعلوك، تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة، ودرجات تفاوت أهلها، وقد بيّن الله تعالى وجه الحكمة في هذا التفاوت في قوله سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾[1] وفي قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾[2] ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾ أي هي وما فيها أكبر من الدنيا ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها، روي أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا في باب عمر رضي الله عنه فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشقَّ على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو: دعوا إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾.[3]

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٢.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٥.
(٣) سورة الفرقان، آية: ٢٤.

﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ للرسول ﷺ والمراد أمته أو لكل أحد ممن يصلح لهذا الخطاب ﴿فَتَقۡعُدَ﴾ جواب للنهي، والقعود بمعنى العجز من قعد عنه أي عجز عنه ﴿ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا ﴾ جامعاً على نفسك الذمَّ من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله، والخذلانُ ضدُّ النصر والعونِ، دليلُه قوله تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾؟ جعل الخذلان بمقابلة النصر.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي أمر أمراً مقطوعاً به ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ بأن لا تعبدوا ﴿ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لأن العبادة غاية التعظيم، فلا تحقُّ إلا لمن له غاية العظمة، ونهاية الإنعام ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ أي وأن تحسنوا بهما ﴿ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ لأنهما السبب الظاهر للوجود والحياة[1] ﴿ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ إمَّا مركبة من «إن» الشرطية، و «ما» المزيدة لتأكيدها، ومعنى «عندك» أي في كنفك وكفالتك، وتقديمه على المفعول للتشويق، فإنه مدار تضاعف الرعاية والإحسان، ومعنى ﴿الكِبَر﴾ أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز، فيصيران عندك في آخر العمر، كما كنت عندهما في أول العمر ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ أي لواحد منهما، و «أف» صوتٌ ينبىء عن تضجُّرٍ، أي لا تضجر بما يستقذر منهما وتستثقل من مؤونتهما، وبهذا النهي يُفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النص، وقد خص بالذكر بعضه إظهاراً للاعتناء بشأنه فقيل: ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا ﴾ أي لا تزجرهما عما لا يعجبك

(١) قيل كل الذنوب يؤخر اللهُ تعالى من عقوبتها ما شاء، إلاّ عقوق الوالدين فإن الله يعجّله لصاحبه قبل الممات.

بإغلاظ، والنَّهْرُ الزجرُ والغلظةُ ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي حسناً، جميلاً، ليناً، كما يقتضيه حسنُ الأدب معهما، مثل أن يقول يا أباه، ويا أمَّاه كدأب إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ مع ما به من الكفر، ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنه من الجفاء وسوء الأدب، وديدن الدُّعَّار والفُجَّار.

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾.

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ هو عبارة عن لين الجانب، والتواضع لهما فإن إعزازهما لا يكون إلاَّ بذلك، والطائرُ إذا أراد تربية فرخه، خفض له جناحه، ولهذا صار خفضُ الجناح كناية عن حسن التربية والتواضع فكأنه قيل للولد: اكفَلْ والديك في حالة العجز والضعف، كما فعلا بك حال صغرك ﴿ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ من فرط رحمتك عليهما، لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾ وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكتف برحمتك الفانية ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ أي رحمة مثل رحمتهما لي، ولقد بالغ عزَّ وجل في التوصية بهما، حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً، ثم ضيَّق الأمر في باب مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، مع ما له من موجبات الضَّجَر، وختمها بأن جعل رحمته التي وسعت كل شيء مشبهة بتربيتهما، والدعاء مختص بالأبوين المسلمين، وقيل: إذا كانا كافرين يدعو الله لهما بالهداية والتوفيق، سئل سفيان كم يدعو الإنسان لوالديه؟ فقال: نرجو أن يجزيه إذا دعا لهما في أواخر التشهدات[1]. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

(١) حقوق الوالدين على الولد كثيرة ومنها: الإنفاق عليهما، والكسوة إن احتاجا إليها، =

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمُّك، ثم أمُّك، ثم أمُّك، ثم أباك، ثم أدناك فأدناك»(١).
وروى مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك أبويه عند الكِبَر أحدهما، أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»(٢) وروي أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسولَ الله أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاةُ لوقتها، قلت: ثم أيٌّ؟ قال برُّ الوالدين، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله»(٣).

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ من البر، والعقوق، وكأنه تهديدٌ على أن يضمر لهما كراهةً واستثقالاً ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين للصلاح والبر، دون العقوق والفساد ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ أي الراجعين إلى الله تعالى عما فرط منهم، مما لا يخلو عنه البشر ﴿غَفُورًا﴾ لما وقع منهم من نوع تقصير، أو أذية، ويدخل فيه الجاني على الأبوين.

= والإجابة إن دعياه، والإطاعة لهما ما لم يأمرا بالمعصية لله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والكلام الرفيق الليِّن، وألا يدعوهما باسمهما وإنما يقول: يا أبت، ويا أمي، وأن يمشي خلفهما، والدعاء لهما في كل صلاة وفي جميع الأوقات والأحيان: ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً.

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٩٧١ ومسلم رقم ٢٥٤٨.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥١.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٢٧ ومسلم رقم ٤٧.

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ المراد بهم المحارم، أقارب الرجل، وبحقهم النفقة، وإذا لم يكن من المحارم، فلا حق لهم إلا المودة، والزيارة، وحسن المعاشرة ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، المسكين المعدم، والغريب المنقطع في سفره ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ نهي عن صرف المال في غير الحِل، وغير المحلّ، فإن التبذير: تفريق الشيء في غير موضعه، مأخوذ من تفريق البذر في الأرض كيف ما اتفق، سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن التبذير، فقال: إنفاق المال في غير حقه، وقد أنفق بعضهم في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السَّرَف، فقال له المحسن: لا سَرَف في الخير.

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ ﴾ تعليل للنهي عن التبذير، والمراد بالأخوة: المماثلة التامة في كل ما لا خير فيه، من صفات السوء، التي من جملتها التبذير ﴿ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ أي قرناءهم في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[1] روي أنهم كانوا ينحرون الإبل، ويبذّرون في السمعة، فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم بالإنفاق في القربات ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ أي مبالغاً في كفران نعمته تعالى، وتخصيص هذا الوصف بالذكر، للإيذان بأن التبذير من باب الكفران.

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦ .

﴿ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ﴾ أي إن أعرضت عن ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل حياءً من التصريح بالردّ بسبب الفقر والقلّة ﴿ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي لفقد رزق ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ إقامة للمسبَّب مقام السبب، فإن الفقد سبب للابتغاء ﴿ تَرۡجُوهَا ﴾ من الله تعالى لتعطيهم، روي أنه ﷺ كان إذا سئل شيئاً وليس عنده، أعرض عن السائل وسكت حياءً، فأُمر بتعهدهم بالقول الجميل، لئلا يعتريهم الوحشة ﴿ فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴾ أي سهلاً ليّناً، وعدْهم وعداً جميلاً، تطيِّب به قلوبهم، أو قل رزقنا الله وإياكم من فضله.

﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾ هما تمثيلان لمنع شُحِّ الشحيح، وإسراف المبذّر، زجراً لهما عنهما، وحملاً على ما بينهما من الاقتصاد الذي هو بين التقتير والإسراف، وهو الكرم كما قيل: «كلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذَميم» وحيث كان قبح الشح مقارناً له، روعي ذلك في التصوير بأقبح الصور، وغائلة الإسراف في آخره بين قبحه في أثره، فقيل: ﴿ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا ﴾ أي فتصير ملوماً عند الله، وعند الناس، وعند نفسك، إذا احتجتَ وندمتَ على ما فعلتَ ﴿ مَّحۡسُورًا ﴾ أي منقطعاً بك لا شيء عندك من المال.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ تعليل لما مر، أي يوسّعه على بعض، ويضيّقه على الآخرين، حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة، فليس ما يرهقك من نفاد ما في يدك إذا بسطتها كل البسط إلا لمصلحتك ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أي يعلم سرهم وعلنهم، ويعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، فهو تعالى يبسط تارةً، ويقبض أخرى، فاستنُّوا بسنته، ولا تقبضوا كل القبض، ولا تبسطوا كلَّ البسط، فالتفاوت في أرزاق العباد، ليس لأجل البخل، بل لأجل رعاية المصالح، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾[1].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا (٣١) ﴾.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ أي مخافة فقر، كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فلا تخافوا الفاقة بناء على زعمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم، وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهي المذكور ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أي جرماً عظيماً، وذنباً كبيراً، كيف لا، وإن قرابة الأولاد قرابة الجزئية، وهي أعظم الموجبات للمحبة، فإذا أقدم الوالد على هذه العظيمة، دل ذلك على غلظ القلب، وفساد الأخلاق.

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢٧ .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ ﴾ بإتيان المقدمات من القُبلة، والغمزة، واللمس، والنظر بشهوة، ونحوها فضلاً عن أن تباشروه، وإنما نهي عن قربانه، للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن الاقتراب منه داعٍ إلى مباشرته ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ فعلة ظاهرة القبح، متجاوزة الحد فإن فيه تضييع الأنساب ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أي بئس طريقاً، لأنه يدفع صاحبه إلى النار، وهو طريق لقطع الأنساب أيضاً.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتلها، بأن عصمها الله بالإسلام، وقولُه تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا﴾ نهيٌ وتحريمٌ، وقوله: ﴿حَرَّمَ اللهُ﴾ تأكيدٌ وتقريرٌ ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي بارتكاب ما يبيح الدَّمَ، وذلك بإحدى ثلاث: كفرٍ بعد إيمان، وزِنىً بعد إحصان، وقتل نفسٍ معصومة عمداً، ودلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا﴾[1] الآية، وروي عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دمُ امرىءٍ مسلم، يشهد أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله، إلا بإحدىٰ ثَلاَثٍ: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[2] ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقتل، حتى إنه لا يعتبر إباحة ولي المقتول لغيره، فإن من عليه القصاص إذا قتله غير من له القصاص يقتصُّ من القاتل، ولا يفيده قول الولي أنا أمرته بذلك ما لم يكن الأمر ظاهراً ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ ﴾ لمن يلي أمره من الوارث ﴿ سُلْطَٰنًا ﴾ أي قوة واستيلاء على

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في الديات ١٢/ ٢٠١ ومسلم رقم ١٦٧٦ وأبو داود رقم ٤٣٥٢ في الحدود.

القاتل، يؤاخذه بالقصاص، أو بالدية، حسبما تقتضيه جنايته، وهو مخيَّر إن شاء استقاد منه، وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء عفا ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي الولي ﴿فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ في أمر القتل بأن يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المُثلة، أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه، أو بأن يقتل اثنين مكان الواحد، كما كان يفعله أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفاً، فلا يرضون بقتل القاتل وحده، حتى يقتلوا جماعةً من أقربائه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ الضمير للولي على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القصاص، أو الدية، وأمر الحكام بمعونته في استيفاء حقه، فلا يبغ ما وراء الحق، وظاهر الآية يدل على أن القصاص يجري بين الحر والعبد، وبين المسلم والذمي، لأن أنفسهم داخلة في الآية لكونها محرمة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ نهى عن قربانه، مبالغةً في النهي عن التعرض له، فلمَّا نهى الله عن إتلاف النفوس، أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال، لأن أعزَّ الأشياء بعد النفوس الأموال، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم اليتيم، لأنه لصغره وضعفه وعجزه، يعظم ضرره، بإتلاف ماله، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا﴾[1] ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالطرائق التي هي أحسن الطرق، وهي حفظه واستثماره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى يبلغ سنَّ الرشد ويكمل عقله، وهي ثمانَ عشرة سنة ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ سواء جرى بينكم وبين ربكم، أو بينكم وبين غيركم، ويُؤكد هذا النصُّ بسائر الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا

(١) سورة النساء، آية: ٦.

عَاهَدُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُون﴾[1] والإيفاءُ بالعهد هو القيامُ بمقتضاه، والمحافظةُ عليه، ولا يستعمل إلاّ بالباء، فرْقاً بينه وبين الإيفاء الحسّي كإيفاء الكيلِ والوزن ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ﴾ أظهر لكمال العناية بشأنه ﴿كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي مسؤولاً عنه، يُسأل الناكث ويعاتب: لم نكثت؟.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أي أتموه ولا تُخسروه ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي وقت كيلكم، وتقييد الأمر بذلك، لما أن التطفيف هناك يكون ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ أي زنوا بالميزان العادل السوي، الذي لا بخس فيه ولا زيف، والقسطاسُ الأصح أنه من لغة العرب، وهو مأخوذٌ من القسط، وهو الذي يحصل منه الاستقامة ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي العدل السوي، وعند استقامته لا يتصور الجور، وقد أُمر بتقويمه أيضاً في قوله تعالى: ﴿وأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إيفاء الكيل والوزن بالميزان السوي ﴿خَيْرٌ﴾ إذ هو أمانة توجب الذكر الجميل بين الناس ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة ومآلاً في الآخرة، واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل، والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم، فالعاقل من يحترز منه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع، من قَفا أثره إذا تبعه ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٨.

لا تكن في اتباع ما لا علم لك به، من قولٍ، أو فعل، كمن يتبع مسلكاً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي كل واحد من تلك الأعضاء، فأُجريت مجرى العقلاء، لمَّا كانت مسؤولة عن أحوالها، وشاهدة على أصحابها ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي كان كلٌّ من تلك الأعضاء مسؤولاً عما فعل به صاحبه، ومن الدعاء المأثور «اللهمَّ إني أعوذ بك من شرّ سمعي، وشرِّ بصري، وشرِّ فؤادي، وشرِّ لساني، وشر قلبي، وشرِّ مَنِيِّي يعني ماءه وذَكَرهُ»[1].

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التقييد بها لزيادة التقرير، والإشعار بأن المشي عليها مما لا يليق بالمتكبّر ﴿مَرَحًا﴾ تكبراً وبطراً واختيالاً وفي سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾[2] ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ فيه تهكم بالمختال، وإيذانٌ بأن ذلك مفاخرةٌ مع الأرض، وتكبرٌ عليها، أي لن تخرق الأرض بدوسك ووطأتك عليها ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ﴾ التي هي بعض أجزاء الأرض ﴿طُولًا﴾ حتى يمكن لك أن تتكبر عليها، إذ التكبر بكثرة القوة، وعِظَم الجُثَّة، وكلاهما مفقود في الإنسان، وكأن الآية تقول: إنك أيها الإنسان هزيل ضئيل، لا يليق بك الشموخ والكبرياء، كيف تتكبر وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؟.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم ١٥٥١ والترمذي رقم ٣٤٨٧ والنسائي ٨/ ٢٥٩.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الأوامر، والنواهي، من الخصال الخمس والعشرين ﴿ كَانَ سَيِّئُهُۥ ﴾ أي كان عمله القبيح الذي نهي عنه، وهي اثنتا عشرة خصلة ﴿ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ مبغضاً غير مرضيٍّ عند الله تعالى.

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الذي تقدَّم من الأوامر والنواهي ﴿ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ ﴾ أي بعض منه ﴿ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ التي هي من الأحكام التي لا يتطرق إليها النسخ، وهي واجبة الرعاية في جميع الأديان ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من صنم أو بشر، وكرره للتنبيه على أن التوحيد، مبدأ الأمر ومنتهاه، وأنه رأس الحكمة وغايته ﴿ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ أي تلوم نفسك، ويلومك الناس والملائكة ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مبعداً من رحمة الله تعالى، وفي إيراد الإلقاء، ازدراءٌ بالمشركين، وجعلٌ لهم من قبيل خَشَبة، يأخذها آخذ، فيطرحها في النار.

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾ الإصفاء بالشيء: جعلُه خالصاً، والهمزة للإنكار، أي أفضَّلكم على جنابه، فخصَّكم بأفضل الأولاد، وآثَرَ لذاته أخسَّها؟ وهو توبيخ للعرب في مزاعمهم الباطلة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَىٰ﴾؟ وقوله: ﴿أَمْ لَهُ البَنَاتُ ولَكُمُ البَنُونَ﴾؟ ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ ﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل، في إضافة البنات إلى الله سبحانه ﴿ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أي كلاماً عظيماً في بشاعته وشناعته، مخالفاً لقضايا العقول، بحيث لا يجترىء عليه أحد، حيث تجعلونه تعالى من قبيل الأجسام،

ثم تضيفون إليه ما تكرهون، وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين، ثم تصفون الملائكة الذين هم أشرف الخلائق بالأنوثة، فيا لها من ضلالةٍ ما أقبحها!!.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بينَّا هذا المعنى، وكرَّرناه، يعني العِبَر، والحِكَم، والأمثال، والأحكام، والحِجج، والأخبار ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ على وجوه من التصريف في مواضع منه ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ما فيه، ويقضوا على بطلان ما يقولونه، أي كرَّرناه ليتَّعظوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي والحال ما يزيدهم ذلك البيان والتذكير البديع ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحقّ، وإعراضاً عنه، فضلاً عن التذكر، وكان الثوري رحمه الله إذا قرأها يقول: يا ربِّ زادني خضوعاً، ما زاد أعداءك نفوراً.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي كما يقول المشركون، والمراد بالمشابهة: الموافقةُ والمطابقة ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ جواب عن مقالتهم أي لطلبوا ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي إلى من له الملك والربوبية على الإطلاق ﴿سَبِيلًا﴾ بالمغالبة والممانعة، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض، كقوله سبحانه: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنَّزه ذاته تنزهاً حقيقياً ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ تباعد وتقدّس ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من العظيمة أن معه آلهة، وأن يكون له بنات ﴿عُلُوًّا﴾ تعالياً ﴿كَبِيرًا﴾ لا غاية وراءه، كيف لا وأنه عزَّ وجلَّ في أقصى غاية الوجود الذاتي، وما يقولونه من أن له شريكاً وأولاداً، في أبعد مراتب العدم أعني الامتناع!!.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ من الملائكة، والإنس، والجن، على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال، ولسان الحال، بطريق عموم المجاز ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾ من الأشياء حيواناً كان، أو نباتاً، أو جماداً ﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي يقول: سبحان الله وبحمده، أي ينزّه الله تعالى بلسان الحال، عما لا يليق بذاته الأقدس، إذ ما من موجود إلاَّ وهو يدلُّ على أن له صانعاً، عليماً قادراً، حكيماً واجباً لذاته، أو يُسبِّحه بلسان المقال، فإنَّ كلَّ موجود في الكون، له تسبيح خاص به، ولهذا قال ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أيها المشركون، لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم ذلك، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع، فلمَّا اتخذ المنبر، تحوَّل إليه، فحنَّ الجذع فمسح بيده الشريفة عليه»[1] ففي الأحاديث أن الجمادات والحيوانات تُسبِّح الله عزَّ وجل بطريقة لا نفهمها نحن كما قال تعالى: ﴿والطَّيْرُ صَافَّات كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وتَسْبِيْحَهُ﴾. وقال البعض: تسبيح الجمادات والحيوانات بلسان الحال، والقولُ الأول أصح لما دلت عليه الأحاديث، وأنه منقول عن السلف ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا ﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة، مع ما أنتم عليه من موجباتها، من الإشراك، والغفلة ﴿ غَفُورًا ﴾ لمن تاب منكم.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ الناطق بالتسبيح، ودعوتهم إلى العمل بما فيه

---

(١) حديث حنين الجذع أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء.

من التوحيد، ورفض الشرك، وغير ذلك من الشرائع ﴿ جَعَلْنَا ﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على الحكم الخفية ﴿ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أوثر الموصول ذماً لهم ﴿ حِجَابًا ﴾ يحجبهم من أن يدركوا نبوّتك ليفهموا قدرك ﴿ مَسْتُورًا ﴾ مستوراً عن الحسِّ، يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسراره الدقيقة.

> ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي جعلنا على قلوب هؤلاء الكفار المكذبين بالقرآن، أغطية وحجباً لئلا يفهموا القرآن، كما جعلنا على آذانهم صمماً يمنعهم من استماعه ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾ أي أفردته بالذكر غير مشفوع بآلهتهم ﴿ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ ﴾ رجعوا على أعقابهم أي هربوا ونفروا ﴿ نُفُورًا ﴾ هرباً من استماع الإيمان والتوحيد، كانت قريش إذا سمعوا من القرآن ذم المشركين وآلهتهم فروا هرباً من سماعه.

> ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ أي نحن عالمون بما يدعوهم إلى الاستماع له، وبالغاية التي يستمعون إلى القرآن من أجلها، وهي اللغوُ، والاستخفاف، والهزء بك وبالقرآن وأنت تقرأ كتاب ربك ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ ظرف لأعلمُ، وفائدته تأكيد الوعيد بالإخبار، أي حين يستمعون إليك وأنت تتلو القرآن ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ ﴾ أي وحين يتحدثون ويتناجون به فيما بينهم سراً ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي حين يقول أولئك الفجرة عن الرسول ﷺ

﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون إن وجد منكم الاتباع ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي سُحر فجُنَّ.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي مثَّلوك بالشاعر، والساحر، والمجنون ﴿فَضَلُّوا﴾ في جميع ذلك عن منهاج المحاجة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يجدون طريقاً إلى الهدى والرشاد، فيخبطون في كلامهم بدون تبصر.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ استفهام إنكاري، والاستنكار للبعث لما بينَ غضاضة الحيّ، ويبوسة الرميم من التنافي، والرُّفاتُ: ما بُولغ دقُّه وتفتيتُه، وقال الفراء: هو الترابُ ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تحلية الجملة بإن واللام لتأكيد الإنكار، وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر، وتماديهم في الضلال ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي مخلوقاً مجدداً؟ قال الله تعالى رداً عليهم.

﴿۞ قُلْ﴾ أي قل يا أيها الرسول جواباً لهم ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي كونوا من الحجارة والحديد فسيبعثكُم اللهُ ويحييكم، والأمر هنا أمر تعجيز وتوبيخ، لا أمرُ إلزام ليصبحوا من الحجارة والحديد.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي يعظم عندكم عن قبول الحياة فإنكم مبعوثون لا محالة، والمعنى: إنكم تستبعدون أن يجدِّد اللهُ خلقكم،

بعدما صرتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، فليس ببدْع أن يردَّكم الله إلى الحالة الأولى، ولكنْ لو كنتم أبعد شيء من الحياة، وهو أن تكونوا حجارةً، أو حديداً، لكان الله قادراً على أن يردَّكم إلى حال الحياة، فكيف لا يقدر على إعادتكم إذا صرتم عظاماً ورفاتا؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾؟ مع ما بيننا وبين الإعادة من مثل هذه المباينة؟ ﴿قُلِ﴾ لهم تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إلى طريقة الاستدلال ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ أي يردُّكم الذي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ واخترعكم من غير مثال وكنتم تراباً، فمن قَدَرَ على الإنشاء، قَدَر على الإعادة، ومتى سلمنا بكمال علم الله، وكمال قدرته، زالت هذه الشبهة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي سيحرِّكونها نحوك، تعجباً وإنكاراً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾؟ أي ما ذكرته من الإعادة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ذلك ﴿قَرِيبًا﴾ فإن كل ما آتٍ قريب، و«عسى» للوجوب، فإن قالوا: فكيف يكون قريباً وقد انقرض ما يزيد على ألف عام ولم يظهر؟ قلنا: إذا كان ما مضى أكثر مما بقي كان أقل، فعمر الدنيا طويل، وما بقي منها إلا القليل!!.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ من قبوركم إلى الموقف للمحاسبة، وهو النفخة الأخيرة كما قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ المنادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[1] وهو إسرافيل عليه السلام ينادي الأموات ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي فتُبعثون استعير لها الدعاء، والإجابة، إيذاناً بكمال سرعتهما، وبأن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي منقادين له حامدين له على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها، عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) سورة ق، آية: ٤١.

«ليس على أهل لا إله إلاّ الله، وحشةٌ في قبورهم، كأنيّ بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم، ينفضون التراب عن رؤوسهم» ويقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك»[1] ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ عندما ترون ما ترون ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي ما لبثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لما ترون من الهول.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ أي للمؤمنين ولفظ العباد في أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾[2] ويمكن أن يراد من العباد الكفار، لأن المقصود من هذه الآيات الدعوة فلا يبعد أن يخاطبوا بالخطاب الحسن ﴿يَقُولُوا۟﴾ عند مخاطبة المشركين ﴿ٱلَّتِى﴾ أي الكلمة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ ولا يخاشنوهم، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بِالَّتي هِي أَحْسَنُ﴾[3] ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ﴾ يفسد ويهيج الشرّ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فلعل ذلك يؤدي إلى تأكد العناد، وتمادي الفساد ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ تفسير للتي هي أحسن، وما بينهما اعتراض، أي

(١) الحديث أخرجه الطبراني، وفي رواية يقولون ﴿الحمدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٢.

(٢) سورة الإنسان، آية: ٦.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا تصرّحوا بأنهم من أهل النار، فإنه يهيجهم على الشرِّ، مع أن اختتام أمرهم غيب، لا يعلمه إلاَّ الله ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالإماتة على الكفر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليك أمرهم، تقسرهم على الإيمان وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً، فدارهم ومرْ أصحابك بالمداراة، والاحتمال، وترك المشاقة.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ وتفاصيل أحوالهم التي بها يستأهلون الاصطفاء، فيختار منهم لنبوته من يشاء، وهو ردٌّ عليهم إذ قالوا: بعيدٌ أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن يكون العراة الجُوَّعُ أصحاب الجنة، دون أن يكون ذلك من الأكابر والصناديد!! ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ﴾ بالفضائل النفسانية، لا بكثرة الأموال والأتباع ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ بيان لحيثية تفضيل داود عليه السلام، فإن ذلك بإيتاء الزبور، لا بإيتاء الملك والسلطنة، وفيه إيذان بتفضيل الرسول ﷺ فإن نعوته الجليلة، وكونه خاتم النبيين، مسطورة في الزبور، وأن المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى: ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ هو الرسول ﷺ وأمته، والزبور يشتمل على مائة وخمسين سورة، كلها دعاء وثناء، ليس فيه أحكام.

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ إنها آلهة ليس المراد بها الأصنام، لأنه تعالى قال في صفتهم: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ﴾ فهذه الآية نزلت فيمن عبدوا

الملائكة، والمسيح، وعزير لا في الأوثان ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ من الملائكة والمسيح ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون ﴿كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾ كالمرض، والفقر، والقحط، ونحو ذلك ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ أي ولا تحويل ذلك عنكم إلى غيركم، فمن لا يقدر لا يكون إلهاً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي الآلهة الذين يدعوهم المشركون ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ ومالك أمرهم ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ القربة بالطاعة والعبادة ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ أي يبتغي من هو أقرب منهم، إلى الله تعالى الوسيلة، فكيف بغير الأقرب؟ ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾ بها ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ بتركها كدأب سائر العباد، فكيف تزعمون أنهم آلهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد، حتى الملائكة والرسل عليهم السلام.

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٥٨﴾.

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ كلمة «إن» نافية، و«من» زائدة للتأكيد، والمراد بالقرية القرية الكافرة، أي ما من قرية من قرى الكفار ﴿إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾ أي مخرِّبوها البتة بالخسف بها، أو بإهلاك أهلها بالمرة، لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وإنما قيل قبل يوم القيامة، لأن الإهلاك يومئذ، غير مختص بالكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، إنما هو لانقضاء عمر الدنيا ﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا﴾ أي معذبو أهلها ﴿عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ بفنون العقوبات الأخروية، حسبما يفصح عنه إطلاق التعذيب، كيف لا وكثير من القرى العاتية، أُخِّرت عقوبتها إلى يوم

القيامة، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من الإهلاك والتعذيب ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً لم يغادر منه شيء إلا بُيِّن فيه.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ التي اقترحها المشركون من قلب الصفا ذهباً، وأن تُنحَّى الجبال عنهم، ليزرعوا ونحو ذلك ﴿إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي الأمم السابقة كذبوا بها حين جاءتهم باقتراحهم، وعدم إرسالها لا لمنع مانع عنه، بل لإفضائه إلى أن يحل بهم مثل ما حلَّ بالمكذبين السابقين، بحكم التكذيب، المستدعي للاستئصال، المخالف لما جرى به قلم القضاء، من تأخير عقوبات هذه الأمة إلى الآخرة، لحكم باهرة، من جملتها ما يتوهم من إيمان بعض أعقابهم، ولهذا عبَّر عن تلك المنافاة بالمنع، أي ما تركنا إجابتهم إلى ما طلبوا واقترحوا، من إحياء الموتى، وإجراء الأنهار، وإزالة الجبال، إلاَّ لعلمنا بعدم إيمانهم، وأنهم لو أعطوها لكذَّبوا، كما فعل أسلافهم الأولون، وعند ذلك يستحقون عذاب الاستئصال، والله سبحانه يعلم أنَّ من أبنائهم من يؤمن بالله، فلذلك لم يجبهم إلى ما طلبوا، لئلا يهلكوا كما هلك السابقون.

ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ بسؤالهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ آية بينة ذات إبصار أو بصائر تدركها الناس ﴿فَظَلَمُوا﴾ فكفروا ﴿بِهَا﴾ ظالمين لأنفسهم ولم يكتفوا بمجرد الكفر بها، بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر، وتخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم، وأن لهم من العلم بحالهم حيث يشاهدون آثار هلاكهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية، كالزلازل، والفيضانات، والصواعق، والرعد، إلا تخويفاً للعبَاد، لما يعقبها من العذاب المستأصل.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ ﴾ علماً، فلا يخفى عليه شيء، من أفعالهم الماضية والمستقبلة، من الكفر والتكذيب فلا تبال بهم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ المراد بالرؤيا ما عاينه ﷺ ليلة المعراج، حسبما ذُكر في فاتحة السورة الكريمة، والتعبيرُ عن ذلك بالرؤيا لأنها وقعت في الليل، والعرب تقول: رأيت بعيني رؤيةً، ورؤيا، قال البخاري عن ابن عباس: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، وليست برؤيا منام»[1] أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها عياناً، مع كونها آية عظيمة، وحقيقة ملموسة، إلا فتنة افتتن بها الناس، حتى ارتد بعضهم عن الإسلام ﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ ﴾ المراد بلعنها: لعن طاعمها، أو إبعادها عن الرحمة، فإنها تنبت في أصل الجحيم، في أبعد مكان من الرحمة، والعرب تقول لكل طعام مكروه وضار: إنه ملعون، ويعني بها شجرة الزقوم، التي وصفها الله تعالى في سورة الدخان في قوله سبحانه: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم. كالمهل يغلي في البطون. كغلي الحميم﴾[2] أي وما جعلناها إلا فتنة لهم، حيث أنكروا ذلك، وقالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة، ثم يقول ينبت فيها الشجر!! ولقد ضلُّوا في ذلك ضلالاً بعيداً، حيث كابروا قضية عقولهم، فإنهم يرون النعامة تبتلع الجمر فلا تضرها، ويشاهدون المناديل المتخذة من وَبَرِ السَّمَندل تُلْقى في النار، فلا تؤثر فيها ولا تحرقها، ويرون أن في كل شجرة ناراً، فجاز أن

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير تفسير سورة الإسراء ٨/٣٩٨.

(٢) سورة الدخان، الآيات: ٤٣ ـ ٤٦.

يخلق في النار شجرة لا تحرقها النار[1] ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بذلك وبنظائرها من الآيات، فإن الكل للتخويف، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ متجاوزاً عن الحد، فلو أرسلنا بما اقترحوه من الآيات، لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها، ولا يزدادون إلا تمادياً في الجهل والعناد، وإذا كان الأمر كذلك وجب في الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أي اذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، فامتثلوا للأمر وسجدوا له إلا إبليس اللعين، تكبَّر وتجبَّر، وعصى أمر ربه، والآية تحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ﴾ الآية، ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم، من عيسى وعزير عليهما السلام، ومن حال إبليس حال من يعاند الحقَّ، لأنهم إنما عاندوه لأمرين: الكبر، والحسد، وهذه بليَّةٌ للخلق ﴿قَالَ﴾ أي عندما وُبِّخ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ لاَ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ ﴿أَأَسْجُدُ﴾ وأنا من عنصر عال ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ نصب على نزع الخافض أي أأسجد لمن خلقته من طين؟ فاستحقَّ بذلك اللّعن والطرد من رحمة الله.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) هناك ثياب يلبسها رجال الإطفاء ويقتحمون النار بها فلا تحرقها، فلا يستبعد العاقل على قدرة الله، أن تنبت شجرة في النار ولا تأكلها النار، ونحن نرى في عصرنا غرائب وعجائب من صنع الإنسان، فكيف بخالق الأكوان؟.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ ﴾ الكاف للتأكيد أي أخبرني عن ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ لم كرمته؟ ومراده الاستحقار ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ ﴾ حياً ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ واللام للقسم وجوابه ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ ﴾ لأستأصلنَّهم بالإغواء كقوله: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ منهم، وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى.

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾ أي امض لشأنك الذي اخترته وهو طرد له، وتخلية ما بينه وبين ما سولت له نفسه ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ ﴾ أي جزاؤك وجزاؤهم، فغلَّب المخاطبُ على الغائب ﴿ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ أي جزاءً كاملاً وافراً، لا ينقص لكم منه شيء.

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ استخفَّ واستعجل، وأزعج من استطعتَ أن تستفزَّه ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ أي بدعائك لهم إلى الفساد ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ أي صِحْ عليهم، من الجَلَبة وهي الصياح ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ بأعوانك من راجل وراكب، من أهل الفساد، قال ابن عباس: إن له خيلاً ورَجِلاً من الإنس والجن، فما كان من راكبٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس، ومن كان يقاتل في معصية الله، فهو من رَجُل إبليس، والرَّجِلُ: اسم جمع للراجل، كالصحب والركب ويجوز أن يكون استفزازه، تمثيلاً لتسلُّطه على من يغويه ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ بحملهم على كسبها، وجمعها من الحرام، والتصرف فيها بإنفاقها في المعاصي ﴿ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ بالحث على التوصل

إليهم بالأسباب المحرمة، والإضلال لهم بالحمل على الأديان الزائغة، والحِرَف الذميمة، والأفعال القبيحة ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ المواعيد الباطلة، كشفاعة الآلهة، والاتكاء على كرامة الآباء، وتأخير التوبة بطول الأمل ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي وما يعدهم إلا خِداعاً وتضليلاً بوساوسه الكاذبة.

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ الإضافة للتشريف، وهم المخلصون من المؤمنين الصادقين ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ أي تسلط وقدرة على إغوائهم ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أي عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك، يتوكلون عليه، للخلاص عن إغوائك، والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكيفية كفايته تعالى لهم، أعني سلب قوته، عن إغوائهم بدفع كيده، ويعصمهم من إغوائه، وقد استشكل بعض المتكلمين، خطاب الرب سبحانه للشيطان، وأمر الله تعالى إياه بإغواء البشر، بقوله تعالى: ﴿واسْتَفزِزْ﴾ الآية مع قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ﴾ الآية؟.

وإنما يشكل هذا كله على ما جَرَوْا عليه من جعل الخطاب للتكليف، أمّا إذا جعل الخطاب للتكوين، كما صرح به ابن كثير فلا إشكال[1] ، لأنه عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الشيطان.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ الإزجاء السَّوْقُ حالاً بعد

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٣٨٧: هذا أمرٌ قَدَريٌّ، ومعناه: تسلَّطْ عليهم بكل ما تقدر عليه. اهـ أقول: لا يراد به أن الله عزَّ وجلَّ يأمره بإغواء البشر، وفتنتهم عن الدين، بطرقه الخبيثة، وإنما هو بيان لصفة طبيعة الشيطان، فتنبَّهْ والله يرعاك.

حال، أي هو القادر الحكيم، الذي يسوق لمنافعكم الفُلْك، ويُجريها في البحر ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ من رزقه الذي هو فضل من قِبَله، وهذا تذكير لبعض النعم التي هي دلائل التوحيد، والمقصود الأعظم في هذا الكتاب الكريم دلائل التوحيد، فإذا امتد الكلام في فصل من الفصول، عاد الكلام إلى ذكر دلائل التوحيد ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أي أزلاً وأبداً ﴿بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه، والمراد بالرحمة: الرحمةُ الدنيوية، وفي قوله تعالى: ﴿ربُّكُمُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُم﴾ الضمير عام في حقِّ الكل.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ خوف الغرق ﴿فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ﴾ ذهب عن خواطركم ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ كل من تدعونه من دون الله، من الملائكة، والمسيح أو غيرهم ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحده، من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم، وتدعوه لكشفه، أو ضلَّ من تدعونه من إغاثتكم وإنقاذكم، ولم يقدر على ذلك إلا الله عزَّ وجل ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن التوحيد ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ للنعم، والصيغة للمبالغة، أي كثير الكفران لنعم الرحمن.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، أي نجوتم فحملكم ذلك على الإعراض ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الذي هو مأمنكم أي يقلبه الله عليكم ملتبساً بكم، وحاصل المعنى: أن الجوانب كلها بالنسبة إلى قدرته عزَّ وجلَّ سواء، براً كانت أو بحراً، ليس جانب البحر وحده، مختصاً بسبب الهلاك، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البرِّ الخسفُ

والزلازلُ، والفيضانات ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً ترمي بالحصباء أي نمطر عليكم حجارة من السماء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفظكم عن ذلك، أو يصرفه عنكم، فإنه لا رادَّ لأمره الغالب.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي يعيدكم في البحر ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾ أي عاصفاً ﴿مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي التي لا تمرُّ بشيءٍ إلاَّ كسرته، أو الريح التي لها قصف وهو الصوتُ الشديد ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ بعد كسر سفينتكم كما ينبيء عنه عنوان القصف ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم وكفرانكم لنعمة الإنجاء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي ثائراً متابعاً، يطالبنا بما فعلنا، دَرْكاً للثأر، كما يفعله الأقوياء.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي كرمناهم بحسن الصورة، واعتدال القامة، والتمييز بالعقل، والإفهام بالنطق، والخط والاهتداء إلى أسباب المعاش، وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة، ومن جملة ذلك أن كل حيوان يتناول طعامه بفمه إلا الإنسان، فإنه يرفعه إليه بيده ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ على الدواب والسفن، وليس من المخلوقات شيءٌ كذلك ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فنون النعم، وضروب المستلذّات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ في العلوم، والإدراكات بما ركّبنا فيهم من القوى المدركة، التي بها يتميز الحقُّ من الباطل، والحُسْنُ من القبح ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ وهم ما عدا الملائكة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «المؤمنُ أكرم على الله من الملائكة، لأنهم مجبولون على الطاعة، ففيهم عقلٌ بلا شهوة،

وفي البهائم شهوةٌ بلا عقل، وفي الآدمي كلاهما، فمن غلب عقله شهوته، فهو أكرم من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم» ﴿تَفْضِيلًا﴾ عظيماً، فحقَّ عليهم أن يشكروا هذه النعم، ولا يكفروها، وليس فيه دلالة على أفضلية الملائكة، فإن المراد ههنا بيان التفضيل في أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها، ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل في عظيم الدرجة، وزيادة القربة عند الله سبحانه.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ أي ندعو كل شخص من بني آدم، وهذا شروع في بيان تفاوت أحوالهم في الآخرة، بحسب أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وقوله سبحانه: ﴿ بِإِمَامِهِمْ ﴾ أي بكتاب أعمالهم فيقال: «يا أهل كتاب الخير، ويا أهل كتاب الشر» ويدل على أن المراد بالإمام هو كتاب الأعمال، قوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ﴾ يومئذ من أولئك المدعوين ﴿ كِتَابَهُ﴾ صحيفة أعماله ﴿ بِيَمِينِهِ﴾ إبانةً لخطر الكتاب المؤتى، وتشريفاً لصاحبه، وتبشيراً له بما في مطاويه ﴿ فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى «مَنْ» باعتبار معناه، إيذاناً بأنهم حزبٌ مجتمعون على شأن جليل ﴿ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ الذي أوتوه على الوجه المبين، ابتهاجاً وتبجحاً بما يرون فيه من الحسنات ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُنقصون من أجور أعمالهم، بل يُؤتونها مضاعفة ﴿ فَتِيلًا﴾ أي قدر فتيل، وهو القشرة التي في شِقِّ النواة، أو أدنى شيء كان، والفتيل مَثَلٌ في القلة والحقارة.

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَن كَانَ﴾ من المدعوين المذكورين ﴿ فِي هَذِهِ﴾ الدنيا التي فُعل

بهم ما فُعل، من فنون التكريم والتفضيل ﴿أَعْمَىٰ﴾ فاقد البصيرة لا يهتدي إلى رشده، ولا يعرف ما أوليناه به من التكريم، فضلاً عن شكرها، والقيام بحقوقها ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي لا يهتدي إلى ما ينجيه، لأن العمى الأول موجب للثاني، وفيه قولان: **الأول**: عمى البصيرة، **والثاني**: عمى العين، كما قال الله تعالى: ﴿ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً؟ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَها وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسَىٰ﴾[1] ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي من الأعمى فاقد البصر، لزوال الاستعداد، وتعطيل الآلات بالكلية.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ نزلت في وفد ثقيف إذ قالوا للرسول ﷺ لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، وأن تحرم وادينا كما تحرم مكة وإن قالت العرب لم فعلت فقل إن الله أمرني بذلك فأمسك رسول الله ﷺ عنهم، وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال: أمَا ترون رسول الله ﷺ قد أمسك عن الكلام، كراهيةً لما تذكرونه، فأنزل الله هذه الآية والمشركون كانوا يسعون في إبطال أمره ﷺ، فتارة كانوا يقولون: «إن عبدت آلهتنا عبدنا إلَهتك» فأنزل الله: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ السورة وعرضوا عليه الأموال الكثيرة، والنساء الجميلة، ليترك الدعوة، فأنزل الله تعالى: ﴿ولاَ تَمُدَنَّ عَيْنَيْكَ إلىَ مَا مَتَّعْنَا﴾ الآية. أي قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك ﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من أوامرنا ونواهينا ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ لتقول علينا غير الذي أوحينا إليك ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو اتبعتهم على أهوائهم لكنت لهم خليلاً، ولخرجت من ولايتي.

---

(١) سورة طه، آية: ١٢٥ ـ ١٢٦.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على ما أنت عليه من الحقِّ بعصمتنا لك ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ من الركون الذي هو أدنى ميل، أي لولا تثبيتنا لك، لقاربت أن تميل إليهم شيئاً يسيراً، من الميل اليسير، لقوة خدعهم، لكنْ أدركتك العصمة، فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون إليهم، وهذا صريح في أنه ﷺ ما همَّ بإجابتهم، ودليلٌ على أن العصمة بتوفيق الله تعالى، وعنايته، وهذا تهييجٌ من الله تعالى له، فلما نزلت كان ﷺ يقول: «اللهمَّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ميل ﴿لأذَقْناكَ﴾ عذاب الدنيا والآخرة، ضعف ما يُعذَّب به في الدِارين، بمثل هذا الفعل غيُرك، لأن خطأ الخطير أخطر، وكان أصل الكلام عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، بمعنى مضاعفاً وقيل: ضعف الممات «عذاب القبر» ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنك العذاب، وينصرك منا.

«التقليد الأعمى للأجانب»

لقد ضعفت في هذا العصر عصبية المذاهب، ولا سيما في الفروع، فإن الجهل بحقيقته صار عاماً، وبعض العلماء أعماهم التقليد، عن النظر في مصالح الأمة، والسير بالقضاء والإدارة والسياسة، على ما تجددت عليه المصالح، حتى اقتنع حكامها الجاهلون في أكثر البلاد، بأن الشريعة لم تعد كافية، فصاروا يقلدون الإفرنج فيما اشترعوا لأنفسهم من القوانين،

التي يرونها موافقة لعاداتهم، وآدابهم، وعقائدهم، وتقاليدهم، وإن لم تكن موافقة للمسلمين في شيء من ذلك، ولم يعقلوا ما في هذا التقليد من المفاسد السياسية والاجتماعية، المضعف للأمة في دينها ودنياها، بل حسبوا بجهلهم أنهم بهذا يكونون كالدول الأوروبية، في عزتها وثروتها، فكانت عاقبة هذا الإغواء أن سلبهم أولئك المغوون ملكهم، وجعلوهم أسلحة وآلات بأيديهم يذللون بهم أممهم، فلم يستطيعوا أن يقضوا على استقلال مملكة إسلامية، وقد اجتهد أولئك الطامعون المغوون بإفساد أفكار الشعوب الإسلامية وقلوبها فبثوا فيها الدعاة الفسقة، لتشكيكها في القرآن والنبوّة، ومنهم من يشكك في أصل الدين، أي وجود الإله وبعثة الرسل، كما بثوا فيها دعاة السياسة، يرغّبونها في قطع الرابطة الدينية، التي تربط بعضها ببعض، واستبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بها، فكانت عاقبة ذلك، وقوع العداوة بين الترك والعرب، غيّر هؤلاء بفساد أمرائهم وزعمائهم ما بأنفسهم، فغيّر الله ما بهم، وسلبهم عزّهم، وسلطانهم، وهؤلاء هم: ﴿الذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعَاً﴾[1]!!.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ أي أهل مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي ليزعجونك بمعاداتهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ همَّ المشركون أن يخرجوه منها، فكفهم الله تعالى عنه، حتى أمره بالهجرة، فخرج بنفسه ﷺ ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ أي لا يبقون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أي بعدك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلاَّ زماناً قليلاً، وقد كان كذلك، فإنهم أُهلكوا ببدر بعد هجرته ﷺ بسَنة.

---

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٤.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ ﴾ أي سنَّ الله سنةً، والمعنى: هذه عادة الله جل وعلا مع رسله، أن يهلك كل أمة، أخرجت رسولها من بين أظهرهم، وإضافتها إلى الرسل، لأنها سُنَّت لأجلهم، على ما ينطق به قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴾ أي تغييراً وتبديلاً.

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي حافظ على الصلوات في أوقاتها لكي ينصرك الله، أمره تعالى بالإقبال على عبادته، لكي ينصره عليهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى ما يَقولونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الآية ﴿ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ الدُّلوكُ: هو الزوالُ، وهو قول عطاء وقتادة، ومجاهد، وأكثر التابعين، والآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها، فدلوك الشمس يتناول الظهر والعصر ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ أي ظهور ظلمته، وهذا يتناول المغرب والعشاء، وليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار، بل إقامة كل صلاة في وقتها، الذي عُيِّن لها ببيان جبريل عليه السلام ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ أي صلاة الفجر، سميت قرآناً لأنه ركنه ولطول قراءتها ﴿ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ تشهده ملائكة الليل والنهار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفضُل صلاةُ الجمع، صلاةَ أحدكم وحده، بخمس وعشرين جزءاً، وتجتمع ملائكة الليلِ وملائكةُ النهار في صلاة الفجر، ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿إِنَّ قَرآن الفَجرِ كَانَ مَشهُوداً﴾»[1].

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٤٥ بنحوه.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي قم بعض الليل ﴿ فَتَهَجَّدۡ﴾ أي أزل وألق الهجود عنك أي النوم وتعبد ربك في ظلمة الليل تطوعاً ﴿ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ فريضة زائدة على الصلوات المفروضة، خاصة بك، زيادة له ﷺ في الدرجات ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ ﴾ الذي يبلغك إلى كمالك بعد الموت الأكبر، كما انبعثتَ من النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة ﴿ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ عندك وعند جميع الناس، وفيه تهوين لمشقة قيام الليل عن المغيرة بن شعبة قال: قام رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(١) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة، والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدتَه، حلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة» (٢).

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ۝٨٠ ﴾.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي ﴾ أي القبر ﴿ مُدۡخَلَ صِدۡقٖ ﴾ أي إدخالاً مرضياً ﴿ وَأَخۡرِجۡنِي ﴾ منه عند البعث ﴿ مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ﴾ أي إخراجاً مرضياً ملقىً بالكرامة وقيل: المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة، ﴿ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ حجة تنصرني على من يخالفني، وعزّاً ناصراً للإسلام،

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١١٣٠ ومسلم في المنافقين رقم ٢٨١٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٦١٤.

مظهراً له على الكفر، فأجيبت دعوتُه ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ألاَ إن حزب الله هم الغالبون.

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ الإسلام والقرآن ﴿ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ أي ذهب وهلك الشرك والكفر، من زهق روحه إذا خرج ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أي شأنه أن يكون مضمحلاً، غير ثابت، وهو عِدَةٌ كريمة بإجابة الدعاء، عن عبد الله ابن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «جاء الحقُّ وزهقَ الباطل، إنَّ الباطل كان زهوقاً، جاء الحقُّ وما يُبدىء الباطلُ وما يعيد»[1].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ لما في الصدور، شفاءٌ للأمراض الباطنة، والظاهرة، فالأمراض الباطنة إما اعتقادات فاسدة، وإما أخلاق ذميمة، فالقرآن الكريم مشتمل على الدلائل القاطعة لمذاهب الحق، ولإبطال المذاهب الفاسدة، ومشتمل أيضاً على التنفير من الأخلاق المذمومة، والإرشاد إلى الأخلاق المحمودة والأعمال الفاضلة، وأما كونه شفاءً، من الأمراض الجسمانية، فإن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض، يدل عليه قوله ﷺ في فاتحة الكتاب «وما يدريك أنها رُقية»؟[2]

(١) أخرجه البخاري ٨/ ١٤ في المغازي ومسلم رقم ١٧٨١ في الجهاد.

(٢) هذا طرف من حديث شريف أخرجه البخاري في قصة الصحابي الذي رقى بفاتحة الكتاب رئيس قبيلة فشفي بإذن الله، فلما أخبر الرسول ﷺ بذلك، قال له: «وما يدريك أنها رقية»؟

ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة بأن لقراءة الرُّقَىٰ المجهولة، التي لا يُفهم منها شيءٌ آثاراً في تحصيل المنافع، ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم، المشتمل على ذكر الله، وكبريائه، سبباً لحصول النفع، كان أولى ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي تفريجٌ للكروب، وتطهيرٌ للعيوب، وتكفير للذنوب ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ و «مِنْ» بيانية، فإن القرآن كلَّه شفاء ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي لا يزيد القرآن الكافرين المكذبين، إلاَّ شقاءً وبلاء، وهلاكاً ودماراً، فإنَّ ما بهم من داء الكفر والضلال، حقيق بأن يكون سبباً للشقاء والهلاك، فسماع القرآن الكريم يزيدهم غيظاً وغضباً، وحقداً وحسداً، وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة والهلاك المؤبد، وإسناد الزيادة للقرآن مع أنهم هم المزدادون في ذلك، بسوء صنيعهم، باعتبار كونه سبباً لذلك، وفيه تعجيبٌ من أمر القرآن العظيم، حيث يكون مداراً للشفاء والهلاك.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا (٨٣) ﴾.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ بالصحة والنعمة ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن ذكرنا فضلاً عن القيام بموجب الشكر ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ تأكيد للإعراض، والنأي بالجانب عبارة عن الاستكبار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ من فقر، أو مرض، أو نازلة من النوازل ﴿ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ أي شديد اليأس من روحنا «ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»، وهذا وصفٌ للجنس باعتبار بعض أفراده، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ ونظائره، فإن ذلك شأن بعض الآخرين منهم، وفي إسناد المساس إلى الشر، بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة، إيذانٌ بأن الخير مرادٌ بالذات، والشر ليس كذلك.

﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾ ﴿٨٤﴾.

﴿قُلۡ كُلّٞ﴾ أي كلُّ أحد منكم وممن هو على خلافكم ﴿يَعۡمَلُ﴾ عمله ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي على طريقته التي تشاكل حاله في الهُدىٰ والضلال، والعقلاء اختلفوا في أن النفوس البشرية، هل هي مختلفة بالماهية أم لا؟ منهم من قال بالأول، وقال: إن اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهيتها، ومنهم من قال متساوية في الماهية، واختلاف أفعالها لاختلاف أمزجتها، والمختار عندي هو الأول، والقرآن مشعرٌ بذلك، وذلك لأنه تعالى بيّن في الآية المتقدمة، أن القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة، وبالنسبة إلى الآخرين يفيد الخسار والخزي، ثم أتبعه بقوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ ومعناه أن اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال، وبتلك النفوس الكدرة، أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال، كما أن الشمس تعقِدُ الملحَ، وتُليِّن الدّهن، وتبيض ثوب القصار، وتسوّد وجهه، فكل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه، فإن كانت نفسه مشرقةً طاهرة خيِّرة، صدرت عنه أفعال فاضلة، وإن كانت نفسه كدرةً خبيثةً، صدرت عنه أفعال خسيسة وفاسدة ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾.

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ ﴿٨٥﴾.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ أي ربكم جلَّ وعلا أعلم بالمهتدي والضال منكم، وسيجزي كلَّ عامل بعمله، عن عبد الله بن مسعود قال: «بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ، فمر بنفرٍ من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ فقام إليه رجل منهم، فقال يا أبا القاسم: ما الروح»؟ فأمسك النبي ﷺ فلم يردَّ عليهم شيئاً، فعلمتُ أنه يوحى إليه، فقمتُ مقامي، فأنزل الله

عزَّ وجلَّ ﴿ويسألونك عن الروح...﴾[1] الآية وعن ابن عباس أن السائل إنما سأله بتكليف من اليهود، والظاهر أن السؤال كان عن حقيقة الروح، الذي هو يدبِّر البدن الإنساني، ومبدأ حياته ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ كلمة «مِنْ» بيانية، أي الروح من إبداع الله عزَّ وجلَّ من غير تولُّد من أصل، والأمر بمعنى الشأن والإضافة للاختصاص، أي أمر الروح من جنس ما استأثر الله بعلمه، من الأمور الخفية، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي وما علمكم أيها البشر جميعاً، إلا شيء قليل وضئيل، بالنسبة لعلم الله جلَّ وعلا، وهذا العلم تستفيدونه من طرق الحواس، فإن تعلق المعارف النظرية، إنما هو من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل: من فَقَد حِسَّاً فقد فَقَدَ علماً، ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحسُّ، ولا شيئاً من أحواله، التي يدور عليها معرفة ذاته، فثبت أن أكثر الماهية والحقائق مجهولة، والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك مخلوق مجاورٍ له، ليدلَّ على أنه عن إدراك ذات خالقه أعجز، وما قيل في تعريف الروح أنه جسم دقيق هوائي، في كل جزء من الحيوان، وقال بعضهم: هو الدم، وقال قوم هو نفس الحيوان، بدليل أنه يموت باحتباس النفس، وقال قوم هو جسمٌ لطيف يحيا به الحيوان، كل ذلك مما لا دليل عليه، وإنما هو تكهن، وأولى الأقوال بالصواب أن يوكل علمه إلى الله تعالى، وهو قول أهل السنة.

﴿ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا (٨٦) ﴾.

﴿ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ومنبعٌ للعلوم، واللام الأولى موطّئة للقسَم، و«لنذهبن»

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن ابن مسعود وانظر فتح الباري ٨/ ٤٠١ كتاب التفسير.

جوابه النائب مناب جزاء الشرط، فالمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن، ومحوناه من الصدور والمصاحف، وهذا وإن كان أمراً مخالفاً للعادة، إلاَّ أنه تعالى قادر عليه ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ ﴾ أي بالقرآن ﴿ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ أي من يتوكل استرداده، مسطوراً محفوظاً.

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ ﴾ أي إلاَّ أن يرحمك ربك فيردَّه عليك، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً، بمعنى: ولكنْ رحمةً من ربك، تركتُه غير مذهوب به، فيكون امتناناً على رسوله، بإبقائه في صدره بعد المنَّة بتنزيله، وترغيباً في المحافظة على أداء حقوقه ﴿ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ بجعلك رسولاً، وإنزال الكتاب عليك، وإبقائه في حفظك، وجعلك سيد ولد آدم، وختم النبيّين بك، وإعطائك المقام المحمود، فلما كان كذلك، لا جرم أنعم عليك، بإبقاء العلم في صدرك، وإنزال القرآن عليك.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ قُل ﴾ للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل، ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل، بل يزعمون أنه من كلام البشر ﴿ لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ﴾ اتفقت ﴿ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة، في البلاغة، وحسن النظم، وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذِّكر، لأن المنكر لكونه من عند الله منهما لا من غيرهما، لا لأن غيرهما قادر على المعارضة ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ أي لا يأتون بكلام مماثلٍ له، فيما ذكر من الصفات البديعية، وفيهم أربابُ البراعة والبيان، وهو جواب القسم ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ أي ولو اجتمع أرباب الفصاحة والبيان، من الإنس والجان، وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لم

يقدروا على ذلك، نزلت الآية الكريمة حين قال المشركون: لو نشاء لقلنا مثل هذا، فكذَّبهم الله عزَّ وجلَّ، لأنه كلام الخالق، لا كلام المخلوق، وهم أعجز من أن يأتوا بمثل سورة منه!!.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ كرَّرنا وردَّدنا الحجج والبراهين ﴿ لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي بيّنا للناس في هذا الكتاب المعجز ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من كل معنى بديع، هو في الحسن والغرابة، ووقوعه في الأنفس كالمثل، ليتلقوه بالقبول ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ ﴾ المراد بأكثر الناس أكثر أهل مكة، وهم الكفار، أوثر الإظهار تأكيداً وتوضيحاً ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي إلاَّ تكذيباً للحق وجحوداً لآيات الله.

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ عند ظهور عجزهم عن معارضة القرآن ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أرض مكة ﴿ يَنۢبُوعًا ﴾ عيناً لا ينضب ماؤها، تتدفق خلال وديان مكة.

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ بستان تستر أشجارُهُ ما تحتها ﴿ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ أي تجريها بقوة ﴿ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ كثيراً، والمراد سقيها وإدامة إجرائها بقوة وغزارة.

﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ جمع كِسْفة كقِطعة وقِطَع، لفظاً ومعنى، أي إسقاطاً مماثلاً لما زعمت كما كنت تخوّفنا ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي مقابلاً أو كفيلاً بما تقول، وشاهداً يشهد بصحة ما تدّعيه من أنك رسول الله.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ من ذهب، وأصله الزينة ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في معارجها، فحذف المضاف يقال رقي في السلم ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لأجل رقيك فيها وحدَه ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ فيه تصديقك ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ نحن بأنفسنا من غير أن يتلقى من قبلك ﴿قُلْ﴾ تعجباً من شدة شكيمتهم، وتنزيهاً لساحة الرب جلّ وعلا من مثل هذه الاقتراحات ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ لا مَلَكاً حتى يتصور لي الرقيُّ في السماء ﴿رَّسُولًا﴾ مأموراً من قِبَل ربي لتبليغ الرسالة كسائر الرسل؟ روي عن ابن عباس «أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة، فبعثوا إلى الرسول ﷺ فجاءهم فقالوا يا محمد: إنَّا والله لا نعلمُ رجلاً من العرب، أدخل على قومه ما أدخلت على قومك!! لقد عبتَ الدينَ، وسفّهتَ الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرّقت الجماعة، فإن كنتَ جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالاً، جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد الشرف، سوّدناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رئياً تراه، قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطبِّ حتى نبرئك منه (وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي) فقال ﷺ: ما بي ما تقولون، وما جئتكم بما جئتكم به لطلب المال، ولا للشرف عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني فهو حظُّكم من الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر

لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»[1]، فلما قال ذلك، تفوَّهوا بالاقتراحات الباطلة وما كانوا يقصدون بتلك الاقتراحات، إلا الاستهزاء، واللَّجاج، والعناد.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾ الذين حكيت أباطيلهم يعني أهل مكة ﴿ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أي النبي والقرآن المعجز، أي ما منعهم الإيمان بعد ظهور الحق، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ﴾ أي إلاَّ قولهم ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ منكرين أن يكون رسول الله، من جنس البشر مرسلاً إلى الخلق فلماذا يكون بشراً ولا يكون مَلَكاً؟! وفيه إيذانٌ بكمال عنادهم، حيث جعلوا بعثة الرسول من البشر، مانعاً لهم من الإيمان، ولم يستبعدوا أن تكون آلهتهم من الحجر!!.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ قُل ﴾ تبياناً للحكمة، وتحقيقاً للحق المزيح للريب ﴿ لَّوْ كَانَ ﴾ لو وُجد واستقر ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بدل البشر ﴿ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ كما يمشي بنو آدم ﴿ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ ساكنين وقارين فيها ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ يهديهم إلى الحق، لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي عنه، لأن الجنس إلى الجنس أميل، وأما عامة البشر فبعث الملك إليهم، معارضٌ

---

(١) انظر تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٢/ ٣٦٣ بتحقيقنا، ومختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٩.

للحكمة التي عليها بُني التكوينُ والتشريع، وإنما يُبعث المَلَك من بينهم إلى الخواص، المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدين بالقوة القدسية، المتعلقين بالعالم الروحاني، والجسماني، ليتلقوا من جانب، ويلقوا إلى جانب.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم ثانياً من جهتك ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ وحده ﴿شَهِيدًۢا﴾ على أني أديت ما عليَّ من مواجب الرسالة أكمل أداء، وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وإنما لم يقل: بيننا، تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ من الرسل والمرسل إليهم ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ محيطاً بظواهر أحوالهم وبواطنها، فيجازيكم على ذلك، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتهديد للكفار.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ أي من يهده الله إلى الحق بما جاء من قبله من الهدى ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ فهو المهتدي إلى كل مطلوب ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي يخلق فيه الضلال، بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾ أوثر ضمير الجماعة باعتبار المعنى للفظ «مَنْ» في مقابلة الإفراد، نظراً إلى لفظهما، تلويحاً بوحدة طريق الحق، وقلة سالكيه، وتعدد سبيل الضلال وكثرة الضالين ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ من دون الله تعالى، أي أنصاراً يهدونهم إلى طريق الحق، وإلى طريق النجاة من العذاب، الذي يستدعيه ضلالهم

﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ التفاتٌ من الغَيْبَة إلى التكلم، إيذاناً بكمال الاعتناء بأمر الحشر ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أيْ كائنين عليها سحباً أو يمشون بها كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ روى الشيخان عن أنسٍ أن رجلاً قال: يا رسول الله ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ كيف يحشر الكافرُ على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس الله الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا، قادراً أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة حين بلغه: بلىٰ وعزَّةِ ربنا»[1] ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ روي أن واحداً قال لابن عباس: أليس أنه تعالى يقول: ﴿وَرَأَىٰ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ وقال: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ وقال: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ فثبت بهذه الآيات أنهم يرون، ويسمعون، ويتكلمون، فكيف قال ههنا: ﴿عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾؟ قال ابن عباس: أي إنهم لا يبصرون ما يَقِرُّ أعينَهم، ولا يسمعون ما يَلَذُّ مسامعَهم، ولا ينطقون ما يُقبل منهم، لأنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر، ولا ينطقون بالحق، ولا يستمعونه، ويجوز أن يُحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار، عمياً وبكماً وصماً، وقبل ذلك كانوا يسمعون ويبصرون ويتكلمون، فإن إدراكاتهم في بعض المواطن، ممَّا لا ريب فيه ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي مستقرهم ومقامهم في نار جهنم، كلما سكن لهبها، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ توقداً بأن بدّلناهم جلوداً غيرها، فعادت ملتهبة، عقوبةً لهم على إنكارهم الإعادة، ليروها عياناً حيث لم يعلموها برهاناً.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ أي العذاب المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/٣٧٧ في الحشر، ومسلم رقم ٢٨٥٩ في الحشر أيضاً.

﴿ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ العقلية، والنقلية، الدالة على الإعادة بعد الإفناء ﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ منكرين ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي هل سنبعث بعد أن نصبح ذرات متفتتة، وعظاماً نخرة بالية؟

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) ﴾.

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ من غير مادة مع عظمها ﴿ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهن، ولا الإعادة أصعب من الإبداء، والمراد بالخلق الإعادة كما عبَّر عنها بذلك حيث قال: ﴿خَلْقاً جَدِيداً﴾ ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ والمعنى: قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس، وجعل لهم ولبعثهم أجلاً محققاً لا ريب فيه، هو يوم القيامة ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وضع الظاهر ﴿الظالمون﴾ موضع الضمير، تسجيلاً عليهم بالظلم، وتجاوز الحد ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي جحوداً وعناداً، مع وضوح الحق والدليل.

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا (١٠٠) ﴾.

﴿ قُل ﴾ للكفار الذين طلبوا منك إجراء الأنهار والعيون، في بلدتهم لتكثر أموالهم ﴿ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ ﴾ خزائن رزقه التي أفاضها على كافة الموجودات ﴿ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ ﴾ أي لبخلتم ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ ﴾ أي مخافة النفاد بالإنفاق ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي مبالغاً في البخل، لأن مبنى أمره على الحاجة، والضِنَّةِ بما يحتاج إليه، وليس في الدنيا أحدٌ إلا وهو يختار النفع لنفسه، ولو آثر غيره بشيء، فإنما يؤثره لِعوضٍ يفوقه، فإذاً هو

بخيل، بالنسبة إلى جود الله سبحانه، فإن قيل: قد يوجد في الناس من هو جواد كريم، فكيف يوصف بالبخل؟ قلت: الأصلُ في الإنسان البخلُ، لأنه خُلق محتاجاً، والمحتاج لا بدَّ أن يحبَّ ما يدفع عنه ضرر الحاجة ويمسكه لنفسه، إلا أنه قد يجود لأسباب خارجية، مثل أن يحبَّ المدح، أو رجاء الثواب.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ ﴾ أي لقد أعطينا موسى الكليم تسع معجزات خارقة، واضحة الدلالة على صدق رسالته، وصحة ما جاء به من عند الله، وهي: اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والأخذ بالسنين أي القحط لآل فرعون، وله خوارق أخرى، منها انفجار الماء من الحجر، ونتق الطور، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها من المعجزات، لم تكن منزلة إذْ ذاك، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿تسع آياتٍ بينات﴾ روي قول آخر ورد في حديث شريف عن صفوان بن عسَّال أنه قال: «إن يهودياً قال لصاحبه: اذهبْ بنا إلى هذا النبي، نسأله عن تسع آيات؟ فذهبا إلى النبي ﷺ وسألاه عنها، فقال هنَّ: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تولوا الفرار من الزحف، وعليكم خاصَّة اليهود أن لا تعتدوا في السبت، فقام اليهوديان فقبَّلا يديه وقالوا: نشهد أنك نبيٌّ ولولا أن نخاف القتل اتبعناك»[1] ﴿ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي فاسألهم يا محمد عن تلك الآيات، لتزداد يقيناً بما يوحى إليك، وليظهر صدقك عندهم ﴿ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ يعني

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٤٤ وقال: حسن صحيح.

حين جاء موسى عليه السلام إلى فرعونَ بالرسالة ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ﴾ أي فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلَّغه ما أُرسل به، فقال له فرعون ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾[1] أي سُحرتَ فتخبَّط عقلُك.

﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾.

﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات التي أظهرها ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي خالقهما، والتعرض لربوبيته تعالى لهما، للإيذان بأنه لا يقدر على تلك الآيات، إلا خالقهما ومربيهما ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي بيِّناتٍ مكشوفات، تبصِّرك صدقي، ولكنك تعاند ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ مصروفاً عن الخير، مطبوعاً على الشرّ، ولقد قارع عليه السلام ظنَّه بظنِّه، وشتَّان ما بين الظَّنَّيْن، كيف لا وظنُّ فرعون إفكٌ مبين، وظنُّه عليه السلام يحوم حول اليقين!!.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾.

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسۡتَفِزَّهُم﴾ أي أن يستخف موسى عليه السلام وقومه، وينفيهم ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض مصر، أو من الأرض مطلقاً بالاستئصال ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا﴾ أي فعكسنا عليه مكره، واستَفْزَزْناه وقومه بالإغراق، ولا يحيق المكر السَّيِّء إلاَّ بأهله.

﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾.

---

(١) الظنُّ هنا بمعنى العلم وإنما عبَّر بالظن ليقابل قول فرعون له ﴿لأَظُنُّكَ يا موسىٰ مَسْحُورَا﴾.

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من بعد إغراقهم ﴿ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ التي أراد أن يستفزكم منها ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي فإذا جاء وقت قيام القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ مختلطين ثم نحكم بينكم، واللفيف الجماعات المختلفة من أجناس شتى.

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحقِّ المقتضي لإنزاله، وما نزل إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه، ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمطيع بالثواب ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للعاصين بالعقاب.

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ أي نزَّلناه مفرَّقاً ومنجَّماً دلالة على كثرة آياته ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ على مهلٍ وتؤده، فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وعلى حسب الحوادث، نزل به جبريل الأمين، على قلب خاتم المرسلين، وفيه الهدى والشفاء. قال الراوي: اشتكى محمد بن السماك، فأخذنا ماءه وذهبنا به إلى طبيب، فاستقبلنا رجلٌ حسن الوجه، طيب الرائحة، نقيُّ الثوب، فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له إلى فلان الطبيب، نريه ماء ابن السماك، فقال: سبحان الله، تستعينون على وليِّ الله بعدوٍّ؟ ارجعوا إلى ابن السمَاك وقولوا له: ضعْ يدكَ على موضع الوجع، وقل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالحَقِّ نَزَلَ﴾ ثم غاب فلم نره، فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرناه بِذلك، فوضع يده على موضع الوجع، فقال ما قال الرجل، وعوفي في الوقت.

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ للذين كفروا على وجه التهديد والإنكار ﴿ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ ﴾ بالقرآن ﴿ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً، والله تعالى أوضح البينات والدلائل، فاختاروا النعيم المقيم، أو العذاب الأليم، وفيه وعيد وتهديد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ أي العلماء الذين قرؤوا الكتب السالفة، من قبل تنزيله، وعرفوا حقيقة الوحي، وأمارات النبوة، وتمكنوا من معرفة الحق والباطل، وهم مؤمنو أهل الكتاب، منهم «زيد بن عَمرو بن نُفيل، وورقةُ بن نوفل، وعبدُ الله بن سلام» ونحوهم ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ ﴾ أي القرآن العظيم ﴿ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ أي يسقطون على وجوههم ﴿ سُجَّدًا ﴾ تعظيماً لأمر الله، وشكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك، وتخصيصُ الأذقان بالذكر، للدلالة على كمال التذلل، وهو كناية عن غاية الخشوع، والمقصود من ذكر هذا اللفظ، مسارعتهم إلى السجود، حتى إنهم يسقطون سجداً لله أي إن لم تؤمنوا به، فقد آمن به مَن هو خير منكم.

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ في سجودهم ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ ﴾ عما يقول الكفرة من التكذيب، وعن خُلفِ الوعد ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ «إنْ» مخفَّفة من الثقيلة، أي إن الحال والشأن أن وعد الله حقٌّ، واقع لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ كرَّر الخرور لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم أمر الله، والثاني: لما أثّر فيهم من مواعظ القرآن، حال كونهم

باكين من خشية الله ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي القرآن بسماعهم ﴿خُشُوعًا۩﴾ لين قلب ورطوبة عين، كما يزيدهم علماً ويقيناً لله تعالى. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار، عينٌ بكت من خشية الله، وعين باتت تحرسُ في سبيل الله»[1].

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ نزل حين سمع المشركون رسول الله ﷺ يقول: يا ألله، يا رحمنُ، فقالوا: إنه ينهانا عن عبادة إلّهين، وهو يدعو إلّهاً آخر، والمراد هنا في الآية: التسويةُ بين اللفظين، بأنهما عبارتان عن ذات واحدة، والتوحيد إنما هو للذات والدعاءُ بمعنى التسمية و أو للتخيير ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والتنوينُ في ﴿أَيًّا﴾ عوضٌ عن المضاف إليه، وأصل الكلام أياً ما تدعو فهو حسن، فوضع موضعه ﴿فَلَهُ الأَسمَاءُ الحُسنَىٰ﴾ للمبالغة، والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذْ حُسْنُ جميع أسمائه، يستدعي حسنِ الاسمين الجليلين لدلالتهما على صفات الكمالَ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تجهرْ بالقراءة في صلاتك، بحيث تُسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السبِّ واللّغو فيها، ولا تخافتْ بقراءتها، بحيث لا تُسمع من خلفك من المؤمنين ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي أمراً وسطاً، فإن خير الأمور أوساطها. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجهَر بِصَلاتِكَ﴾ قال: كان ﷺ بمكة إذا صلى بأصحابه، رَفَع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبُّوا القرآن ومَنْ أنزله، ومن جاء به، فقال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾[2] الآية وقيل نزلت الآية

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ١٦٣٩ في فضائل الجهاد.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٤٠٥ ومسلم برقم ٤٤٦ في الصلاة.

في الدعاء، وهو قول عائشة، والنخعي، ومجاهد، ومكحول، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ الآية قالت: «نزل ذلك في الدعاء»[1] وعن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: مررتُ بكَ وأنت تقرأ القرآن، وأنت تخفض من صوتك، فقال: «إني أسمعت من ناجيتُ، فقال ارفع قليلاً، وقال لعمر: مررتُ بك وأنت تقرأ وأنت ترفع من صوتك، فقال: إني أوقظ الوَسْنَان، وأطرد الشيطان، فقال: اخفض قليلاً»[2].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما يزعم النصارى واليهود حيث زعموا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بناتُ الله، تعالى اللهُ عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما يقوله الكفار القائلون بتعدد الآلهة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ﴾ أي مانع وناصر ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ لاعتزازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة ليدفعها به، والمعنى: ليس جلَّ وعلا بذليل حتى يحتاج إلى الولي والنصير، وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة، إيذان بأن المستحق للحمد، مَنْ هذه نعوتُه دون غيره، إذ بذلك يتم الكمالُ، والقدرةُ التامة ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ أي عظِّمْه وصفْه بأنه أكبر من أن يكون له ولد، وشريك، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الدعاء «الحمدُ لله» وأفضل الذكر «لا إله إلا الله»[3].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة موقوفاً، وانظر فتح الباري ٨/ ٤٠٥.

(٢) أخرجه الترمذي في المواقيت، وأحمد في المسند ١/ ١٠٩.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٣٨٠ وابن ماجه رقم ٣٨٠٠ في الأدب.

والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه وبالله العصمة والتوفيق، حسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير،

والصلاة والسلام على خير خلقه محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإسراء»

* * *



مكية وهي مائة وعشر آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وفي وصفه تعالى بالموصول ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ﴾ إيذان بِعظَم التنزيل الجليل، إذ عليه يدور فلك سعادة الدارين، وفي التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد، تشريفٌ له وتكريم، لأنه أعلى مراتب الفخار ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ أي شيئاً من العِوَج، والعَوَجُ بفتحتين في الأجساد، خلاف الاعتدال، والعِوَجُ بالكسر في المعاني، والشخص يجب أن يكون كاملاً في ذاته، ثم يكون مكمّلاً لغيره. وفي قوله تعالى : ﴿وَلَم يَجعَل لَّهُ عِوَجَا﴾ إشارة إلى كمال في نفسه.

﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾

﴿ قَيِّمًا﴾ إشارة إلى الثاني لأن القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير فالأرواح البشرية كالأطفال، والقرآن الكريم كالقيّم الشفيق، أي قيماً بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، على ما ينبىء عنه ما بعده من الإنذار

والتبشير، فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي لينذر الذين كفروا به ﴿بَأْسًا﴾ أي عذاباً ﴿شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي نازلاً من قِبله تعالى، بمقابلة كفرهم ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدِّقين ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي بُيِّنت في تضاعيفه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة وما فيها من النعيم الخالد.

﴿مَّٰكِثِينَ﴾ أي مقيمين على وجه الدوام ﴿فِيهِ﴾ أي في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ من غير انتهاء، وتقديم الإنذار على التبشير، لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عن ضلالهم.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي وينذر الفَجَرة الكفرة، المتفوّهين بمثل تلك الشناعات العظيمة وهم من كفار العرب، الذين يقولون: الملائكةُ بناتُ الله، واليهود القائلون: عزيرٌ ابنُ الله، والنصارى القائلون المسيحُ ابن الله.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي باتخاذه سبحانه ولداً ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بذلك شيء من علم أصلاً ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين قلَّدوهم فتاهوا جميعاً في تيه الضلالة، ما لهم علم بما قالوه، أهو صوابٌ أم خطأ، بل إنما قالوه عن عمى وجهالة، من غير فكر وروية كما في قوله تعالى: ﴿وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم﴾ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء، لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب عظمته وكبريائه ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على

التفوه بها ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ أي ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ أي إلا قولاً كذباً، لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ﴾ أي مهلكٌ ﴿نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ﴾ غماً ووجداً ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ وعدم إيمانهم ﴿بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿أَسَفًا﴾ أي متأسفاً عليهم. شُبِّهت حالهُ ﷺ في شدة الحزن، على إعراض القوم عن الإيمان بالقرآن، وكمال التحسر عليهم، بحال من يتوقع منه هلاك النفس، إثر فوت ما يحبُّه عند مفارقة أحبته، تأسفا على مفارقتهم، فالغرضُ تسلية النبي ﷺ لتخفيف حزنه لعدم إيمان الكفار من أهل مكة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إنَّا جعلنا ما عليها من الزخارف، والرياش، والذهب، والفضة والنبات والمعدن ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلها أي ليتمتَّع بها الناظرون، وينتفعوا بها نظراً واستدلالاً، كما زينا السماء الدنيا بالكواكب، فكل ما على سطح الأرض من حيوان، ونبات، ومعدن هو زينة لها وابتلاء، كما أن الأموال والأولاد زينة أيضاً كما قال سبحانه: ﴿المَالُ والبَنُونَ زينةُ الحَيَاةِ الدُنْيا﴾.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنجازيهم بالثواب والعقاب حسب امتياز مراتبهم، علماً وعملاً، وحُسْنُ العمل: الزهدُ فيها، وعدم الاغترار بها، والقناعة باليسير منها، والتأمل في شأنها، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها، والتمتع بها حسبما أذِنَ به الشرعُ، لا اتخاذها وسيلةً إلى الشهوات، والأغراض الفاسدة، كما يفعله الكفرة والفسقة.

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عمر الدنيا ﴿ مَا عَلَيۡهَا ﴾ قاطبة من المخلوقات، بإفنائها بالكلية ﴿ صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾ أي تراباً لا نبات فيه، يقال: أرضٌ جُرُزٌ بضمتين أي يابسة لا نبات فيها أي سنحيلها إلى حطام ورُكام، بعد أن كانت بهجة وزينة، حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة.

﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته وقريش، لأنهم تعجبوا من قصتهم وسألوا عنها الرسول ﷺ و «أَمْ» منقطعة، مقدَّرة بـ «بل» التي هي للانتقال من حديث إلى حديث، أي بل أحسبتَ؟ ﴿ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ ﴾ في عيشهم وحياتهم المدة الطويلة من الزمن ﴿ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ﴾ من بين آياتنا ﴿ عَجَبًا ﴾ أي آية ذات عجب، والمعنى إن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة، ليست بعجب بالنسبة إلى سائر الآيات، فإن آياتنا كلها عجب، فإن من قدر على تخليق السماوات والأرض، ثم تزيين الأرض بأنواع المعادن، والحيوانات، والنباتات، ثم بجعلها صعيداً جُرُزاً، كيف يُستبعد عن قدرته، حفظُ فتية من الناس مدةً من الزمن في النوم؟ والكهفُ: الغارُ الواسع في الجبل، والرقيمُ: هو لوحُ رصاصٍ، أو حجر، رُقمت فيه أسماؤهم.

﴿ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِذۡ أَوَى ﴾ أي اذكر حين التجأ ﴿ ٱلۡفِتۡيَةُ ﴾ أي أصحاب الكهف، أوثر

الإظهار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم من حال الفتوة، فإنهم كانوا فتية من أشراف الروم، أراد «دقيانوس» أن يجبرهم على الشرك، فهربوا منه فراراً بدينهم ﴿ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ بجبلهم واتخذوه مأوى ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ ﴾ من خزائن رحمتك ﴿ رَحْمَةً ﴾ خاصة تستوجب المغفرة، والرزق، والأمن من الأعداء ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار، والمثابرة على طاعتك، وأصل التهيئة إحداثُ هيئة الشيء، أي أصلحْ ورتِّبْ وأتمم لنا من أمرنا ﴿ رَشَدًا ﴾ إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب، والاهتداء إليه.

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ أي ضربنا عليها حجاباً من النوم، يعني أنمناهم إنامةً ثقيلة، والضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة ﴿ فِى ٱلْكَهْفِ ﴾ ظرف مكان لضربنا ﴿ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أي ذات عدد ووصفُ السنين بذلك للتكثير، لإظهار كمال القدرة.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أي أيقظناهم من تلك النَّومة الثقيلة، الشبيهة بالموت ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ أي بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق، أو هو مجاز عن الاختبار، فالمعنى: بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾ أي الفريقين المختلفين منهم في مدة لبثهم، قال الفراء: (الحزبين) الطائفتين من المسلمين، في زمن أصحاب الكهف، وقال مجاهد: الحزبان من الفتية لقوله تعالى: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم﴾ الآية ﴿ أَحْصَىٰ ﴾ أي أضبطُ ﴿ لِمَا لَبِثُوٓا۟ ﴾ أي للبثهم ومكثهم ﴿ أَمَدًا ﴾ أي غاية ليتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، من حفظ أبدانهم فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته وعلمه، والأَمَدُ: بمعنى المدى أي المدة من الزمن.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ ﴾ شروع في تفصيل القصة، أي نحن نخبرك بتفاصيل أحوالهم ﴿ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالصدق، ذكر محمد بن إسحق، أنه قد مرج أهل الإنجيل، وعظمت فيهم الخطايا، ملوكهم، فعبدوا الأصنام، وذبحوا للطواغيت، وكان ممن بالغ فيه «دقيانوس» فإنه غلا غلوّاً شديداً، وخالف من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام، فلما رأى الفتية ذلك وكانوا أبناء عظماء أهل مدينتهم، قاموا فتضرعوا إلى الله تعالى، واشتغلوا بالصلاة والدعاء، فبينما هم كذلك، إذ دخل عليهم أعوان الجبار فأحضروهم بين يديه، فقال لهم ما قال، وخيَّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان فقالوا: إن لنا إلٰهاً، لن ندعو من دونه أحداً، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة، وخرج هو إلى «نينوى» لبعض شأنه، وأمهلهم ليتأملوا في أمرهم فإن تبعوه وإلا فعل ما فعل بسائر المسلمين، فأزمعت الفتية على الفرار بالدين، والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئاً وتزودوا فأووا إلى الكهف فجعلوا يصلُّون فيه آناء الليل وأطراف النهار، فضرب الله على آذانهم فناموا، فخرج دقيانوس في طلبهم بخيله ورجله، فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله، فلما ضاق بهم ذرعاً قال قائل منهم: ابنِ عليهم باب الكهف، ودعهم يموتوا جوعاً ففعل، ثم كان من شأنهم ما قصَّ الله عزَّ وجلَّ ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ أي إنهم شباب مؤمنون، صادقون في إيمانهم، صامدون في وجه الطغيان ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ بأن ثبتناهم على ما هم عليه من الدِّين.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل، والأوطان، والنعم والإخوان، والرد على الجبار ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ بين يدي الجبار من غير مبالاة به، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ضمَّنوا دعواهم ما يحقّق فحواها، ويقتضي بمقتضاها، فإن ربوبيته عزَّ وجلَّ تقتضي ربوبيته لما فيهما ﴿ لَن نَّدْعُوَا ﴾ لن نعبد أبداً ﴿ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ معبوداً آخر ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ أي قولاً خارجاً عن حد العقول، مفرطاً في الظلم، يقال: شطَّت الدارُ: بَعُدت، وشطَّ فلان في حكمه: جَارَ وظلم.

﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) ﴾.

﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا ﴾ في اسم الإشارة تحقير لهم ﴿ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ فيه معنى الإنكار، ودلالة على أن قومهم كانوا من عَبَدة الأصنام ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم ﴾ أي هلاَّ يأتون على ألوهية الأصنام ﴿ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ بحجة ظاهرة الدلالة على مدَّعاهم، وهو تبكيتٌ لهم ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك إليه أي أنه أظلم من كل ظالم.

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) ﴾.

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ أي وإذِ اعتزلتم أيها الفتية قومكم وفارقتموهم في الاعتقاد ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي اعتزلتموهم ومعبوديهم ﴿ فَأْوُوا ﴾ أي التجئوا ﴿ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ واجعلوا الكهف مأواكم ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ ﴾ أي يبسط لكم، ويوسِّع عليكم ﴿ رَبُّكُم ﴾ مالك أمركم ﴿ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ في الدارين ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم ﴾ يُسهِّل لكم ﴿ مِّنْ أَمْرِكُم ﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين

﴿ مِّرْفَقًا ﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به، إنما قالوا ذلك ثقة بفضل الله، ولقوة رجائهم، لتوكلهم عليه تعالى.

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ ﴾ بيان لحالهم بعدما أوَوا إلى الكهف، والخطاب للرسول ﷺ أو لمن يصلح للخطاب ﴿ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ ﴾ تتزاور وتتنحَّى، من الزَّور وهو الميلُ ﴿ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ أي تميل عنه، ولا يقع شعاعها عليهم، والمقصودُ بيانُ أنه تعالى صانَ أصحاب الكهف، من أن يقع عليهم ضوء الشمس، لئلا تفسد أجسامهم ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي جهة يمين الكهف، عند توجه الداخل إلى داخله ﴿ وَإِذَا غَرَبَت ﴾ أي تراها عند غروبها ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ أي تقطعهم ولا تقربهم ﴿ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي جهة شمال الكهف، أي الجانب الذي يلي المشرق، وكان ذلك بتصريف الله تعالى، على منهاج خرق العادة كرامةً لهم ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ جمله حالية مبينة لكون ذلك أمراً بديعاً أي تراها تميل يميناً وشمالاً، ولا تحوم حولهم مع أنهم في متَّسع من الكهف، معرَّض لإصابتها، لولا أن صرفتها عنهم يد القدرة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما صنع الله بهم ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ العجيبة، الدالة على كمال علمه وقدرته ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ أي من يهده الله إلى الحق، فهو المهتدي الذي أصاب الفلاح، والمراد التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة، ولكنَّ المنتفع بها من وفَّقه الله تعالى للاستبصار بها ﴿ وَمَن يُضْلِلْ ﴾ يخلق فيه الضلال، لصرف اختياره إليه ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ ﴾ أبداً وإن بالغت في النظر ﴿ وَلِيًّا ﴾ أي ناصراً ﴿ مُّرْشِدًا ﴾ يهديه إلى ما ذكر من الفلاح، لاستحالة وجوده في نفسه.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ أي تظنهم أيها الناظر ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ جمع يَقِظ، وهو اليقظان الذي لم ينم، لانفتاح عيونهم على هيئة الناظر ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ أي نيام، مستغرقون في نومهم ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ في رقدتهم ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي جهة تلي أيمانهم ﴿ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي جهة تلي شمائلهم، كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم ﴿ وَكَلْبُهُم ﴾ هو كلب راعٍ قد تبعهم ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ أي بموضع الباب من الكهف ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لو عاينتهم، وأصل الاطلاع، الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ هرباً مما شاهدت منهم ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي خوفاً يملأ الصدر ويرعبه من الهيئة، وقيل إن الله تعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد، قال ابن عباس: غزونا مع معاوية نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف الله لنا عن هؤلاء لنظرنا!! فقال ابن عباس: قد مُنع عن ذلك من هو خيرٌ منك يعني رسول الله ﷺ.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أي كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البِلَى، آية دالة على كمال قدرتنا، بعثناهم من النوم ﴿ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً، ويعرفوا حالهم، وما صنع الله بهم، فيزدادوا يقيناً، على كمال قدرة الله تعالى ويستبصروا به أمر البعث، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو رئيسهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ في منامكم في هذا الكهف؟ ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناءً على غالب ظنهم، لأن النائم لا يُحصي مدة لبثه، ولذلك أحالوا العلم إلى الله تعالى ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي أنتم لا تعلمون مدة لبثكم، وإنما يعلمها الله تعالى، وهذا رد منهم بأجمل ما يكون، من مراعاة حسن الأدب ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ قالوه إعراضاً عن التعمق في البحث، وإقبالاً على ما يهمهم حيث شعروا بالجوع الشديد ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ الوَرِقُ: الفضة مضروبة أو غير مضروبة. أي أرسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ليشتري بها قوتاً لنا، وفيه دليل على أن التزود لا ينافي التوكل ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قيل: المدينة «طرسوس» واسمها قبل الإسلام أفسوس ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي أحلَّ وأطيب، وأرخص وأجود ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي من ذلك الطعام ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلف اللطف في المعاملة وفي الاستخفاء لئلا يعرف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي لا يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ من أهل المدينة، فإنه يستدعي الشعور بنا، والقبض علينا

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا (٢٠)﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي ليبالغ في عدم الإشعار لأنهم ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أي إن يظفروا بكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي يقتلوكم إن ثبتم على ما أنتم عليه ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي يُدخلوكم فيها كُرهاً ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا﴾ أي إن دخلتم فيها ولو بالكره، لن تفوزوا بخير ﴿أَبَدًا﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١)﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما أنمناهم وبعثناهم ليزداد يقينهم ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أي

أطلعنا الناس ﴿عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ بما عاينوا من أحوالهم ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿حَقّٞ﴾ صادق لا مردَّ له، لأن نومهم وانتباههم، كحال من يموت ثم يبعث ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ لا شكَّ في قيام القيامة، فإن من شاهد أنه جلَّ وعلا توفَّى نفوسهم، وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر، حافظاً أبدانها من التحلل والتفتت، لا يبقى له شائبة شك، في أن وعده حق، وأنه يبعث من في القبور﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرف لقوله ﴿أعثرنا﴾ قُدِّم عليه ذكر الساعة لكمال العناية بذكرها، أي أطلعناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ﴾ ليرتفع الخلافُ، ويتبيَّنَ الحقُّ، في أمر البعث فمن مقرٍ به، وجاحد له، روي أن المبعوث لمَّا دخل المدينة، أخرج الدرهم ليشتري به الطعام، فاتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقصَّ عليه القصة فقال بعضهم: إنّ آباءنا أخبرونا بأن فتيةً فروا بدينهم من دقيانوس، فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة، ولما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتى أدخل أولاً، لئلا يفزعوا، فدخل فعُمِّي عليهم المدخلُ، فبنوا ثمة مسجداً ﴿فَقَالُواْ﴾ الفاء فصيحة، أي أعثرنا عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا، فقالوا أي قال بعض الناس ﴿ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم﴾ أي على باب الكهف ﴿بُنۡيَٰنٗاۖ﴾ لئلا يتطرق إليهم الناس ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ﴾ من كلام المتنازعين، كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم، من حيث النسبُ، ومن حيث العدد، ومن حيث اللبثُ في الكهف، قالوا ذلك، تفويضاً للأمر إلى علام الغيوب، أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ وهم الملك والمسلمون ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ يصلي فيه المسلمون.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ الضميرُ في الأفعال الثلاثة للخائضين، أي سيقول هؤلاء القوم، الخائضون في قصتهم ﴿ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ أي هم ثلاثة أشخاص، ويصبحون أربعةً بانضمام الكلب إليهم ﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ أي ويقول البعض: إنهم خمسة سادسهم الكلب ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أي رمياً بالخبر الخفي الذي لا مطلع عليه، وبالظن من غير يقين ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعة أشخاص، والثامن هو كلبهم الذي صحبهم للحراسة ولعل هذا القول هو الأقرب للصواب، لأن ما فيه يرشد إلى ذلك، من عدم نظمه في سلك الرجم بالغيب، ﴿ قُل ﴾ تحقيقا للحق ورداً على الأولين ﴿ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ أي أعلم بعددهم ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي لا يعلم على وجه الضبط إلا عدد من الناس، قد وفقهم الله تعالى، قال ابنُ عباس: حين وقعت الواو[1] انقطعت العِدَّةُ، وعليه مدار قوله رضي الله عنه: أنَا من ذلك القليل[2] ﴿ فَلَا تُمَارِ ﴾ أي إذا عرفت ذلك فلا تجادلهم يعني أهل الكتاب في شأن الفتية ﴿ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أي إلاَّ قدر ما تعرَّض له الوحي، وهو أن تقص عليهم ما في القرآن، من غير التجهيل لهم، والردُّ عليهم ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم ﴾ أي في شأنهم ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ أي من الخائضين ﴿ أَحَدًا ﴾ فإن فيما قصَّ الله عليك لمندوحة عن ذلك، وما ذكر من الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحة القول الثالث، والمعنى حينئذ: وإن وقفت على أن كلهم ليسوا

---

(١) الواو زائدة، وقيل: مستأنفة، قال الزمخشري: «هي الواوُ التي تدخل على الجملة التي وقعت صفةً للنكرة»، تقول: جاءني رجلٌ ومعه آخر.

(٢) يريد ابن عباس رضي الله عنه أن عددهم كان سبعة، وقد عرفهم بالفهم الثاقب قال: كانوا سبعة فإن الله عدّهم حتى انتهى إلى السبعة، ولما ذكر القول الأول والثاني، أردفه بقوله: ﴿رجماً بالغيب﴾ ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء، فكأنه أقرَّ قائله، ثم وجود الواو ﴿وثامنهم كلبهم﴾ يدل عليه ولم تذكر الواو في القولين السابقين فتنبه رعاك الله.

على خطأ في ذلك، فلا تجادلهم إلا جدالاً ظاهراً. واختلف الناس في زمان أصحاب الكهف، وفي مكانهم، فقيل: إنهم كانوا قبل موسى عليه السلام، وقيل إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح، ثم بعثوا بين عيسى وبين الرسول ﷺ، وقيل: دخلوا الكهف بعد المسيح، أمَّا مكان هذا الكهف، ففيه روايات.

أقولُ: العلمُ بذلك الزمان، وبذلك المكان، ليس للعقل فيه مجال، وإنما يستفاد ذلك من نصّ في الكتاب أو السنة، وذلك مفقود، فلا سبيل إليه، فنكتفي بما ورد في القرآن، من خبر هؤلاء الفتية المؤمنين.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ ﴾ الشيء ﴿ غَدًا ﴾ أي فيما يُستقبل، فيدخل الغَدُ دخولاً أولياً، فإنه نزل حين قالت اليهود لقريش: «سَلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فسألوه فقال ﷺ: ائتوني غداً أُخبركم، ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي، حتى شقَّ عليه، وكذبته قريش» هكذا قال المفسرون.

وقيل: من البعيد أن يَعِد رسولُ الله ﷺ ولم يقل فيه إن شاء الله، بل هذا تهييج وتنبيهٌ للمسلمين.

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ استثناء مفرغ من النهي أي لا تقولن في حال من الأحوال إلا حالة ملابسته بمشيئة الله تعالى، على الوجه المعتاد، وهو أن يقال: إن شاء الله ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ ﴾ بقولك إن شاء الله متداركاً له ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ أي إذا فرط منك نسيانٌ ثم ذكرته، ولو بعد مدة من الزمان. قال

القرطبي: «وهذا في تدارك التبرك، والتخلص من الإثم، وأما الاستثناء المغيِّر للحكم، فلا يكون إلا متصلاً، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيتَ مبالغةً في الحث عليه، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكر المنسيّ ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ﴾ أي يوفقني ﴿رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ أي لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي ﴿رَشَدًا﴾ أي إرشاداً للناس، حيث آتاه من البيّنات ما هو أعظم من ذلك وأبين.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ أحياء نياماً مضروباً على آذانهم ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ وهو بيان لما أُجمل في قوله في الكهف سنين عدداً، أي بقوا ماكثين في الكهف نياماً، ثلاثمائة وتسع سنين، حتى بعثهم الله من النوم، وأطلع الناسَ عليهم، ليتيقَّنوا قدرة الله على البعث[1].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ يعني إن نازعوك في مدة لبثهم، فقل أنت: الله أعلم بما لبثوا؟ وقد أخبر بمدة لبثهم وهي ثلاثمائة وتسع سنين ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ معناه ما أبصره بكل موجود، وما أسمعه؟ دلَّ بصيغة التعجب، على أن شأن علمه سبحانه، خارج عمَّا عليه إدراك البشر، لا يحجبه شيء ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف، والخفيُّ والجليُّ

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ومختصر تفسير ابن كثير ٤٠٨/٢ فقد ذكرت فيه الرواية مطوَّلة.

﴿ مَا لَهُم ﴾ أي لأهل السماوات والأرض ﴿ مِّن دُونِهِۦ ﴾ تعالى ﴿ مِن وَلِيّٖ ﴾ يتولى أمورهم وينصرهم ﴿ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ ﴾ في قضائه أو في علم الغيب ﴿ أَحَدٗا ﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلاً.

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ ﴾ أي من القرآن الكريم وقوله: ﴿ ٱتۡلُ ﴾ يتناول القراءة ويتناول الاتباع، فالمعنى: الزمْ قراءة الكتاب، والزم العمل به ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي لا قادر على تبديله ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أبدَ الدهر ﴿ مُلۡتَحَدٗا ﴾ أي ملجأ تعدل إليه، عند إلمام مُلمّة أو في البيان والرشاد.

﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ ﴾ أي احبْسها وثبتها مصاحبة ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم ﴾ دائبين على الدعاء في جميع الأوقات وفي طرفَي النهار ﴿ بِٱلۡغَدَوٰةِ ﴾ أي بالصباح لطلب التوفيق والتيسير ﴿ وَٱلۡعَشِيِّ ﴾ أي المساء لطلب عفو التقصير، والمراد بهم فقراء المؤمنين، مثل صهيب، وعمار، ونحوهما وقيل: أصحاب الصُفَّة، وكانوا سبع مائة رجل في مسجد رسول الله ﷺ، لا يرجعون إلى تجارة، ولا إلى زرع، ولا ضَرْع، يصلُّون صلاةً وينتظرون أخرى، فلما نزلت الآية قال النبي ﷺ: «الحمدُ لله الذي جعل من أمتي، مَنْ أُمِرْتُ أن أصبِّر نفسي معهم»[1] وروي أن قوماً من رؤساء الكفرة قالوا

(١) أخرجه الطبراني، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/٤١٦.

لرسول الله ﷺ: نحِّ هؤلاء الموالي، الذين ريحُهم ريحُ الضأن، حتى نجالسك، كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ فنزلت الآية ﴿يُرِيدُونَ﴾ بدعائهم ذلك ﴿وَجْهَهُۥ﴾ أي مريدين رضاه تعالى وطاعته ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم، والمراد نهيه ﷺ عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم، طموحاً إلى زيِّ الأغنياء﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وصحبة أهل الدنيا ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في تنحية الفقراء عن مجالسك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي جعلناه غافلاً لبطلان استعداده للذكر ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ أي عن عبادة الله وذكره على خلاف ما عليه المؤمنون، من الدعاء في جميع الأوقات، وفيه تنبيه على أن الداعي له إلى هذا الطلب، غفلةُ قلبه عن المعنويات، وانهماكه في المحسوسات، حتى خفي عليه أن الشرف بحلية النفس، لا بزينة الجسد ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي ضياعاً وهلاكاً ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ﴾[1] ففي تلك نهيٌ عن طردهم، وفي هذه أمرٌ بمجالستهم.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي إن ما أُوحي إليَّ حقٌّ لا ريب فيه، وإن ذلك الحق من جهة ربكم ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن، ومن شاء أن يكفر به فليفعل، حيث جاء الحقُّ، وزاحت العلل، فلم يبق إلاّ اختياركم لأنفسكم ما شئتم، وفيه من التهديد، وعدم المبالاة بهم، وبإيمانهم وجوداً وعدماً ما لا يخفى.

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي هيَّأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين بالحق، والتعبيرُ عنهم بالظالمين للتنبيه على أن اختيار الكفر، تجاوزٌ عن الحد، ووضعٌ للشيء في غير موضعه ﴿نَارًا﴾ عظيمة عجيبة ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾ أي حائطها وسورها، شُبه به ما يحيط بهم من النار بالسور، والسرادقُ هو ما يدار حول الخيمة وقيل دخانها ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ من العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ كالحديد والنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمي ﴿يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ﴾ إذا قُدِّم ليشرب من فرط حرارته ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي بئس ذلك الشراب الذي يغاثون به، وساءت جهنم منزلاً ومأوى يرتفق به أهل الجحيم!! وقوله تعالى: ﴿مُرتَفقاً﴾ أي موضعاً للاستراحة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠)﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان من اختار الإيمان كأنه قيل: والذين آمنوا بالحق الذي أوحي إليك ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي لا نترك أعمالهم تذهب ضياعاً، بل نجزيهم عليها أفضل الجزاء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ التنكير للتفخيم جمع أسورة، وهي جمع سوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ خصت الخضرة بثيابهم، لأنها أحسن الألوان، وأكثرها طراوة ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ هو الديباج الرقيق، وقيل: المنسوجُ بالذهب ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ هو

الديباج الصفيق الغليظ، جمع بين النوعين، للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ ﴾ جمع أريكة وهي السرر في الحجال، ولا يقال للسرير وحده أريكة، وخصّ الاتّكاء لأنه هيئة المتنعّمين ﴿ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ ﴾ ذلك ﴿ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾ أي الأرائك متكأً لهؤلاء المتنعمين.

﴿ ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ ﴾.

﴿ ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم ﴾ أي للفريقين المؤمن، والكافر ﴿ مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ ﴾ لا من حيث أحوالهما في الآخرة، بل من حيث عصيانُ الكافر، وطاعةُ المؤمن، مع تقلب الأول في نعم الله تعالى، ومكابدة الأخير للفقر والضرورة، مثلاً حال رجلين مقدَّرَيْن أو محقّقَيْن، قيل: هما أخوان من بني إسرائيل، اقتسما ثمانية آلاف دينار، فاشترى الكافر بنصيبه ضياعاً، وعقاراً، وصرف المؤمن نصيبه في وجوه الخير والإحسان، فآل حالهما إلى ما حكاه الله تعالى ﴿ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ ﴾ أي بستانين ﴿ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ ﴾ من كروم متنوعة ﴿ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ ﴾ أي جعلنا النخل محيطةً بهما ﴿ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا ﴾ وسطهما ﴿ زَرۡعٗا ﴾ ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات، والفواكه، على الهيئة الرائقة، التي تسرُّ الناظرين.

﴿ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ ﴾.

﴿ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا ﴾ ثمرها، وبلغت مبلغاً صالحاً للأكل ﴿ وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ ﴾ أي ولم تنقص من أكلها ﴿ شَيۡـٔٗاۚ ﴾ كما يُعهد في سائر البساتين، فإن الثمار غالباً تكثر في عام، وتقلُّ في آخر، وكذا بعض الأشجار يأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض ﴿ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا ﴾ فيما بين الجنتين ﴿ نَهَرٗا ﴾ على حِدَةٍ، ليكتمل شربهما، ويزيد بهاؤهما.

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ لصاحب الجنتين ثمر أي أنواع مالٍ سوى الجنتين من ثمر ماله، قال ابن عباس رضي الله عنه: الثمر هو جميع المال، وقال مجاهد الذهب والفضة[1] ﴿ فَقَالَ ﴾ الكافر ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ المؤمن ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ أي يراجعه في الكلام، من حَار إذا رجع ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أي أعواناً وأولاداً ذكوراً.

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ التي شرحت أحوالها بصاحبه، يطوف به ويفاخر بها ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ضارٌ لها بكفره وظلمه ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ ﴾ أي تفنى ﴿ هَٰذِهِۦٓ ﴾ أي الجنة ﴿ أَبَدًا ﴾ لطول أمله، وتمادي غفلته، واغتراره بمهلته، ولعله إنما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره، وترى أكثر الأغنياء تنطق ألسنة أحوالهم بذلك، وإن لم يتلفَّظوا بذلك.

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي وما أعتقد أن القيامة كائنة فيما سيأتي ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ ﴾ بالبعث كما تقول ﴿ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ ﴾ يومئذٍ ﴿ خَيْرًا مِّنْهَا ﴾ من

---

(١) الثَّمرُ جمع ثَمَرة وهي المجنيُّ من الفاكهة، وإنما ذكر الثَّمر وإن كانت الجنة لا تخلو منه، للإيذان بكثرة الحاصل في الجنتين، قال ابن كثير ٢/ ٣٨٤: قيل المراد بالثَّمرِ المالُ، وقيل: الثِّمارُ، وهو أظهر ههنا.ا هـ.

هذه الجنة ﴿ مُنقَلَبًا ﴾ أي مرجعاً وعاقبة، ومدار هذا الطمع، اعتقاد أنه إنما أكرمه الله في الدنيا لاستحقاقه الذاتي، ولم يدْرِ أنه استدراج.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾؟ أي قال له صاحبه المؤمن وهو يراجعه ويُكلِّمه، ويناقشه الحديث: ﴿ أَكَفَرْتَ ﴾ حيث قلتَ: ما أظن الساعة قائمة، وهذا يدلُّ على أن الشاكَّ في حصول البعث كافر، ثم قال: ﴿ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ ﴾ أي في ضمن خلق أصلك آدم عليه السلام ﴿ مِن تُرَابٍ ﴾ فإن خلق آدم عليه السلام منه، متضمنٌ لخلق الإنسان منه ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ هي مادتك القريبة، فالمخلوقُ واحدٌ، والمبدأ متعدد ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ أي عدَّلك وكمَّلك إنساناً ذكراً! جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى، لأن منشأه الشك في كمال قدرته تعالى، ولذا رتَّب الإنكار على خلقه إياه من التراب.

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ لَّٰكِنَّا۠ ﴾ أصله «لكنْ أنَا» فحذفت الهمزةُ، فتلاقت النونان فأُدغمتا ﴿ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ هو ضمير الشأن، وهو استدراك لقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ كأنه قال: أنت كافر ولكني مؤمن، وفيه حذف، أي أقول: هو الله ربي ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ وفيه إيذان بأن كفره بطريق الإشراك.

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ﴾ أي هلاَّ قُلت عندما دخلتها ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي ما شاء الله كائن، والمراد تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها

بمشيئة الله تعالى، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي هلاَّ قلت ذلك اعترافاً بعجزك، وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها، إنما هو بمعونة الله تعالى ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ولأجل ذلك تكبَّرتَ عليَّ وتعظَّمتَ.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ هو جواب الشرط، والمعنى: إن ترني أفقر منك، فأنا أتوقع من صنع الله تعالى، أن يقلب مابي وما بك، فيرزقني لإيماني، ويسلبك نعمته لكفرك ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا﴾ أي على جنتك ﴿حُسۡبَانًا﴾ أي عذاباً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي أرضاً ملساء يزلق عليها القَدَم.

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١﴾.

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا﴾ أي غائراً في الأرض، أطلق المصدر عليه مبالغة ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ﴾ أبداً ﴿لَهُۥ﴾ للماء الغائر ﴿طَلَبًا﴾ أي لا تستطيع طلبه فضلاً عن وجدانه وردّه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ۝٤٢﴾.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي أُهلكت أمواله المعهودة، وأصله من إحاطة العدوّ، ثم استعير في كل الإهلاك ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ ظهراً لبطنٍ، وهو كناية عن الندم به، ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ والجنة

مهشَّمة محطمة، قد سقطت سقوفها على جدرانها، فأصبحت خراباً يباباً ﴿وَيَقُولُ﴾ أي ويقول الكافر نادماً على صنيعه ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ كأنه تذكَّر موعظة صاحبه، وعلم أنه أُتي من قِبَل شركه.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ يقدرون على نصره بدفع الإهلاك ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحده ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرًا﴾ ممتنعاً بقوته عن انتقام الله تعالى، فإن قيل: فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد، فلمَ قيل: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾؟ الجواب: إنما رغب في التوحيد، لأجل حفظ ماله، ولطلب الدنيا، فلهذا ما صار توحيده مقبولاً عند الله تعالى.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وللوقت الذي يريد الله إظهار كرامة أوليائه، وإذلال أعدائه ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أي النصرة له وحده، لا يقدر عليها أحد سواه جلَّ وعلا ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي الله خير ثواباً لأوليائه، وخير عاقبة لمن آمن به واعتمد عليه.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في زهرتها، وسرعة زوالها لئلا يطمئنُّوا بها، ولا يعكفوا عليها، أي بيِّنْ لهم صفتَها العجيبة، التي هي في الغرابة كالمثل ﴿كَمَآءٍ﴾ أي هي كماء ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي اشتبك بسببه ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فالتف وخالط بعضُه بعضاً، من كثرته، وتكاثفه

﴿ فَأَصۡبَحَ ﴾ ذلك النبات الملتف إثر بهجتها ورفيفها ﴿ هَشِيمٗا ﴾ مهشوماً مكسوراً ﴿ تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ ﴾ أي تفرّقه وتطيّره، وليس المشبه به نفس الماء، بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة، وهي حالة النبات المنبت بالماء، يكون أخضر وارفاً، ثم هشيماً تطيّره الريح، كأن لم يغن بالأمس ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإنشاء والإفناء ﴿ مُّقۡتَدِرًا ﴾ قادراً على كل شيء، بتكوينه وتنميته وإبطاله، وهكذا الدنيا بهاءٌ ثم فناء.

> ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦ ﴾.

﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من الدنيا، وتقديم المال على البنين، مع كونهم أعزَّ منه، لعراقته فيما نيط به من الزينة، والإمداد وغير ذلك، والمعنى: إنَّ ما يفتخرون به من المال والبنين شيء يتزين به في الحياة الدنيا، وقد عُلم شأنها في سُرعة الزوال ﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ أي أعمال الخير، التي تبقى ثمراتها للإنسان بعد موته من صلاة وصيام، وزكاة وحج، وسائر أعمال الخير، وقيل: «هي سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[1] ﴿ خَيۡرٌ ﴾ من المال، والبنين ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي في الآخرة، وهو بيان لما تظهر فيه آثار خيريتها ﴿ ثَوَابٗا ﴾ عائدةً تعود إلى صاحبها ﴿ وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ حيث ينال بها صاحبها في الآخرة، كلَّ ما يؤمّله في الدنيا.

> ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧ ﴾.

---

(١) ورد هذا في حديث أخرجه النسائي والحاكم بلفظ «خذوا جُنّتكم ـ أي وقايتكم ـ من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ أي اذكر حين نقلعها من أماكنها، ونسيِّرها في الجو على هيئتها، أو نسيِّرها أجزاء بعد أن نجعلها هباءً منبثاً والمراد بتذكره تحذير المشركين مما أمامهم من الدواهي ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ ﴾ أي جميع جوانبها والخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد ممن يأتي منه الرؤية ﴿ بَارِزَةً ﴾ أمّا بروز ما تحت الجبال فظاهر، وأما ما عداه فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر، قبل ذلك، فالآن أضحى قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾ أي جمعناهم إلى الموقف من كل أوب، وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق الحشر، المتفرع على البعث، الذي ينكره المنكرون، وعليه يدور أمر الجزاء ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ أي لم نترك ﴿ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ يقال غادره إذا تركه، ومنه الغدر لترك الوفاء.

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ شبهت حالهم بحال جُندٍ عُرضوا على السلطان، لا ليعرفهم، بل ليأمر فيهم بما يأمر ﴿ صَفًّا ﴾ مصطفين لا يحجب أحدٌ أحداً والمراد بقوله: ﴿ صَفًّا ﴾ أي صفوفاً كقوله تعالى: ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ أي أطفالاً، أي غير مختلطين ولا متفرقين ولا تعرضٍ فيه لوحدة الصنف وتعدده، ثم يقال لهم ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ حفاة، عراة، غُرْلاً أو ما معكم شيء مما تفتخرون به من الأموال والأنصار، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[1] ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ إضرابٌ وانتقال من كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ، أي زعمتم في الدنيا أنه لن نجعل لكم أبداً وقتاً ننجز فيه ما وعدناه من البعث!! عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٤.

رسول الله ﷺ يقول: «يُحشر الناسُ حُفاةً، عُراةً، غُرْلاً، فقلتُ يا رسول الله: الرجالُ والنساءُ جميعاً؟ ينظر بعضُهم إلى بعض؟ قال: الأمر أشدُّ من أن يُهمَّهم ذلك»[1].

وفي رواية النسائي: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾ أي وضعت صحائف الأعمال، والمرادُ بوضعها وضعُها بأيدي أصحابها، أو في الميزان ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ قاطبة فيدخل الكفرة فيهم دخولاً أولياً ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ﴾ من الجرائم والذنوب ﴿ وَيَقُولُونَ﴾ عند وقوفهم على ما في الكتاب ﴿ يَـٰوَيْلَتَنَا﴾ منادين لهلكتهم التي أهلكوها، مستدعين لها ليهلكوا أي يا حسرتنا وهلاكنا ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي أيُّ شيءٍ له ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ أي حواها وضبطها ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟﴾ في الدنيا ﴿ حَاضِرًا﴾ مسطوراً عتيداً ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ فيكتب ما لم يعمل من السيئات، أو يزيد في عقابه المستحق.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/٣٧٨ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٨٠٦ في المنافقين.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ كلام مستأنف سيق مساق التعليل كأنه قيل ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أصله جنيّاً ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ أي خرج عما أمره ربُّه به من السجود، وهو دليل على أنه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة، والتعرض لوصف الربوبية لبيان قبح ما فعله، والمراد بتذكير قصته ههنا النكير على المتكبرين، المفتخرين بأنسابهم وأموالهم، المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين، ببيان أن ذلك من صنيع إبليس ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ أي أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح منه تتخذونه ﴿ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ ﴾ أي أولاده وأتباعه، **قال قتادة:** يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة..»[1] الحديث ﴿ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ أي تستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي؟ ﴿ وَهُمْ ﴾ والحال أنَّ إبليس وذريته ﴿ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ أي أعداء ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ أي بئست عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن، وفي الالتفات إلى الغَيْبة، مع وضع «الظالمين» موضع الضمير، الإيذان بسخط الله العظيم.

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾ أي ما أحضرت إبليسَ وذريته ﴿ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ حين خلقتهما قبل خلقهم ﴿ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي ولا أشهدتُ

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٢٨١٣ في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، وتتمة الحديث «يجيء أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً، ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركتُه حتى فرَّقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيُدنيه مِنه ويقول: نعمَ أنت».

بعضهم خلق بعض، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ أي متخذهم، وإنما وضع المظهر ذماً لهم ﴿عَضُدًا﴾ أي أعواناً في شأن الخلق، أو في شأنٍ في شؤوني حتى يتوهم شركتهم معي، وفيه تهكمٌ بهم، وإيذان بركاكة عقولهم، حتى لا يفهموا هذا الأمر الجلي، الذي لا يكاد يشتبه على البُله والصبيان، وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: ما أطلعتهم على أسرار التكوين، وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم، حتى يكونوا قدوة للناس، فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون، فلا يلتفت إلى قولهم، طمعاً في نصرتهم للدين، فإنه لا ينبغي أن أعتضد بالمضلين.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ للكافرين، توبيخاً وتعجيزاً ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شفعاؤكم، والمراد بهم كلُّ ما عُبد من دونه تعالى وقيل: إبليس وذريته ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي نادوهم للإغاثة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ إذْ لا إمكان، لأنهم أوثان وأحجار، لا يسمعون ولا يبصرون، وفي إيراده مع ظهوره، تهكُّمٌ بهم، وإيذانٌ بحماقتهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الداعين والمدعوّين ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركون فيه، وَبَق من باب وعد: هَلَك والمَوْبقُ مثل مسجد من الوبوق وهو الهلاك كقول عمر رضي الله عنه: «لا يكن حُبُّك كَلَفاً، ولا بغضُك تلفاً» ويجوز أن يكون المراد من الشركاء الملائكة، وعزير، وعيسى عليهم السلام، والموبقُ: البرزخ البعيد، أي جعلنا بينهم أمداً بعيداً، لأنهم في جهنم، وأولئك في الجنة.

﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾ أي رأى الكفرة الفجرة نار جهنم تتلظَّى، ووضع المظهر تصريحاً بإجرامهم بذلك ﴿ فَظَنُّوٓاْ ﴾ أي فأيقنوا، والظنُّ ههنا بمعنى اليقين ﴿ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ واقعون فيها الساعة ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي انصرافاً أو مكاناً ينصرفون إليه، لأنها أحاطت بهم من كل جانب.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ليتذكروا ويتَّعظوا بكل نوع من أنواع المعاني البديعة، الداعية إلى الإيمان، التي هي في الغرابة والحسن، واستجلاب النفس كالمثل، وليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ بحسب جبلَّته ﴿ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ أي أكثر الأشياء التي يأتي منها الجدل، جَدِل الرجلُ من باب تعب: إذا اشتدت خصومته، وجادل إذا خاصم، وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل، والمعنى: إن جداله أكثر من جدال كل مجادل. روى الشيخان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طَرَقه وفاطمة ليلاً، فقال: أَلَا تصليان؟ فقلتُ يا رسول الله: أنفُسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بَعَثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلتُ ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئاً، ثم سمعتُه يقول وهو مُولٍّ يضرب فخذه بيده: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[1].

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التهجد ٣/٨ ومسلم رقم ٧٧٥ في صلاة المسافرين.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي أهل مكة ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ بأن يؤمنوا بالله ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي سببه وهو الكتابُ، والرسول ﷺ ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ عمَّا فرط منهم من أنواع الذنوب، التي من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا طلب سنتنا في إهلاك الأولين، وهو الاستئصال ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي عياناً من المقابلة وقيل: فجأة، ومعنى الآية: أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلاَّ طلبهم أن يشاهدوا العذاب معاينةً ومواجهة.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي باقتراحات الآيات مكابرة وعناداً، بعد ظهور المعجزات ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ﴾ أي بالجدال الباطل ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي يزيلوه عن مركزه، ويبطلوه من إدحاض القدم وهو إزلاقها، دحضت الحجة دحضاً من باب نفع بطلت كقولهم للرسل صلوات الله عليهم ﴿ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا﴾ ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ ونحوهما، وهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يجادلونهم ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ وهو ما يُستهزأ به، أي جعلوا هذه الآيات موضع استهزاءٍ وسخرية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾؟ وهو القرآن العظيم، والمعنى: لا

أحد أظلم منه ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي لم يتدبرها ولم يتفكرها، ونسي عمله من الكفر والمعاصي، التي من جملتها ما ذُكر، من المجادلة بالباطل، والاستهزاء بالحق ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فهم هذا الكتاب العزيز، والانتفاع بما فيه، كما جعلنا على آذانهم صمماً، يمنعهم أن يسمعوه سماع تفهم وانتفاع، بسوء أعمالهم، وعظم جرائمهم، والعجب أن قوله تعالى: ﴿ومن أظلم..﴾ إلى قوله: ﴿ما قدمت يداه..﴾ متمسك للقدرية الذين ينكرون القدر، وقوله: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ إلى آخر الآية متمسك الجبرية، وقلّما نجد في القرآن آية لأحدهما، إلاَّ ومعها آية للفريق الآخر، وما ذاك إلا امتحان من الله عزَّ وجل، ألقاه على عباده ليتميز العلماء الراسخون، من الخابطين في الآراء خبط عشواء ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فلن يكون منهم اهتداء إلى الهدى البتَّة لغاية ضلالهم، وهذا في أقوام عَلِمَ الله منهم أنهم لا يؤمنون، و﴿إِذًا﴾ جزاء الشرط، وجوابٌ عن سؤال الرسول ﷺ كأنه قال: مالي لا أدعوهم؟ فقيل: إن تدعهم الخ فإن حرصه ﷺ على إيمانهم يدلُّ عليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨)﴾.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة وهي الإنعام على الخلق، وفي الآية التنبيه على كثرة الذنوب ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ لو يريد مؤاخذتهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من المعاصي التي من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل، والاستهزاء بالحق، وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك، ولكنه سبحانه يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب رحمة بهم ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ أي أجل لهلاكهم وهو يوم القيامة ﴿لَّن يَجِدُوا﴾ البتة ﴿مِن دُونِهِ

﴿مَوۡبِلًا﴾ منجا أو ملجأ، يقال: وَأَلَ: إذا نجا، ووأل إليه أي التجأ إليه، والموئلُ: المرجعُ.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ أي قرى عاد، وثمود، وأضرابهما ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي وقت ظلمهم ﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ أي عيّنا لهلاكهم وقتاً معيّناً، لا محيد لهم عن ذلك، فلا يغترُّوا بتأخير العذاب عنهم.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ﴾ أي اذكر وقت قوله عليه السلام ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ وهو يوشع عليه السلام، سُمّي فتاه إذ كان يخدمه ويتعلمُ منه، ويسمى التلميذ فتى، وأكثر العلماء على أن المذكور في هذه الآية «موسى بن عمران» صاحب التوراة، وعن كعب الأحبار أنه «موسى بن ميشا» من أولاد يوسف، والأول أصح، لأنه لم يذكر تعالى في كتابه العزيز موسى إلاَّ أراد به صاحب التوراة، أخرج الشيخان عن سعيد بن جُبير قال: قلتُ لابن عباس رضي الله عنه: إن نوفاً البكالي، يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو «موسى بن عمران» فقال ابن عباس رضي الله عنه كَذَب عدوُّ الله، حدثنا أبيُّ بن كعب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى عليه السلام، قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يردَّ العلم إليه تعالى، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه، إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى يا رب: فكيف لي به؟ قال: فخذ معك حوتاً فاجعله في مكتل، فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثَمَّةَ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه

يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، فاضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر، فلما استيقظ نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت وانطلقا..»[1] الحديث ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال أسير ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، قيل هو ملتقى بحر فارس والروم، مما يلي المشرق، وقيل: طنجة ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أو أسير زماناً طويلاً.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي جُعل فقدانه أَمارة وجدانِ المطلوب، أي نسيا تفقد أمره، روي أنهما لمَّا بلغا مجمع البحرين، وفيه الصخرة ناما، فاستيقظ يوشع عليه السلام، وتوضأ من تلك العين، فنضح الماء على الحوت فعاش، فوقع في الماء ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ مسلكاً كالسرب، وهو النَّفَق.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين وسارا الليلة والغد إلى الظهر، وأُلقي على موسى عليه السلام الجوعُ فعند ذلك ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي ما نتغدَّى به، وهو الحوت كما ينبىء عنه الجواب ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما سارا بعد مجاوزة الموعد ﴿نَصَبًا﴾ تعباً وإعياءً.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٤٠٩ ومسلم رقم ٢٣٨٠ والترمذي رقم ٣١٤٨.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ فتاه ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ أي التجأنا وأقمنا عندها وذكر الإيواء إلى الصخرة، مع أن المذكور فيما سبق بلوغ مجمع البحرين، لزيادة تعيين محل الحادثة، ولتمهيد العذر فإن الإيواء إليها والنوم عندها، مما يؤدي إلى النسيان عادةً، ومراده بالاستفهام تعجب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان، مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تُنسىٰ ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ وفيه تأكيد للتعجب أي نسيت أن أذكر لك أمره، وما شاهدته منه من الأمور العجيبة ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ أي الشيطان أنساني أن أذكره لك ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ كأنه قيل: حيي واضطرب ووقع في البحر واتخذ سبيله فيه سبيلاً عجباً، وهو كون مسلكه كالطاقة، وأيُّ شيء أعجب من حوت يؤكل منه، ثم صار حياً؟!.

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكرتَ من أمر الحوت ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي نطلبه لكونه علامة على غرضنا ومطلوبنا ﴿ فَٱرْتَدَّا ﴾ أي رجعا ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ أي طريقهما الذي جاءا منه ﴿ قَصَصًا ﴾ أي يتبعان آثارهما حتى أتيا الصخرة.

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا ﴾ التنكير للتفخيم ﴿ مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ الإضافة للتشريف،

والجمهورُ على أنه الخضر، والخضر لقب له، روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمِّي الخضر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتزُّ تحته خضراء»[1] ومعناه أنه جلس على قطعة نبات يابسة، فاخضرَّت تحته كرامة له ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة، وفضلاً كبيراً رفعنا به قدره، وعلمناه علماً خاصاً من غير واسطة، والعلم الخاص به، هو علم الغيوب.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ استئناف كأنه قيل: فما جرى بينهما؟ فقيل: قال موسى ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾؟ استئذانٌ منه في اتباعه له، على وجه التعلم ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟ أي علماً ذا رشد، ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة، أن يتعلم من إنسان آخر، كما لا يبعد أن العالم الكامل، في أكثر العلوم، يجهل بعض الأشياء، فيحتاج في تعلمها إلى من دونه، وهذا أمر معلوم، وتعلمه منه لا ينقص قدره وشرفه، وفيه دليل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتراجع لمن هو أعلم منه.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي الخضر ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، وكأنه مما لا يصحُّ، وعلَّله بقوله:

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؟ إيذاناً بأنه يتولى أموراً خفية المدار، والرجل الصالح ـ لا سيما صاحب الشريعة ـ لا يتمالك أن يشمئزَّ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣١٥١ وقال: حسن صحيح.

عند مشاهدتها، أي وكيف تصبر على أمرٍ ظاهره منكر، يخالف الشرع، وأنت لا تعلم باطنه؟.

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ معك غير منكر عليك ما تفعله ﴿ وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴾ أي ستجدني صابراً وغير عاصٍ لأمرك.

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي ﴾ إذن له في الاتباع بعد الموافقة على الشرط ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ ﴾ تشاهده من أفعالي، أي لا تُفاتحني بالسؤال عن حكمته، فضلاً عن المناقشة والاعتراض ﴿ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ﴾ أي حتى أبتدىء أنا ببيانه لك، وفيه إيذانٌ بأن كل ما يصدر عنه فله حكمة، وغاية حميدة، وفي هذا إرشادٌ لأدب المتعلِّم مع العالم.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ أي موسى والخضر عليهما السلام على الساحل، يطلبان السفينة، وأما يوشع فقد صرفه موسى إلى بني إسرائيل، قيل: إنهما مرَّا بسفينة، فكلَّما أهلها، فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول أي بغير أجرة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ ﴾ أي حتى إذا ركبا في السفينة، وأصبحت في لجة البحر، عمد الخضر إلى بعض ألواح السفينة، فقلع من ألواحها لوحين، فجعل موسى يسدُّ الخرق بثيابه ﴿ قَالَ ﴾ موسى له ﴿ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ ﴾ أي فعلتَ ﴿ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ﴾ أي عظيماً هائلاً.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ الخضر عليه السلام ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ تذكير لما قاله له، متضمنٌ للإنكار، على عدم الوفاء بوعده.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي بنسياني أو بالذي نسيته، وهو وصيته، أراد أنه نسي وصيته، ولا مؤاخذة على الناسي، قال ﷺ «كانت الأولى من موسى نسياناً» ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ أي ولا تحملني مشقة ولا تكلفني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ وهو اتباعه إياه ﴿عُسْرًا﴾ أي لا تعسّرْ علي متابعتك، ويسِّرها عليَّ بالإغضاء، وترك اللوم والمؤاخذة.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَانطَلَقَا﴾ أي فقبل عذره، فخرجا من السفينة فانطلقا نحو البرِّ ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ أي فقتله فور لقائه، أمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده، ثم رماه في الأرض جثة هامدة، وقيل: أضجعه فذبحه بالسكين[1]، والغلام هو الصبي الذي لم يبلغ سن الرشد، والفاء للدلالة على أنه لما لقيه قتله من غير تردُّد، ولذلك ﴿قَالَ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي طاهرة من الذنوب، لأنها لم تبلغ الحلم، أو أنه لم يره قد أذنب ذنباً يقتضي قتله ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتلِ نفسٍ محرَّمة، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ

(١) القول الأول أصح، لما ورد في الصحيحين من قوله ﷺ «فبينما هما يمشيان على الساحل، إذْ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله» أخرجه الشيخان.

﴿شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ أي منكراً فظيعاً لا يمكن السكوت عنه، رُوي عن أبي بنِ كعب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الغلام الذي قتله الخَضِرُ، طُبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفرا»[1].

﴿۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥﴾.

﴿۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ إنما زيد ﴿لَّكَ﴾ لزيادة العتاب على رفض الوصية، وقلة الصبر، حين تكرّر منه الاشمئزاز، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قيل له: كيف جاز قتله، وقد ورد النهي عن قتل الولدان؟ قال لسائله: إنْ علمتَ من حال الغلام ما علمه صاحب موسى فلك أن تقتله.

﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا﴾ أي بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ أي لا تجعلني صاحبك بعدها ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ حيث خالفتك ثلاث مرات، وهذا كلامُ نادم شديد الندامة، قاله مع شدة حرصه على المصاحبة، عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمةُ اللهِ علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل لرأى العجب»[2].

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٥٠ وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) طرف من حديث أخرجه الشيخان عن أُبيّ بن كعب، وهو حديث طويل وشهير، وانظر فتح الباري ٨/ ٤١١.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾ هي أنطاكية، وقيل: برقة، وقيل: هي بلدة في الأندلس ﴿ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ روي أنهما طافا في القرية، فاستطعماهم فلم يطعموهما، واستضافاهم، فأبوا أن يضيِّفوهما ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أي يقارب ويداني أن يسقط، فاستعيرت الإرادة المشارفة، للدلالة على المبالغة في ذلك، والانقضاضُ: الإسراعُ في السقوط، ومنه انقضاضُ الطير والكوكب ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ مَسَحه بيده فقام، وقيل: نقضه وبناه، وفي حديث أُبيٍّ: فقال الخضرُ بيده هكذا فأقامه ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾ تحريضاً على أخذ الأجرة، أو تعريضاً بأنه فضول، كأنه لمَّا رأى الحرمان، ومساس الحاجة، واشتغاله بما لا يعنيه، لم يتمالك الصبر، و«اتَّخذ» افتعل من تَخِذَ بمعنى أخذ، كاتَّبع من تَبِع، وليس من أخذ.

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الخضر عليه السلام ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ ﴾ أي هذا الوقت وقت الفراق، حسبما هو الموعود ﴿ سَأُنَبِّئُكَ ﴾ أي سأخبرك وأُعلمك، والسينُ للتأكيد لعدم تراخي التنبئة ﴿ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴾ والمراد من التأويل ههنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبأ به، أي سأحدثك عن حكمة هذه الأمور الثلاثة، التي أنكرتها عليَّ، ولم تستطع الصبر لأشرحها لك.

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ ﴾ التي خرقتها ﴿ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ ﴾ لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة ﴿ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ ﴾ أي يشتغلون في البحر بقصد التكسب من هذه السفينة ﴿ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾ أي أجعلها ذات عيب ﴿ وَكَانَ

وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي أمامهم، وكان رجوعهم عليه لا محالة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة ﴿غَصْبًا﴾ من أصحابها.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ ولم يصرح بكفره، إشعاراً بعدم الحاجة إلى الذكر، لظهوره ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ أي خفنا أن يغشي الوالدين ﴿طُغْيَـٰنًا﴾ عليهما ﴿وَكُفْرًا﴾ بعقوقه وسوء صنيعه، ويُلحق بهما شراً وبلاءً، أو يعذبهما بدائه، ويضلهما بضلاله، فيرتدا بسببه، وإنما خشي الخضر منه ذلك، لأنه تعالى أطلعه على سرِّ أمره.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ الإبدال رفعُ الشيء ووضع آخر مكانه، بأن يرزقهما ﴿خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أي أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الولد الكافر، وفي الآية دلالةٌ على إرادة وصول الخير إليهما ﴿زَكَوٰةً﴾ أي طهارةً من الكفر والذنوب والأخلاق الرديئة ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمةً وعطفاً على والديه قيل: أبدلهما الله جارية فزوَّجها فولدت له نبياً، فهدى الله على يديه أمة من الأمم، وقيل: أبدلهما الله بغلام مسلم، ومبنى هذه المسائل، على أنه متى تعارض ضرران، تُحمَّل أهونُهما لدفع أعظمهما، الغلام الذي قتل فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قُتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض العبد بقضاء الله تعالى.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾.

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ ﴾ المعهود الذي بنيته ﴿ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ هي القرية المذكورة، أي كان الجدار الذي بنيته قد خبيء تحته كنز ثمين ليتيمين في هذه البلدة ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ أي كان تحت ذلك الجدار كنز مدفون من فضة وذهب، روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الكنز ذهباً وفضة»[1] وما ورد من الذمِّ على كنزهما، في قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّة﴾ الآية لمن لا يؤدي زكاتهما، وسائر حقوقهما ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً، فحفظ لهما الكنز لصلاح الوالد، وفي الآية تنبيهٌ على أن سعيه في ذلك كان لصلاحهما، وهي تدل على أن صلاح الآباء، يفيد العناية بأحوال الأبناء، رُوي عن الحسين رضي الله عنه أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بمَ حفظ اللهُ تعالى مالَ الغلامين؟ قالوا بصلاح أبيهما، قال: فأبي وجدِّي ﷺ خيرٌ منه ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع، أن يكبروا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار وفي إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام ﴿ربك﴾ تنبيه له على تحتم الانقياد، والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة، فيما وقع من الأمور المذكورة ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ من تحت الجدار، ولولا أني أقمته لانقضّ، وخرج الكنز من تحته، وضاع ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي فعلت ما فعلت من الأمور التي شاهدتها، رحمة من ربك ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ﴾ أي وما فعلتُ ما فعلت من خرق السفينة، وقتل الغلام وبناء الجدار، عن رأيي ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى العواقب المنظومة في سلك البيان ﴿ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع ﴾ أي ما لم تستطع، فحذفت التاء للتخفيف ﴿ عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي ما لم تصبر عليه وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها، وفوائد هذه القصة، أن لا يعجب المرء بعلمه، ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه، فلعل فيه سراً لا يعرفه،

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٥٢ وقال: هذا حديث غريب.

وأن يداوم على التعليم، ويراعي الأدب في المقال، وقد زلت أقدام قوم من الضلال، في تفضيل الولي على النبي، وهو كفر جلي، حيث قالوا أُمِرَ موسى بالتعلم من الخضر، وهو ولي، والجوابُ أن هذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام، ومن المحال أن يكون الولي ولياً بإيمانه بالنبي، ثم يكون النبيُّ دون الولي، ولا غضاضة في طلب موسى زيادة العلم من ذلك الولي الصالح.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ هم اليهود سألوا رسول الله عن قصة ذي القرنين، وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك، إلى ورود الجواب، وهو ملك مسلم صالح أعطي المُلك والحكمة، وأن ملكه بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وهو الذي افتخر به تُبَّع اليماني حيث قال:

قد كانَ ذُو القرنينِ جَدّي مسلماً ... مَلِكَاً علا في الأرض غير مفنَّدِ
بلغَ المشَارِقَ والمغاربَ يَبْتغي ... أسبابَ أمْرٍ منْ حَكيمٍ مُرْشِدِ

قال ابن كثير: والصحيح أنه ما كان نبياً ولا مَلَكاً، وإنما كان مَلِكاً عادلاً، داعياً إلى الله تعالى، سائراً في الخلق بالعدل، وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار، واختلف في وجه التسمية، فقيل: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقيل كان في رأسه أو في تاجه ما يشبه القرنين، وأما ذو القرنين الثاني، فإنه الإسكندر بن إقليديس المقدوني باني الإسكندرية، كان متأخراً عن الأول بدهر طويل، أكثر من ألفي سنة، وكان الأول عبداً صالحاً، وملِكاً عادلاً، والثاني كان كافراً فاسقاً ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم ﴾ سأذكر لكم ﴿ مِّنْهُ ﴾ من ذي القرنين ﴿ ذِكْرًا ﴾ أي نبأ مذكوراً وحيث كان ذلك بطريق الوحي المتلو حكاية عن جهة الله تعالى قيل سأتلوه، والسين للتأكيد لا للاستقبال كما قيل.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴾ (٨٤).

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ التمكين ههنا الإقدار وتمهيد الأسباب، والمعنى: إنا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض، من حيث التدبير والأسباب، وتسهيل السير في الأرض ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ من مهمات ملكه، ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿سَبَبٗا﴾ أي طريقاً يوصله إليه.

﴿ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا (٨٦) ﴾.

﴿ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾ أي سلك طريقاً يوصله إلى مقصوده، ومشى باتجاه الغرب.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يتمكن أحد عن مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي، الذي يقال له أوقيانوس ـ ﴿وَجَدَهَا﴾ الشمس ﴿تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ أي ذات حمأة، وهي الطين الأسود أي ذات حمأة، ولعله بلغ ساحل المحيط، فرآها كذلك، إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء، ولذلك قال تعالى ﴿وجدها تغرب﴾ ولم يقل: «كانت تغرب» كما أن راكب البحر، يرى الشمس تغيب في البحر ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي عند تلك العين ﴿قَوۡمٗاۗ﴾ قيل كان لباسهم جلود الوحوش، وطعامهم ما لفظه البحر، وكانوا كفاراً فخيَّره الله عزَّ وجلَّ بين التعذيب، والتعليم ﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ أي أمراً ذا حسن، وذلك بالدعوة إلى الإسلام، والإرشاد إلى الشرائع.

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا (٨٧) ﴾.

﴿قَالَ﴾ أي ذو القرنين لمن عنده، بعدما تلقى أمره تعالى ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسه ولم يقبل دعوتي، وأصرَّ على ما كان عليه من الظلم العظيم وهو الشرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ ـ بالقتل ـ ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ ـ فيها ـ ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي عذاباً منكراً، لم يُعهد مثله وهو عذاب النار، وفيه دلالة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، وإنما كان بالإلهام.

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بموجب دعوتي ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي فله مثوبة الحسنى ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي مما تأمر به ﴿يُسْرًا﴾ أي سهلاً، متيسراً غير شاق، وتقديره ذا يسر.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي طريقاً راجعاً من مغرب الشمس إلى مشرقها.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمورة الأرض، قيل بلغه في اثنتي عشرة سنة ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ هم من الزنج، ليس لهم ستر من اللباس والبناء، لأن أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب، فإذا ارتفع خرجوا إلى معاشهم، وهذا حال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء، وقيل: إنهم كانوا كسائر الحيوانات عراة أبداً.

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي أمر ذي القرنين كما وصفناه لك، في رفعة المحل، وبسطة الملك ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من الأسباب والعَدَد والعُدَد ﴿ خُبْرًا ﴾ أي علماً، يعني أن ذلك من الكثرة، بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي طريقاً ثالثاً، معترضاً بين المشرق والمغرب، آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سدُّه، وهما جبلان في آخر الشمال، من ورائهما يأجوج ومأجوج، ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ من ورائهما ﴿ قَوْمًا ﴾ أمة من الناس ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أي لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة، لأن لغتهم غريبة مجهولة.

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ بواسطة مترجمهم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم ﴿ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ هما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، وقيل: عربيان من أجيج النار، وهو ضوؤها وشررها، شبهوا به لكثرتهم وشدتهم، وهم من أولاد يافث، والترك منهم ﴿ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في أرضنا بالقتل، والتخريب، وإتلاف الزروع، كانوا يخرجون أيام الربيع، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ أي

جُعلاً من أموالنا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾؟ يحجزون خروجهم علينا فلا يصلون إلينا؟.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ أي جعلني فيه مكيناً قادراً، من الملك والمال ﴿خَيۡرٞ﴾ أي مما تريدون أن تبذلوه إليَّ من الخرج، فلا حاجة بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي فَعَلَة وصُنَّاع يحسنون البناء والعمل، وبآلات لا بد منها في البناء للتفريغ ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ أي حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السد وأوثق، وهذا فوق ما يرجونه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ جمع زُبْرة كغُرَف جمع غُرفة، وهي القطعة الكبيرة من الحديد، وتخصيص الأمر بالإيتاء بقطع الحديد دون سائر الآلات، من الصخور والحطب ونحوهما، لما أن الحاجة إليها أمسُّ، إذ هي الركن في السد، ثم حَفَر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من الحديد حتى سد ما بين الجبلين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أي بين جانبي الجبلين، يعني آتوه إياها، فأخذ يبني شيئاً فشيئاً، حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في السمك ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ﴾ أي بالكيران في الحديد المبني ففعلوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي المنفوخ فيه ﴿نَارٗا﴾ أي كالنار في الحرارة والهيئة ﴿قَالَ﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة ونحوها ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ - أي نحاساً مذاباً حتى يلتصق ويتماسك مع الحديد.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ بحذف التاء تخفيفاً، أي فعلوا ما أُمروا به فصار جبلاً صَلْداً، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فلم يستطيعوا ولم يقدروا ﴿أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ أي يعلوه لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ لثخنه وصلابته، وهذه خارقة عظيمة، لأن تلك الزبر الكثيرة بالنفخ فيها تكون كالنار، وإفراغ القطر عليها أي النحاس المذاب شبه مستحيل، فكان ما كان، والله على كل شيء قدير. وقيل: بناه من الصخور مرتباً بعضها ببعض، بكلابيب من حديد، ونحاس مذاب.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٨﴾.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾ أي قال ذو القرنين لمن عنده من تلك الديار ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى السد، وتمكينه من بنائه ﴿رَحۡمَةٞ﴾ أي أثر رحمة عظيمة ﴿مِّن رَّبِّيۖ﴾ على كافة العباد، لا سيما على مجاوريه، وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة، بل هو إحسان إلَهي محض، وإن ظهر بمباشرة العباد ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ وهو يوم القيامة، لا خروج يأجوج ومأجوج كما قيل ﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي السد مع متانته ﴿دَكَّآءَۖ﴾ مدكوكاً مبسوطاً مسوًّى بالأرض، والدَكُّ بالفتح والتشديد: الضربُ والكسر وفيه بيان لعظم قدرته، بعد بيان سعة رحمته ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ أي كل ما وعد به ﴿حَقّٗا﴾ أي ثابتاً لا محالة، واقعاً البتة.

﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ۝٩٩﴾.

﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾ كلام مسوق من جنابه سبحانه معطوف على قوله جعله دكاً، ومحقِّقٌ لمضمونه أي جعلنا بعض الخلائق ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم إذْ جاء الوعد ﴿يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ أي يضطربون اضطراب أمواج البحر، ويختلط إنسهم وجنهم، حيارى من شدة الهول، وذلك قبل النفخة الأولى، أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر، مزدحمين في البلاد

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾ أي الخلائق ﴿جَمْعًا﴾ أي جمعاً عجيباً، للحساب، والجزاء.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي أظهرناها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ جمعنا الخلائق كافة ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً ﴿عَرْضًا﴾ فظيعاً هائلاً، وتخصيص العرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة، لأن ذلك لأجلهم خاصة، فهذا يجري مجرى العقاب، لما يتداخلهم من الغمّ العظيم.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِي غِطَآءٍ﴾ كثيف، وغشاوة غليظة ﴿عَن ذِكْرِي﴾ عن آياتي وعن القرآن الكريم ﴿وَكَانُوا۟﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لفرط تصامهم عن الحق، وكمال عداوتهم للرسول ﷺ ﴿سَمْعًا﴾ أي استماعاً لذكري، وكانوا صُماً عنه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ـ أي كفروا بي، والحسبانُ بمعنى الظن، والهمزة للإنكار والتوبيخ ـ ﴿أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي﴾ من الملائكة، وعيسى، وعزير عليهم السلام، وهم تحت سلطاني وملكوتي، وقيل: هي الأصنام سماهم عباداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ

أَمْثَالُكُمْ﴾[1] ﴿مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معبودين، فظنوا أنه ينفعهم، بل هم أعداء لهم يتبرؤون منهم ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي هيَّأناها ﴿لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي شيئاً يتمتعون به عند ورودهم، وهو ما يقام للنزيل، أي للضيف، مما حضر من الطعام وغيره، وفيه تهكم بهم، وتخطئة لهم في حسبانهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ الخطاب الثاني للكفرة على وجه التوبيخ ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾؟ وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنة في نفسها، وفي حسبانهم حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أي ضاع وبطل بالكلية ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بالسعي لا بالضلال، لأن بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي وهم يظنون والمراد بهم أهل الكتاب قاله ابن عباس، وعن علي هم الخوارج، واللفظ عام يعمهم وغيرهم ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي بطل سعيهم المذكور، والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون في ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ كلام مستأنف من جنابه تعالى لتبيين سبب خسرانهم أي أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي مع الحسبان المذكور ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ـ بدلائله الداعية إلى التوحيد والنبوة، عقلاً ونقلاً

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٤.

والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث وأمور الآخرة على ما هي عليه ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ لذلك حبوطاً كلياً ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ لأولئك الموصوفين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ - أي لا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، لأن مداره الأعمال الصالحة، وقد حبطت بالكفر. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة، قال اقرؤوا إن شئتم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾[1]».

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم أي الأمر ذلك، وقوله عزَّ وجلَّ ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾ تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم، المتضمن لسائر القبائح - ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي مهزوءاً بهم، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الكفر، بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضاً وهي السخرية والاستهزاء بآيات الله، ورسل الله.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي آمنوا بآيات ربهم ولقائه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ من الأعمال الخيرية والطاعات ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في حكم الله ووعده ﴿جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ هو البستان، وقال المبرد: الشجر الملتف، والأغلب أن يكون من العنب ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافة وكرامة لهم.

﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٤٧٢٩ ومسلم رقم ٢٧٨٥.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ أي لا يطلبون التحول عنها، إذ لا يتصور أن يكون شيء أعز عندهم منها، حتى تنازعهم إليه أنفسهم، وهذا الوصف يدل على غاية الكمال، لأن الإنسان في الدنيا إذا وصل إلى أي درجةٍ في السعادة، فهو طامع إلى ما هو أعلى منها.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا﴾ وهو ما تُمد به الدواة من الحِبر، الذي يكتب به ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ لتحرير كلمات علمه وحكمته ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ لتناهيه لأن كل جسم متناهٍ ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ والمعنى: من غير أن تنفد كلمات ربي، لعدم تناهيها، فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر، وفي إضافة الكلمات إلى الرب من تفخيم المضاف، وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا﴾ كلام من جهته تعالى جيء به لتحقيق مضمونه، مع زيادة المبالغة ﴿بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ عَوناً وزيادة، أي لو كانت بحورٌ تمدُّه ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله. وسبب نزولها أن اليهود لعنهم الله، قالوا للمسلمين: في كتابكم: ﴿وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرَاً كَثِيرَاً﴾ ثم تقرؤون ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾ فنزلت، يعني أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرات من بحر كَلِمَات الله جلَّ وعلا.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾ لهم بعد ما بيّنتَ شأن كلمته تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ لا أدعي الإحاطة بكلماته سبحانه ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من تلك الكلمات إنما تميزتُ عنكم بذلك ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ لا شريك له في الخلق و لا في سائر

أحكام الألوهية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ حسن لقاء ربه، وقيل رؤيته تعالى كما هو حقيقة اللفظ، وإدخال الماضي على المستقبل، للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن، الاستدامة على رجاء اللقاء، أي فمن استمر على رجاء كرامته تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ في نفسه خالصاً لا يريد إلا وجهه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ إشراكاً جلياً ولا إشراكاً خفياً كما يفعله أهل الرياء.

عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»[1] قوله: «من سمَّع سمَّع الله به» أي من عمل عملاً ليشتهر بذلك شهَّر الله بذلك يوم القيامة.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يقول أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركتُه وشركه»[2] وقد ورد في فضل هذه السورة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عُصِمَ من فتنة الدجَّال[3] » وفي رواية: من آخرها.

نسأل الله أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، أن يخصنا بالمغفرة والفضل، في يوم الدين، إنه ذو الفضل العظيم.

«تم بعونه تعالىٰ تفسير سورة الكهف».

* * *

---

(١) أخرجه البخاري ١١/٢٨٨ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٩٨٧ في الزهد.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد رقم ٢٩٨٥ باب من أشرك في عمله.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين رقم ٨٠٩ والترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٨٨٨.



مكية وهي ثمان وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ② ﴾.

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾[1] قد سلف أن الحروف المقطَّعة أسماء لسور، أو هي تشير إلى بعض أسماء الله الحسنى.

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ أي هذا المتلو، ذكرُ رحمة ربك ﴿ عَبْدَهُۥ ﴾ أي لعبده زكريا نقصه عليك، ومعنى ذكر الرحمة: بلُوغها وإصابتها ﴿ زَكَرِيَّآ ﴾ بدل منه أي هذا العبد هو زكريا.

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ③ ﴾.

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ ظرف (لرحمة ربك) أي حين نادى ربه نداءً خفياً في ضراعة وتوسل، وقد راعى عليه السلام حسن الأدب في إخفاء دعائه، فإنه أدخل في الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى

---

(١) الحروف الهجائية المقطعة، للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، كما هو رأي المحققين، وانظر أول سورة البقرة.

الخلاص عن لائمة الناس، على طلب الولد في أوان الكبر قالوا: كانت سِنُّه حينئذ مائة وعشرين عاماً، وامرأته ثمان وتسعون سنة.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ هذا تفسير الدعاء، أصلُه يا ربِّي فحذف حرف النداء والمضاف إليه اختصاراً ﴿ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ الوهن: الضعف، وإسناده إلى العظم لما أنه عماد البدن وأشد أجزائه صلابة، فإذا وُهن كان ما وراءه أوهن ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ شبَّه عليه السلام الشيب بشواظ النار، وانتشاره في الشعر باشتعالها، ثم أخرج مخرج الاستعارة أي عمَّ الشيب رأسي وانتشر انتشار النار في الهشيم، وأسند الاشتعال إلى الرأس، الذي هو مكان الشيب مبالغة ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ ﴾ أي بدعائي إياك ﴿ شَقِيًّا ﴾ أي كنتُ مستجاب الدعوة، ولم أكن خائباً في وقت من الأوقات، بل كلما دعوتك استجبتَ لي يقال: سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها، وشقي إذا خاب، وهذا توسل منه عليه السلام، بما سلف منه تعالى من الاستجابة.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ ﴾ أي من يلي أمره بعد موته عليه السلام، يعني بني عمه، فخاف أن لا يحسنوا خلافته على أمته ﴿ مِن وَرَآءِى ﴾ أي من بعد موتي ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ أي عقيماً لا تلد من حين شبابها ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ﴾ أي أعطني من محض فضلك، لا بالأسباب العادية ﴿ وَلِيًّا ﴾ من صلبي يلي أمرك من بعدي.

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾.

﴿ يَرِثُنِي ﴾ من حيث العلمُ، والدينُ، والنبوة، فإن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون المال كما قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناهُ صدقة»[1] ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ مرضياً عندك، قولاً وعملاً، فأجاب الله دعاءه.

فقال: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ ﴾.

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ هذا جواب الله لندائه الخفيِّ، ووعد بإجابة دعائه عليه السلام، حسبما تقتضيه المشيئة الإلّهية المبنيَّة على الحكم والمصالح، فإن الأنبياء عليهم السلام، وإن كانوا مستجابي الدعوة، لكنهم ليسوا كذلك في جميع الدعوات ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ وفي تعيين اسمه، وتخصيصه به، مزيد تشريف، فإن التسمية بالأسامي البديعة، الممتازة عن سائر أسماء الناس، تنويه بالمسمى، قالوا لم يكن له عليه السلام مَثَلٌ، في أنه لم يعص الله، ولم يهمَّ بمعصية قط، وأنه ولد من شيخ فان، وعجوز عاقر، وأنه كان حصوراً، وسُمِّي يحيىٰ لأنه حيي به دين الله.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه وانظر جامع الأصول ٩/ ٦٤٠.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ من عتا يعتو أسنَّ وكبر، فهو عات أي بلغتُ في الكِبَر والشيخوخة نهاية العمر، فكيف يأتيني مولود؟.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى، أو الملك المبلِّغ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف مقحمة، أي الأمر كذلك، تصديق له ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ جملة مقررة للوعد، دالة على إنجازه، كأن قيل: قال الله تعالى: مثل ذلك القول البديع، ومثل ذلك الوعد، هو عليَّ خاصة هين، وإن كان في العادة مستحيلاً. جاء بلفظ الالتفات، جرياً على سنن الكبرياء، لتربية المهابة، كقول الخليفة: «أمير المؤمنين يرسم لك» مكان «أنا أرسم» ثم التفت من ضمير الغائب إلى ياء العظمة إيذاناً بأن مدار كونه هيناً عليه سبحانه، هو القدرة الذاتية، لا ربوبيته تعالى له خاصة ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ أي أوجدتك من قبل يحيى، والمراد به ابتداء خلق البشر، إذ هو الواقع إثر العدم المحض، وإنما لم ينسب إلى آدم عليه السلام بأن يُقال: وقد خلقت أباك آدم من قبل، ولم يك شيئاً، لتأكيد الاحتجاج، وتوضيح منهاج القياس، حيث نبَّه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه من العدم، وكان حال زكريا عليه السلام، أولى بأن يكون معيار الحال ما يشد به نسب الخلق المذكور إليه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي، وقوله «سَوِيّاً» حال من ضمير

المتكلم، أي حال كونك سوي الأعضاء واللسان، ما بكَ شائبة بُكْمٍ وَلا خَرَس، ولم يك بك مرض.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي من المصلَّى، أومن الغرفة، وكانوا من وراء المحراب ينتظرون أن يفتح لهم الباب، فيدخلوه ويصلّوا معه، إذْ خرج عليهم متغيراً لونُه، فأنكروه وقالوا: مالك؟ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي أومأ إليهم لقوله تعالى في آية أخرى ﴿إلاَّ رَمْزاً﴾ ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ أي صلُّوا أو نزّهوا ربكم ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ والمراد بهما صلاة الفجر، والعصر، أو نزّهوا ربكم طرفي النهار وقولوا: سبحان الله.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ أي وهبنا له يحيى، وقلنا له يا يحيى ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ وحزم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ يعني الحكمة، والفقه في الدين، روي أنه دعاه الصبيانُ إلى اللعب فقال: ما للَّعب خُلقنا.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي آتيناه من جنابنا رحمة في قلبه، وشفقة على أبويه ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي طهارة من الذنوب ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعاً ومتجنباً عن المعاصي، وكان من تقواه أنه عليه السلام لم يعمل خطيئة، ولم يهمَّ بها قط، فإن قلت: كيف يصح حصول الفطنة والنبوة حال الصبا؟ قلت: لأن أصل النبوة على خرق العادة.

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ أي باراً بهما محسناً إليهما ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ أي لم يكن متكبراً عاقاً لهما أو عاصياً لربه.

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴾ من الله تعالى ﴿ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ من أن يناله الشيطان مما ينال من بني آدم ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ من عذاب القبر ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ من هول القيامة، وعذاب النار، يقال: أوحشُ المواطن ثلاثة: يوم يولد لأنه يرى نفسه خارجاً من مكانه، ويوم يموت لأنه يرى قوماً ما شاهدهم قط، ويوم يبعث لأنه يرى مشهداً عظيماً، فأكرم الله تعالى يحيى فخصَّه بالسلامة في هذه المواطن الثلاثة.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ خوطب به النبي ﷺ، وأمِرَ بذكر قصة مريم، بعد قصة زكريا عليه السلام، لما بينهما من كمال الاشتباه، أي اذكر للناس نبأها، فإن الذكر لا يتعلق بالأعيان ﴿ إِذِ انتَبَذَتْ ﴾ أي اعتزلت وتنحَّتْ ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ من قومها ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أي شرقيَّ بيت المقدس لتتفرَّغ هنالك للعبادة، ولذلك اتخذ النصارى المشرق قبلة لهم.

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحوَّلت إلى بيت خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في

ذلك المكان في مغتسلها ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي جبريل عليه السلام، والإضافة للتشريف، وإنما سمي روحاً لأنه روحاني، أو لأن الدين يحيى بوحيه - ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي سويَّ الخلق، كامل البنية، في صورة آدمي شاب، وضيء الوجه. وإنما تمثل لها بذلك لتأنس بكلامه، وتتلقى منه ما يلقي إليها من كلماته تعالى، إذ لو بدا لها على الصورة الملكية، لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته ومحادثته.

﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ ﴾ أي أستجير بالرحمن منك، وهذا شاهد عدل، بأنه لم يحضر ببالها شائبة ميل إليه، رغم تمثيله على ذلك الحسن الفائق لابتلائها، ولقد ظهر منها من الورع، والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوانِ الرحمانية، للمبالغة في العياذة به، واستجلاب آثار رحمته الخاصة، التي هي العصمة مما دهمها ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ جواب الشرط محذوف، أي إن كنت تتقي الله فلا تتعرضْ لي!! وهذا كقول القائل: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني، كقوله تعالى: ﴿وَذَروا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِين﴾[1].

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يريد عليه السلام أني لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر، وإنما أنا رسول ربك الذي استعذت به ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع ﴿ زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، مترقياً على الخير والصلاح، ولما علم جبريل عليه السلام

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٨.

خوفها، قال إنما أنا رسول ربك، وأظهر لها معجزة، عرفت به أنه جبريل عليه السلام، فزال خوفها.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ كما وصفته ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾؟ أي والحال أنه لم يباشرني بالنكاح رجل، والمسُّ كناية عن النكاح، ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي ولم أكن فاجرة زانية تبغي الرجال؟.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ جبريل عليه السلام تقريراً لمقالتها، وتحقيقاً لها ﴿ كَذَٰلِكِ ﴾ أي الأمر كما قلت ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ الذي أرسلني إليك ﴿ هُوَ ﴾ أي هبة الغلام، من غير أن يمسَّكِ بشرٌ أصلاً ﴿ عَلَيَّ ﴾ خاصة ﴿ هَيِّنٌ ﴾ وإن كان مستحيلاً عادة، لما أني لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أي نفعل ذلك لنجعله آية لهم، وبرهاناً يستدلون به على كمال قدرتنا، والالتفاتُ إلى نون العظمة لإظهار كمال الجلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عظيمة ﴿ مِنَّا ﴾ عليهم يهتدون بهدايته، ويسترشدون بإرشاده ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ أي محكماً، قد تعلَّق به قضاؤنا الأزلي، وقُدِّر وسُطِّر في اللوح المحفوظ، لا بد من جريانه عليك البتة، فلما اطمأنت إلى قوله دنا منها، فنفخ جيب درعها فوصلت النفخة إلى رحمها.

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ ﴾ في الحال وكانت مدة حملها سبعة أشهر، وقيل تسعة أشهر وكان النافخ جبريل عليه السلام، لأن الظاهر من قوله: ﴿لِأَهَبَ

لَكِ﴾ أنه أمر أن يكون ذلك من قِبله ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ أي فاعتزلت به وهو في بطنها ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ أي بعيداً من أهلها وراء الجبل.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ أي فألجأها، وهو في الأصل منقول من «جاء» كآتىٰ في أعطى، والمخاضُ: وجعُ الولادة، مَخَضَت المرأة أي أخذها الطلق ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أصلها، وكانت نخلة يابسة، وكان الوقت شتاء، ولعله تعالى ألهمها ذلك، ليريها من آياته ما يسكن روعتها، ويطعمها الرطب الذي هو طعام النفساء ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ أي الوقت الذي لقيتْ فيه ما لقيتْ من الكرب، وإنما قالته مع أنها تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام استحياءً من الناس، أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بما سيتكلمون فيها[1] ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا﴾ أي شيئاً تافهاً شأنُه أن يُنسى ﴿مَّنسِيّٗا﴾ أي متروكاً لا يخطر ببال أحد.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ جبريل عليه السلام ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ أي من مكان أسفل من مكانها، وقيل من تحت النخلة ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ أي ناداها الملك أن لا تحزني لهذا الأمر، ولا تهتمي بمقالة الناس ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ﴾ أي بمكان أسفل منك ﴿سَرِيّٗا﴾ أي نهراً صغيراً، ضرب جبريل برجله الأرض، فظهرت عين ماء عذبة، فجرى جدولاً دافقاً بالماء، وهذه آية باهرة على كرامة مريم عليها السلام، وقال لها:

---

(١) عرفت أن الناس لا يصدّقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عاهرة زانية، ولهذا تمنت الموت، وقالت ما قالت.

﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَهُزِّيٓ ﴾ أي أميليه، هززته هزاً حركته فاهتز ﴿ إِلَيۡكِ ﴾ إلى جهتك ﴿ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ الباء زائدة للتأكيد أي هزّي جذع النخلة ﴿ تُسَٰقِطۡ ﴾ أي تسقط النخلةُ ﴿ عَلَيۡكِ ﴾ إسقاطاً متواتراً ﴿ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ أي طرياً شهياً، قيل: ما للنفساء خير من الرطب، روي أنها هزتها، فجعل الله لها رأساً، وورقاً ورطباً، لتسليتها بذلك، لما فيها من المعجزات الدالة على براءة ساحتها، ومن قَدَر أن يثمر النخلة اليابسة، قدر أن يحبلها من غير فحل.

﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي ﴾ من الرطب واشربي من الماء السلسبيل ﴿ وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ ﴾ أي طيبي نفساً، وانفضي عنك ما أحزنك، فإنه تعالى نزّه ساحتَكِ عما اختلج في صدور الناس، بما أظهر لهم من الخوارق، من جري النهر، واخضرار النخلة اليابسة، وإثمارها قبل وقتها، فإنهم إذا رأوا ذلك لم يستبعدوا ولادة ولد بلا فحل، ﴿وَقَرِّي﴾ من القرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه، أو من القُرِّ فإن العين باردة في السرور، وحارة في الحزن، ولذا يقال: قرة العين للمحبوب، وسخنةُ العين للمكروه ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا ﴾ أي آدمياً كائناً ما كان ﴿ فَقُولِيٓ ﴾ له إن استنطقك ﴿ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا ﴾ أي صياماً وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الأكل والشرب، وقيل: كان صيامهم فيه الصمتُ، وقد نهى الرسول ﷺ عن صوم الصمت فصار منسوخاً ﴿ فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ أُمرت بأن تخبر بنذرها بالإشارة، وقيل: أمرها أن تقول هذا القول نطقا ثم تمسك، وإنما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام، فإنه نص قاطع في قطع الطعن، وفيه دلالة على أن تفويض الكلام إلى الأفضل أولى.

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا ﴾ أي جاءتهم بولدها راجعة إليهم، عندما طهرت من نفاسها ﴿ تَحْمِلُهُۥ ﴾ أي حاملة له ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ ﴾ أي فعلت ﴿ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ أي عظيماً، منكراً، عجيباً، وعبَّر عنه بالشيء، تحقيقاً للاستغراب، قيل: لمّا دخلت على أهلها ومعها الصبيُّ، بكوا وحزنوا، لأنهم كانوا أهل بيت صالحين وقالوا ما قالوا.

﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ تجديد للتوبيخ، عنوا به هارون النبي عليه السلام، لأنها كانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وقيل هو رجل صالح كان في زمانهم شبهوها به في الصلاح، عن المغيرة بن شعبة قال: سألت عنه رسول الله ﷺ فقال: «إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم»[1] ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ﴾ عمران ﴿ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾ أي زانياً ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ ﴾ حنة ﴿ بَغِيًّا ﴾ أي زانية، تقرير وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين، فُحْشٌ ومنكر عظيم!.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى عيسى عليه السلام أن كلِّموه، ولما أشارت إليه غضبوا وتعجبوا ﴿ قَالُوا۟ ﴾ منكرين لجوابها ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب رقم ٢١٣٥ ونصُّه عن المغيرة قال: «لمَّا قدمتُ نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرءون ﴿يا أخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ ـ أي بألف سنة ـ فلمَّا قدمتُ على رسول الله ﷺ سألتُه عن ذلك؟ فقال: إنهم كانوا يسمُّون بأنبيائهم، والصالحين قبلهم»..

صَبِيًّا﴾؟ - ولم نعهد صبياً في المهد تكلّم! ولما قالوا هذا، اتكأ وأقبل عليهم، وتكلَّم بكلام فصيح صريح.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ أنطقه الله عزَّ وجلَّ بذلك، تحقيقاً للحق، وردّاً على من يزعم ربوبيته[1] ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي الإنجيل ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾.

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلَنِي ﴾ مع ذلك ﴿ مُبَارَكًا ﴾ نفّاعاً، معلِّماً للخير، والتعبير بلفظ الماضي باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم، فإن ما حكم الله به أزلاً لا بدَّ أن يقع، كقوله سبحانه: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ أو بجعل ما شارف الوقوع واقعاً، وروي عن الحسن أنه كان في المهد نبياً، وكلامه من معجزاته، والأظهر أن معناه: سيجعلني نبياً، ويؤتيني الكتاب وقيل: كلَّمهم بذلك ثم لم يتكلم، حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أي حيثما كنت ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي أمرني بها أمراً مؤكداً ﴿ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ زكاة المال إن ملكته أو بتطهير النفس ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ في الدنيا.

﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾.

---

(١) أوَّلُ كلمةٍ نطق بها السيد المسيح، وهو طفل رضيع ﴿قال إني عبد الله﴾ وكان ذلك معجزة له تدل على براءة أمه، وطهارتها من مقارفة الفاحشة، ولا نجد في الأناجيل هذه المعجزة، وهي قوله: ﴿إني عبدُ الله﴾ لأنها تبطل مزاعم النصارى في ألوهية المسيح، ولهذا حذفوها من الأناجيل، مع أنها من سواطع المعجزات والبراهين!!.

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ أي جعلني باراً بها، والتنكير للتفخيم ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي عنيداً متعظماً متكبراً على عباد الله، شقياً في حياتي.

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أي وسلام الله عليَّ في يوم ولادتي، وفي يوم مماتي، ويوم خروجي حياً من قبري، وفيه تعريض باللعن على من اتهم مريم بالزنا، ونظيره قول موسى عليه السلام: ﴿والسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَىٰ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى من فُصِّلت نعوته الجليلة ﴿ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يصفونه به من دعوى الربوبية ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي يشكُّون ويتنازعون، فيقول اليهود: ساحر وابن زنى، والنصارى يقولون: هو ابن الله، وكلا الفريقين مفترٍ كاذب.

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أي ما صحَّ وما استقام له تعالى ﴿ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ تكذيب للنصارى ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهٌ له تعالى عما بهتوه ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ بلا تأخير، فمن هذا شأنه، كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ وقد نص عيسى على عبودية نفسه، لإزالة التهمة عن الله تعالى.

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا هو الدين القويم الذي لا يضل سالكه.

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ الحزبُ: الفرقةُ المنفردة برأيها عن غيرها نبّه تعالى على سوء صنيعهم، بجعلهم ما يوجب الاتفاق، منشأً للاختلاف، فإن ما قال عيسى عليه السلام من كونه عبداً لله تعالى، اختلف النصارى بالإفراط والتفريط، فقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت اليعقوبية: هو الله هبط إلى الأرض، وزعم بعضهم أنه ثالث ثلاثة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وهم المختلفون في أمر عيسى، عبر عنهم بالموصول، إيذاناً بكفرهم جميعاً ﴿ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي من شهود يوم، عظيم الهولِ، والحسابِ والجزاء، وهو يوم القيامة، والنصُّ وعيد وتهديد لكل كافر، سواءً كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً، فإن الكفر كله ملة واحدة.

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ تعجيب من شدة سمعهم وبصرهم، أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب!! ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ للحساب والجزاء، والمراد أنَّ أسماعهم وأبصارهم جديرة بأن يُتعجب منهما، بعد أن كانوا في الدنيا صماً وعُمياً ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي في الدنيا ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ لا تدرك غايته، حيث أغفلوا الاستماع والنظر.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ أي يوم يتحسر الناس قاطبة، أمّا المسيء فعلى

إساءته وأما المحسن فعلى قلة إحسانه ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي فرغ من الحساب، وأُدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنَّة أحد، إلا أُري مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحدٌ إلا أُري مقعده من الجنة لو أحسن ، ليكون عليه حسرة»[1] ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عما يفعل بهم في الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون به.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي نتفرد بالملك والبقاء، عند تعميم الهلاك والفناء ولا يبقى لأحد غيرنا عليها ملك، ونتوفى الأرض توفي الوارث لإرثه ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي يردّون إلينا للجزاء لا إلى غيرنا، وهذا تخويف عظيم، ووعيد شديد.

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَٱذْكُرْ ﴾ عطف على أنذرهم ﴿ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي في السورة أو في القرآن ﴿ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي اتلُ عليهم قصته كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ فإنهم ينتمون إليه، فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من الشرك والقبائح ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا ﴾ ملازماً للصدق في كل ما يأتي وما يذر ﴿ نَّبِيًّا ﴾ خبر آخر أي كان جامعاً بين الصديقية والنبوة.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٤١٨.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ أي لا يسمع ثناءك وجؤارك إليه، ولا يبصر خضوعك بين يديه، أو لا يسمع ولا يبصر من المسموعات والمبصرات شيئاً ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي لا يقدر على أن يغنيك في جلب نفع، ودفع ضر، وقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج، واحتج عليه بحسن الأدب، حيث طلب منه علَّة عبادته، ولم يصرح بضلاله، ونبَّه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل، لغرض صحيح، والشيء لو كان حياً، مميزاً، سميعاً، بصيراً، مقتدراً على النفع والضر، ولكنَّه كان محتاجاً، لاستنكف العقل السليم عن عبادته، وإن كان أشرف الخلائق، كالملائكة، والنبيين، لما يراه مثله في الحاجة إلى من سواه، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يُبصر؟.

ثم دعاه إلى أن يتّبعه، ليهديه إلى الحق القويم، والصراط المستقيم ولكنه كان جاهلاً عنيداً، لم يأبهْ للنصيحة والإرشاد.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ لم يسمِّ أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير، يكون أعرف بالطريق، فاستماله برفق حيث قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي مستقيماً موصلاً إلى أسنى المطالب، ثم ثبطه عما كان عليه بأنه مع خلوه عن النفع، مستلزم للضر، فإنه في الحقيقة عبادة للشيطان من حيث إنه الآمر، ولهذا قال بعده:

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ فإن عبادتك

للأصنام عبادة له، إذ هو الذي يسوّلها لك، ويغريك عليها، ومعلوم أن المطاوع للعاصي عاص، وكل من هو عاصٍ حقيقٌ بأن تُستردَّ منه النعم.

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه، وهو ابتلاؤه بما ابتلي به معبوده، من العذاب الفظيع ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ أي قريناً له في اللعن المخلّد والطرد والحرمان من دخول الجِنان.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾؟ أي أمعرضٌ ومنصرف أنتَ عن عبادة آلهتي يا إبراهيم؟ قابل استعطافه في الإرشاد، بغلظةِ العناد، فناداه وأخَّره، ولم يقابل قوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ بيا «بُنَيَّ» وصدَّره بالهمزة للإنكار، على ضربٍ من التعجب، كأنها مما لا يرغب عنها عاقل، ثم هدَّده فقال ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ عن مقالك فيها، وعن النهي عن عبادتها ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ بالحجارة ﴿ وَٱهْجُرْنِى ﴾ أي اتركني ﴿ مَلِيًّا ﴾ أي زماناً طويلاً، أو بالذهاب عني، وإنما حكى الله تعالى ذلك للرسول ﷺ ليخفّف عليه ما كان يصل إليه، من أذى المشركين، فيعلم أن الجُهّال منذ كانوا على هذه السيرة.

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ متاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه، ولا أشافهك بما يؤذيك، ولكن ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ﴾

أي أستدعيه أن يغفر لك، بأن يوفقك للتوبة، ويهديك إلى الإيمان، كما يلوح به قوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِينَ﴾[1] والاستغفار للكافر، قبل أن يتبين أنه مات على الكفر، مما لا ريب في جوازه، وإنما المحظور استدعاء المغفرة، مع بقائه على الكفر، وبعد تبيُّن موته على الكفر، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ أي بليغاً في البر والإلطاف، والحفاوةُ: الرأفةُ والرحمة والكرم، والمراد أنه يستجيب لي فيما أدعوه وأطلبه منه.

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ المراد بالاعتزال المهاجرة، أي أتباعدُ عنك وعن قومك ﴿ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بالمهاجرة بديني، من أرض بابل إلى أرض الشام، حيث لم تؤثِّر نصائحي فيكم ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّى ﴾ أعبده وحده ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ أي خائباً، ضائع السعي، وفيه تعريض لشقائهم، وفي تصوير الكلام بعسى التواضع، والتنبيه على أن الإجابة تفضل، وأن العبرة بالخاتمة.

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بالمهاجررة ابتغاء مرضاة الله، وترك الديار والأوطان ﴿ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة، ليستأنس بهما، لكنْ لا عقيب المهاجرة، فإن المشهور الموهوب حينئذٍ «إسماعيل» عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ إثْرَ دعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما

(١) سورة الشعراء، آية: ٨٦.

شجرتا الأنبياء ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي كل واحد منهم، جعلنا نبياً، لا بعضهم دون بعض.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ هي النبوة والمال، والأولاد، وقيل: هو الكتاب، والأظهر أنها عامة لكل خير ديني ودنيوي ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناس، ويثنون عليهم، استجابة لدعوته بقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ والمراد باللسان ما يوجد به الكلام، وإضافته إلى الصدق، ووصفه بالعلو، للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنى به عليهم، وأن محامدهم لا تخفى، على تباعد الأعصار، وتبدل الدول والأمصار.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ قدم ذكره على ذكر إسماعيل، لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي مؤمناً موحّداً اصطفاه الله لنفسه، لأنه أخلص عبادته عن الشرك، والرياء وأسلم وجهه لله ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ نبياً أرسله الله تعالى إلى الخلق، فأنبأهم عنه.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي ناديناه من ناحية اليمين من جهة جبل الطور، والجمهور على أن المراد أيمن موسى عليه السلام، لأن الجبل لا يمين له، ومعنى ندائه أنه جاءه الكلام من تلك الجهة ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ أي وشرفناه بالمناجاة ﴿نَجِيًّا﴾ أي مناجياً، مثّل حاله عليه السلام بحال من قرّبه الملك لمناجاته، واصطفاه لمصاحبته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ ﴾ من أجل رحمتنا ورأفتنا له ﴿أَخَاهُ﴾ لمعاضدة أخيه ومؤازرته، إجابة لدعوته حيث قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي﴾ ﴿هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ وكان أكبر من موسى عليه السلام.

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ﴾ فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لإبراز كمال الاعتناء بأمره ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ وإيراده بهذه الصفة لكمال شهرته به، وناهيك وعد الصبر على الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ فيه دليل على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة.

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ وهو أن يقبل الرجل على نفسه، ومن هو أقرب الناس إليه بالتكميل، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاَةِ﴾ وقيل أهله أمته، فإن الأنبياء آباء الأمم ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله، وهذا نهاية في المدح.

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ﴾ وهو سبط شيث عليهما السلام، وجدُّ أب نوح عليه السلام، أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ أي ملازماً للصدق.

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ بشرف النبوة وعلو الرتبة بالذكر الجميل، عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه رأى إدريس في السماء الرابعة[1].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة الكريمة ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية ﴿ مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ بيان للموصول أي هم أنبياء الله الكرام ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ بدل منه بإعادة الجار أي هم من نسل آدم ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ أي ومن ذرية من حملناه معه، وهم من عدا إدريس عليه السلام لأنه كان قبل نوح ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وهم الباقون ﴿ وَإِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام والد يوسف الصدّيق ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ أي من جملة من هديناهم إلى الحق، واجتبيناهم للنبوة ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ البكيُّ جمع باكٍ، كالسجود جمع ساجد، والمراد به سجود التلاوة، وقال بعضهم: الخضوعُ والخشوع، والظاهر يقتضي سجوداً مخصوصاً عند التلاوة، قالوا: ينبغي أن يدعو الساجد في سجدته، بما يليق بآياتها مع الخشوع والخضوع، ومنها الدعاء المأثور «سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشقَّ سمعَه وبصره، تبارك الله أحسنُ الخالقين» وعنه ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا».

(١) طرف من حديث الإسراء الذي رواه الشيخان.

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ ﴾.

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ يقال لعقب الخير خَلَفٌ بفتح اللام، ولعقب الشر ﴿ خَلۡفٌ ﴾ بالسكون، أي فعقَّبهم وجاء بعدهم عقب سوء ﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي تركوها وفرَّطوا فيها، أو أخَّروها عن وقتها ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾ كشرب الخمر، والزنا، والانهماك في فنون المعاصي ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ شراً، فإن كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد، كما قال الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرَاً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ   وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدِمْ عَلَى الغَيِّ لائِمَا

وعن ابن عباس وابن مسعود قالا: هو واد في جهنم، أُعدَّ للمصرين على الزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، وشاهد الزور.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا ۝٦٠ ﴾.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ يعني إلا من رجع عن كفره، وآمن بشرائطه ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ بموجب الوعد ﴿ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا ﴾ أي لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً، أي إن كفرهم السابق، لا يضرهم ولا ينقص أجورهم.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا ۝٦١ ﴾.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾ أي جنات إقامة دائمة في جوار عرش الرحمن، وعدهم الله بها فآمنوا بها، قبل أن يروها تصديقاً لوعد الله، والتعرض لعنوان الرحمة، للإيذان بأن وعدها وإنجازها، لكمال سعة رحمته تعالى، والباء في قوله: ﴿بِالغَيبِ﴾ متعلقة بمضمر أي وعدها

إياهم ملتبسة بالغيب أي غائبة عنهم لا يرونها، وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ﴾ أي موعوده كائناً ما كان، فيدخل فيه الجنات، ولما كانت هي مثابة يرجع إليها قال: ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ أي يأتيه من وُعد له لا محالة.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام، ولا ألفاظاً قبيحة نابية، إنما يسمعون فيها التحية والسلام، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها، وفيه تنبيه على أن اللغو، مما ينبغي أن يجتنب عنه ما أمكن ﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ استثناء منقطع أي لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم، وتسليم بعضهم على بعض ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ على عادة المتنعّمين في هذه الدار، وقيل المراد دوام رزقهم ورفاهية عيشهم، وإلا فليس في الجنة بكرة وعشية، لأنهم في النور أبداً.

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾.

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ﴾ أي نورثها ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ أي نبقيها عليهم ونمتعهم بها كما يبقى مال المورِّثِ على الوارث، والوراثة أقوى لفظ يستعمل في التمليك، من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا إبطال ﴿مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ عن الإشراك، وقيل: يورث المتقون من الجنة، المساكن التي كانت لأهل النار، لو آمنوا وأطاعوا، زيادةً في حسرة الكفار.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤﴾.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ هذا حكاية لقول جبريل عليه السلام، حين استبطأ عن رسول الله ﷺ، لمّا سئل عن أصحاب الكهف، أخرج البخاري

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «يا جبريلُ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت هذه الآية»[1] فكان هذا جواب جبريل عليه السلام، والتنزُّلُ: النزولُ على مَهْل، لأنه مطاوع للتنزيل، وقد يُطلق على مطلق النزول، والمعنى وما نتنزل وقتاً بعد وقت، إلاَّ بأمر الله تعالى، على ما تقتضيه حكمته، لأني عبدٌ مأمور ﴿ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأزمنة ولا ننتقل من مكان إلى مكان، ولا نتنزل إلا بأمره ومشيئته ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أي تاركاً لك يا محمد يعني أن عدم النزول، لم يكن إلا لعدم الأمر به، لحكمة فيه، لا لتركه لك كما زعمت الكفرة، وفي إعادة اسم الرب مضافاً إلى ضميره ﷺ، فيه تشريف عظيم للنبي ﷺ.

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي هو تعالى ربُّ العوالم كلها، رب السموات، ورب الأرض، ورب العرش العظيم، وما بين السماء والأرض والنسيانُ عليه تعالى مستحيل، فإن من بيده ملكوت السموات والأرض كيف يُتصور أن يحوم حول ساحته سبحانه، الغفلةُ، والنسيانُ؟ ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ أي فحين عرفتَه تعالى بما ذُكر من الربوبية، فاعبده، ولا تحزن لإبطاء الوحي، وهزء الكفرة، فإنه تعالى يراقبك، ويلطف بك ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾؟ أي هل تعلم له شبيهاً ومثيلاً، والمراد إنكار الشريك، أي ليس له جلَّ وعلا من يشابهه ويماثله في الأُلوهية والخلق، وما يسميه المشركون آلهة فهي آلهة مزيّفة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٤٢٨.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ ﴾ المراد به الجنس، وإسناد القول إلى الكل لوجوده فيما بينهم، وإن لم يقله الجميع، كما يقال: بنو فلان قتلوا، وإنما القاتل واحد منهم، وقيل: المراد به الشقي «أُبيُّ بن خَلَف»[1] فإنه أخذ عظاماً بالية، وقال: يزعم محمد أنا نُبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال؟ يقول ذلك بطريق الإنكار والاستبعاد ﴿ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ أي هل سأبعث من الأرض؟ قاله تكذيباً للبعث.

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ من الذكر الذي يُراد به التذكر، والتفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين، أي أيقول ذاك ولا يتذكر ولا يتفكر ﴿ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي خلقناه من العدم من قبل هذه الحالة التي هو عليها الآن ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾؟ بل كان عدماً صِرْفاً حيث خلقناه وهو في تلك الحالة، المنافية للخلق؟ فلأن نبعثه بجميع المواد المتفرقة أولى وأظهر.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ قسَمٌ، باسمه عزَّتْ أسماؤه، مضافاً إلى ضميره ﷺ لتحقيق الأمر، والإشعار بعليته، وتفخيم شأنه ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أي لنجمعن

(١) كان الشقي «أُبيّ بن خلف» من طواغيت قريش، ومن صناديد الكفر، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾؟ وقد اشتهر بالسخرية والتهكم بأمر البعث والنشور، حتى مات كافراً في غزوة بدر.

المجرمين المنكرين للبعث والنشور مع الشياطين، بعدما أخرجناهم من الأرض أحياء، إثباتاً للبعث ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطف على الضمير المنصوب أي نجمعهم مع الشياطين الذين أغووهم، كل مع شيطانه في سلسلة ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾ ليرى السعداء ما نجاهم الله منه، فيزدادوا غبطة وسروراً، وينال الأشقياء ما ادخروا لمعادهم، فيزدادوا غيظاً وحسرة والجثيُّ جمع جاثٍ يقال: جثا إذا قعد على ركبتيه، أي لنحضرنهم حول جهنم، جاثمين على ركبهم، لما يدهمهم من هول المطلع، وأهلُ الموقف جاثون، لقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾[1] ولعلهم يساقون جثاة من الموقف إلى شاطىء جهنم، إهانة لهم، أو لعجزهم عن القيام، لما غراهم من الشدة.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٩﴾.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة شايعت ديناً، واتبعت مذهباً ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾ أي من كان أعصَىٰ وأعتى منهم، فنطرحهم فيها، الأعصى فالأعصى، والأشقىٰ فالأشقىٰ.

﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ٧٠﴾.

﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾ أي هم أولى بصليها أي دخولها، والصِلِيُّ كالعتي صيغة وإعلالاً، ويجوز أن يُراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساء الشيع، فإن عذابهم مضاعفٌ، لضلالهم وإضلالهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[2].

---

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٨.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ١٣.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ ﴾ التفات لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام، أي ما منكم أيها الناس ﴿ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ أي واصلُها وحاضرٌ دونها، يمرُّ بها المؤمنون وهي خامدة، وتنهار بغيرهم وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[1] فالمراد به الإبعاد عن عذابها، وقيل: ورودها الجوازُ على الصراط، فإنه ممدودٍ ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي ورودها إياها ﴿ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أمراً محتوماً أوجبه الله تعالى على ذاته، وقضى أنه لا بد من وقوعه البتة.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ من الكفر والمعاصي، فيساقون إلى الجنة ﴿ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي قعوداً على الركب في جهنم حقارة بهم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ أي على المشركين آيات القرآن المبين ﴿ بَيِّنَاتٍ﴾ مرتلات الألفاظ واضحات المعاني والإعجاز ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وضع الموصول موضع الضمير، للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا، كافرين بما يتلى عليهم، أي قال الذين مردوا منهم على الكفر والعناد، وهم النضر بن الحارث وأتباعه ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾؟ أي المؤمنين، والكافرين، كأنهم قالوا: أينا؟ ﴿خَيْرٌ﴾ نحنُ أو أنتم ﴿مَّقَامًا﴾ موضع إقامة

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠١.

ومنزلاً ﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ مجلساً ومجتمعاً؟ كان المشركون يرجّلون شعورهم ويدهنونها، ويتطيبون ويلبسون الملابس الفاخرة، ويجلسون في أنديتهم، ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، وما هذه المقايسة العقيمة، إلا لكونهم جهلة، لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، يريدون بذلك أن خيريتهم إنما كانت لكرامتهم عند الله. فردَّ الله عليهم بقوله تقدست أسماؤه:

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذبين لآيات الله أهلكناهم بكفرهم، والقرنُ: جيل من الناس ﴿هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا﴾ أي متاعاً ﴿وَرِءۡيٗا﴾ أي وأجمل صورة ومنظراً من هؤلاء، فكما أهلكنا السابقين نهلك اللاحقين.

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ ولمَّا بيَّن عاقبة أمر الأمم المهلكة، أمر رسول ﷺ بأن يجيب هؤلاء، المفتخرين بما لهم من الحظوظ، ببيان مآل أمر الفريقين، أي من كان مستقراً في الضلالة، مغموراً بالغفلة ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ أي يمهله بطول العمر، وإعطاء المال، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية للمدِّ، أي حتى يروا ما يحلُّ بهم من عقاب الله ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ في الدنيا كالقتل، والأسر، ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامة، وما ينالهم فيها من الخزي والنكال، وهذا تفصيل للموعود ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ من الفريقين، بأن يشاهدوا على عكس ما كانوا يقدرونه، فيعلمون أنهم شر مكاناً ﴿وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ أي فئة وأنصاراً، لا أحسن ندياً كما كانوا يدَّعونه ويزعمون أن لهم أعواناً وأنصاراً، ويفتخرون بذلك في الأندية.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ ﴾ بيان لحال المهتدين إثر بيان حال الضالين، وأن قصور حظ المؤمن منها، ليس لنقصه بل لأنه تعالى أراد به ما هو خير له ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ أي الطاعات والأعمال الصالحة، التي تبقى فوائدها ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أي خير مما يتمتع به الكفرة، من النعم الفانية، التي يفتخرون بها، لا سيما أنَّ مآلها النعيم المقيم، ومآل هذه الحسرةُ، والعذابُ الأليم ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أي مرجعاً وعاقبة، وفي التفضيل مع أن ما للكفرة، ليس له خيرية، تهكمٌ بهم، أو على طريقة قولهم «الصيفُ أقرُّ من الشتاء».

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ روى الشيخان عن خبَّاب بن الأرتّ قال: كنت رجلاً قيناً ـ أي حدَّاداً ـ في الجاهلية، وكان لي على «العاص بن وائل السهمي» دينٌ فأتيته أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر حتى يُميتَك الله، ثم تبعث، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: بلى، قال: دعني حتى أموت ثم أبعث، فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك، فنزلت هذه الآية[1]. والمراد بالآيات هنا آياتُ البعث، والهمزة للتعجب من حاله، أي أنظرت فرأيت الذي كفر بآياتنا الباهرة، التي حقها أن يؤمن بها كل من يشاهدها ﴿ وَقَالَ ﴾ مستهزئاً بها، مصدِّراً لكلامه باليمين الفاجرة ﴿ لَأُوتَيَنَّ ﴾ في الآخرة ﴿ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ أي انظر إليه فتعجب من حاله؟!.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٤٢٩ ومسلم رقم ٢٧٩٥.

﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ ﴾ رد لكلمته الشنيعة، أي أَوَ قد بلغ من عظمة الشأن، أن ارتقى إلى علم الغيب، الذي استأثر به العليم الخبير، حتى ادَّعىٰ أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً، وأقسم عليه؟ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾؟ بذلك فإنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين.

﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ۚ ﴾ ردع له عن التفوه بتلك العظيمة، وتنبيه على خطئه ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي سنظهر له افتراءه، وننتقم منه انتقام من كتب جريمة العدوّ، فإن نفس الكتابة لا تتأخر عن القول، لقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ مكان ما يدعيه لنفسه، من الإمداد بالمال والولد، أي نطوّل له من العذاب ما يستحقه، أو نزيد عذابه، لافترائه على الله تعالى، واستهزائه بآياته، وتأكيدُهُ بالمصدر، دلالة على فرط الغضب.

﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَنَرِثُهُۥ ﴾ بموته ﴿ مَا يَقُولُ ﴾ أي مسمى ما يقول، وهو ما أوتيه في الدنيا من المال والولد، أي ننزع عنه ما آتيناه ﴿ وَيَأْتِينَا ﴾ يوم القيامة ﴿ فَرْدًا ﴾ بلا مال ولا ولد، كقوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾.

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً ﴾ أي اتخذوا الأصنام آلهة من دون الله تعالى ﴿ لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾ ليتعززوا بهم، بأن يكونوا لهم وسيلة إليه عز وجل وشفعاء.

﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ كَلَّاۚ ﴾ ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل، وإنكار لوقوع ما علّقوا به أطماعهم الفارغة ﴿ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ ﴾ أي ستجحد الآلهة بعبادتهم، بأن ينطقها الله، وتقول ما عبدتمونا؛ ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾ أي تكون الآلهة أعداء لهم يوم القيامة.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة، وتنبيه على أن جميع ذلك منهم بإضلال الشياطين وإغوائهم، ومعنى إرسال الشياطين عليهم تسليطهم وتمكينهم من إضلالهم ﴿ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ﴾ أي تغريهم وتهيجهم على المعاصي، والأزُّ، والهزُّ والاستفزاز، معناها شدةُ الإزعاج.

﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ بأن يهلكوا وتطهر الأرض من فسادهم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ﴾ أي لا تعجل بهلاكهم، فإنه لم يبق لهم إلا أيام قلائل تعدُّها عليهم عداً، قيل: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مَدَد، فما أسرع ما تنفد!؟.

﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي نجمعهم ﴿ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا ﴾ وافدين عليه، كما يفد الضيوف على الملوك، منتظرين لإنعامهم.

﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ كما تساق البهائم ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ أي عطاشاً، فإن من ورد الماء لا يَرِدُه إلا لعطش أو كالدابة التي ترد الماء.

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ الضمير فيه للعباد، أي لا يملك فيه أحد أن يشفع لأحد ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ أي لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم، إلاَّ من أُمر بذلك، وأذن الله له بالشفاعة، فيكون ترغيباً للناس في تحصيل الإيمان والتقوى.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ أي افترى اليهود والنصارى ومن زعم من العرب أن الملائكة بنات الله، فجعلوا لله ولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ ردٌّ لمقالتهم الباطلة، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات، المنبىء عن كمال السخط، والإِدُّ بالكسر: الأمر العظيم المنكر، أي فعلتم أمراً منكراً شديداً، لا يُقادر قدره.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ أي تقرب السموات بعظمتها ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أي يتشققن مرة بعد أخرى، من عظم ذلك الأمر ﴿ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ ﴾ أي تكاد تنشق الأرض ﴿ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ ﴾ أي تسقط وتتهدم ﴿ هَدًّا ﴾ مصدر مؤكد لمحذوف، أي تُهدُّ هدّاً وتتساقط أشد ما يكون تساقطاً، والمعنى: إن هول هذه الكلمة وعظمها، بحيث لو تصور بصورة محسوسة، لم تتحملها هذه

الأجرام العظام، وتفتت من شدتها، بحيث لولا حلمه تعالى لخرَّبت العالمَ غضباً على من تفوَّه بها.

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ أي لأن دعوا له سبحانه ولداً، ونسبوا له ما لا يليق من الذرية والبنين.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ والحال أنه لا يليق به تعالى اتخاذ الولد، لاستحالته في نفسه، لأن الولد يقتضي المجانسة، ويكون عن حاجة وهو سبحانه المنزَّه عن المثيل والنظير، والغني عن المعين والنصير، فكيف يتسنى أن يجانس المخلوق الخالق حتى يتوهم أن يتخذ ولداً؟.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما منهم أحد من الملائكة والثقلين ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ إلا وهو مملوك له، يأوي إليه بالعبودية والانقياد، ونسبة الجميع إليه عزَّ وجلَّ نسبة العبد إلى المولى، فكيف يكون بعضه ولداً؟.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ أي حصرهم وأحاط بهم، بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه، وقبضة قدرته ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي عدَّ أشخاصهم، وأنفاسهم، وأفعالهم، فإن كل شيء عنده بمقدار.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي كل واحد منهم، سيأتي ربه تعالى منفرداً من الأتباع والأنصار، فإذا كان هذا شأنه تعالى وشأنهم، فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئاً منهم ولداً، لأنه لا يجانسه شيء من ذلك ولا يناسبه..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ لمَّا فصَّل قبائح أحوال الكَفرة، عقَّب ذلك بذكر محاسن المؤمنين، أي صدَّقوا الله وفعلوا الخيرات ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ أي سيحدث لهم في القلوب مودة، من غير تعرض لأسبابها، سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح، وقيل يحبهم الله ويحببهم إلى عباده، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله سبحانه عبداً، دعا جبريل عليه السلام فقال: إنَّ الله يحب فلاناً فأحبَّه، فيحبُّه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء، إن الله يحب فلاناً فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»(١) والسين في «سيجعل» للاستقبال لأن السورة مكية، فوعده ثم أنجز وعده حين تمكَّن الإسلام، وكثر أنصاره.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ ﴾ أي القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ بأن أنزلناه على لغتك والفاء لتعليل الأمر كأنه قيل: بلِّغْ هذا المنزل، وبشِّرْ به، فإنما يسرناه بلسانك العربي المبين ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي سائر أهل التقوى ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ أي وتخوّف به قوماً معاندين، لجاجاً وعناداً، واللُّدُّ جمع الألدّ، وهو الشديد الخصومة والجدال.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد ١٣/ ٤٦١ ومسلم رقم ٢٦٣٧ في البِرّ والصلة، والترمذي رقم ٣١٦٠ في التفسير، وزاد في حديثه «فذاك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾».

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ وعدٌ لرسول الله ﷺ، في ضمن وعيد الكفرة بالإهلاك، أي أهلكنا قبل هؤلاء الكفار قوماً كثيرين معاندين ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ هل تشعر بأحد منهم وتراه؟ ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ أي صوتاً خفياً، وأصل الركز الخفاء، والركاز: المال المدفون المخفي أي بادوا جميعاً فلم يبق منهم عين ولا أثر.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم»

* * *



مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ ﴾.

﴿طه﴾ من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة، وعليه الجمهور، وعن ابن عباس معناها يا محمد، وقيل معناه يا رجل لأنه لما نزل الوحي عليه، اجتهد في العبادة حتى كان يراوح في الصلاة بين قدميه لطول قيامه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره أن يخفف على نفسه.

﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ أي ما أنزلناه لتتعب نفسك، وتحملها على الرياضة الشاقة، والشقاءُ شائع في معنى التعب، أو لتتعب نفسك بالمبالغة في مكابدة الشدائد، في محاورة الطغاة، وفرط التأسف على كفرهم، بل للتبليغ والتذكير، وقد فعلت فلا عليك كفرهم.

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ ﴾.

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً ﴾ استثناء منقطع، أي لكن أنزلناه تذكرة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ لمن في قلبه خشية ورقة، ويتأثر بالإنذار، وتخصيصها بهم لأنهم المنتفعون بها.

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ أي من الله الذي خلق الأرض والسماوات العالية، والعُلى جمع العليا تأنيث الأعلى، وصف السماوات به لتأكيد الفخامة، مع مراعاة الفواصل.

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ أي هو الرحمن، فوصفه بالرحمانية إثر وصفه بالخالقية، للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى، وفيه إشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضاً من أحكام رحمته، كما في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَمَ القُرْآنَ﴾ أي هو جلَّ وعلا العظيم الشأن، الذي علا فوق العرش علواً يليق بجلاله.

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات الكائنة في الجو كالهواء، والسحاب، والطيور، أي له وحده دون غيره كلُّ ذلك، ملكاً وتصرفاً، وإحياءً، وإماتة ﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ أي ما وراء التراب، ذكره مع دخوله في قوله ﴿وَمَا فِي ٱلأَرضِ﴾ لزيادة التقرير، والثَّرىٰ: الترابُ النديُّ فإن لم يكن ندياً فهو تراب.

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ ﴾ بيان لإحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء إثر بيان شمول قدرته لجميع الكائنات، أي وإن تجهر بذكره تعالى ودعائه، فاعلم أنه تعالى غني عن جهرك ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أي ما أسررته إلى غيرك، أو ما أخطرته ببالك، وأخفى منه، وفيه تنبيه على أن شرع الذكر

والدعاء، والجهر فيهما، ليس لإعلام الله تعالى، بل لغرض آخر، من تهذيب النفس بالذكر، ومنعها عن الاشتغال بالتوافه، وقطع الوسوسة عنها، وهضمها بالتضرع والجؤار.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك المنعوت بما ذُكر هو اللهُ عز وجل ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو واحد بذاته، وإن افترقت صفاته، رُوي أن المشركين حين سمعوا النبي ﷺ يقول: يا ألله، يا رحمن، قالوا ينهانا محمد أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر، وهذا رد لقولهم الفاجر، ثم قال: ﴿ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ تأنيث الأحسن، وفضلُ أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن، لدلالتها على معانٍ هي أشرف المعاني وأفضلها.

﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾؟ استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد، وهذا أول ما أخبر به من أمر موسى عليه السلام، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل، وهذا قول الكلبي، ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم، فكأنه قال: قد أتاك، وهذا قول مقاتل.

﴿ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِذۡ رَءَا نَارٗا ﴾ أي اذكر وقت رؤيته ناراً، رُوي أن موسى عليه السلام، استأذن شعَيباً عليه السلام في الرجوع من مدين إلى مصر، ليزور والدته وأخاه، فأذن له فخرج بأهله وماله، وكانت أيام الشتاء، فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام، وامرأته حامل في شهرها، لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً، فسار في البرية غير عارف بطرقها، فألجأه المسير إلى

جانب الطور الغربي الأيمن، وذلك في ليلة مظلمة شاتية، شديدة البرد، فأخذ امرأته الطلقُ، فولدت له ابناً، وتفرقت ماشيته فجعل يقدح زنده فلا يوري، فبينما هو في ذلك، إذ رأى ناراً من جانب الطور وكانت نوراً ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي أقيموا مكانكم، أمرهم بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه، والخطاب للمرأة، والجمعُ للتفخيم، ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرتها والإيناسُ: رؤية شيء يؤنس به ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي أجيئكم من النار، بنى الأمر على الرجاء، لئلا يَعِدَ بما ليس يستيقن الوفاء به ﴿بِقَبَسٍ﴾ نار مقتبسة، وهي المراد بالجذوة في سورة القصص، والقَبَسُ: بفتحتين شعلة من نار يقتبسها الشخص ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي هادياً يدلني على الطريق.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي النار، وجد ناراً بيضاء، تتوقَّد في شجرة خضراء، ولم يجد عندها أحداً، فوقف متعجباً من شدة ضوئها، وشدة خضرة الشجرة، فلا النارُ تغيِّر خضرتَها، ولا خضرةُ الشجرة تُغيِّر ضوءَ النار، فلما دنا سمع تسبيح الملائكة، وأُلقِيت عليه السكينة، فعند ذلك ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ كرَّر الضمير لتحقيق المعرفة، وإماطة الشبهة، روي أنه لما نودي يا موسى، قال: من المتكلِّم؟ فقال: أنا ربك، فعرف أنه كلام الله عزَّ وجلَّ، لأنه سَمِعه من جميع جهاته الست، وسَمِعه بجميع أعضائه، وذلك ليس إلا من آثار قدرة الخلاق العليم، ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمره سبحانه بذلك، لأن الحفوة تواضعٌ وأدب، ولذلك كان السلف يطوفون بالكعبة حفاة، وقيل: ليباشر الوادي بقدميه تبركاً به ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لشرف البقعة وقدسيتها، روي أنه

عليه السلام خلعها وألقاها وراء الوادي ﴿طُوًى﴾ وهو اسم علم للوادي ومعناه: بالواد المقدس، المسمى طوى، أي جبل الطور.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي اصطفيتك للنبوة والرسالة، وهذا يدل على أن النبوة لا تحصل بالاستحقاق، بل باختياره تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي للذي يُوحى إليك، وفيه نهاية الهيبة والجلال، كأنه قيل له: لقد جاءك أمر عظيم، فتأهَّب له.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤﴾.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ بدل ما يوحى، ولا ريب في أن اختياره ليس لهذا الوحي فقط ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ وحِّدني وأطعني، ولا تعبد غيري ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ خُصت الصلاة بالذكر، وأفردت بالأمر، مع اندراجها في الأمر بالعبادة، لفضلها وشرفها، وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد، أعظم من الصلاة، أي حافظ على الصلاة، وأقمها على الوجه المشروع لتذكرني فيها، وتبقى دائم الصلة بربك، قال مجاهد: إذا صلى العبد ذكر ربه لاشتمالها على جملة الأذكار وقيل: معناه إذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها، لما رُوي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاةً فلْيصلِّها إذا ذكرها، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾[1]». قال أبو حنيفة: يجب الترتيب في قضاء الفوائت، ودليلهُ هذه الآية.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٣٢٤٨ وهو طرف من حديث طويل في قصة رجوع النبي ﷺ من غزوة خيبر، ونوم الصحابة عن صلاة الفجر، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٥/١٩٣.

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ أي القيامة كائنة لا محالة، وإنما عبر عنها بالإتيان، تحقيقاً لحصولها، بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أريد إخفاء وقتها، قيل: معناه قَرُبَ الأمرُ من الإخفاء[1] ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ متعلق بآتية وما بينهما اعتراض، أي لتجزى كل نفس بسعيها، من خير أو شر.

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ ﴾ أي فلا يصرفنك ﴿ عَنْهَا ﴾ أي عن ذكر الساعة، وعن تصديقها، والخطاب لموسى عليه السلام والمراد به أمته ﴿ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ أي من لا يصدّق بها، وهذا ـ وإن كان بحسب الظاهر ـ نهياً للكافر لكنه في الحقيقة نهي له عليه السلام، عن الانصداد عنها، كقوله: لا أرينك ههنا، ويجوز أن يكون من باب النهي عن المسبب وإرادة النهي عن السبب على أن يراد نهيه عليه السلام عن إظهار لين الجانب للكفرة، فإن ذلك سببٌ لصدهم إياه، كأنه قيل: لا تكن رخواً، بل كنْ في الدين شديداً وصلباً، فإنَّ صدَّ الكافر إنما يكون بسبب ضعف الإيمان، فينبغي للمؤمن أن يكون راسخاً في دينه ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ أي ما تهواه نفسه، من اللذات الحسية الفانية ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أي فتهلك، فإن اتباع الهوى مستتبع للهلاك لا محالة.

---

(١) الأظهر كما قال جهابذة المفسرين أن المعنى: إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة، أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف أطلعكم عليها؟ وهذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس، واختاره الإمام الطبري وهو الأظهر والأوضح، لأن «كاد» للمقاربة، قال المبرِّد: وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون في كتمان الشيء: كتمته حتى عن نفسي، اهـ.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ ﴾.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ ما استفهامية تتضمن استيقاظاً لما سيظهر فيها من العجائب، فمن أراد أن يُظهر من الشيء الحقير، شيئاً شريفاً، فإنه يأخذه ويعرضه على السامعين، ويقول لهم: هذا الشيء الفلاني، ثم إنه يظهر لهم صفته الفائقة، ليكون عندهم أروع وأبهر، وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه.

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ ﴾.

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ نسبها إلى نفسه، تحقيقاً لوجه كونها بيمينه ﴿ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا ﴾ أي أعتمد عليها عند الإعياء ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ أي أخبط بها الورق وأسقطه على رؤوس غنمي فترعاه ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أي حاجات أخرى غير ذلك، وأراد بها ما كان يستعمل فيه العصا في السفر، كأن يحمل بها الزاد، ويشدَّ بها الحبل، ويستقي بها الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ونحو ذلك، وكأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال، بيان حقيقتها وتفصيل منافعها، حتى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة، علم أنها آيات ومعجزات، أحدثها الله تعالى فذكر على التفصيل، وقيل: إنما فصَّل ذلك تلذذاً بخطاب رب الأرباب، والمقام مقام مباسطة، وكان يكفيه أن يقول: هي عصاي.

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله عز وجل ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ لترى شأنها بما لم يخطر ببالك.

﴿ فَأَلْقَىٰهَا﴾ على الأرض ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ قيل لما ألقاها انقلبت حية صفراء بغلظ العصا، ثم تورمت وعظمت، فلذلك سماها جانًّا تارة، وهي الحية الصغيرة، نظراً إلى المبدأ، وثعباناً مرة وهو أكبر ما يكون من الحيات باعتبار المنتهى، وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين، وقيل قد انقلبت من أول الأمر ثعباناً، وهو الأليق بالمقام كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ وإنما شبهت بالجان في الجلادة والسرعة، لا في صغر الجثة.

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ﴾ الله تعالى ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فإنه عليه السلام لما رآها حية تسرع، وتبتلع الحجر والشجر، خاف وهرب منها، والحكمة فيها لتكون معجزة لموسى عليه السلام ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي هيئتها، المتقدمة، أي سنعيدها عصا كما كانت.

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أُمر عليه السلام بذلك، بعدما أخذ الحية، أي أدخلها تحت عضدك، فإن جناحي الإنسان جنباه، كما أن جناحي العسكر ناحيتاه، مستعار من جناحي الطائر، وقد سميا جناحين لأنه يجنحهما أي يميلهما عند الطيران وفي آية أخرى ﴿وأدخل يدك في جيبك﴾ لأنه إذا أدخل يده في جيبه، كان كمن قد ضم يده إلى جناحه ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي من غير عيب وقبح، كنَّى به عن البرص، كما كنَّى بالسوأة عن العورة، لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه، روي أنه عليه السلام كان آدم يعني أسمر اللون، فأخرج يده من مدرعته بيضاء، لها نور ساطع يضيء كشعاع الشمس، ثم إذا ردَّها عادت إلى لونها الأول بلا نور ﴿ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ أي معجزة أخرى، دالة على صدقك سوى العصا.

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ أي لنريك بعض آياتنا الكبرى.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ أي اذهب بهاتين الآيتين، إلى فرعون الجبار، فادعه إلى عبادتي، وحذّره نقمتي ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ تعليل للأمر، أي جاوز الحدَّ في التكبر، والعُتوِّ، حتى تجاسر على دعوى الربوبية، وإنما خص فرعون بالذكر، مع أنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل، لأنه كان متبوعاً.

فلما أمر بما أمر به، وعرف أنه كلف بأمر عظيم، يحتاج إلى صدر فسيح، تضرع إلى ربه. فقال:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ سأله أن يوسع صدره، ويفسح قلبه، ويجعله عليماً بشؤون الحقّ، وأحوال الخلق، حليما حمولاً يستقبل ما عسى يَرِد عليه من الشدائد والمكاره، ويتلقاها بصدر فسيح.

﴿ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ وسأله أن يسهِّل عليه أمره، الذي هو أجلُّ الأمور وأعظمها، وأصعب الخطوب وأهولُها، بتوفيق الأسباب، ورفع الموانع.

﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ روي أنه كان في لسانه عليه السلام لُكْنة[1]، من جمرة أدخلها فاه في صغره، وذلك أن فرعون حمله ذات يوم، فأخذ لحيته فنتفها فغضب، فتشاءم منه وأمر بقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا

---

(١) لُكْنةٌ: أي عِيٌّ وثِقَلٌ في اللسان، يصعب معه الإفصاح في الكلام.

يفرق بين الجمر والياقوت، فأحضرهما بين يديه، فأخذ الجمرة فوضعها في فيه، فاحترق لسانه، وصارت فيه عقدة.

﴿ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ أي كي يفقهوا قولي، أي يفهموا كلامي.

﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ أي مؤازراً يعاونني في تحمل أعباء ما كلّفته.

﴿ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان لوزير ﴿أَخِي﴾ بدل من هارون، وكان هارون أكبر من موسى وأفصح لساناً.

﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ أي قوِّ به ظهري.

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ واجعله شريكي في أمر الرسالة، حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي.

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة، فإن التعاون يهيج الرغبات، ويؤدي إلى تكاثر الخير، وليس المراد بالتسبيح والذكر، ما

يكون منهما بالقلب، وفي الخلوات، بل ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة، وذلك مما لا ريب في تأثيره، في حالي التعدد والانفراد، ولفظُ ﴿كَثِيراً﴾ في الموضعين نعتٌ لمصدر محذوف، أي ننزهك عما لا يليق بك، من ادعاء الشركة في الألوهية، ونصفك بما يليق بك، من صفات الكمال، تنزيهاً كثيراً.

﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) ﴾.

﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ أي ونذكرك ذكراً كثيراً، من جملته زمان دعوة فرعون، وأوان المحاجة معه، لنتخلص من شرّه وطغيانه.

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾.

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أي عالماً بأحوالنا، لا يخفى عليك شيء من أعمالنا، وما دعوناك به يصلحنا ويفيدنا، في تحقيق كلفته من إقامة الرسالة.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ (٣٦) ﴾.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ ﴾ أي أعطيت ﴿ سُؤْلَكَ ﴾ أي مسؤولك والمراد بالإيتاء تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب، وحصولها له البتة، فكلها حاصلة له عليه السلام، وإن كان وقوع بعضها مترقباً بعد، كتيسر الأمر، وشد الأزر ﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾ تشريف له بشرف الخطاب، إثر تشريفه بقبول الدعاء.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله، وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول، وذكرُ تلك النعم بلفظ المنة، ليعرف

موسى أنها بمحض الكرم والإحسان، وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أي وبالله لقد أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي في وقت غير هذا الوقت.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ المراد بالإيحاء الإيحاء بواسطة المَلَك كما أوحى إلى مريم، أو بالإلهام كالإيحاء إلى النحل، أو الإراءة في المنام ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما سيأتي، من الأمر بقذفه في التابوت، وقذفه في البحر، أُبهِمَ أولاً تهويلاً له، وتفخيماً لشأنه، ثم فُسّر ليكون أقرَّ عند النفس.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي بأن اقذفيه، ومعنى القذف هنا: الوضع، وأما في قوله تعالى: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فالمراد الإلقاء في البحر، وهذا التفضيل هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ لا القذف بلا تابوت. ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ لما كان إلقاء البحر إياه بالساحل، أمراً واجب الوقوع، لتعلق الإرادة الربانية به، جعل البحر كأنه عاقل مطيع، أمر بذلك، وأخرج الجواب مخرج الأمر للمكلف بالتنفيذ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ جواب للأمر بالإلقاء، وتكرير «العدو» للمبالغة، والإشعار بأن عداوته له، مع تحقيقها لا تؤثر فيه، وما هو سبب للهلاك صورة، يشعر بأن هناك لطفاً خفياً مندرجاً تحت قهر صوري، روي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً ووضعته فيه ثم قيّرته أي طلته بالزفت وألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر صغير، فدفعه الماء إليه، فأتى إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً ثمة مع آسية بنت مزاحم، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا الصندوق فإذا فيه صبي من

أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبَّه حباً شديداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ التنكير للتفخيم أي محبة عظيمة كائنة مني، قد زرعتها في القلوب، ولذلك أحبَّك عدوُّ الله ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره وألقيت عليك محبة لتحبَّ ولتصنع ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي لتربى بمرأى مني، بحفظي ورعايتي، فأنا مراعيك ومراقبك، كما يراعى الرجل بعينه إذا اعتنى به.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ أي حين تمشي أختك وتَتَّبع أثرك حتى تصل إلى قصر فرعون. ﴿فَتَقُولُ﴾ أي لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له مرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدياً ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ أي يضمه إلى نفسه ويربيه، وذلك إنما يكون بقبوله ثديها، يروى أنه فشا الخبر بمصر، أن آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل، لا يرتضع ثدي امرأة، واضطروا إلى تتبع النساء، فخرجت أختُه لتعرف خبره، فجاءتهم متنكرة فقالت: هل أدلكم على امرأة أمينة ترضعه لكم؟ فجاءت بأمه فقبل ثديها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ وفاءً بقولنا: إنا رادّوه إليك ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك، وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور، المعبر عنه بقرة العين ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هي نفس القبطي الكافر الذي استغاثه الإسرائيلي عليه قيل: كان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي غم قتله خوفا من اقتصاص فرعون، وصرفنا عنك شر فرعون وزبانيته ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي ابتليناك ابتلاء وخلصناك مرة بعد أخرى من ضروب الابتلاء والامتحان، منها نجاته من الذبح، ثم إلقاؤه في البحر، ثم أخذ لحية فرعون، ثم قتل القبطي، ثم الهجرة، وكلها

ضروب من الابتلاء ﴿فَلَبِثْتَ﴾ مكثتَ عشر ﴿سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هي بلدة شعيب عليه السلام ﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ إلى المكان الذي أونس فيه النار، ووقع فيها النداء، وفي كلمة «ثمَّ» إيذان بأن مجيئه عليه السلام، كان بعد ضلال الطريق، وتفرق الغنم، في الليلة المظلمة، وغير ذلك ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي على تقديرٍ قدَّرته لأن أكلِّمك، وأستنبئك، في وقت قد عينته لذلك ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تشريف له وتنبيه على انتهاء الحكاية.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ تذكير لقوله ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون، مؤيداً بأخيه بعد تذكير المنن السابق، أي اصطفيتك برسالاتي وبكلامي.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ أي وليذهب أخوك معك حسبما طلبت ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ أي بمعجزاتي التي أيدتك بها من اليد، والعصا، ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ ولا تفترا ولا تقصِّرا، والوَنَى: هو الفتورُ والتقصير ﴿فِى ذِكْرِى﴾ عند تبليغ رسالتي، فإن الذكر يقع على جميع العبادات، وقيل: لا تنسياني حيثما تقلبتما، واستمدا بذكري العون والتأييد.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ جمعهما مع غيبة هارون، للتغليب، روي أنه تعالى أوحى إلى هارون بمصر، أن يلتقي بموسى عليهما السلام، ويذهبا إلى فرعون الطاغية الجبار.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي قولا لفرعون قولاً لطيفاً رفيقاً، لأن تليين القول، مما يكسرُ سورة عناد العُتاة، ويلين عريكة الطغاة، ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ بما بلغتماه من ذكري، ويرغب فيما رغبتماه فيه ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ عقابي، والفائدة في إرسالهما مع علمه تعالى بأنه لا يؤمن، إلزام الحجة، وقطع المعذرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾[1] الآية.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ أسند القول إليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى بطريق التغليب، إيذاناً بأصالته في كل قول وفعل، وتبعية هارون عليه السلام له ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي يعجِّل علينا بالعقوبة، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة، وإظهار المعجزة، والفَرَطُ بفتحتين: المتقدم في طلب الماء، والإفراطُ: الإسرافُ وتجاوزُ الحد ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي يزداد طغياناً فيقول في شأنك ما لا ينبغي، لجرأته وقساوته وفجوره.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿لَا تَخَافَآ﴾ ما توهمتما من الأمرين ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ تسلية لهما، والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، وأنا حافظ لكما من شره، والحافظ إذا كان كذلك تم الحفظ.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ١٣٤.

﴿فَأْتِيَاهُ﴾ أي اذهبا فادخلا عليه بأمري ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي أرسلنا إليك ربك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل من الاستعباد، وليس المراد بتكليفهم أن يذهبوا معهما إلى بلد آخر ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي بإبقائهم على ما كانوا من العذاب، فإنهم كانوا في أيدي القبط، يستخدمونهم في الأعمال الشاقة، ويقتلون ذكور أولادهم، ويستخدمون نساءهم ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة، أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ المستتبع لسلامة الدارين ﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ بتصديق آيات الله تعالى، الهادية إلى الحق، وليس المراد منه «سلام التحية» بل معناه السلامة على من أسلم واتبع الحق، وفيه ترغيب في اتباعهما على ألطف وجه.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ من جهة ربنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ الدنيوي والأخروي ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بآيات الله وبالرسل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض عن قبولها، وفيه من التلطف في الوعيد ما لا يخفى، حيث لم يصرح بحلول العذاب به.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي فرعون بعدما أتياه وبلّغاه ما أُمرا به ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟ لم يضف الرب إلى نفسه لغاية عتوه، بل أضافه إليهما، لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل، بأن قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِين﴾ كما وقع في سورة الشعراء، والفاء لترتيب السؤال على ما سبق، أي إذا كنتما رسولَيْ ربكما، فأخبراني من ربكما؟ وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما، لما أنه الأصل في الرسالة، وهارون وزيره.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مجيباً له ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾ لم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط، حسبما أراد اللعين، بل جميع المخلوقات، أي أعطاه صورته وشكله اللائق، بما نيط به من الخواص والمنافع، فخلق اليدَ للبطش، والرِّجلَ للمشي، واللسانَ للنطق، والعين للنظر، والأذنَ للسمع، ونحو ذلك، واستدل عليه السلام على إثبات الصانع، بأحوال المخلوقات، فإنه تعالى خلق الخلق، وأتقن الصنعة، حيث أعطى مخلوقاته كل شيء تحتاج هي إليه ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أي هداه إلى طريق الانتفاع بما أعطاه، وعرَّفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله، إما اختيارياً كما في الحيوانات، أو طبعاً كما في الجمادات والنباتات، ولما كان الخلق متقدماً على الهداية، وسّط بينهما كلمة التراخي ﴿ ثُمَّ ﴾ ولقد ساق عليه السلام جوابه على نمط رائق، وأسلوب لائق، حيث بيّن أنه تعالى عالم، قادر بالذات، خالق لجميع الأشياء، منعم عليها بجميع ما يليق بها، بطريق التفضل، ولذلك بهت الذي كفر، وخاف أن يظهر للناس حقيقة مقالاته، فأراد أن يصرفه إلى ما لا يَعْنيه بطريق المغالطة.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ القرون الماضية، والأمم الخالية، وما جرى عليهم من الحوادثِ مما لا دخل له بمنصب الرسالة، فلم يلتفت موسى عليه السلام، إلى ذلك الحديث، بل قال:

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ لأنه من الغيوب التي لا يعلمها إلاَّ الله تعالى، لا أعلم منها إلا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت به ﴿ فِى كِتَٰبٍ ۖ ﴾

أي مثبت في اللوح المحفوظ بتفاصيله ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يخطىء ابتداء، ولا يذهب عليه بقاء، بل هو ثابت أبداً في اللوح المحفوظ وليس لحاجته تعالى في العلم به إليه.

ولقد أجاب عليه السلام بجوابٍ عبقري بديع، حيث كشف حقيقة الحق، مع أنه لم يخرج عما كان بصدده، من بيان شؤونه تعالى، ثم تخلَّص إليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله تعالى، ما يثبت الألوهية والربوبية فقال:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣)﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي جعلها كالمهد تمتهدونها، وتستقرون عليها، وهو مصدر سمي به المفعول، أي جعل كل موضع مهداً لكل واحد منكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طريقاً بين الجبال، والأودية، والبراري، تسلكونها من قطر إلى قطر، لتقضوا منها مآربكم، وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي أنزل لكم من السماء المطر عذبا فراتاً، أحيا به العباد والبلاد ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ أي فأخرجنا بهذا المطر الذي أنزلناه من السماء، وإنما التفت إلى التكلم، للتنبيه على ما فيه، من الدلالة على كمال القدرة، والحكمة، والإيذان بأنه لا يتأدىٰ إلا من قادرٍ، مُطاعٍ، عظيم الشأن، تنقاد لأمره الأشياء ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي أصنافاً، سُميت بذلك لازدواجها، واقتران بعضها ببعض ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ أي أنواعاً من النباتات المختلفة في أشكالها وأنواعها ﴿شَتَّىٰ﴾ أي متفرقة يعني أنها مختلفة في الطعم، والشكل، والرائحة، والنفع.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ (٥٤)﴾.

﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول، أي فأخرجنا منه أصناف النباتات، قائلين: كلوا وارعوا أنعامكم، آذنين بذلك لكم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي في شؤونه تعالى وأفعاله ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ التنكير للتفخيم، أي لآيات كثيرة جليلة، واضحة الدلالة، على شؤون الله تعالى: ﴿ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾ جمع نُهْية[1]، سُمّي به العقلُ، لعقله ونهيه عن اتباع الباطل، وتخصيص كونها آيات بهم، باعتبار أنهم المنتفعون بها.

﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) ﴾.

﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام وقيل: خلقنا أبدانكم من النطفة، المتولدة من الأغذية الحاصلة من الأرض بوسائط ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء، وإيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للدلالة على الاستقرار فيها ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة ورد الأرواح إليها.

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ﴾ حكاية إجمالية لما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعون، وتصديرُها بالقَسَم لإبراز كمال العناية بها، وتفخيم شأنها، أي وبالله لقد أبصرنا فرعون ﴿ آيَاتِنَا ﴾ حين قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ كما أظهر له أموراً أخرى ﴿ كُلَّهَا ﴾ أي أريناه جميع الآيات بحيث لم يبق له في ذلك عذر ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ فرعونُ موسى عليه السلام، بعد ما شاهد الآيات، جوراً وعناداً ﴿ وَأَبَىٰ ﴾ من الإيمان والطاعة.

---

(١) النّهيةُ: العقلُ جمعها نُهَىٰ مثل مُدْية ومُدَىٰ.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا ﴾ الهمزة لإنكار الواقع، والمجيء لدعوتنا إلى ربك أي أجئتنا بعدما غبتَ عنا، وأقبلت علينا ﴿ لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ من مصر ﴿ بِسِحْرِكَ ﴾ بما أظهرته من السحر ﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾ وهذا دليل على أنه خاف منه عليه السلام، وإنما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام، بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني اسرائيل، بل إخراج القبط من وطنهم، وحيازة أموالهم وأملاكهم، حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد، ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة، وسمى ما أظهره من المعجزات «سحراً» لتجسيرهم على المقابلة، ثم ادَّعى أنه يعارضه بمثل ما أتى به عليه السلام، فقال:

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ اللام جواب القسم كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فوالله لنأتينَّك بسحرٍ مثل سحرك ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي وعداً ﴿ لَّا نُخْلِفُهُۥ ﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد ﴿ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ ﴾ وإنما فوّض اللعينُ أمر الوعد إلى موسى عليه السلام، للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب، وضيق المجال، ولإظهار الجلادة ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ بالضم أي وسطاً بيننا وبينك، وهو من الاستواء، لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية، أي مكاناً وسطاً مستوياً، حتى يشاهده كلُّ الحاضرين[1].

(١) هذا ما اختاره الإمام ابن جرير الطبري، أن المراد بقوله تعالى: ﴿مكاناً سُوى﴾ أي مكاناً وسطاً تستوي مسافته على الفريقين، واختار ابن كثير أن معنى: ﴿مكاناً سُوى﴾ أي بمكان معيَّن، ووقتٍ معيَّن.

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ أي موعدنا للاجتماع في يوم العيد، وكان يوم عيد لهم، يزينون فيه الأحياء والدور، وهو يوم النيروز، وإنما عيَّنه ليظهر الحق، ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيع ذلك بين الناس، لأنه عليه السلام كان على ثقة من أمره، وعدم مبالاته بهم ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ﴾ وإنما قال يحشر فإنهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم ﴿ ضُحًى ﴾ أي وقت الضحوة، ليكون أبعد من الريبة، وأبين لكشف الحق.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ ﴾ أي انصرف عن المجلس ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ﴾ أي ما يكيد به من السحرة، وكانوا أربعمائة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ أي الموعد ومعه ما جمعه من كيده، وفي كلمة التراخي، ﴿ ثُمَّ ﴾ إيماءٌ إلى أنه لم يسارع إليه، بل بعد تلعثم.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ أي قال لهم بطريق النصيحة ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأن تدَّعوا آيات الله تعالى سحراً، كما فعل فرعون ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ فيهلككم بسببه ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ أي هائل ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله، كائناً من كان، أو وقد خاب فرعون المفتري، فلا تكونوا مثله في الخيبة، وفيه تعريض بفرعون الجبار، المدعي للألوهية، والمفتري على الله.

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ ﴾ أي السحرة حين سمعوا كلامه فتنازعوا ﴿ أَمۡرَهُم ﴾ الذي أريد منهم، من مغالبته عليه السلام، وتشاوروا ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾ في كيفية المعارضة ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾ أي من موسى عليه السلام، وكان نجواهم ما نطق به قوله تعالى:

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض سراً ﴿ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ تفسير لنتيجة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم ﴾ أي أرض مصر بالاستيلاء عليها ﴿ بِسِحۡرِهِمَا ﴾ أي أن يغلبا عليكم بطريق السحر، وكأن السحرة تلقَّفوا هذه من فرعون ﴿ وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾ أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب، بإظهار دينهما عليكم، يريدون به ما كان عليه قوم فرعون، ويسمونه ديناً لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّل دِينكُمْ﴾، «والمثلى» تأنيث الأمثل وهو الأفضل.

﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ﴾ تصريح بالمطلوب أي إذا كان الأمر كذلك، فأزمعوا كيدكم، واجعلوه مجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف واحد منكم ﴿ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ ﴾ أمروا بذلك لأنه أهيب في صدور الرائين ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ أي قد فاز بالمطلوب من غلب، قالوه حثاً لهم على بذل المجهود في المغالبة، للانتصار على موسى.

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ الفاء فصيحة، معربة عن مسارعتهم إلى الإلقاء، أي فألقوا فإذا حبالهم تتحرك وتسعى على بطونها، حتى يظنها موسى من عظمة السحر، أنها حيات تسعى، وإنما خيَّروه ببدئهم أو بدئه، لثقتهم بالغلبة عليه، لأنهم كانوا قد بَرَعُوا ومَهَروا في السحر.

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ الإيجاس: استشعارُ الخوف، أي وجد في نفسه خوفاً، بمقتضى الطبيعة البشرية، المجبولة على النفرة من الحيات.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾ أي لا تخف مما توهمت ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي فإنك أنت المنتصر الغالب.

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ أي ألق عصاك التي بيمينك، وإنما أوثر الإبهام تهويلاً لأمرها، وتفخيماً لشأنها، وإيذاناً بأنها ليست من جنس العصيّ المعهودة ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ﴾ بالجزم جواباً للأمر أي تبتلع ما صنعوه من السحر، من لَقِفه إذا ابتلعه بسرعة، والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير،

والعربُ تقول في الكذب: هو كلام مصنوع ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ أي إنما افتعلوه هو من باب الشعوذة والسحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس، لأن السحر صنعة خسيسة ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي حيث كان، وأين أقبل.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ أي فخروا سجداً لله رب العالمين حين رأوا تلك الآية الباهرة، وأشهروا إيمانهم بالله.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١)﴾.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي قبل أن أسمح لكم ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ في فنكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم، فلذلك غلبكم، فهذه شبهةٌ زوَّرها اللعين، وألقاها على قومه، لمَّا اعتراه الخوف من اقتداء الناس بالسحرة في الإيمان، ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي عليها، وإيثار كلمة «في» للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ﴾ يريد فرعون نفسه، وربَّ موسى الذي آمنوا به ﴿عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي أدوم، فإن قيل: إن فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية، كيف يعقل أن يهدد السحرة؟ قلنا: إنه كان في أشد الخوف في قلبه، إلا أنه كان يظهر تلك الجلادة تمشية لملكه، وترويجاً لأمره، فإن كثيراً من العجزة، قد يفعل أمثال هذه التهديدات الفارغة.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢)﴾.

﴿ قَالُواْ﴾ غير مكترثين بوعيده ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك ﴿ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ من الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿ مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من المعجزات الظاهرة، فإن ما ظهر من العصا، كان مشتملاً على معجزات جمة، فإنهم عارفون بجلائلها ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي لن نؤثرك وحقِّ الذي فطرنا، وهو قسم بعزة الله وجلاله ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ جواب عن تهديده أي فاصنع ما أنت صانعه بنا ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى﴾ تعليل لعدم المبالاة بوعيده، أي إنما ينفذ حكمك في ﴿ هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ أي إنما تصنع ما تهواه في هذه الحياة الدنيا فحسب، وهي فانية زائلة، ورغبتنا في النعيم الدائم.

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣)﴾.

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها من الكفر والمعاصي، ولا يؤاخذنا بها في الدار الآخرة ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه، بإكراهك لنا، وحشرنا من المدائن القاصية ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي في حد ذاته ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي جزاءً وثواباً، وهذا جواب لقوله ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤)﴾.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ بأن مات على الكفر أو المعاصي ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فينتهي عذابه ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة ينتفع بها.

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥)﴾.

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ به تعالى، وبما جاء من عنده من المعجزات ﴿ قَدْ

﴿عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في الدنيا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون الصالحات ﴿لَهُمُ﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ أي المنازل الرفيعة، وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان، المجرد عن العمل الصالح، في استتباع الثواب، لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة، هو الفوز بالدرجات العلى، لا بالثواب مطلقاً، وهل التَّشاجرُ إلا فيه، فسائر الدرجات لا بد أن تكون لغيرهم من أهل الإيمان.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدل من الدرجات ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أي ماكثين في الجنان على الدوام ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما أوتي لهم ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهَّر من دنس الكفر والمعاصي، بالإيمان والأعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى، وقيل: هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ طوى في البين ذكر ما جرى عليهم، من الآيات الظاهرة على يد موسى عليه السلام، بعد ما غلب السحرة في نحو من عشرين سنة، حسبما فصّل في سورة الأعراف ﴿أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ والتعبير عنهم بكونهم عباداً له تعالى، لإظهار الرحمة، والاعتناء بأمرهم، أي وبالله لقد أوحينا إليه أن أسر بعبادي من مصر ليلاً ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ﴾ أي فاتخذ لهم ﴿طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ أي يابساً مصدر وصف به الفاعل للمبالغة، أي يابساً ليس فيه ماء ولا طين ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ أي آمنا من أن

يدرككم العدو ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ الغرق، وتقديم نفي الخوف، للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه، حيث قالوا إنَّا لمدركون[1] .

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ .

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي تبعهم بجنوده، روي أن موسى خرج بهم أول الليلة، فأخبر فرعونُ بذلك، فأتبعهم بعساكره، فلحقهم بحيث تراءى الجمعان، وقال بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فعند ذلك ضرب عليه السلام بعصاه البحر، فانفلق على اثني عشر فرقاً، كالطود العظيم، فَعَبر موسى بمن معه سالمين، وتَبِعهم فرعون مع جنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي علاهم منه وغمرهم ما غمرهم، من الأمر الهائل الذي لا يقادر قدرُه، وهو من جوامع الكلم.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ .

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ أي سلك بهم مسلكاً أدَّاهم إلى الخيبة والخسران، في الدين والدنيا ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي وما أرشدهم قط، ولا هداهم إلى خير ولا نجاة، وفيه تهكم بفرعون في قوله الفاجر: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ فإن قيل: كيف اختار فرعون إلقاء نفسه وعسكره إلى التهلكة؟ قيل: إن جبريل عليه السلام كان على فرس، فتبعه فرس فرعون، وهذا بعيدٌ لأن المَلك لا يخوض في أمثال هذه المواضع، بل الأولى أن يُقال: غلب على ظنه السلامة، فأمر بالدخول في البحر.

---

(١) فإن قيل: الخوف والخشية مترادفان، فلماذا غاير بينهما؟ فالجواب: إن ذلك للبلاغة، ولمراعاة رؤوس الآيات.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ ﴾.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ حكاية لما خاطبهم الله تعالى به، بعد إغراق فرعون وقومه وإنجائهم منهم، وإفاضة فنون النعم الدينية والدنيوية عليهم أي قلنا يا بني إسرائيل ﴿ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ ﴾ فرعون وقومه ﴿ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ ﴾ أي واعدناكم بواسطة نبيكم، إتيان جانبه الأيمن لمناجاة موسى، وإنزال التوراة عليه، وإنما نسبت المواعدة إليهم وهي لموسى، نظراً إلى سراية منافعها إليهم ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾ وقلنا لهم.

﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١ ﴾.

﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ وفي البدء بنعمة الإنجاء، ثم بالنعمة الدينية، ثم بالنعمة الدنيوية، من حسن النظم، ولطف الترتيب، ما لا يخفى ﴿ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، والتعدي لما حدَّ الله لكم فيه ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ ﴾ أي فيلزمكم عذابي، ويحلُّ عليكم سخطي ﴿ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾ أي تردَّىٰ وهلك وشقى الشقاء الدائم.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢ ﴾.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ ﴾ من الشرك والطغيان ﴿ وَءَامَنَ ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ أي عملاً مستقيماً موافقاً للشرع والعقل ﴿ ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ أي استقام على الهدى، وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان، وحثٌّ له على التوبة والإيمان، وإشارة إلى أن من لم يستقم على الهدى، فهو بمعزلٍ من الغفران، ويؤكده قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾

والتوبة، والإيمانُ، والعملُ الصالح، قد يتفق لكل أحد، ولا صعوبة في ذلك، إنما الصعوبة في المداومة عليه.

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى من الكلام، عند ابتداء موافاته الميقات، بموجب المواعدة المذكورة أي وقلنا له: أي شيء أعجلك منفرداً عن قومك؟ أي عن السبعين الذين اختارهم، وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء، لما في ذلك من إغفالهم وعدم الاعتداد بهم، مع كونه مأموراً باستصحابهم ولذلك أجاب عليه السلام، بنفي الانفراد المنافي للاستصحاب، حيث قال:

﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾ يعني أنهم معي وخلفي، يلحقون بي، وليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ أي وتعجلت إلى الموضع الذي أمرتني به، لترضى عني بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك، والعجلة مذمومة إلا أنها ممدوحة في الدين، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وفيه دليل على جواز الاجتهاد.

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ ﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل، من بعد ذهابك من بينهم، وهم الذين خلَّفهم مع هارون عليه السلام ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ باتخاذ العجل، والدعاء إلى عبادته، وهو منسوب إلى قبيلة يقال لها السامرة، وكان منافقاً قد أظهر الإسلام، وبنو إسرائيل كانوا ستمائة ألف، وما نجا من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً.

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ ﴾ بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ ﴾ أي شديد الغضب عليهم ﴿ أَسِفًاۚ ﴾ أي حزيناً بما فعلوا ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ ﴾؟ بأن يُعطيكم التوراة فيها هدى ونور ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾؟ أي زمان الإنجاز فأخطأتم بسببه؟ ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؟ من مالك أمركم على الإطلاق، ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ أي وعدي بالثبات على ما أمرتكم به، إلى أن أرجع من الميقات.

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾ أي ما أخلفنا وعدنا إياك ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ أي بإرادتنا واختيارنا بأن ملكنا أمورنا، يعنون أنا لو خُلِّينا وأمورنا، ولم يسوّل لنا السامريُّ ما سوّله لما أخلفناه، فقد كنا مكرَهين، والمرء إذا وقع في فتنة لم يملك نفسه ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ ﴾ اعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ ﴿ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي حُمِّلنا أحمالاً من حُليّ القبط، التي استعرناها منهم، حين هممنا بالخروج من مصر، وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم، ثم لم يردوها عند الخروج، ولعل تسميتهم لها أوزاراً، لأنها آثام وتبعات، لأنهم كانوا في حكم المستأمنين، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، على أن الغنائم لم تكن تحلُّ حينئذٍ ﴿ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ أي في النار رجاء، للخلاص عن ذنبها ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ أي ما كان منها معه، روي أنهم لما حسبوا أن العدة قد كملت، قال لهم السامري: إنما أخلف

موسى ميعادكم لما معكم من حليّ القوم، وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفرة، ونسجر فيها ناراً، ونقذف كلَّ ما معنا فيها ففعلوا.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي السامري ﴿لَهُمْ﴾ أي للقائلين ﴿عِجْلًا﴾ من تلك الحلي المذابة ﴿جَسَدًا﴾ من ذهب لا روح له ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي صوت عجل، لأنه جعل فيه منافذ ومخاريق، بحيث إذا دخل فيه الريح، صوَّت كصوت العجل ﴿فَقَالُواْ﴾ يعني السامري ومن افتُتن به أول ما رآه ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي غفل عنه، وذهب يطلبه في الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامري من جهته تعالى قصداً إلى زيادة تقريرها، لا من جهة القائلين، وإلا لقيل فأخرج لنا.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ إنكار وتقبيح، من جهته تعالى، لحال الضالين والمضلين جميعاً، فيما أقاموا عليه من المنكر، الذي لا يشتبه بطلانه على أحد، والفاء للعطف على مقدر، أي ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي كلاماً، ولا يردّ عليهم جواباً، فكيف يتوهمون أنه إله؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً، أو يجلب لهم نفعاً؟ فإن قيل: كيف يعقل رجوع ستمائة ألف إنسان عن دين الحق دفعة، إلى عبادة العجل، الذي يُعرف فساده بالضرورة، ثم إن مثل هذا الجمع رجعوا برؤية موسى عليه السلام وحده؟ قلت: هذا غير ممتنع في حقّ البُله من الناس، وهؤلاء لا يعرفون الدين، وإنما أفكارهم وآمالهم منحصرة في المنفعة الدنيوية، فإنهم رأوا انقلاب العصا ثعباناً، والتقم كل ما جَمَعه السحرة، ثم عاد عصا، ورأوا اعتراف السحرة بأن

ذلك ليس بسحر، ورأوا الآيات التسع مدة مديدة، ثم انفلاق البحر، ثم أنجاهم الله من الغرق، وأهلك أعداءهم، ثم إن هؤلاء لما خرجوا من البحر، رأوا قوماً يعبدون البقر، قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُم آلِهةٌ﴾ قال بعض اليهود لعلي رضي الله عنه: ما دفنتم نبيَّكم حتى اختلفتم؟ فقال: «اختلفنا عنه، وما اختلفنا فيه، وأنتم ما جفَّتْ أقدامكم من ماء البحر، حتى قلتم لنبيكم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾» وذلك يدل على شكهم وضلالهم في الدين.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ ﴾ جملة قسمية، مؤكدة لما قبلها من الإنكار، ببيان عتوّهم، واستعصائهم على الرسول، إثر بيان مكابرتهم لقضية العقول، أي وبالله لقد نصح هارون نبيهم، على كنه الأمر وحذَّرهم من ضلال السامري ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم وقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ أي قال لهم يا قوم إنما ابتليتم بالعجل وفتنكم به السامري، فألقى بكم في الفتنة لا الإرشاد ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ لا العجل، فاقتدُوا بي وأطيعوا أمري، إرشاد لهم على الحق، إثر زجرهم عن الباطل، والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ أي فاتبعوني في الثبات على الدين ﴿ وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴾ هذا واتركوا عبادة العجل، وإنما قال هارون عليه السلام ذلك، لأنه كان مأموراً بالنهي عن المنكر، فقابلوا هذه النصيحة بالسَّفه.

﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ ﴾ أي على العجل وعبادته ﴿ عَٰكِفِينَ ﴾ أي مقيمين ملازمين ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ جعلوا رجوعه غاية لعكوفهم بطريق

التسويف، ولما قالوه اعتزلهم هارون مع الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى سمع الصياح والجَلَبة، وكانوا يرقصون حول العجل، فقال للسبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون، أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله.

﴿ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ﴾ وهو مغتاظ ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ بعبادة العجل.

﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ﴾ أي أيَّ شيءٍ منعك، حين رأيتَ ضلالهم، من أن تتبعني، في الغضب لله تعالى، ومقاتلة من كفر به؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾؟ بالصلابة في الدين، وبالقيام لمصالحهم.

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ خصَّ الإضافة بالأم، استعطافاً وترقيقاً لقلبه، أي يا أخي ويا بن أمي ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ﴾ أي ولا بشعر رأسي، وكان موسى عليه السلام شديداً، متصلباً في كل شيء، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل، ففعل ما فعل ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ أي إني خفتُ إن زجرتهم بالقوة، أن يقع قتال بينهم، فيسفكوا الدماء ويقتل بعضهم بعضاً وكما خشيت لو قاتلتُ بعضهم ببعض، وتفرَّقوا ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أشعلت الفتنة بينهم، وأراد عليه السلام بالتفريق، ما يستتبعه القتال من التفريق بين صفوف بني إسرائيل، وتمزيق وحدتهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ أي وتقول: لم تنتظر أمري فيهم، يعني إني رأيتُ أن الإصلاح في حفظ الدماء، والمداراة معهم، إلى أن ترجع إليهم، لتكون أنت المتدارك للأمر،

لا سيما وقد كانوا في القوة، ونحن على القلة، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ وفيه دليل على جواز الاجتهاد، فلمَّا فرغ من مخاطبة هارون، وعرف العذر، أقبل على السامري.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾؟ أي ما مطلوبك مما فعلت؟ وما الذي حملك على ذلك؟ خاطبه بذلك، ليظهر للناس بطلانَ كيده، باعترافه.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي السامري مجيباً له ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي رأيت ما لم يره القوم ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ القبضةُ: المرَّةُ من القبض، أي قبضت حفنةً من التراب، من أثر فرس جبريل، فطرحتها على العجل فكان له خوار. وعامة المفسرين قالوا: المراد بالرسول «جبريل» عليه السلام، وروي أنه كان رأى أن جبريل عليه السلام، جاء راكباً فرساً، إلى موسى، ليذهب به إلى الطور، وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجليه، يخرج من تحته النبات، فعرف أن له شأناً، فأخذ من موطىء قدم الفرس، حفنةً من التراب ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي في الحلي المذابة، فكان ما كان ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أي زينته وحسَّنته لي نفسي، فاتبعت هواي، لا لشيء آخر من البرهان العقلي، أو الإلهام الإلهي.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للسامري ﴿فَٱذْهَبْ﴾ أي من بين الناس ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي ثابت لك في الحياة ما عشت، عقوبةً على ما فعلت ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي لا يمسُّني أحد ولا أمسُّه، وذلك أنه تعالى، رماه بداءٍ عقام، لا يكاد يمسُّ أحداً، أو يمسه إلاَّ حمَّ من ساعته، حمى شديدةً، وكان يصيح بأقصى طوقه: لا مساس وحُرِم من المكالمة والمعاملة مع الناس، وصار أوحش من القاتل، ومن الوحش النافر ولعلَّ السر بتلك العقوبة، أنه لما أنشأ الفتنة، لجمع الناس عليها، وإبعادهم عن دين الله، عوقب بما يضاده، من العزلة عن الناس، وقال مقاتل: إن موسى عليه السلام قال له: اخرج أنت وأهلك، فخرج طريداً إلى البراري، وهذا أحسن وأقرب إلى النظم ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي في الآخرة ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي لن يخلفك الله ذلك الوعد ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي دمت على عبادته مقيماً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ جواب قسم محذوف أي بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي لنذرينه رماداً ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي في البحر كأنه هباء ﴿نَسْفًا﴾ بحيث لا يبقى منه عينٌ، ولا أثر، ولقد فعل ذلك كلَّه، كما يشهد به الأمر بالنظر، وإنما لم يصرح به، تنبيهاً على كمال ظهوره، واستحالة الخلف في الوعد، المؤكد باليمين، فلمَّا فرغ عليه السلام من أمر العجل، رجع إلى بيان الدين الحق، فقال مخاطباً لبني إسرائيل:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ المستحقُّ للعبادة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده من غير أن يشاركه شيء من الأشياء، بوجه من الوجوه، ولا يدانيه في كمال العلم والقدرة ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي وسع علمه كل ما من شأنه أن يُعلم وبه تم حديث موسى عليه السلام.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ ﴾ إشارة إلى حديث موسى، أي مثل ذلك الاقتصاص البديع نقصُّ عليك ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾ من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية، تبصرة لك، وزيادة في علمك، وتذكيراً للمستبصرين من أمتك ﴿ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾ أي كتاباً مذكّراً، منطوياً على هذه الأقاصيص والأخبار، حقيقاً بالتفكر والاعتبار، وتنكيرُ ﴿ذِكۡرٗا﴾ للتفخيم.

﴿ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ﴾ عن ذلك الذكر العظيم، المستتبع لسعادة الدارين، وأعرض عن الله عز وجل ﴿ فَإِنَّهُۥ﴾ أي المعرض عنه ﴿ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾ أي عقوبة ثقيلة فادحة، على كفره وذنوبه، سماها ﴿وزراً﴾ تشبيهاً في ثقلها على المعاقب، بالحمل الذي يُفدح الحامل، وينقض ظهره.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ ﴾ أي خالدين في ذلك العذاب، بسبب الوزر الذي حملوه ﴿ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ أي بئس لهم حملاً وزرهم.

﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ بدل من يوم القيامة ﴿ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم يُنفخ في الصور ﴿زُرۡقٗا﴾ أي حال كونهم زرق العيون وسود الوجوه، وإنما جُعلوا كذلك، لأن الزرقة أسوأ ألوان العيون وأبغضها إلى العرب، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسودُ الكبد، وأزرق العين.

﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ الخفت: خفض الصوت وإخفاؤه، أي يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة، لما يملأ صدورهم من الرعب والهول ﴿ إِن لَّبِثۡتُمۡ ﴾ أي ما لبثتم ﴿ إِلَّا عَشۡرٗا ﴾ أي عشر ليال في الدنيا، استقصاراً لمدة لبثهم فيها، لمَّا عاينوا الشدائد.

﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ وهو مدة لبثهم ﴿ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً ﴾ أي أعدلهم رأياً ﴿ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴾ ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لكونه أدل على شدة الهول.

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ ﴾ أي يسألونك عن مآل أمرها يوم القيامة وقيل: لم يُسأل وتقديره: إن سألوك، ولذا قُرن بالفاء ﴿ فَقُلۡ ﴾ لهم ﴿ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴾ يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها، والفاء للمسارعة إلى إلزام السائلين.

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أي يدعها ﴿ قَاعٗا ﴾ خالياً ﴿ صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ ﴾ مستوياً كأنها على صف واحد والقاع: المستوي من الأرض.

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا ﴾ أي في الأرض، والخطاب لكل أحد ﴿ عِوَجٗا ﴾ أي اعوجاج ما ﴿ وَلَآ أَمۡتٗا ﴾ أي ارتفاعاً، والأمتُ المكان المرتفع، وقيل: النتوء اليسير.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ نسفت الجبال ﴿ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ ﴾ أي يتبع الناس الداعي إلى المحشر، وهو إسرافيل عليه السلام، يدعو الناس عند النفخة الثانية، ويقول: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، قومي إلى عرض الرحمن، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه بل يستوون إليه ﴿ وَخَشَعَتِ ﴾ أي خضعت ﴿ ٱلْأَصْوَاتُ ﴾ هيبة ﴿ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ أي لا تسمع إلاَّ صوتاً خفياً والهمس: أخفى الصوت.

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ من الشفعاء أحداً ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أن يشفع له ﴿ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ أي ورضي قول الشافع في شأنه، وأما ما عداه فلا تكاد تنفعه، وإن فُرض صدورها عن الشفعاء فكأنه قال تعالى: لا تنفع الشفاعة أحداً من الخلق، إلا شخصاً مرضياً.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جلَّ وعلا.

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ أي ذلَّتْ وخضعتْ خضوع العُناة ـ وهم الأسارى ـ في يد الملك القهار، وجوه الخلائق جميعاً للواحد القهار،

وقيل: وجوه الكفار، كقوله تعالى: ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الذينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ قال ابن عباس: أي من أشرك، وقيل: على العموم.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي بعضاً من الصالحات ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فالإيمان شرط في صحة الطاعات، والحسنات ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أيّ منع ثواب مستحق بموجب الوعد ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا كسراً منه بنقص، وأصل الهضم: النقصُ والكسر، هضمه هضماً كسره، وهضم حقه نقصه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن كله على هذه الوتيرة، وإضماره من غير سبق ذكره، للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزاً في العقول ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يفهمه العرب، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز، الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي كررنا فيه بعض الوعيد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي اتعاظاً واعتباراً، مؤدياً إلى الاتقاء.

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظام له تعالى، ولشؤونه التي يصرف عليها عباده، من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، أي ارتفع بذاته، وتنزّه عن مماثلة المخلوقين، في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿ ٱلْمَلِكُ ﴾ النافذ أمره ونهيه،

الحقيق بأن يُرجى وعده ويُخشى وعيده ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾ في ملكوته وألوهيته ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ أي يتم، وقد كان ﷺ إذا ألقى إليه جبريل عليه السلام الوحي، يتبعه عند تلفظ كل كلمة، لكمال اعتنائه بالتلقي والحفظ، فنُهي عن ذلك، وأُمر باستفاضة العلم، واستزادته منه تعالى، فقيل ﴿وَقُل﴾ أي في نفسك ﴿رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ أي سل الله عزَّ وجل زيادةَ العلم، فإنه الموصل إلى طلبتك، دون الاستعجال عند تلاوة الوحي.

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾.

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ كلام مستأنف لبيان أن أساس بني آدم على العصيان، وعرقه راسخ في النسيان، والمعهود محذوف، يدل عليه ما بعده، واللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أمرناه ووصيناه، وأوحينا إليه، بأن لا يأكل من الشجرة ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل هذا الزمان ﴿فَنَسِيَ﴾ أي نسي العهد، ولم يعتن به، حتى غفل عنه، أي فأنساه الشيطان ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ أي ثبات قدم في الأمور، إذ لو كان كذلك، لما أزلَّه الشيطان، وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره، من قبل أن يُجرِّب الأمور، وقيل: ﴿عزماً﴾ أي على الذنب، فإنه أخطأ فيكون إلى المدح أقرب.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦﴾.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي امتنع وتكبّر.

﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾.

﴿ فَقُلْنَا ﴾ عقيب ذلك، تحذيراً من كيد اللعين: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الذي رأيت ما فعل ﴿ عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ أي لا يكونَنَّ سبباً لإخراجكما ﴿ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما منها بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها ﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ جواب للنهي، أي فتشقيان وإسناد الشقاء إليه خاصة، بعد تعليق الإخراج بهما معاً، لأصالته في الأمور، واستلزام شقائه شقاءها مع ما فيه من مراعاة الفواصل، وقيل: المراد بالشقاء: التعبُ في طلب المعاش، وذلك من وظائف الرجال. ويؤيده قوله تعالى:

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[1] أي إن لك يا آدم في الجنة ألاَّ ينالك ألم الجوع والعري، وألا يصيبك فيها العطشُ ولا حرُّ الشمس، لأن الجنة دار الحبور والسرور، وهو تعليلٌ لموجب النهي، فإن اجتماع أسباب الراحة فيها، ونفي نقائضها، التي هي الجوعُ، والعطشُ، والعُريُ، والضَّحْوُ أي الإبراز للشمس، للتذكير بتلك الأمور الجليلة في الجنة، والبعد عن أنواع الشقوة، التي حذَّره منها، ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدي إليها.

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

---

(١) هذه الآية الكريمة من أظهر الدلائل، وأوضح الوجوه على أن الجنة التي أخرج منها آدم هي «جنة الخلد» وليست جنة في الدنيا، فإن وصفها بعدم الجوع، والعطش، والعُري وعدم حر الشمس، لا يكون إلا في جنة الخلد في السماء.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي أنهى إليه وسوسته، أو أسرَّها إليه ﴿قَالَ﴾ في وسوسته ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾؟ أي شجرة من أكل منها خُلِّد ولم يمت أصلاً ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه، فالذي رغب الله فيه آدم، رغَّبه إبليس فيه.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي عريا من الثياب التي كانت عليهما، حتى ظهرت عورتهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي أخذا يلزقان الورق على سوآتهما للتستر، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ أي ضلَّ عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو، وفي وصفه عليه السلام بالعصيان، والغواية، مع صغر زلته، تعظيم لها، وزجر لأولاده عن أمثالها، كأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا بزلة أبيكم التي أخرجته من الجنة، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر، فضلاً عن الكبائر قال ابن قتيبة: يجوز أن يُقال: عصى آدم، ولا يجوز أن نقول: آدم عاص، لأنه إنما يقال لمن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخيط ثوبه يقال: خاط ثوبَه، ولا يقال هو خياط، حتى يعاود ذلك مراراً ويعتاده، ومعلوم أن هذه الزلة لم تصدر عنه عليه السلام إلاَّ مرةً واحدة، وإنما وقعت قبل النبوة، فلم يجز بعد أن قَبِلَ الله توبتَه، وشرَّفه الله تعالى بالنبوة هذا الاسم عليه، كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر إنه كافر[1].

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

---

(١) هذا وجه بديع في التوجيه لمعصية آدم، وانظر كتابنا: «النبوة والأنبياء» فقد وضحنا بالتفصيل المسألة، وبينا الوجوه الشرعية في بحث «عصمة الأنبياء».

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اصطفاه وقربه إليه بالحمل على التوبة، وفي التعرض لعنوان الربوبية تشريف له ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي قَبِلَ توبتَه حين تاب ﴿وَهَدَىٰ﴾ أي وهداه إلى الثبات على التوبة، والتمسك بأسباب العصمة.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ أي قال الله تعالى لآدم وحواء بعد صدور الزلة: انزلا من الجنة إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي بعض أولادكم عدو لبعض في أمر المعاش والكسب، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، والجمعُ لما أنهما أصل الذرية ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة، فإن قيل: المتبع لهدى الله، قد يلحقه الشقاء في الدنيا؟ قلنا: المراد لا يضل في الدين، فإن حصل الشقاء بسبب آخر فلا مانع منه وفيه الأجر.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي أعرض عن الهدى والإيمان، واتباع الرسل الكرام ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ في الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقاً، وذلك لأنه تعالى يسلب عنه القناعة، والتوكل، فتكون همته مقصورة، على أعراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها، وخائف من انتقاصها، فعيشته ضنكٌ وحالته مظلمة، بخلاف المؤمن القانع، المتوكل، فإنه يعيش عيشاً طيباً، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ مع أنه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر، كما قال الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ الآية، ويوسع ببركة الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم

بَرَكاتٍ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ﴾[1] وقيل هو عذاب القبر ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي أعمى البصر لأنه تعامىٰ في الدنيا عن آيات الله كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمَّاً﴾.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي في الدنيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك فعلت ثم فسره بقوله: ﴿أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ واضحة نيرة ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ فعميت عنها وتركتها ترك المنسي ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل تركك إياها ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك في العمى والعذاب جزاءً وفاقاً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ بانهماك في الشهوات ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بل كذّب بها وأعرض عنها ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ على الإطلاق ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي أشدُّ من عذاب الدنيا، وأدوم لعدم انقطاعه.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي والمعنى: أفلم يبين لهم مآل

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

أمرهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي كثرة إهلاكنا للقرون الأولى ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي أهلكناهم وهم في حال أمن وتقلب في مساكنهم وديارهم، أو حال كونهم ماشين في مساكنهم، إذا سافروا، مشاهدين لآثار هلاكهم، مع أن ذلك مما يوجب أن يعتبروا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي إن في إهلاك هذه الأمم الباغية، وفي آثار دمارهم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ كثيرة، عظيمة، واضحة ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي لذوي العقول الناهية عن القبائح.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي الوعد بتأخير عذاب هذه الأمة، لحكمة تقتضيه ﴿لَكَانَ﴾ عقاب جناياتهم ﴿لِزَامًا﴾ أي لازماً لهم، بحيث لا يتأخر، واللزام مصدر لازم وصف به مبالغة ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي ولولا أجل مسمى لهلاكهم لما تأخر عذابهم أصلاً، وفَصلُه عما عطف عليه، للمسارعة إلى بيان جواب لولا، ولاستقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب[1].

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فاصبر على ما يقولون من الكفر، والتكذيب ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صل وأنت حامد لربك، الذي يبلغك إلى كمالك، على هدايته وتوفيقه ونزهه عما ينسبونه إليه، مما يليق بشأنه الرفيع، معترفاً أنه مولى النعم كلها ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي في صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة الظهر والعصر، لأنهما قبل غروبها ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي ومن ساعاته، والمراد به

(١) قال الفراء: في الآية تقديم وتأخير والمعنى: ولولا كلمة وأجل مسمًّى لكان لزاماً أي لكان العذاب لازماً لهم، وإنما أخَّره لتعتدل رؤوس الآيات.

المغرب والعشاء، وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل، فإن القلب فيهما أجمع، والنفس إلى الاستراحة أميل، فتكون العبادة فيهما أشق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً﴾ ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أمر بالتطوع في أجزاء النهار ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي سبح في هذه الأوقات، رجاء أن تنال عنده تعالى، ما ترضى به نفسك، ويسر قلبك وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضىٰ﴾ وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ أمر الله تعالى عقيب الصبر بالتسبيح، لأن ذكر الله يفيد السلوة والراحة.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ من زخارف الدنيا ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي أصنافاً من الكفرة ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي زينتها وبهجتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم ونعذبهم في الآخرة بسببه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي ما ادَّخره لك في الآخرة، وما رزقك إيّاه في الدنيا، من النبوة والهدى ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا لأنه أجلُّ، ومأمون الغائلة ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنه لا ينقطع نفسه أو أثره.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أمر ﷺ بأن يأمر أهل بيته بالصلاة بعد ما أمره بها، ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم، ولا يهتموا بأمر المعيشة ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ داوم عليها فإن الوعظ بالفعل، أبلغ من القول ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ

﴿رِزْقًا﴾ أي لا نكلفك أن ترزق أحداً ولا أن ترزق نفسك بل نحن نتكفل برزقك ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وأهلك، ففرّغ بالَكَ لأمر البعثة والآخرة ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي لأهل التقوى وكان النبي ﷺ إذا أصاب أهلَه ضرٌّ، أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية وليس في الآية رخصة في ترك التكسب، لأنه تعالى قال في وصف المتقين ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾.

ثم إنه سبحانه بعد هذه الوصية، حكى عن شبهتهم، فكأنه من تمام قوله تعالى: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾، فقال:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي هلا يأتينا بآية تدل على صدقه في دعوى النبوة، أو بآية مما اقترحوها، بلغوا من المكابرة والعناد، إلى حيث لم يعدّوا ما شاهدوا من المعجزات، التي تخر لها صمم الجبال، من قبيل الآيات، حتى اجترأوا على التفوه بهذه العظيمة ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾؟ من أخبار الأمم، أنهم اقترحوا الآيات، فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها، عجلنا لهم العذاب، وهذا رد من جهته تعالى لمقالتهم، بإتيان القرآن الكريم، الذي هو أم الآيات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة، اختصاص مدعي النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادات ولا ريب في أن العلم أجل الأمور وأعلاها، إذ هو أصل الأعمال، ومبدأ الأفعال، ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين، على يد أمي لم يمارس شيئاً من العلوم، ولم يدارس أحداً أصلاً، فأي معجزة بعد هذا القرآن؟.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها، من كون القرآن بينة لا يمكن إنكارها، ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة، والمعنى لو أنا أهلكناهم في الدنيا ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ مستأصل ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل إتيان البينة أو من قبله ﷺ ﴿ لَقَالُواْ ﴾ يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا ﴾ في الدنيا ﴿ رَسُولًا ﴾ مع كتاب ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾ التي جاءتنا ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ بنزول العذاب ﴿ وَنَخْزَىٰ ﴾ بدخول النار اليوم، ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها، فانقطعت معذرتهم، فعند ذلك قالوا: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيءٍ﴾.

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ أنتم ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عن قريب إذا جاء أمر الله ﴿ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ ﴾ أي المستقيم ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ من الضلالة نحن أم أنتم؟ ليس هو بمعنى الشك والترديد، بل هو على سبيل التهديد، والزجر للكفار، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا ﷺ وجميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة طه».

***



مكية وهي مائة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾.

﴿ اقْتَرَبَ ﴾ أي دنا ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي المشركين، لأن ما بعده من صفاتهم ﴿ حِسَابُهُمْ ﴾ أي وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم، والمراد باقتراب حسابهم اقتراب الساعة ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ تامة منه، ساهون عنه بالمرة، لأنهم منكرون له، مع اقتضاء عقولهم أن الأعمال لا بدَّ لها من الجزاء ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن الآيات والنُّذُر، والتأهب لذلك اليوم.

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾.

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ من طائفة نازلة من القرآن، تذكّرهم ذلك ﴿ مِّن رَّبِّهِم ﴾ صفة لذكر، وفيه دلالة على كمال شناعة ما فعلوا ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي إلا استمعوا القرآن حال كونهم مستهزئين به.

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾.

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ حال أخرى، والمعنى: ما يأتيهم ذكر من ربهم في حال من الأحوال، إلا حال استماعهم إياه، لاعبين مستهزئين به، لاهين عنه، لتناهي غفلتهم، وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور، والتفكر في العواقب ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ النجوى: الكلام سراً، ومعنى إسرارها مع أنها لا تكون إلاَّ سراً، أنهم بالغوا في إخفائها، بحيث لم يشعر أحد بأنهم متناجون ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بدل من ضمير «أسرُّوا» منبىء عن كونهم موصوفين بالظلم فيما أسروا به ﴿ هَلْ هَذَا ﴾ أي قالوا في التناجي: هل هذا يعنون رسول الله ﷺ ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾؟ أي من جنسكم، وما أتى به سحر، أتعلمون ذلك؟ ﴿ أَفَتَأْتُونَ ﴾ أتحضرون ﴿ السِّحْرَ ﴾ وتقبلونه ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾؟ أي وأنتم تعاينون أنه سحر؟ قالوه بناءً على أن الرسول لا يكون إلا مَلَكا، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق سحر، فهذا جهل لأن كل ما أتى به الرسول ﷺ من القرآن وغيره، ظاهر الحال لا تمويه فيه، وأنهم قد عرفوا حاله، وعلموا صدقه، إلاَّ أنهم يموّهون على ضعفائهم، بمثل هذا القول الكاذب.

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ ﴾ حكاية من جهته تعالى، لما قاله ﷺ بعدما أوحى الله إليه بأحوالهم وأقوالهم، بياناً لانكشاف سرهم، أي قال محمد ﷺ: إن ربي لا يخفى عليه شيء، يعلم قول كل قائل، سراً كان أو جهراً، وعلمه تعالى بالسرّ والجهر، على وتيرة واحدة، لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي سراً كان أو جهراً ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات، التي من جملتها ما أسروه من النجوى، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم.

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) ﴾.

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ ﴾ إضراب من جهته تعالى، وانتقال من حكاية قولهم السابق، إلى حكاية قول آخر، أي لم يقتصروا على أن يقولوا: هل هذا إلا بشر؟ وأنه سحر؟ ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أي تخاليط الأحلام، ثم أضربوا عنه فقالوا ﴿ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أي اخترعه واختلقه من تلقاء نفسه، من غير أن يكون له أصل، ثم قالوا ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ وما أتى به شعر، يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها، وهكذا شأن المبطل المحجوج، متحير لا يزال يتردَّد من باطل إلى أبطل ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ ﴾ جواب شرط محذوف، يفصح عنه السياق، كأنه قيل: إن لم يكن كما قلنا، بل كان رسولاً من الله تعالى، فليأتنا بآية ﴿ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ أي مثل الآية التي أرسل بها الأولون كاليد، والعصا ونحوهما، حتى نؤمن به، فرد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم ﴾ قبل مشركي مكة ﴿ مِّن قَرْيَةٍ ﴾ من أهل قرية ﴿ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم، بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾؟ أي أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوه، مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ جواب لقولهم هل هذا إلا بشر، متضمن لرد ما دسوا تحت قولهم: ﴿كما أرسل الأولون﴾ من التعريض بعدم كونه ﷺ مثل أولئك الرسل ﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ بواسطة الملك ما نوحي من الشرائع والأحكام، كما نوحي إليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي حسبما يحكيه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ

وَالنَّبِيِّينَ﴾ الآية ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم لا تعلمون، فاسألوا الواقفين على أحوال الرسل السالفة، لتزول شبهتكم، وأمَّا تعلّق بعض الفقهاء بهذه الآية، في أن العامي عليه أن يرجع إلى فتوى العلماء، فبعيدٌ، لأن هذه الآية، خطابُ مشافهةٍ، وهي واردةٌ في هذه الواقعة المخصوصة، ومتعلقة باليهود والنصارى[1].

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾ بيانٌ لكون الرسل عليهم السلام، أسوة لسائر أفراد الجنس، في أحكام الطبيعة البشرية، إثر بيان كونهم أسوة في نفس البشرية، أي وما جعلنا الأنبياء كالملائكة، أجساداً لا يأكلون ولا يشربون، بل هم كسائر البشر يمتازون عليهم بالوحي ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ أي وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الأكل والشرب، بل محتاجاً إلى ذلك ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ المراد بالخلود: المكث المديد كما هو شأن الملائكة، أو الأبدية؛ وهم معتقدون أنهم لا يموتون فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسول بشراً لا مَلَكاً، مع ما في ذلك من الرد على قولهم: ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾؟.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي أوحينا، إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم في الوعد الذي وعدناهم، بإهلاك أعدائهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ من المؤمنين

---

(١) أقول: هذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب من علماء اليهود والنصارى، إلا أنه يستأنس بها في أن الرجل العامي ينبغي أن يرجع إلى أهل الفقه والعلم فيما أشكل عليه من أمر الدين.

وغيرهم، ممن تستدعي الحكمة إبقاءه، كمن سيؤمن هو، أو من سيؤمن من ذريته، وهو السرُّ في حماية العرب ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحدَّ في الكفر والعصيان، كقوم نوح، وعاد، وثمود.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن الكريم أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر قريش ﴿كِتَٰبًا﴾ عظيم الشأن، نيِّر البرهان ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صفة لكتاباً، أي فيه شرفكم وصيتكم، كقوله تعالى: ﴿وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلقَوْمِكَ﴾ وقيل: فيه موعِظتكم، وهو الأنسب بسياق النظم وسياقه، فإن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنكار توبيخي، فيه بعث لهم على التدبر، والتذكر في أمر الكتاب المبين.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١﴾.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ نوع تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ وبيان لكيفية إهلاكهم، أي وكثيراً من أهل القرى أهلكناهم إهلاكاً مريعاً، وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر، بإبانة أجزاء المكسور، من الدلالة على شدة الغضب ما لا يخفى، بخلاف الفصم وهو كسر بلا إبانة ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي كثيراً قصمنا من أهل قرية، كانوا ظالمين بآيات الله، كافرين بها كدأبكم ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي بعد إهلاكها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم، ففيه تنبيه على استئصال الأولين بالكلية.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ ﴾ أي أدركوا عذابنا الشديد، إدراكاً تاماً ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي يهربون مسرعين، راكضين دوابهم من فرط الإسراع، والركضُ: ضرب الدابة بالرجل لتسرع.

﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ لَا تَرْكُضُواْ ﴾ أي قيل لهم بلسان الملائكة استهزاءً: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ﴿ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ من التنعُّم والتلذذ، والمترفُ: الذي أبطرته النعمة ﴿ وَمَسَٰكِنِكُمْ ﴾ التي كنتم تفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ أي لعلكم تسألون عمَّا جرى عليكم، إذا رُئيتْ مساكنكُم خالية، فتسألون أين أصحابها؟ وهذا كله من باب السخرية والتهكم بهم، جزاء استهزائهم بآيات الله.

﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ لمَّا يئسوا من الخلاص بالهرب، وأيقنوا بنزول العذاب قالوا: ﴿ يَٰوَيْلَنَآ ﴾ أي يا هلاكنا ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي مستوجبين للعذاب، وهذا اعترافٌ منهم بالظلم، وباستتباعه للعذاب، ومذمَّةٌ عليه حين لم ينفعهم الندم.

﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ أي فما زالوا يردِّدون ذلك، وسميت دعوى لأنهم يدعون على أنفسهم بالويل ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا ﴾ أي مثل الحصيد، وهو المحصودُ من الزرع ولذلك لم يجمع ﴿ خَٰمِدِينَ ﴾ أي ميتين من خمدت النار، إذا طُفئت، وخَمَد الرجل: أي مات.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ ﴾ إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم، وإبداع بني آدم، مؤسس على الحكم البالغة، المستتبعة للغاية الجليلة، أي وما خلقنا الوجود وما فيه، من سماوات وأرضين ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات التي لا تُحصى أجناسهم، على هذا النمط البديع، خالية عن الحِكم والمصالح ﴿ لَٰعِبِينَ ﴾ أي عبثاً وباطلاً، وإنما عبَّر عن ذلك باللعب، لكمال نزاهته تعالى عن الخلق، الخالي عن الحكمة، بل إنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع، تبصرة للنظار، وتذكرة لذوي الاعتبار، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ، وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[1].

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ يتلهى به ويُلعب. ﴿ لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ أي من جهة قدرتنا، مما يليق بشأننا من الحور العين أو الملائكة، لا من الأجسام المرفوعة، والأجرام الموضوعة، كديدن الجبابرة، في رفع العروش، وتحسينها، وتسوية الفروش وتزيينها، لكن تستحيل إرادتنا له، لمنافاته الحكمة، فيستحيل اتخاذنا له قطعاً ﴿ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ جوابُه محذوفٌ ثقةً بدلالة ما قبله عليه، أي إن كنا فاعلين لأتخذناه.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾ إضرابٌ عن اتخاذ اللهو، كأنه قيل: لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الساطع، على الباطل المتزعزع ﴿ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ أي فيمحقه بالكليَّة، كما فعلنا بأهل القرى الظالمة، وقد استعير لإيراد

---

(١) سورة ص، آية: ٢٧.

الحق على الباطل، القذفُ الذي هو الرمي الشديدُ، بالجرم الصلب، ولمحقه للباطل بالدفع الذي هو كسر الدماغ، دَمَغَه إذا كسر عظم دماغه، وهو المؤدّي إلى زهوق الروح[1] ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي ذاهب بالكلية ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ وعيد لكفرة قريش، أي واستقر لكم الويل والهلاك، من أجل وصفكم له سبحانه، بما لا يليق بشأنه الجليل.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له تعالى خاصة جميع المخلوقات، خلقاً وملكاً، وتدبيراً وتصرفاً، وإحياءً وإماتة، من غير أن يكون لأحدٍ في ذلك دخل ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ منزلة ومكانة وهم الملائكة بإجماع الأمة، عبَّر عنهم بذلك تنزيلاً لهم لكرامتهم منزلة المقربين عند الملوك، بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي لا يتعظمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يعيون فيها، وصيغة الاستقبال للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها، حقيقة بأن تستحسر منها، ومع ذلك لا يستحسرون.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي ينزهونه في جميع الأوقات، فهم في عبادة دائمة في الليل والنهار ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يتخلَّلُ تسبيحَهم فتورٌ أصلاً، بفراغ أو بشغل آخر، وتسبيحهم جارٍ مجرى التنفس منا.

---

(١) شبَّه الحقَّ بشيء صلب، والباطل بشيء هشٍّ رخوٍ، واستعار لفظ القذف لغلبة الحق على الباطل، فكأنه رمى بشيء صلب على رأس دماغ الباطل، فشقَّه وحطَّمه، ولم يُبق له أثراً؛ ففي الآية استعارة تمثيلية من روائع أساليب البيان.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً ﴾ توبيخ آخر للمشركين، وتسفيه لأحلامهم في عبادة غير الله، من حجارة صماء بكماء، لا تستطيع خلْقَ شيء، والمعنى: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة؟ ﴿ مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي من مواد الأرض، كالذهب، والفضة، والحجر، والخشب، وتعبد في الأرض؟ ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أي هم يبعثون الموتى مع حقارتهم وجماديتهم؟ كلاّ فإن ما اتخذوها آلهة، بمعزل من ذلك، لا تتصف بالقدرة على شيء، فهي ليست بآلهة على الحقيقة، لأن من صفات الإله الحق القدرةُ على الإحياء والإماتة، والمراد به تجهيلهم والتهكم بهم.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ إبطال لتعدد الإله، بإقامة البرهان على انتفائه، بل على استحالته، أي لو كان في السماوات والأرض، آلهة غير الله، كما هو اعتقادهم الباطل ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ أي لبطلتا بما فيهما جميعاً لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع، وحيث انتفى التالي عُلم انتفاءُ المقدَّم قطعاً، بيان الملازمة أن الإلَهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد، بالتصرف فيهما على الإطلاق، تغييراً وتبديلاً، وإيجاداً وإعداماً، فبقاؤهما على ما هما عليه، إمَّا بتأثير كل منهما وهو محال، وإمَّا بتأثير واحد منهما، فالباقي بمعزل من الإلَهية قطعاً[1] ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي نزِّهوه سبحانه

(١) توضيح ذلك أنَّا لو فرضنا وجود إلهين في الكون، فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه، فإمَّا أن تنفذ إرادة كل منهما، وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين، وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر، فيكون الأول الذي تنفذ إرادته، هو الإله الحقيقي القادر، والثاني هو العاجز الذي لا يقدر على شيء، فلا يصلح أن يكون إلهاً، ولو كان =

عما لا يليق به من الأمور ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ صفة للاسم الجليل، مؤكدة لتنزهه عز وجل أي خالق العرش العظيم ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي فسبحوه عما يصف به أهل الجهل والإلحاد، من وجود آلهة معه، أو نسبة الزوجة له والولد.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بيان أنه تعالى لعظمته، ليس لأحد من مخلوقاته، أن يناقشه ويسأله عما يفعل، ولو اعترض على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس، وجواز الخطأ عليه لاستُقبح ذلك منه، وعُدَّ سفهاً، فمن هو مالك الملك الحقيقي، وفعلُه صواب كلّه، أولى بأن لا يُعترض عليه، فلا يملك أحد أن يقول ياربِّ لمَ فعلتَ ذلك؟ ﴿وَهُمْ﴾ العباد ﴿يُسْـَٔلُونَ﴾ عما يفعلون نقيراً أو قطميراً، لأنهم عبيد له تعالى.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٤﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إضراب وانتقال من إظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة، وتبكيتهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية، ناطقة بحقية التوحيد، وبطلان الاشتراك ﴿قُلْ﴾ لهم بطريق التبكيت ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ على ما تدعونه من جهة العقل والنقل، فإنه لا صحة لقولٍ لا دليل عليه، لا سيما في مثل هذا الشأن الخطير، وفي ذكر البرهان ضرب من التهكم بهم ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ أي هذا الوحيُ، المتضمن للبرهان القاطع العقلي، ذكر أمتي، أي

= في الوجود غير الله سبحانه، لفسد نظام الكون، لما يقع بين الآلهة من التنازع والتصادم، كما لا يصح أن يكون في بلدٍ واحد مَلِكان، ولا في إدارة واحدة رئيسان، إنما يمكن أن يكون رئيس ونائبه، ورئيس جمهورية ونائبه.

عظتهم، وذكر الأمم السالفة قد أقمته، فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم، وانظروا هل في واحد من الكتب السماوية غير الأمر بالتوحيد، والنهي عن الإشراك؟ ففيه تبكيت لهم، متضمنٌ لإثبات نقيض مدّعاهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ انتقال من الأمر بتبكيتهم، إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة، بإظهار حقية الحق، فإن أكثرهم لا يفهمون الحق ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ أي مستمرون عن الإعراض عن التوحيد، واتباع الرسول ﷺ، لا يرعوون عما هم عليه من الغيِّ والضلال.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ استئناف مقرر من كون التوحيد، ممَّا نطقت به الكتب الإلَهية، وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام، أي وما أرسلنا قبلك يا محمد رسولاً من الرسل، إلاَّ أوحينا إليه، أنه لا إله ولا معبود بحق، إلاَّ الله رب العالمين، فخصُّوه بالعبادة، ولا تشركوا معه أحداً.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ حكاية لجناية فريق من المشركين وهم حي من خزاعة، يقولون: الملائكة بناتُ الله، وأضافوا إلى ذلك هذه الفرية، أنه تعالى صاهر الجنَّ، على ما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً﴾[1] ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزه بالذات تنزهه اللائق به ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ إضراب وإبطال لما قالوه، كأنه قيل: ليست الملائكة كما قالوا،

(١) سورة الصافات، آية: ١٥٨.

بل هم عبادٌ له تعالى ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ مقرّبون عنده، وليسوا بأولاد، إذِ العبوديةُ تنافي الولادةَ.

﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي لا يسبقُ قولهُم قولَه تعالى، شأنهم شأن العبيد المؤدبين، الذين لا يفعلون شيئاً بدون إذن ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ بيانٌ لتبعيّتهم له تعالى في الأعمال، كأنه قيل: هم بأمره يقولون، وبأمره يعملون، لا بغير أمره.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي علمه تعالى محيط بهم، لا تخفى عليه من أمورهم خافية، ولعلمهم بإحاطته تعالى، بما قدّموا وأخروا، من الأقوال والأعمال، لايزالون يراقبون أحوالهم، فلا يُقْدِمون على قول، أو عمل، بغير أمره تعالى ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ﴾ مهابةً منه تعالى ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ أي لمن رضي الله تعالى عنه، من أهل التوحيد ﴿وَهُم﴾ مع ذلك ﴿مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿مُشۡفِقُونَ﴾ مرتعدون خائفون حذرون والإشفاقُ: الخوفُ مع الاعتناء، أشفقت من كذا: حذرتُ وخفت منه، وأشفقتُ على الصغير: حنوتُ وعطفت عليه.

﴿۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ﴾ أي من الملائكة ﴿إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ متجاوزاً إياه ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الذي فُرِض قوله، وهو فرضٌ محال ﴿نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ كسائر

المجرمين، ولا يغني عنهم ما ذُكر من صفاتهم السنيّة، وأفعالهم المرضية، وفيه الدلالة على عزة جبروته تعالى، واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء، نجزي من ظلم بالإشراك بالله، وتعدَّى الحدود.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ استفهام توبيخ لهم، بتقصيرهم في التدبر في الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالألوهية، والهمزة للإنكار، والرؤيةُ قلبية، أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ الرتق الضم والالتحام، أي كانتا ذواتا رتق، وكانتا شيئاً واحداً، والرَّتْقُ: ضدُّ الفَتْق قال ابن عباس: كانت السماء رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات[1] ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أي فصلنا بينهما بالتنويع والتمييز، وتلاصق الأرض بالسماء، وتباينهما جائزان في العقل، فالفتق عارضٌ مفتقر إلى مؤثر قديم، ولا شك أنه هو الله العلي الكبير، وفي هذه الآية الكريمة دعوة إلى البحث العلمي في مجال الكون الفسيح، ليستدل الإنسان على قدرة الله الباهرة في مخلوقاته. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي وجعلنا الماء أصل كل الأحياء، وسبباً للحياة:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥/٣٤٨ أقول: هذا القول لابن عباس جميل، ولا ينافي ما يقوله علماء الطبيعة أن الأرض والمجموعة الشمسية، كانت قطعة واحدة، فانفصلت الأرض عن المجموعة الشمسية، وتبردت قشرتها فظهرت فيها البحار والأنهار، ويستدلون على صحة ذلك، بما في باطن الأرض من مواد ملتهبة، تقذف بين حين وآخر بالحمم والغازات والبراكين الثائرة، بل في هذا القول سبق علمي للقرآن الكريم كالذي أخبر قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، عن التصاق الأرض بالسماوات وبالمجموعة الشمسية.

للإنسان، والنبات والحيوان، لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ من مَاءٍ﴾[1] أي من نطفة ويدخل في ذكر الماء النباتات والأشجار، لأن الماء من أعظم موادها ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار بعدم إيمانهم لله وحده، مع ظهور ما يوجبه من الآيات الآفاقية والأنفسية، الدالة على تفرده عز وجل بالألوهية.

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أي كراهة أن تميل بهم وتضطرب بالبشر ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض أو في الجبال ﴿ فِجَاجًا ﴾ أي مسالك واسعة، جمع فج وهو الطريق الواسع ﴿ سُبُلًا ﴾ وإنما قدم «فِجاجاً» مع أنه وصفٌ، ليفيد أنه تعالى خلقها، ووسّعها للسابلة، مع ما فيه من التأكيد ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى مصالحهم ومهماتهم.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ أي محفوظاً من الوقوع بقدرته، أو من استراق السمع بالشهب كما قال الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[2] ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا ﴾ الدالة على وحدانيته تعالى، وعلمه، وحكمته، وقدرته، ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لا يتدبرون فيها، فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

---

(١) سورة النور، آية: ٤٥.

(٢) سورة الحِجْر، آية: ١٧.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ بيان لبعض الآيات الكونية، أي خلق الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتتصرفوا فيه، والشمس لتكون سراج النهار، والقمرَ ليكون سراج الليل ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل من الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والليل والنهار ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي يَجْرون ويسيرون بسرعة، كالسابح في الماء، والفَلَكُ: مدارُ النجوم، وهو في كلام العرب كلُّ شيء مستدير، وجمعه أفلاك، واختلف العلماء فيه، فقال بعضهم: الفلك ليس بجسم، وإنما هو مدار هذه النجوم، وهو قول الضحاك، وقال الأكثرون: هي أجسام تدور النجوم عليها، وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن، والحقُّ أنه لا سبيل إلى معرفة صفات السماوات إلاَّ بالخبر القاطع.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ أي الدوام في الدنيا، لكونه مخالفاً للحكمة التشريعية ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ نزلت حين قالوا: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ﴾ كأنه قيل: أفإن متَّ أفهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك؟.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي ذائقة مرارة الموت ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ الخطاب للناس كافة، أي نُعاملكم معاملة من يبلوكم ﴿ بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ ﴾ بالبلايا والنعم ﴿ فِتْنَةً ﴾ أي ابتلاءً مصدر مؤكِّد لنبلوكم من غير لفظه ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ لا إلى غيرنا، فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال، فهو وعدٌ ووعيدٌ.

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك الكفرة المجرمون ما يتخذونك يا محمد إلا مهزوءاً به، كأنه قيل ما يفعلون بك إلا الهزء ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ على إرادة القول، أي يقولون: أهذا الذي يذكر آلهتكم بسوء؟ وإنما أطلقه لدلالة الحال، فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ والمعنى: إنهم يعيبون الرسول أن يذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء، والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم كافرون، فهم أحقَّاءُ بالعيبِ والإنكار، وأن يُهْزأ بهم، وتكرار الضمير (هم) للتأكيد.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ جُعل لفرط استعجاله، وقلة صبره، كأنه مخلوق من العجل، على سبيل المبالغة، تنزيلاً لما طُبع عليه من الأخلاق الرديئة، وقلة الصبر بالمخلوق من العجلة، ومن عجلته استعجاله بالوعيد، كقول: ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَينَا حِجَارَةً﴾[1] الآية ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ تلوين للخطاب بطريق التهديد والوعيد، أي سأريكم نقماتي في الدنيا وعذابي في الآخرة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي فلا تتعجلوا الشيء قبل أوانه، فإن كل ما هو آت قريب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي متى وقت مجيء الساعة، التي كانوا يوعدون؟ وإنما كانوا يقولونه بطريق الاستهزاء، لا طلباً لتعيين وقته بطريق الإلزام ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في وعدكم، والخطاب للرسول ﷺ والمؤمنين، الذين كانوا يتلون الآيات الكريمة، المنبئة عن مجيء الساعة،

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

وجوابُ الشرط محذوف بدلالة ما قبله، كأنه قيل: فلتأتنا بسرعة إن كنتم صادقين.

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ استئناف مسوقٌ لبيان شدة هول ما يستعجلونه، وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه، وهو الذي هوّنه عندهم ﴿ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ أي لو عرفوا فظاعة العذاب الذي يستعجلونه، حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم ولا عن ظهورهم لما استعجلوا الوعيد[1]، وذلك حين تحيط بهم النار من كل جانب ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم من عذاب الله.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ أي بل تأتيهم القيامة والساعة ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أي فتغلبهم وتدهشهم أو تحيّرهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ عنهم بالكلية ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

---

(١) جواب «لو» محذوف لأنه أبلغ في التهديد والوعيد، أي لو يعلم هؤلاء الكفار ما سيلقونه من أنواع الكرب والعذاب، لما استعجلوا نزوله، ولكنهم سفهاء جهلة.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ تسلية للرسول ﷺ عن استهزائهم في ضمن الاستعجال، وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها، أي وبالله لقد استهزىء برسل كرام، ذوي عدد كثير من قبلك ﴿ فَحَاقَ ﴾ أي أحاط ونزل وحلَّ، فإن معناه يدور على الشمول واللزوم، ولا يكاد يستعمل إلا في الشر ﴿ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم ﴾ أي من أولئك الرسل عليهم السلام ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي فنزل بهم جزاء استهزائهم، وجنوا ثمرة استهزائهم، هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة، فكذلك حال هؤلاء المستهزئين.

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ خطاب للرسول ﷺ، إثر تسليته بما ذُكر، وأمرٌ له بأن يقول لأولئك المستهزئين أي من يحفظكم بالليل والنهار ﴿ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي من بأسه إن أراده بكم، وهذا كقول الرجل لمن حصل في قبضته: إلى أين مفرك؟ هل لك محيص؟ يُقال: كَلأه اللهُ كلاءَة: حفظه ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي لا يُخطرونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه.

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ ﴾ الهمزة للإنكار والمعنى: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب، هم معوّلون عليها، واثقون بحفظها؟ وفي توجيه الإنكار والنفي إلى الآلهة، لا إلى نفس الصفة، بأن يقال: أم تمنعهم آلهتهم؟ من الدلالة على سقوطها، عن مرتبة الوجود، فضلاً عن رتبة المنع ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي هم لا يستطيعون

أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا، فكيف يتصور أن ينصروا غيرهم؟ وحمايةُ النفس أولى من حماية الغير.

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ إضراب عما توهّموا، ببيان أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا، وأمهلهم حتى طالت أعمارهم، فحسبوا أن لا يزالوا كذلك، وما حملهم على الإعراض، إلا الاغترار بطول المهلة، فنسوا عهدنا وجهلوا نعمتنا واغتروا، ولذلك عقبه بما يدل على أنه طمع فارغ، حيث قال ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي ألا ينظرون ولا يرون ﴿ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ ﴾ أي أرض الكفرة ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ بموت أهلها وغلبة المسلمين عليهم، فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا؟ وهو تمثيل لما يُجْريه اللهُ عزَّ وجل من ديارهم، على أيدي المسلمين، ويضيفها إلى ديار الإسلام، فما هو حول مكة ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾؟ عليه ﷺ والمؤمنين؟ كأنه قيل أبعد ظهور ما ذُكر، ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم؟ إن كل ذلك من العِبَر، التي لو استعملوا عقولهم، لأعرضوا عن جهلهم، وتزينوا بزينة الإسلام والمسلمين.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم ﴾ أي إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿ بِٱلْوَحْيِ ۚ﴾ الصادق، الناطق بإتيانها، أي إنما شأني أن أنذركم، بالإخبار بذلك، لا بالإتيان بها، فإنها مزاحم للحكمة التكوينية والشرعية ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ أمر ﷺ بأن يقول لهم ذلك، توبيخاً وتسجيلاً عليهم بكمال الجهل والعناد، أي ولكنكم أيها المشركون ـ لشدة

جهلكم وعنادكم ـ كالصُمِّ الذين يسمعون الكلام والإنذار[1]، فلا يتعظون ولا ينزجرون.

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ أي ولئن أصابهم شيء يسير خفيف، مما أُنذروا به من عذاب الله، ولو كان أدنى شيء من العذاب، كالهبَّة، والنَّسْمة، واللَّفحة ﴿ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي ليقولنَّ معترفين بجريمتهم: يا هلاكنا ودمارنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله، وفي الآية إشارة إلى أن أهل الغفلة والشقاوة، لا ينتبهون حتى يمسهم أثر من آثار عذاب الله، فينادون عند ذلك بالويل والثبور.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ أي نقيم الموازين العادلة، التي توزن بها صحائف الأعمال ﴿ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ التي كانوا يستعجلونها ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس ﴿ شَيْـًٔا ﴾ حقاً من حقوقها بل يوفى كل ذي حق حقه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي مقدار حبة، فإن حبة الخردل مثلٌ في الصغر ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أي أحضرنا ذلك المثقال للوزن ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا، والغرضُ منه

---

(١) شبههم تعالى بالصم ـ أي الطرش ـ وهم صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما ينذرون به من آيات الله الجليلة، لا تعيه آذانهم، فكانت حالهم كحال الذين عدموا السماع، فلا يستمعون ولا يعون.

التحذير، فإن المحاسب إذا كان في العلم، بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيءٌ، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء، فحقيق بالعاقل أن يكون بأشد الخوف منه.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ المراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر، أي وبالله لقد آتيناهما كتاباً، جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياءً يستضاء به في ظلمات الجهل، وذكراً يتعظ به الناس، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره.

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ أي عذابه، صفة مادحة للمتقين ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي يخشون عذابه تعالى، وهو غائب عنهم، وقيل: يخافونه في الخلوات، وهذا هو الأقرب ﴿ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون منها وتخصيص إشفاقهم من الساعة للإيذان بهولها وشدتها.

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَهَٰذَا ﴾ القرآن الكريم ﴿ ذِكْرٌ ﴾ يتذكر به من يتذكر ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ كثير الخيرات، غزير النفع ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ على الرسول ﷺ ﴿ أَفَأَنتُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ إنكارٌ لإنكارهم، كأنه قيل: أبعد ما علمتم أن شأنه كشأن التوراة، منزل من عند الله، أنتم منكرون؟ فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه، كيف يمكنكم إنكاره؟

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ﴾ الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكرام، المستند إلى الهداية الخاصة، الحاصلة بالوحي، والاقتدار على إصلاح الأمة ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي بأنه أهل لما آتيناه من الوحي والفضل.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ أي اذكر وقت قوله لهم ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؟ لتقف على كمال رشده، والتمثال: الصورةُ المصوّرة، وهذا تجاهل منه عليه السلام، كأنه لا يعرف أنها حجر أو شجر، اتخذوها معبوداً؟ وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف قصداً إلى تحقيرها، وتوبيخاً لهم على إجلالها ومعنى ﴿عَاكِفُونَ﴾ أي مقيمون على عبادتها.

﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ أجابوا بذلك، لمّا لم يكن لهم حجة، فالتجأوا إلى التقليد لآبائهم الضالين، ولهذا أبطله بطريق القسم المؤكد حيث قال:

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ ﴾ الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ عجيب ﴿ مُّبِينٍ ﴾ ظاهر بيّن، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك، فالباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ لما سمعوا مقالته، استبعاداً لكون ما هم عليه ضلالاً، وتعجباً من تضليله إياهم ﴿ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالجِدِّ والصِّدق ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾؟ أو تقوله على وجه المزاح؟ ظنوا أن ما قاله لهم على وجه المداعبة.

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مبيناً عقيدة التوحيد ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ وصفه تعالى بإيجادهن تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية، أي أنشأهن بما فيهن، من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم، وما تعبدونه ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾ الذي ذكرته، من كون ربكم رب السماوات والأرض فقط، دون ما عداه كائناً ما كان ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي العالمين به على سبيل الحقيقة.

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ أي لأجتهدن في كسرها، وإنما قاله سراً، وقيل سمعه رجل ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ من عبادتها إلى عيدكم.

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ أي قطعاً وحُطاماً، من الجذِّ الذي هو القطع، روي أن قومه خرجوا به في يوم عيد لهم، فبدؤوا ببيت الأصنام، وكانت سبعين صنماً مصطفاً، وثمة صنم عظيم من ذهب، وفي عينيه جوهرتان، تضيئان

بالليل، فدخلوه فسجدوا لها، ووضعوا بينها طعاماً، وقالوا إلى أن نرجع تكون الإلَه قد باركت على طعامنا، فذهبوا وبقي إبراهيم عليه السلام، فكسر الكلَّ بفأس، ولم يبق إلا الكبير، وعلّق الفأس في عنقه، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الصنم الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجعون إليه فيسألونه عن الكاسر، لأن من شأن المعبود، أن يُرجع إليه في الملمّات.

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٩﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا ﴿مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ على طريقة الإنكار والتشنيع ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؟ لجرأته على إهانتها وتحطيمها.

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي بعض منهم مجيبين للسائلين ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي يعيبهم، فلعله فعل ذلك بها ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي يطلق عليه هذا الاسم، وكانوا قد سمعوا ما يقول في آلهتهم، ولو لم يكن إلا قوله عليه السلام ﴿ما هذه التماثيل﴾ لكفى ذلك إهانة لها!!.

﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي السائلون ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي بمرأى منهم، بحيث لا يخفى على أحد ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي يحضرون عقوبتنا له.

﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي أتوا به، ثم قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟ مخاطبتهم إياه، للتنبيه على أن إتيانهم به عليه السلام أمر محقق، فهو المتهمُ الأوحد، الذي لا يجرؤ أحد غيره على تكسير الأصنام.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي حطّمها وهشّمها هذا الصنم الكبير، مشيراً إلى الذي لم يكسره، سلك عليه السلام معهم مسلكاً تعريضياً، يؤديه إلى مقصده، الذي هو إلزامهم الحجة، على ألطف وجه، بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم، العاجزة عن دفع الضر عن أنفسها، مع ما فيه من التوقي من الكذب، والغرضُ تبكيتهم وإقامة الحجة عليهم، ولهذا قال ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا، وإنما لم يقل: إن كانوا يسمعون، أو يعقلون، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب، وأن عدم نطقهم أظهر، وتبكيتهم بذلك أدخل، وقد حصل ذلك حسبما نطق به قوله تعالى:

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي راجعوا عقولهم، وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه، ولا على الإضرار بمن كسره، فكيف يستحق أن يكون معبوداً؟ ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي بعضهم لبعض فيما بينهم ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي بعبادة الأصنام، فإن من لا يدفع عن رأسه الفأس، كيف يدفع عن عابديه البأس؟

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي انقلبوا إلى المجادلة بالباطل، بعدما استقاموا بالمراجعة، وقد أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة فأخذوا في المكابرة، أي انقلبوا في الحجة، واحتجوا على إبراهيم، بما هو الحجة له عليهم[1]، فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ أي والله لقد علمتَ أن ليس من شأنهم النطق، فكيف نسألهم؟

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مبكّتاً لهم ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي متجاوزين عبادته تعالى ﴿ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا ﴾ من النفع ﴿ وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ إن تركتم عبادته، وتتركون عبادة الواحد الأحد!؟.

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ ﴾ أي تبّاً لكم ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ تضَجّر من إصرارهم على الباطل، وأنكر عبادتهم لها، بعد اعترافهم بأنها جمادات ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أليس لكم عقل تعقلون قبح صنيعكم؟ فلما لزمتهم الحجة، وعجزوا عن الجواب.

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

---

(١) شبّه تعالى رجوعهم عن الحق إلى الباطل، بانقلاب شخصٍ في صورته وشكله، بحيث تصبح رجلاه إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل، فكيف يمشي على رجليه، وكيف يفكّر بعقله؟ وإنه لتمثيل رائع بادي الحسن والجمال.

﴿ قَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ فإنه أشد العقوبات ﴿ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام لها ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي للنصر، ولما عجزوا عن المحاجة قالوا ذلك، وهكذا ديدن المبطل المحجوج، روي أنهم لما أجمعوا على إحراقه، حبسوه في بيت، وبنوا له حظيرةً بكوثى، قرية من قرى الأنباط، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾[1] ثم جمعوا له الحطب، فأوقدوا ناراً عظيمة، حتى إن كانت الطير لتمر بها، وهي في أقصى الجو، فتحترق من شدة وهجها، ولم يكد أحد يحوم حولها، فلما أرادوا أن يلقوه، لم يعلموا كيف يلقونه، صنع لهم رجل المنجنيق، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام، فقيّدوه ووضعوه في المنجنيق، مقيداً ومغلولاً، فرموا به فيها، فجعل الله عزَّ وجلَّ النار روضة عليه، وبستاناً يتنعم فيه فذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي أبردي برداً غير ضار، ولم تحرق النارُ إلاّ وثاقه[2]، وقيل: كانت النار على حالها، لكنه تعالى دفع عنه أذاها، كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على إبراهيم.

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

---

(١) سورة الصافات، آية: ٩٧.

(٢) فإن قيل: كيف خاطب الله النار مع أنها لا تعقل؟ الجواب: أن خطاب التكوين لا يختص بمن يعقل، مثل قوله تعالى: ﴿يا جبالُ أوّبي معهُ والطَّيرَ﴾ وقوله: ﴿يا أرضُ ابلعي ماءَكِ ويا سماءُ أقْلِعي﴾ فهذا خطاب التكوين لا يختص بالعقلاء ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ أما خطاب التكليف فهذا الذي يشترط فيه العقل ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ وهذا خلاصة القول بين الخطاب التكويني والخطاب التكليفي.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي مكراً عظيماً في الإضرار به ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي أخسر من كل خاسر، حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق، برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق، وهم على الباطل.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من العراق إلى الشام، روي أنه آمن لإبراهيم عليه السلام رجالٌ من قومه، حين رأوا ما صنع الله به، وآمنتْ به سارة، وتبعه «لوط» وكان ابن أخيه، فخرج مهاجراً إلى ربه، ومعه لوط، وسارة، فنزل حران، ثم خرج منها فقدم مصر، ثم خرج فنزل أرض فلسطين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي عطيةً وهبةً زيادة على ما سأل، وهو يعقوب عليه السلام ﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأربعة ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ بأن وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا، فصاروا كاملين، عابدين، صالحين.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ ﴿يَهْدُونَ﴾ أي الأمة إلى الحق ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ليحثوهم عليه، فيتم كمالهم، بانضمام العمل إلى العلم ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهو من عطف الخاص على العام، دلالة على

فضله أي أمرناهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾ موحِّدين، مخلصين في العبادة.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا﴾ حكمةً ونبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء عليهم السلام من الوحي ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ يعني اللواطة، وصفت بصفة أهلها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ تعليل له، أي أشراراً، خارجين عن الطاعة.

﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ أي دعا الله على قومه بالهلاك ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي دعاءه الذي من جملته قوله: ﴿إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الطوفان، وأصل الكرب: الغمُّ الشديد.

﴿وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي نصرناه ومنعناه من شر قومه المكذبين الضالين، فنجيناه وأهلكناهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ تعليل لما قبله ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لاجتماع الأمرين، تكذيب الحق، والانهماك في الشر، فإنهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى.

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ أي اذكر خبرهما وقت حكمهما ﴿ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾ في حق الحرث ﴿ إِذْ نَفَشَتْ ﴾ تفرقت وانتشرت، النفشُ: أن تنتشر الغنمُ بالليل، ترعى بلا راع ﴿ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ ليلاً بلا راعٍ، فرعته وأفسدته ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ ﴾ أي لحكم الحاكمين ﴿ شَٰهِدِينَ ﴾ أي حاضرين إذ كان بعلمنا، ولا يخفى علينا.

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ ﴾ الضمير للحكومة أو الفتيا، رُوي أنه دخل على داود عليه السلام رجلان، فقال أحدهما: إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلاً، فأفسدته فلم تبقِ منه شيئاً، فقضى له بالغنم، فخرجا فمرَّا على سليمان، وهو ابن عشر سنين، فأخبراه بذلك، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فسمعه داود فدعاه، وقال له: كيف تقضي؟ فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض، لينتفع بدرِّها ونسلها، وتدفع الحرث إلى أرباب الغنم، ليقوم عليه حتى يعود إلى ما كان، ثم يترادَّا، فقال: القضاء ما قضيت الحكم بذلك، وكان هذا في شريعتهم، وقال مجاهد: كان هذا صلحاً، وما فعله داود حكماً، والصلح خير.. وفي قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا

﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ دليل على رجحان قوله، ورجوع داود إليه، مع أن الحكم المبنيَّ على الاجتهاد، لا ينقض باجتهاد آخر، وإن كان أقوى منه وقال قوم: إن داود وسليمان عليهما السلام حكما بالوحي، فكان حكم سليمان ناسخاً لحكم داود، ومن غرائب أحكام داود وسليمان عليهما السلام، ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه. أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقُّه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك اللهُ، هو ابنها، فقضى به للصغرى»[1] ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي كل واحدٍ منهما آتينا حكماً وعلماً كثيراً، وهذا يدل على أن خطأ المجتهد، لا يقدح في كونه مجتهداً، روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»[2] ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ﴾ شروع في بيان ما يخص بكل منهما من إكراماته تعالى، إثر بيان إكراماته العامة لهما ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ أي يقدِّسن الله معه، بصوت يتمثل له ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ أي والطير مسخرات له ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي من شأننا أن نفعل أمثاله، فليس ذلك ببدع منا، وإن كان بديعاً عندكم.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي وعلمنا داود صنع الدروع بإلانة

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٢/ ٥٥ ومسلم رقم ١٧٢٠ في الأقضية.
(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ١٣/ ٣١٨ ومسلم رقم ١٧١٦ في الأقضية.

الحديد له، وهو أول من صنعها، واتَّخذها حِلَقاً، وكانت من قبل صفائح ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ أي لتقيكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي في الحرب حين قتال الأعداء ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾؟ أمرٌ واردٌ على صورة الاستفهام للمبالغة، أي اشكروا الله على ذلك.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي سخرنا له الريح تنقله من بلد إلى بلد، وتقطع به المسافات البعيدة، في فترة قصيرة ﴿عَاصِفَةً﴾ أي شديدة الهبوب ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي إن أرادها عاصفة كانت عاصفة، وإن أرادها لينة كانت لينة ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الشام، وذلك لأنها تجري بسليمان وأصحابه، حيث يشاء ثم يعود إلى منزله بالشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فنجريه حسبما تقتضيه الحكمة.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار بأمره لاستخراج الدر، وما يكون فيها من نفائسها ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير ما ذُكر كبناء المدن، والقصور، واختراع الصنائع النفيسة لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَه مَا يَشَاءُ مِنْ مَحارِيبَ وتَمَاثِيلَ﴾ ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم.

واعلم أن أجسام هذا العالم، إما كثيفة، أو لطيفة، فأكثف الأجسام: الحجارةُ، والحديدُ، وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام، فأنطق الحجر، وليَّنَ له الحديد، وألطفُ الأشياء الهواءُ، والنارُ، وقد

جعلهما الله معجزةً لسليمان عليه السلام، فسخَّر له الريح، وسخَّر له الجنَّ، لأن الشياطين مخلوقون من النار.

﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي واذكر خبر أيوب عليه السلام حين دعا ربه ﴿ أَنِّي ﴾ أي بأني ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ بالضم خاص، بما في النفس كمرض وهزال ونحوهما ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وصفه تعالى بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها، واكتفى به عن عرض المطلب، لطفاً في السؤال، وإنما شكى إليه تلذذاً بالنجوى، لا تضرراً منه بالشكوى، والشكاية إليه غاية القرب، كما أن الشكاية منه غاية البعد، وكان عليه السلام من ولد عيص بن إسحق عليه السلام، وكانت أمه من أولاد لوط عليه السلام، استنبأه الله تعالى، وكثَّر أهله وماله، وكان رحيماً بالمساكين، وكافلاً لليتامى والأرامل، وكريماً للضيف، وشاكراً لأنعم الله تعالى، فابتلاه الله بهلاك أولاده وذهاب أمواله، والمرض في جسمه، روي أن امرأته «رحمة» قالت له يوماً لو دعوتَ الله تعالى!! فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال أستحي من الله أن أدعوه، وما بلغتْ مدةُ بلائي مدةَ رخائي.

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه، وأزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ بأن ولد له ضعف ما كان، وولد له منهم نوافل ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ أي رحمة على أيوب، وتذكرة لغيره من العابدين، الصابرين على ما أصيبوا.

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾.

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ أي واذكر قصة هؤلاء الأنبياء الكرام، إسماعيل، وإدريس، وذا الكفل عليهم السلام ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأنبياء ﴿ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ على مشاق التكاليف، وشدائد الحياة.

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) ﴾.

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ أي أدخلناهم في الجنة دار الرحمة ﴿ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي الكاملين في الصلاح والتقوى.

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾.

﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ أي واذكر صاحب الحوت، وهو «يونس» عليه السلام ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ أي مراغماً لقومه غضبان عليهم، لعدم استجابتهم لدعوته، إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون، ولا يصح أن يقال: مغاضباً لربه، إذ لا يناسب منصب النبوة، روي أنه خرج من بين أظهرهم بعد أن تمادى إصرارهم، مهاجراً عنهم قبل أن يؤمر، وظن أن ذلك يسوغ ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي ظنَّ أن لن نضيِّق عليه، وهو كقوله تعالى: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيِّق، وليس هذا عقوبة وإنما هو ابتلاء، كما جاء في الحديث الشريف «أشدكم بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»[1] ﴿ فَنَادَى ﴾ أي فكان ما كان من المساهمة، والتقام الحوت له،

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في المرضى، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في المسند ١/ ١٧٣.

فنادى ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي في الظلمات الشديدة المتكاثفة: ظلمةِ بطن الحوت، والبحر، والليل ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أي بأنه لا إله إلا أنت يا رب فتداركني برحمتك ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي أنزّهك تنزيهاً من أن يعجزك شيء ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بتعريضها للهلكة، حيث بادرت إلى المهاجرة قبل الاستئذان.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ دعاءه على ألطف وجه وأحسنه، روى أبو هريرة مرفوعاً قال: أوحى الله تعالى إلى الحوت أن خُذْه، ولا تخدشْ له لحماً، ولا تكسرْ له عظماً، ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات دام في بطنه، وأراد بالغمِّ غمّ الالتقام له ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اي مثل ذلك الإنجاء البديع ننجي المؤمنين من الكروب والشدائد، إذا دعونا، واستغاثوا بنا بالإخلاص.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ أي واذكر خبره ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ بلا ولد يرثني ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ أي فحسبي أنت إن لم ترزقني وارثاً.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ أي رزقناه غلاماً اسمه يحيى، وقد مر كيفية استجابة دعائه في سورة مريم ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد أن كانت عاقراً لا تلد ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الأنبياء عليهم السلام المذكورون جميعاً ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تعليل لما فُصِّل من فنون إحسانه تعالى، المتعلقة بالأنبياء المذكورين، أي كانوا يبادرون في وجوه الخيرات، مع استقرارهم في أصل الخير، وهو السرُّ في إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنةٍ﴾ ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي ذوي رَغَب ورَهَب، راغبين للثواب، وخائفين من العقاب ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي مخبتين متضرعين، فالمعنى: إنهم نالوا ما نالوا، لاتصافهم بهذه الخصال الحميدة.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي اذكر خبر التي أعفَّت نفسها عن الفاحشة، وعن الحلال والحرام، كما قالت: ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ والتعبير بالموصول لتفخيم شأنها، وتنزيهها عما زعمه اليهود في حقها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي أحيينا عيسى في جوفها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من الروح الذي هو من أمرنا، وقيل: فعلنا النفخ من جهة روحنا جبريل عليه السلام، والإضافة للتشريف ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾ أي قصتهما، وحالهما ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن من تأمل حالهما، تحقق كمال قدرته عزَّ وجلَّ.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي ملة التوحيد والإسلام، أشير إليها بهذه تنبيهاً على

كمال ظهور أمرها في السداد ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي ملتكم وشريعتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها، وتراعوا حقوقها، والخطابُ للناس قاطبة ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام[1] إذ لا احتمال لتبديلها، كفروع الشرائع ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ لا إله لكم غيري ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ خاصة لا تعبدوا غيري.

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ التفات إلى الغيبة، لينعى على الذين تفرقوا في الدين تقبيح فعلهم، كأنه قيل: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكبوا في دين الله، الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام؟! ثم توعدهم بقوله ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من الفرق المتحزبة ﴿إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ بالبعث، فنجازيهم بأعمالهم، وقولهُ ﴿فمن يعمل﴾ تفصيلٌ للجزاء.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله، عبَّر عن ذلك بالكفران الذي هو شر النعمة، لبيان كمال نزاهته تعالى، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ أي لسعيه ﴿كَٰتِبُونَ﴾ أي مثبتون ذلك في صحائف أعمالهم.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) لا اختلاف في أصول الشرائع التي لا تتبدل بتبدل الأعصار، فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم دينهم واحد، وشرائعهم مختلفة، كما قال سبحانه: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ ﴾ أي ممتنع على أهلها ﴿ أَهۡلَكۡنَٰهَآ ﴾ قدرنا هلاكها لغاية طغيانهم ﴿ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ أي ممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء، وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر، لأنهم المنكرون للبعث والرجوع[1].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ ﴾ «حتى» للغاية كأنه قيل: يستمرون على ما هم عليه، حتى إذا قامت القيامة، يرجعون إلينا، ويقولون يا ويلنا الخ ﴿ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾ قبيلتان من الإنس والمراد بفتحها فتح سدها ﴿ وَهُم ﴾ أي يأجوج ومأجوج ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٖ ﴾ أي نَشز من الأرض، أي ارتفاع من الآكام، والتلال ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ أي يسرعون، وأصله مقاربة الخطوات مع الإسراع، والحَدَبُ بفتحتين: ما ارتفع من الأرض.

﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ ﴾ والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب لا النفخة الأولى ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ جواب الشرط وإذا للمفاجأة ﴿ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي مرتفع الأجفان لا تكاد تطرف من هول

---

(١) هذا وجه في تفسير الآية الكريمة، وروى الحافظ ابن كثير عن ابن عباس أن معنى الآية: ممتنع على أهل قرية أهلكناهم، أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية. ا هـ يريد أنه من المستحيل عودتهم إلى الدنيا بعد الهلاك، حتى تقوم الساعة فيرجعون للحساب والجزاء.

ما هم فيه ﴿ يَٰوَيۡلَنَا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يقولون يا ويلنا ﴿ قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ﴾ تامة ﴿مِّنۡ هَٰذَا﴾ الذي دهمنا من البعث، ولم نعلم أنه حق ﴿ بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي لم نكن غافلين عنه، حيث نُبِّهنا عليه بالآياتِ والنُّذر، بل كنا ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿ إِنَّكُمۡ ﴾ خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم ﴿ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أصنامكم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ هو ما يرمى به ويهيج النار، الحَصَبُ بفتحتين: ما هُيِّىءَ للوقود من الحطب ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي فيها داخلون، والخطاب لهم ولما يعبدون تغليباً، روي أن رسول الله ﷺ تلا الآية، فقال له ابن الزبعرى: أليست اليهود عبدوا عزيراً، والنصارى المسيح، وبنو مليح الملائكة، فردَّ عليه ﷺ فقال: أما علمتَ أن «ما» لما لا يعقل، على أنهم لا يعبدون هؤلاء بل يعبدون الشيطان..

﴿ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي أصنامهم ﴿ ءَالِهَةٗ ﴾ كما يزعمون ﴿ مَّا وَرَدُوهَاۖ ﴾ وحيث تبيَّن ورودهم إياها، تعيَّن امتناع كونها آلهة بالضرورة ﴿وَكُلّٞ﴾ من العبدة والمعبودين ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا خلاص لهم عنها.

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾ أي أنين وتنفسٌ شديد ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ أي لا يسمع بعضهم زفير بعض، لشدة الهول والعذاب وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين، حسبما جرت سُنَّة التنزيل، من إيراد الترغيب إثر الترهيب ﴿ ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ أي الخصلة الحسنى وهي السعادة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿ عَنْهَا ﴾ عن الجحيم ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ لأنهم في الجنة، وشتان بينها وبين النار.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أي لا يسمعون صوتها سمعاً ضعيفاً، كما هو المعهود عند كون الشخص بعيداً، وإن كان صوته في غاية الشدة ﴿ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ بيان لفوزهم بالمطالب، إثر بيان خلاصهم من المهالك، أي دائمون في غاية التنعّم.

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ بيان لنجاتهم من الأفزاع بالكلية ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي تستقبلهم مهنئين لهم ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ﴾ أي قائلين هذا اليوم يومكم ﴿ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا، وتُبَشَّرون بما فيه من المثوبات.

﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ ﴾ الطيُّ: ضدُّ النشر، أي نطوي السماء طياً

﴿ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ ﴾ وهي الصحيفة أي طياً كطيّ الصحف ﴿ لِلْكُتُبِۚ ﴾ أي للكتب التي كتب فيها، فسجلُّها بعض أجزائها، وبه يتعلق الطيُّ، فالسماوات تُطوى كما تُطوى الصحف والسجلات ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ ﴾ أي نعيد ما خلقناه، إعادةً مثل بدئنا إياه، في كونها إيجاداً بعد العدم، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على البداء، واختلفوا في كيفية الإعادة؟ فمنهم من قال: إن الله يفرّق الأجزاء، ولا يعدمُها، ثم إنه يعيد تركيبها، ومنهم من يقول: إنه تعالى يعدمها بالكلية، ثم إنه يوجدها بعينها مرة أخرى، وهذه الآية دالة على هذا الوجه، لأنه سبحانه شبَّه الإعادة بالابتداء، والابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء، بل عن الوجود بعد العدم ﴿وَعْدًا ﴾ مصدر مؤكد لفعله ﴿ عَلَيْنَآۚ ﴾ إنجازه ﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ لما ذُكر لا محالة، فاستعدُّوا له بصالح الأعمال، للخلاص من هذه الأهوال، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إنكم محشورون إلى الله، حفاة، عراةً، غُرْلاً[1]».

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ ﴾ هو كتاب داود عليه السلام ﴿ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ أي من بعد اللوح المحفوظ، أي وبالله لقد كتبنا في كتاب داود بعدما كتبنا وسطّرنا في اللوح المحفوظ ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي أرض الجنة، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ للهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان وتتمته ﴿كَمَا بدأْنَا أوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُه وَعْدَاً عَلَيْنَا إنَّا كنَّا فَاعِلينَ﴾ ألاَ وإنَّ أولَ الخلائق يُكسىٰ يوم القيامة: إبراهيمُ عليه السلام، ألاَ وإنه سيجاء برجالٍ من أمتي، فيؤمر بهم ذات الشمال ـ أي إلى النار ـ فأقول أي ربِّ أمتي!! فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم بعد أن فارقتهم!! فأقول: سُحْقاً، سُحْقاً».

نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّة حَيْثُ نشاءُ﴾[1] وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقيل الأرض المقدسة، وهو قول الكلبي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الآية ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ أي المؤمنون، وهذا وعدٌ منه تعالى بإظهار دين الإسلام.

﴿إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي هَـٰذَا﴾ أي فيما ذُكر في السورة الكريمة، من الأخبار والمواعظ، والوعد والوعيد، والبراهين على التوحيد ﴿لَبَلَـٰغًا﴾ أي لكفاية وموعظة ﴿لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ﴾ أي موحدّين مؤمنين، همُّهم الطاعةُ والعبادة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ يا محمد بما ذُكر، وبأمثاله من الشرائع والأحكام، التي هي مناطٌ لسعادة الدارين ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ قاطبة، فإنَّ ما بعثتَ به سببٌ لسعادة الدارين، ومنشأ، لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومن لم يغتنم مغانم آثاره، فإنما فرّط في نفسه[2].

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي ما يوحى إليَّ إلاَّ

(١) سورة الزمر، آية: ٧٤.

(٢) إن قيل: كيف قال: ﴿وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين﴾ مع أن النبي ﷺ لم يكن رحمة للكافرين، لأنه أرسل بالسيف عليهم؟ فالجواب أن بعثه رحمة للكفار أيضاً، من حيث أن عقوبتهم أُخِّرت بسببه، وأمنوا به من عذاب الاستئصال، الذي كان يأخذ الله به المكذبين، من الأمم السابقة، ثم إن تعاليمه ﷺ رحمة لجميع الخلق لو عقلوها!!.

أن معبودكم هو إله واحد، لا شريك له في ملكه، وإنما جاء بصيغة الحصر «إنما» لأن التوحيد هو المقصود الأصلي من البعثة، وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرعة عليه[1] ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ أي مخلصون العبادة لله تعالى؟.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿آذَنتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم إعلاماً واضحاً ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي على عدل واستقامة، بالبرهان النيِّر، فلا حجة لكم بعد اليوم، فالمعنى: أعلمتكم ما أُمرتُ به، كائنين على سواء في الإعلام، لم أطوه عن أحد منكم، وما فرَّقتُ بينكم في النصح وتبليغ الرسالة ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؟ من غلبة المسلمين، وظهور الدين؟ ولا متى يكون ذلك العذاب لكم؟.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي يعلم ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام، وتكذيب الآيات والرسول ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الإحَن والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه.

---

(١) شريعة الرسول ﷺ عادلة كاملة، جاءت لخير البشرية جميعها، وحوت كل الفضائل الخُلقية، والاجتماعية، فقد روي عن أبي داود يقول: كتبت عن النبي ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها أربعة آلاف حديث، وثمانمائة حديث، ويكفي للإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث، حديث «الأعمال بالنيات».. وحديث «الحلالِ بيِّن، والحرام بيِّن..» وحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وحديث «لا يكون المؤمن مؤمناً، حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه» ا هـ.

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ وَإِنْ أَدْرِي ﴾ وما أدري ﴿ لَعَلَّهُۥ ﴾ لعل تأخير جزائكم ﴿ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ استدراج لكم، لينظر كيف تعملون ﴿ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي تمتع إلى أجل مقدَّر، تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكَم البالغة.

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي احكم بيننا وبين أهل مكة بالعدل ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي كثير الرحمة على عباده ﴿ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ أي المطلوب منه المعونة ﴿ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ من الحال فإنهم كانوا يقولون إن الشوكة تكون لهم وإن المتوعد به لو كان حقاً لنزل بهم، إلى غير ذلك مما لا خير فيه، فاستجاب الله دعوة رسوله ﷺ فخيَّب آمالهم، وغيَّر أحوالهم، وأصابهم يوم بدر ما أصابهم!! والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله تعالى على خير خلقه، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء».

* * *



مدنية وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطابٌ يعم حكمه جميع المكلفين، إلى يوم القيامة ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ أي احذروا عقابه، واعملوا بطاعته، والمأمور به مطلق التقوى، الذي هو التجنب عن كل ما يؤثم به، أي احذروا عقوبة مالك أموركم، ومربيكم، رب العزة والجلال ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ إضافتها إلى الساعة، إضافة المصدر إلى فاعلها، كأنها هي التي تزلزل الأشياء، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرضُ زلزالها﴾ وعن ابن عباس زلزلة الساعة: قيامُها، وعن علقمة والشعبي: أنها قبل طلوع الشمس من مغربها ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ والتعبير عنها بالشيء، إيذان بأن العقول، قاصرة عن إدراك كنهها.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾ أي وقت رؤياكم الزلزلة ﴿تَذۡهَلُ﴾ أي تغفل وتنسى مع دهشة ﴿كُلُّ مُرۡضِعَةٍ﴾ أي مباشرة للإرضاع ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ عما بصدد إرضاعها من طفلها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾ أي تلقي جنينها لغير تمام، وهو تمثيل لتهويل الأمر، فالأمر حينئذٍ أشد وأعظم مما وُصف ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ أي يراهم كل أحد ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ كأنهم سكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ حقيقة ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ فيرهقهم هوله، وتطير له عقولهم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ كلام مبتدأ لبيان حال بعض المنكرين للساعة، أي وبعض الناس ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ أي في شأنه تعالى، ويقول فيه ما لا خير فيه ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي بلا علم وحجة، روي أنها نزلت في النضر بن الحارث، وكان كثير الجدل، يقول: لا بعث بعد الموت، والقرآن أساطير الأولين، وهي عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين، والمراد من هذه المجادلة، هو المجادلةُ في البعث، لأن ما قبل هذه الآية وما بعده في أمر البعث ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي يطيع ويقتدي في عامة أحواله ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ أي متجرد للفساد، عات متمرد والمراد ههنا رؤساء الكفر الصادين عن الحق، الذين يدعون من دونهم إلى الضلال.

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ أي على من تولى الشيطان، واتخذه له صديقاً ﴿أَنَّهُۥ﴾

أي أن الشأن ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي اتخذه ولياً وتبعه ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ عن سواء السبيل، لأنه جبل عليه ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي يدعوه ويحمله مباشرة على السيئات التي توصله إلى عذاب جهنم المستعرة، وعبَّر بلفظ ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ على طريقة التهكم، لأن الهداية لا تكون إلى عذاب الجحيم.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ إثر ما حكى أحوال المجادلين بغير علم أقيمت الحجة الدالة على تحقق ما جادلوا فيه ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى، أو من وقوعه ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ أي فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم فإنا خلقنا كل فردٍ منكم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ في ضمن خلق آدم عليه السلام منه خلقاً إجمالياً ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي منيٍّ، من النَّطْفِ الذي هو الصبُّ، وهذا المنيُّ يحصل من الأغذية، التي تتكون من التراب، يقال: نَطَفَ أي سال، والنطفةُ ماءُ الرجل والمرأة ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي قطعة من الدم جامدة متكونة من المني، والعلقةُ: شيء متجمد من المنيّ، ينتقل بعد طرده فيصير دماً غليظاً متجمداً، ثم ينتقل طوراً آخر فيصير لحماً، وهو المضغة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي قطعة من اللحم متكونة من العلقة ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ أي مستبينة الخلق ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي لم يستبن خلقُها، والمراد تفصيل حال المضغة، وكونها أولاً قطعة لحم، لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت شيئاً فشيئاً ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي خلقناكم على هذا

النمط البديع، لنبين لكم بذلك قدرتنا، وحكمتنا[1]، مما لا يحيط به العقل، من الدقائق التي من جملتها سر البعث، فإنَّ من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجي، تأملاً حقيقياً، جزم جزماً ضرورياً، بأن من قدر على خلق البشر، من تراب لم يشم رائحة الحياة قطُّ، فهو قادر على إعادته، بل هو أهون في القياس، ولهذا قال تعالى: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ أي ونحن نقرُّ ونثبت في الأرحام بعد ذلك، ما نشاء أن نقره فيها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت الوضع، وأدناه ستة أشهر، وأقصاه سنتان، وفيه إشارة إلى أن بعض ما في الأرحام لا يشاء الله إقراره فتسقطه ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ أي حال كونكم أطفالاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً، ثم لتبلغوا كمالكم في القوة، والعقل، والتمييز، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله، أو بعده ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي ليعود إلى ما كان عليه، في أوان الطفولة، من ضعف البنية، وسخافة العقل، وضعف الذاكرة ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ حجة أخرى على صحة البعث، والخطاب لكل أحد، و(هامدة) حال من الأرض أي ميّتة، يابسة، من همدت النار إذا صارت رماداً، وذهب حرُّها ولم يبق منه شيء ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت وازدادت ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن رائق، يسرُّ ناظرَه، وهذه دلالة كررها الله تعالى في كتابه، لظهورها وكونها مشاهدة.

---

(١) دلالة تولد الإنسان من النطفة على وجود الصانع، من أظهر الدلائل، لأن حدوث الإنسان، إنما كان بسبب اجتماع أجزاء متفرقة، في بدن الوالدين، بل في جميع العالم، فلما قدر الصانع، على جمع تلك الأجزاء المتفرقة، وجب أن يقال: إنه بعد موته، وتفرق أجزائه، لا بد أن يقدر الصانع، على جمع تلك الأعضاء، وجعلها خلقاً سوياً كما كان ذلك أولاً، فهذا برهان ناصع، ولهذا استدل به القرآن.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة، وإحياء الأرض بعد موتها، لبيان أن ذلك من آثار ألوهيّته تعالى ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي ذلك الصنع البديع، حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده، في ذاته وصفاته وأفعاله، المحقق لما سواه من الأشياء ﴿ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي شأنه إحياؤها، وأنه قادر على إحيائها، بدءاً وإعادة، وإلاَّ لما أحيا النطفة، والأرض الميتة مراراً ﴿ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي مبالغ في القدرة فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات، لزم اقتداره على إحيائها كلها.

﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ فيما سيأتي، وإيثار صيغة الفاعل للدلالة على تحقق إتيانها، لاقتضاء الحكمة إياه لا محالة ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ في ظهور أمرها، ووضوح دلائلها ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ للجزاء، وهذه كما ترى من أحكام حكمته وجلاله، أنه تعالى حكيم عادل، لا يخلف ميعاده، وقد وعده بالساعة والبعث، فلا بدَّ أن يفي بذلك.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الآية فيمن يتصدى لإضلال الناس، كما أن الأول فيمن يقلّدهم فلا تكرار ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ هو الاستدلال بالأدلة العقلية ﴿ وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي وحي مظهرٍ للحق، فالمعنى: يجادل في شأنه تعالى، من غير تمسك بمقدمة علمية، ولا بحجة نظرية، ولا برهان سمعي، فهو يجادل بالباطل.

﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾ أي عاطفاً لجانبه، معرضاً متكبراً، فإن ثني العِطْف كنايةٌ عن التكبر ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ متعلق بيجادل، فإن غرضه الإضلال عنه، وإن لم يعترف بأنه إضلال، أو معرضاً عن الحق استخفافاً به ﴿ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أي النار الشديدة المحرقة.

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروي ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أي بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي، والالتفات لتأكيد الوعيد، وكنَّى عنه باليد، لأن اليد آلة الكسب ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب، وإنما هو مجازٍ لهم على أعمالهم، فحكمه عدل.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ ﴾ شروع في بيان حال المذبذبين، إثر بيان حال المجاهرين ﴿ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ أي على طَرَفٍ من الدِّينِ، وهذا مَثَلٌ لكونه على قلق، كالذي ينحرف إلى طرف الجيش، إن أحسَّ بظفر قَرَّ، وإلاَّ فَرَّ ولهذا قال سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ من الصحة والسعة، أي ثبت على ما كان عليه ظاهراً، لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين، الذين لا يلويهم عنه صارف ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي شيء يُفتتن به من مكروه يعتريه في

نفسه، أو أهله، أو ماله ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ أي ارتدَّ ورجع إلى الوجه الذي كان عليه، من الكفر، روي أنها نزلت في قوم من الأعراب، «كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا صحَّ بدنه، ونتجت فرسُه مهراً، وولدت امرأته غلاماً، وكثر ماله، قال: هذا دينٌ حَسَنٌ، وقد أصبت فيه خيراً واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً، وانقلب»[1] ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ ضيَّعهما بذهاب عصمته، وحبوط عمله بالارتداد ﴿ذَٰلِكَ﴾ خسران الدارين ﴿هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الظاهر الذي لا يخفى على أحد.

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾.

﴿يَدۡعُواْ﴾ استئناف مبين لعظم الخسران ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يعبد متجاوزاً عبادة الله تعالى ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إذا لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إن عبده، أي يعبد جماداً ليس من شأنه الضر والنفع ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الدعاء والعبادة لغير الله ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ عن الحق والهدى.

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾.

﴿يَدۡعُواْ﴾ استئناف لتقرير كونه ضلالاً بعيداً ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ أي يعبد وثناً وصنماً ضرُّه في الدنيا ـ لو سلمنا ضره ونفعه ـ أكثر من نفعه، لأنه يعبد جماداً لا حسَّ له ولا شعور، فهو يتضرر بعبادته دون أي جدوى أو منفعة، وإيراد صيغة التفضيل مع خلوّه عن النفع، للمبالغة

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج عن ابن عباس، وانظر كامل الرواية في جامع الأصول ٢/ ٢٤١.

في تقبيح حاله، أي يقول يوم القيامة حين يرى تضرره بمعبوده، ودخول النار بسببه ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ الناصر هو ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ ولبئس المصاحب هو، وقيل: هذا في الرؤساء، وهذا الوصف بالرؤساء أليق، ولا يستعمل في الأوثان.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ استئناف لبيان حال المؤمنين، العابدين له، إثر بيان غاية سوء حال الكفرة ومآلهم، وأن معبودهم لا يجديهم شيئاً من النفع، بل يضرهم مضرة عظيمة، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليل لما قبله وتقريرٌ له، أي يفعل كل ما يريده من الأفعال اللائقة المبنية على الحكم الرائعة التي من جملتها إثابة من آمن وعقاب من أشرك به.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الضمير في ﴿ينصره﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام تحقيقاً للنصرة، وتقريراً لثبوتها، على أبلغ وجه، وفيه إيجاز بارع، والمعنى: أنه تعالى ناصرٌ لرسوله ﷺ في الدنيا والآخرة، لا محالة، فمن كان يغيظه ذلك، من أعاديه وحسّاده، فليبالغ في استفراغ المجهود، فقصارى أمره أن يختنق خنقاً ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي فليمدد حبلاً إلى سقف بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ليختنق بحبس مجاريه ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ أي فليتصوّر في نفسه ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ أي إن فعل ذلك بنفسه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ أي ما يغيظه من النصرة؟ كلاَّ، يعني أنه لا يقدر على

دفع النصرة وإن مات غيظاً، وسمَّىٰ فعله كيداً على سبيل الاستهزاء[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحِكَم البالغة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ به ابتداء ويثبت على الهداية ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايته وتثبيته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾ قيل هم قوم يعبدون النار، وقيل: الشمس والقمر ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ هم عبدة الأصنام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيجازي كلاً ما يليق به، ويدخله المحل المعد له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لما قبله، أي عالم بكل شيء، ومراقب لأحواله، ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) خلاصة معنى الآية: من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله في الدنيا والآخرة، فليمدد بحبل إلى السقف ثم يشنق نفسه، ويختنق به، فلينظر هل يشفي ذلك ما في صدره من الغيظ من دعوة الرسول ﷺ؟ قال الحافظ ابن كثير: وهذا القول قول ابن عباس، وهو أظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم، أي فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية، والمراد بالسجود الانقياد التام لتدبيره تعالى، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء، وقيل: إن الكل يسجد له، ولكنا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ أفردها بالذكر لاستبعاد ذلك منها عادة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿وَكَثِيرٌ﴾ معطوف على كثير الأول، للإيذان بغاية الكثرة، ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب، كأنه قيل: وكثير من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي بكفره واستعصائه ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بأن كتب عليه الشقاوة، حسبما عَلِمه من صرف اختياره إلى الشر ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يكرمه بالسعادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ من الأشياء التي من جملتها الإكرام والإهانة.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي فريق المؤمنين، وفريق الكفرة، يختصمان والخصم صفة وُصف بها الفوج، فكأنه قيل: فوجان يختصمان ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾أي في شأنه عزَّ وجل ودينه، في ذاته وصفاته، كلٌ من الفريقين له خصومة على الفريق الآخر، فقد تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقالت اليهود: نحن أحق بالله، وأقدمُ منكم كتاباً ونبياً، وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله منكم، آمنا بنبينا ونبيكم، وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تكفرون به حسداً ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿يفصل بينهم يوم القيامة﴾ ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ﴾ قدرت على مقادير

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

جثثهم ﴿ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي نيران هائلة، تحيط بهم إحاطة الثياب بلابسها ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ أي الماء الحار الذي انتهت حرارته.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ يذاب بالحميم الذي يصب ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ من الشحوم، والأحشاء، والأمعاء ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ أي تشوى جلودهم فتتساقط، إذا صبَّ الحميم على رؤوسهم، لغاية شدة الحرارة.

﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَهُم﴾ للكفرة أي لتعذيبهم ﴿مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ جمع مقْمَعة، وهي آلة القمع، أي سياط يُجلدون بها.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ أي كلما أشرفوا على الخروج من النار لما يلحقهم ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ أي من غم شديد من غمومها ﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ أي في قعرها، بأن رُدُّوا من أعاليها إلى أسافلها، من غير أن يخرجوا منها ﴿وَذُوقُوا۟﴾ أي قيل لهم ذوقوا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي النار البالغة في الإحراق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين، وتصدير الجملة بحرف التحقيق، إيذاناً بمباينة حالهم لحال الكفرة، وإظهاراً لمزيد العناية بأمر المؤمنين ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من حلَّيتُ المرأة إذا ألبستها الحلي ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع سوار، وهو ما يلبس في المعصم ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ أي الأساور الذهبية ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ أي ويُحلَّون باللؤلؤ كذلك إكراماً لهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي ولباسهم في الجنة الحرير، وهو أرفع اللباس وأفضله.

﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي الكلام الطيب، والقول النافع، إذ ليس في الجنة لغو ولا كذب، فهم في ذكر وتسبيح كقولهم: ﴿الحَمْدُ للهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي المحمود وهو الجنة، دار الخلد والنعيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بما جاء به رسول الله ﷺ ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي ويمنعون الناس عن طاعة الله والدخول في دينه، كما يمنعونهم عن أداء المناسك في البيت الحرام، قال ابن عباس: نزلت الآية عام الحديبية، لأن قريش صدُّوا رسول الله ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس، كائناً من كان، من غير فرق بين قلبي وآفاقي، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إنهما يستويان في سكنى مكة فليس أحدهما أحق بالمنزل الذي يكون فيه من

الآخر، إلا أن يكون واحد سبق إلى المنزل، وهو مذهب أبي حنيفة واحتجوا عليه بالآية الكريمة، وبالخبر، وهو قوله ﷺ: «مكة مباحة لمن سبق إليها» واحتج الشافعي رحمه الله بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ فقد نسب الدور لهم، وقوله ﷺ يوم مكة «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» وإن أريد بالمسجد الحرام البيت فالمعنى أنه قبلة لجميع الناس ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي المقيم وغير المقيم وفائدة وصف المسجد بذلك، زيادة تشنيع الصادين عنه، والبدو خلاف الحضر ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ ترك مفعوله ليتناول كل متناول كأنه قيل ومن يرد مراداً ما ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ بعدول عن القصد ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حق، وهما حالان مترادفان أي ملحداً بسبب الظلم، كالإشراك، واقتراف الآثام، وكل شيء كان منهياً من قول، أو فعل، روى يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام في الحرم إلحادٌ فيه»[1] ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي نذقه أشد أنواع العذاب الموجع، لأن الكفر والصد من أشد أنواع الإلحاد فيه، وكلُّ من ارتكب ذنباً فهو كذلك.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي اذكر وقت جعلنا ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ مباءة له عليه السلام أي مرجعاً إليه، للعمارة، والعبادة، وقيل (بوّأنا) أي بيّنا مكان البيت فبعث الله سبحانه ريحاً، فكنست له ما حول البيت عن الأساس وقيل: بعث الله سحابة بقدر البيت وقيل يا إبراهيم ابْنِ على قَدْرِها ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ مفسرة لبوأنا لأنه متضمن لمعنى تعبدنا، أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي شيئاً ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ أي وطهر بيتي من الأوثان

---

(١) أخرجه أبو داود رقم ٢٠٢٠ في المناسك، باب تحريم حَرَم مكة.

والأقذار ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي لمن يطوف، ويصلي فيه، عبّر عن الصلاة بأركانها، لأن الركوع والسجود أهمُّ أركانها.

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي أعلم ونادِ فيهم ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بدعوة الحج، والأمر به، روي أنه عليه السلام «صعد أبا قبيس، فقال: يا أيها الناس حجُّوا بيت ربكم، فأسمعه الله تعالى من قُدِّر لهم أن يحجوا، فقالوا لبيك اللهم لبيك» ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي مشاةً على أرجلهم جمع راجل ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل بعير مهزول، أتعبه بُعْدُ السفر ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لضامر، لأنه في معنى الجمع ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ أي من كل طريقٍ واسع ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد، فمن أتى الحج، فكأنه قد أتى إبراهيم عليه السلام، لأنه مجيب لندائه، يُقال: ضَمَرَ الفرسُ أي هَزُل ودقّ وقلَّ لحمه، وقدَّم الرجال على الركبان، إظهاراً لفضيلة المشاة، والحج فريضة لما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناسُ قد فَرَض الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا»[1].

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ أي ليحضروا ﴿مَنَٰفِعَ﴾ عظيمة الخطر، كثيرة العدد، من المنافع الدينية والدنيوية، المختصة بهذه العبادة ﴿لَهُمْ﴾ أي كائنة لهم

---

(١) طرف من حديث أخرجه مسلم رقم ١٣٣٧ في الحج.

﴿ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ عند ذبح الهدايا والضحايا، ﴿ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ هي أيام النحر، وهي عشر ذي الحجة عند أبي حنيفة وآخرها يوم النحر، وهو قول ابن عباس، وقول أكثر المفسرين، وعند صاحبيه هي أيام النحر، وهو قول ابن عمر ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ وهو يؤيد قولهما، علق الفعل بالمرزوق، وبيّن بالبهيمة تحريضاً على التقرب، وتنبيهاً على الذكر ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ أي فاذكروا اسم الله على ضحاياكم، وكلوا من لحومها، والأمر للإباحة لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم ﴿ وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة ﴿ ٱلْفَقِيرَ ﴾ المحتاج.

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾ أي ليؤدوا إزالة وسخهم، قيل: قضاء التَّفثِ قصُّ الشارب، والأظفار، ونتف الإبط، والاستحداد، والتَّفَثُ: الوسخ. تَفِثَ من باب تعِب. إذا ترك الأدهان فعلاه الوسخ ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ ما ينذرونه من البر في الحج، وقيل مواجب الحج ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ ﴾ أي ليطوفوا طواف الزيارة، الذي هو ركن الحج، ويقع به تمام التحلل، وقيل: طواف الوداع ﴿ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ أي القديم، لأنه أول بيت وضع للناس، أو المعتَق من تسلط الجبابرة، روى مسلم عن جابر بن عبد الله، في قصة حجة الوداع، قال: «وقدم عليٌّ بِبُدنٍ من اليمن، وساقَ رسولُ الله ﷺ مائةَ بَدَنة، فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين بَدَنة، ونحر عليٌّ ما غَبَر - أي ما بقي - ثم أمر من كل بَدَنة ببَضْعَةٍ، فجُعلتْ في قِدرٍ وطُبخت، فأكل من لحمها، وشربَ من مرقها»[1].

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الحج، حجة الوداع وهو حديث طويل مشهور، وهذا طرف منه برقم ١٢١٨ وانظر تمامه في جامع الأصول ٣/ ٤٦٠.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر ذلك، هذا وأمثاله يُطلق للفصل بين الكلامين ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه من التكاليف، وقيل الكعبة، ومعنى التعظيم، العلم بأنها واجبة، والقيام بمراعاتها ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ فالتعظيم خير له ثواباً ﴿ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ في الآخرة ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ أي أن تأكلوها بعد الذبح ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي تحريمه ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ الرِّجسُ: النجسُ والقذر، وسمى الأوثانَ رجساً، لأن عبادتها أخبث من التلوث بالنجاسات ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزور، وكأنه حثَّ على تعظيم الحرمات، وأتبع ذلك بتحريم شهادة الزور، لأنها تعدل الإشراك بالله، كما ورد في الحديث الشريف[1]، وقيل: هو عمل أهل الجاهلية حيث كانوا يقولون في تلبيتهم «لبيك لا شريك لكَ، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ أي مستسلمين لأمر الله غير مشركين به أحداً ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ جملة مؤكدة لما قبلها، وإظهار الاسم الجليل،

---

(١) أشار إلى الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس عدلت شهادةُ الزور الإشراك بالله، ثم قرأ ﷺ: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾».

لإظهار قبح الإشراك ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سقط، لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي فتتخطفه الطير، وتمزّقه كل ممزق، وتسلبُه بسرعة ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي تذهب به وتقذفه ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد، لا نجاة له ولا خلاص، شبَّه الإيمان بالسماء في علوه، والذي أشرك بالساقط منه، والأهواء الرديّة بالطير المختطفة، والشيطان بالريح التي تهوي في المهاوي المتلفة.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي الهدايا والأضاحي فإنها من معالم الحج وشعائره تعالى، كما ينبىء عنه قوله: ﴿وَالبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ وهو الأوفقُ لما بعده، وقيل شعائر الله: أعلام دينه، وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجلِّ القربات، وأن يختارها حساناً سِماناً غالية الأثمان، روي أن عمر رضي الله عنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي فإن تعظيمها ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي من أفعال ذوي تقوى القلوب، وتخصيصها بالإضافة لأنها مراكز التقوى، التي إذا ثبت فيها الإيمانُ وتمكنت، ظهر أثرها في سائر الأعضاء فإن قال قائل: ما الحكمة أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح الحيوانات؟ فالجواب قوله تعالى:

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الهدايا وقيل في شعائر الله ﴿مَنَٰفِعُ﴾ هي درها ونسلها وصوفها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والأكل منه ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي وجوب نحرها منتهية ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي إلى ما يليه من الحرم، فالحرمُ كله مكانٌ لنحر الهَدْي وذبحه.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي لكل أهل دين ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ أي متعبداً وقرباناً، يتقربون به إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿ لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ خاصة دون غيره، فالمقصود الأصلي من المناسك، تذكر المعبود ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ عند ذبحها، بيَّن تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى، وعلى اسمه، لأنه هو الخالق الرازق، لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الخطاب للكل تغليباً، ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أخلصوا له العبادة والطاعة، ولا تشوبوه بالإشراك ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ تجريد للخطاب إلى الرسول ﷺ، أي المتواضعين أو المخلصين في عبادتهم لله.

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ لإشراق أشعة جلاله عليها، وخافت منه تعالى هيبة ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ من مشاق التكاليف، ومؤونات النوائب ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي ينفقون بعض أموالهم ابتغاء مرضاة الله.

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة وإنما سميت الإبل بُدْناً لعظم بَدَنها ﴿ جَعَلْنَٰهَا لَكُم ﴾ سخرناها لكم ﴿ مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ من أعلام دينه التي شرعها

الله تعالى ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي منافع دينية، ودنيوية ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي عند ذبحها بأن تقولوا: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك» ﴿صَوَافَّ﴾ أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت بعد النحر، ووقعت على الأرض، وهو كناية عن الموت ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ الراضي بما عنده، وبما يُعطى من غير مسألة، والمراد به المتعفف الذي لا يسأل الناس ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي السائل وهو الذي يريك نفسه، ويتعرض لك، والمعتر: هو الذي يطيف بالناس ويطلب منهم ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التسخير ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ مع عظمها ونهاية قوتها، فلا تستعصي عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا الله على إنعامه.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ﴾ أي لن يبلغ مرضاته، ولن يصل إليه سبحانه شيء من ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدق بها ﴿وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ المهراقة بالنحر، من حيث إنها لحوم ودماء ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ ولكن يصيبه تقوى قلوبكم، التي تدعوكم إلى الامتثال بأمره تعالى، وتعظيمه، والإخلاص له ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تكرير للتذكير، والتعليل بقوله ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره، فتوحّدوه بالكبرياء ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي أرشدكم إلى طريق تسخيرها ولمعالم دينه، ومناسك حجه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المخلصين في كل ما يأتون وما يذرون.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي يدفع عنهم بأس المشركين، هذه بشارة للمؤمنين بأن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم، وصيغة المفاعلة للمبالغة أي يدافع عنهم مرة بعد أخرى، حسبما تجدَّد منهم الإضرار بالمسلمين كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾[1] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ تعليل لما في ضمن الوعد الكريم، وإيذان بأن دفعهم بطريق القهر والخزي، أي أن الله يبغض كل خوان في أماناته، وهي أوامره ونواهيه، وكفور لنعمته.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ﴾.

﴿ أُذِنَ ﴾ أي رُخِّص ﴿ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ﴾ أي يقاتلهم المشركون، والمأذونُ فيه محذوف، لدلالة المذكور عليه، أي أذن لهم بالقتال دفاعاً عن أنفسهم، فإن مقاتلة المشركين إياهم، دالة على الإذن لهم بالقتال ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ أي بسبب أنهم ظلموا، وهم أصحاب النبي ﷺ، كان المشركون يؤذونهم، وكانوا يأتونه ﷺ بين مضروبٍ ومشجوج، ويتظلَّمون إليه فيقول ﷺ لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجروا، فأنزلت الآية، وهي أول آية نزلت في القتال، بعدما نهى الله تعالى عنه، فيما يزيد على سبعين آية ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وعدٌ لهم بالنصر، وتأكيد لما مر من العدة بالدفع وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدي المشركين، بل تغليبهم وإظهارهم عليهم، والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم، وارد على سنن الكبرياء، وتأكيده بكلمة التحقيق واللام، لمزيد تحقيق مضمونه، وزيادة توطين نفوس المؤمنين.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٤.

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾ يعني مكة ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أي بغير ما يوجب إخراجهم ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أي بغير موجب سوى التوحيد، الذي ينبغي أن يكون موجباً للإقرار والتمكين، دون الإخراج من الديار والأوطان، ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ ؟ الآية على طريقة قول النابغة:

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ ... بِهِـنَّ فُلُـولٌ مِـنْ قِـرَاعِ الكَتَـائِـبِ

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل ﴿ صَوَٰمِعُ ﴾ للرهبانية المتخذة في الصحراء ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ هي معابد النصارى في البلد ﴿ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ كنائس اليهود، سميت بها لأنها يُصَلَّى فيها ﴿ وَمَسَـٰجِدُ ﴾ للمسلمين ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ أي ذكراً كثيراً وهي صفة مادحة للمساجد، خُصَّت بها، دلالة على فضلها، وفضل أهلها[1] ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ أي والله لينصرن الله من ينصر رسوله ودينه، ولقد أنجز الله وعده، حيث سلَّط الله المهاجرين والأنصار، على صناديد العرب، وأكاسرة

---

(١) فإن قيل: أيُّ منّةٍ على المؤمنين في حفظ الصوامع والكنائس؟ فالجواب أن المراد من الآية الكريمة، لهدّمت صوامع في زمن عيسى، وكنائس في زمن موسى، ومساجد في زمن النبي ﷺ، فالامتنان في الآية على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصة، وكأن الآية تقول: لولا دفاع الله عن المؤمنين في كل زمان، لهدمت معابد أهل الأديان جميعها.

العجم، وقياصرة الروم، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قوي على كل ما يريده، لا يعجزه شيء، وعزيز لا يمانعه شيء ولا يدافعه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ وصفٌ من الله عزَّ وجلَّ للذين أُخرجوا من ديارهم، بما سيكون منهم من حسن السيرة، عند تمكينه تعالى إياهم في الأرض، منبيء عن عِدة كريمةٍ، على أبلغ وجه، وعن عثمان رضي الله عنه قال: «هذا ثناء والله قبل بلاء» يريد أنه تعالى أثنى عليهم، قبل أن يُحدثوا من الخير ما أحدثوا، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين، لأن الله عز وجل أعطاهم التمكين، ونفاذ الأمر، مع السيرة العادلة ﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصة ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ متضمنة للوعد بإهلاك من يعاديه، أي وإن تحزن على تكذيبهم إياك، فاعلم أنك لست وحدك في ذلك ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل تكذيب قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ كذَّبوا رسلهم: نوحاً، وهوداً، وصالحاً.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ﴾ كذبوا رسلهم أيضاً، وإنما

حذف لكمال ظهور المراد، أو لأن المراد، نفس الفعل ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ غيَّر النظمَ الكريم، وبنى الفعلَ للمجهول، للإيذان بأن تكذيبهم له، كان في غاية الشناعة، لكون آياته في كمال الوضوح، أي وكُذِّب موسى مع وضوح آياته، وعظيم معجزاته، فما بالك بغيره؟ حتى بنو إسرائيل قد كذَّبوه مرة بعد أخرى، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى الله جَهْرَةً﴾ ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أمهلتهم حتى انصرمت آجالهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أخذت كل فريق من المكذبين، بعد انقضاء مدة الإمهال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم؟ بتغيير النعمة نقمة، والحياة هلاكاً، والعمارة خراباً! ؟.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي أهلكنا كثيراً من القرى، بإهلاك أهلها ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وأهلها ظالمون بكفرهم وتكذيبهم لرسل الله ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي وكم بئرٍ عامرة في البوادي تُركت لا يُستسقى منها، لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي مرفوع البنيان، أخليناه من ساكنيه، أفليس في ذلك عبرة للمعتبرين؟.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حثٌّ لهم على أن يسافروا، ليروا مصارع المهلكين، فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فيها، ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار، جعلوا غير مسافرين، فحُثُّوا على ذلك ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ بسبب ما شاهدوه ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد ﴿أَوْ

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يسمع من أخبار الأمم المهلكة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ الضمير للقصة وفي تعمى ضمير راجع إليه، وقد أقيم الظاهر مقامه ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم، باتباع الهوى، والانهماك في الغفلة، وذكر الصدور للتأكيد، كأنه قال: لا عمى في أبصارهم، فإنهم يرون بها، لكن العمى في قلوبهم، لأنهم لم ينتفعوا بما أبصروه.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي ويستعجلك المشركون بالعذاب سخرية واستهزاءً فيقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟ وفي ذلك دلالة على أنه ﷺ كان ينذرهم بالعذاب إن استمروا على كفرهم ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي لن يخلف الله وعداً أبداً، فلا بدَّ من مجيئه حتماً، والجملة حالية كأنه قيل: كيف ينكرون مجيء العذاب، والحال أنه تعالى لا يخلف وعده؟ وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه ولو بعد حين؟ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ الآية سيقت لبيان خطئهم في الاستعجال ببيان سعة ساحة حلمه تعالى، لأنه حليم لا يعجّل العقوبة، والمدة القصيرة عنده تعالى، مدد طوالٌ عندهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَه بَعِيداً ونَرَاهُ قَرِيباً﴾ ويتخذون تأخير العذاب ذريعةً إلى إنكاره، ويجترئون على الاستعجال به، ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها ما عنده تعالى من المقدار، فيوم واحد من أيام عذابه، في طول ألف سنةٍ من سنيّكم، ولهذا قال بعده.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكم من أهل قرية ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمليت لهؤلاء، حتى أنكروا واستعجلوا به استهزاءً، كما فعل هؤلاء ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب والنكال بعد الإمهال ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي إلى حكمي، مرجع الكل جميعاً، لا إلى أحد غيري.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي أنذركم إنذاراً بيّناً، من غير أن يكون لي دخلٌ، حتى تستعجلوا مني العذاب، وإنما اقتصر على الإنذار، مع أنه بشير للمؤمنين ومنذر للمشركين، لأن الحديث عن المشركين المستهزئين، وإنما ذكر ثواب المؤمنين بعده زيادة في غيظ الكافرين.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يدخل فيه كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ يدخل فيه أداء كل ما يجب، وترك كل محذور ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما وقع منهم من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنة، والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله، بيَّن الله تعالى أن من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، يجمع الله له بين المغفرة، والرزق الكريم.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ بالردِّ، والطعن، حيث سموها شعراً، وسحراً، وأساطير الأولين ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ أي سابقين في زعمهم لإطفاء نور الله، طامعين أن كيدهم للإسلام يتمُّ لهم، وأصله من عاجزه إذا سابقه، لأن كلاًّ

من المتسابقين، يريد إعجاز الآخر، عن اللحاق به ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي ملازمو النار الموقدة، وأهلُها وأصحابُها.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الرسول من بعثه الله بشريعة جديدة، والنبي يعمُّه، ويشمل من بعثه لتقرير شريعة سابقة ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي هيأ في نفسه ما يهواه ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ في تشهّيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فيبطله ويذهب به، بعصمته عن الركون إليه، وإرشاده إلى ما يزيحه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في شؤون الحق ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بكل ما من شأنه أن يُعلم ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يفعل بما يحقّق المصالح[1].

---

(١) الغرض من هذه الآية، أن الأنبياء والرسل عليهم السلام، وإن عصمهم الله عن الخطأ في العلم، فلم يعصمهم من جواز السهو عليهم، بل حالهم في ذلك كحال سائر البشر، وأمّا ما قيل: إنه ﷺ كان في نادي قومه، يقرأ سورة النجم، فلمّا بلغ قوله: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ جرى على لسانه «تلك الغرانيق العُلى. وإن شفاعتهنَّ لتُرتجى» ففرح به المشركون، حتى شايعوه بالسجود، لمّا سجد في آخر السورة، ثم نبهه جبريل عليه السلام، فاغتمّ فعزّاه الله عزَّ وجلَّ بهذه الآية، فهذا كلام باطل مردود على قائله، وقد ولع به كثير من المستشرقين، فخبُّوا في الحديث فيه وأوضعوا، للطعن في الوحي، ومن أعجب العجب، أن يأخذ به بعض المفسرين من المسلمين، وهو مردود عند المحققين، ولذلك لم يتردد ابن إسحق، حين سُئل عنه في أن قال: «إنه من وضع الزنادقة» والذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا، فأسندوه إلى هذه الآية، وآية: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٣.

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ علة لما ينبىء عنه ما ذكر من إلقاء الشيطان في حق الرسول ﷺ، أي ليجعل تلك الشُّبَه والوساوس التي يلقيها الشيطان

= والاحتجاج بهذه الآيات، احتجاج مقلوب، فقصة الغرانيق المكذوبة تقضي بأن الرسول ﷺ رَكَن إلى قريش بالفعل، والآية هنا تقول: إن الله ثبّته فلم يفعل، على أن الاحتجاج بها يتنافى مع عصمة الرسل، في تبليغ رسالاتهم، ويتنافى مع تاريخ الرسول ﷺ، وكل ما فيها احتجاج متهافت، وأمّا الآيات التي نحن في تفسيرها، فلا صلة لها بحديث الغرانيق البتَّة، وأول ما يدل على أن هذه القصة موضوعة، اضطرابُ رواتها، وانقطاعُ سندها، واختلافُ ألفاظها، فقائل يقول: إن النبي ﷺ كان في الصلاة، وآخر يقول: قرأها وهو في نادي قومه، وآخر يقول: قرأها وقد أصابته سِنَةٌ، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وغير ذلك، ولم يروها أحد من أهل الصحة، ولا أسندها ثقةٌ بسندٍ صحيح، أو سليم متصل، وإنما روَاها المفسرون، والمؤرخون المولعون بكل غريب، الملفِّقون من الصحف كل صحيح وسقيم، وقد قامت الدلائل على صدقه ﷺ، وأجمعت الأمة على عصمته، ونزاهته من مثل هذا، ومن الإخبار عن شيء من التبليغ بخلاف ما هو به، لا قصداً، ولا سهواً، ولا غَلَطاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ وقال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فكيف يجوز الغلط عليه ﷺ في التلاوة، وهو معصومٌ منه؟ ودليل آخر أقوى وأقطع، وهو سياق سورة النجم، وعدم احتماله لمسألة الغرانيق، لأن هذا السياق صريح، في أنَّ اللاَّت والعُزَّى، أسماءٌ سمَّاها المشركون، هم وآباؤهم، ما أنزل الله بها من سلطان، وإن في هذا السياق، من الفساد، والاضطراب، والتناقض، ومدح اللاَّت والعزى وذمِّها، في أربع آيات متعاقبة، ما لا يسلِّم به عقل، ولا يقول به إنسان، مع أن وصف العرب لآلهتهم، بأنها الغرانيق، لم يرد في نظمهم، ولا في خطبهم، ولم يُنقل عن أحد، أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وإنما أورد الغرنيق، على أنه لطائر مائي، ولا شيء في ذلك ممَّا يلائم معنى الآلهة، أو وصفها عند العرب، فلا أصل إذن لمسألة الغرانيق وكلها أخبار باطلة.

﴿ فِتْنَةً ﴾ محنة وابتلاء ﴿ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شكٌّ ونفاق ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ المشركين فيزدادوا به ظلمة ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي الفريقين المذكورين في عداوة شديدة، ومخالفة تامة، فوضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم.

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾.

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي هو النازل من عنده تعالى ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ أي بالقرآن، بأن يثبتوا على الإيمان، ويزدادوا إيماناً، بردِّ ما يلقي الشيطان ﴿ فَتُخْبِتَ ﴾ أي فتطمئن ﴿ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ بالانقياد، والخشية، والإذعان لما فيه من الأوامر والنواهي، ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في الأمور الدينية، فيتأوَّلون ما يتشابه في الدين، بالتأويلات الصحيحة، فلا تلحقهم حيرة ولا شبهة ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بالنظر الصحيح الذي يوصلهم إلى ما هو الحق.

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) ﴾.

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ ﴾ أي في شك وجدال ﴿ مِّنْهُ ﴾ أي من القرآن ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ أي حتى تأتيهم القيامة فجأة من حيث لا يشعرون ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ لا يوم بعده، كأنَّ كل يوم يلد ما بعده، كما يقال: الليلةُ الحبلى، فما لا يوم بعده يكون عقيماً، والمراد به الساعة أيضاً، كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، فوضع ذلك موضع ضميرها، لمزيد التهويل.

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ ٱلْمُلْكُ ﴾ أي السلطان القاهر، والتصرف على الإطلاق ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لِّلَّهِ ﴾ وحده بلا شريك، بحيث لا يكون فيه لأحد تصرف، لا صورةً ولا معنى ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين المؤمنين به، والممارين فيه ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ تفسير للحكم المذكور، أي فالذين آمنوا بالقرآن الكريم، ولم يماروا فيه ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ امتثالاً بما أُمروا في تضاعيفه ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي مستقرون فيها.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي أصرُّوا على ذلك واستمرُّوا ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي يُهانون به، مع الخزي والصغار.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ في طاعة الله، وطلب رضاه ﴿ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ ﴾ في الجهاد ﴿ أَوْ مَاتُوا۟ ﴾ في تضاعيف المهاجرة، روى مجاهد أنها نزلت في طوائف، خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة، فتبعهم المشركون فقاتلوهم، وظاهر الكلام للعموم ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ ﴾ جواب لقسم محذوف ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي لا ينقطع أبداً، من نعيم الجنة، وإنما سوى بينهما في الوعد، لاستوائهما في القصد، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ فإنه يرزق بغير حساب، مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحد.

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ﴾ ﴿مُّدْخَلًا﴾ هو الجنة ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾ فإنهم يرون فيها، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر، فيرضونه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال معادهم ﴿حَلِيمٌ﴾ بإمهال من قاتلهم.

﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ ۞ ذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر ذلك، والجملة للتقرير ما قبله، والتنبيه على أن ما بعده كلام مستأنف ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي ولم يزد في الاقتصاص، ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ على من بغى عليه لا محالة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والغفران، وفيه تحريضٌ على العفو والمغفرة، وتنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة ومع ذلك يعفو. قيل: نزلت في قوم من المشركين، لقوا قوماً من المسلمين في المحرَّم، فقال بعضهم لبعض: إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام، فاحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن يكفُّوا عن قتالهم، لحرمة الشهر فأبوا وقاتلوهم، فذلك بغيهم عليهم، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك النصر للمظلوم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ أي بسبب أنه قادر على ما يشاء، ومن شأنه

المداولة بين الأشياء المتضادة، بإدخال الليل في النهار وبالعكس، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ بكل المسموعات ﴿بَصِيرٌ﴾ بجميع المبصرات.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الاتصاف بما ذكر، من كمال القدرة والعلم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الواجب لذاته، الثابت في نفسه، وصفاته وأفعاله، فهو وحده المعبود الحق، وهو الخالق الرازق، العالم بكل المعلومات ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدوم الذي لا يقدر على شيء، الباطل في ألوهيته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له شريك، لا شيء أعلى منه شأناً أو أكبر سلطاناً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ استفهام تقرير، كما يفصح عنه رفع فتصبحُ، أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها وجدبها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل لطفه، وعلمه إلى كل ما جلَّ ودقَّ ﴿خَبِيرٌ﴾ بما يليق من التدابير وأحوال العباد.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، وتصرفاً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كل شيء ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد، بصفاته، وأفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي جعل ما فيها من الأشياء مذللة لكم، معدة لمنافعكم، تتصرفون فيها كيف شئتم ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بإذنه ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي من أن تقع، بأن خلقها على هيئة متداعية لا تستمسك بنفسها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ﴾ أي بمشيئته تعالى، وفيه ردٌّ على من زعم استمساكها بذاتها، فإنها متساوية في الجسمية كسائر الأجسام فتكون قابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث هيأ لهم أسباب معاشهم، وفتح عليهم أبواب المنافع، وأوضح لهم مناهج الاستدلال، بالآيات التكوينية والتنزيلية.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ﴾ عند البعث ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي جحود للنعم، مع ظهورها، لا يعرف نعمة الإنشاء المبدىء للوجود، ولا الإفناء المقرب إلى الموعود، ولا الإحياء الموصل إلى المقصود.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي لكل أمة معينة، من الأمم الخالية والباقية

﴿ جَعَلْنَا ﴾ أي وضعنا وعينًا ﴿ مَنسَكًا ﴾ أي شريعة خاصة ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ عاملون به بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، وهو رد لقول من يقول: إن الذبح ليس بشريعة الله، إذ هو شريعة كل أمة ﴿ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ أي فلا تلتفت إلى قولهم، زعماً منهم أن شريعتهم التوراة والإنجيل، فإنهما كانا شريعتين لمن مضى من الأمم، وأهل هذا العصر أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد ﴿ وَادْعُ ﴾ ادع الناس كلهم ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إلى توحيده وعبادته، وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي طريقٍ موصل إلى الحق واضح مستقيم، موصلٍ إلى جنات النعيم، وهو دين الإسلام الخالد.

﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) ﴾.

﴿ وَإِن جَادَلُوكَ ﴾ تعنتاً كما يفعله السفهاء بعد ظهور الحق، ولزوم الحجة عليهم ﴿ فَقُلِ ﴾ لهم على سبيل الوعيد ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأباطيل، ومنها المجادلة فيجازيكم عليها أسوأ الجزاء.

﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) ﴾.

﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي يفصل بين المؤمنين منكم، والكافرين ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بالثواب والعقاب، كما فصل بالحجة والآيات في الدنيا ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين، فيظهر حينئذٍ الحق من الباطل.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) ﴾.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ لتقرير أي قد علمت ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

أي لا يخفى عليه شيءٌ من الأشياء، التي من جملتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي ما في السماوات والأرض ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، وقال أبو مسلم: معنى (الكتاب) الحفظُ والضبطُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من العلم والإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي هيِّنٌ، فإن علمه وقدرته مقتضى ذاته، فلا يخفى عليه شيء، ولا يعسر عليه مقدور.

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٌۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ (٧١) ﴾.

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي ما لم يرد به حجة ولا برهان ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٌۗ﴾ أي ليس لهم علم بجواز عبادته، فهم إنما يعبدون الأصنام بمجرد الجهل، ومحض التقليد ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم ﴿مِن نَّصِيرٖ﴾ يساعدهم بنصرة مذهبهم، أو بدفع عذابهم.

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (٧٢) ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ أي حال كونها واضحات الدلالة، على صدق الرسول، وكونها من عند الله عز وجل ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ أي الإنكار، والكراهة، والشر ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ أي يكادون يبطشون بهم من فرط الغيظ، والسَّطْوُ: شدة البطش والوثوب ﴿بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ يعمُّ النبي ﷺ

وأصحابه ﴿قُلْ﴾ رداً عليهم، وإقناعاً عما يقصدونه من الإضرار ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أي أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فيكم من غيظكم على التالين ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي هو النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وعدها الله لكل كافر فاجر، وبئست النار مرجعاً لهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي بُيِّن لكم حال مستغربة، وقصة بديعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلاً، تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة، وأريد بذلك ما حكى عنهم، من عبادتهم للأصنام ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ للمثل استماع تدبر وتفكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان للمثل يعني الأصنام ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين، وتخصيص الذباب لصغره، وضعفه، واستقذاره ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب، أي إنْ يأخذ الذباب منهم شيئاً ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ مع غاية ضعفه، ولقد جُهِّلوا غاية التجهيل، في إشراكهم بالله، القادر على جميع المقدورات، تماثيل هي أعجز الأشياء، وبين ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلّها، وتعجز عن ذبِّه عن نفسها، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي عابد الصنم ومعبوده، أو الذباب الطالب والصنم المطلوب منه، ولو حقَّقْتَ وجدتَ الصنم أضعف من الذباب بدرجات، وعابدوه أجهل من كل جاهل وأضل.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته، حيث أشركوا

به أخسَّ الأشياء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها، وإفناء الموجودات عن آخرها ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع الأشياء، فكيف يتخذ العاجز شبيهاً به؟ فسبحان الله، الأوهام لا تصوره، والأفكار لا تقدره، والعقول لا تمثله، والأزمنة لا تدركه، والجهات لا تحيط به، صمدي الذات، سرمدي الصفات ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوَاً أَحَدٌ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ كجبريل وميكائيل وغيرهما، يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء بالوحي ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يختار الله من الناس رسلاً، وهم الذين يختصون بالنفوس الزكية، المؤيدون بالقوة القدسية، المتعلقون بكلا العالمين الروحاني والجسماني، يتلقون من جانب ويلقون إلى جانب، ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق، عن التبتل إلى جانب الحق، فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم، ويعلمونهم شرائعه وأحكامه مثل «إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومُحمد» عليهم السلام.

كأنه تعالى لمَّا قرَّر وحدانيته في الألوهية، بيَّن أن له عباداً مصطفون لتبليغ الرسالة، وشرائع الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي هو الرقيب على العباد، يعلم أحوالهم وأعمالهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي مرجع أفعال العباد فيجازيهم عليها، فقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾ الخ إشارة إلى العلم التام، وقوله: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ﴾ الخ إشارة إلى التفرد في الحكم، ومجموعها يقتضي نهاية التجنُّب عن المعاصي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ أي صلوا لربكم خاشعين، وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله وخرُّوا سجداً، وفيه دليل على أن هذه السجدة للصلاة، لا للتلاوة، لأنه تعالى قرن السجود بالركوع، وهو قولُ الحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وأبي حنيفة، ومالك، وروي عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس أنهم قالوا في الحج سجدتان، وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد، ويدل عليه ما روي عن عُقبة بنِ عامر قال: قلت يا رسول الله: أفي الحج سجدتان؟ قال: «نعم»[1] ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بسائر ما تعبدَكُم به، أخلصوا له العبادة ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ وتحروا ما هو خير وأصلح، في كل ما تأتون وما تذرون، كنوافل الطاعات، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق، وغير ذلك من أعمال البِرِّ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ أي افعلوا هذه كلها، وأنتم راجون للفلاح، كي تفوزوا وتسعدوا.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ أي جاهدوا لله تعالى، ومن أجله أعداءَ دينه، ومعنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ استفراغ الطاقة فيه وألاَّ يخاف في اللهِ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود من رواية عُقبة بن عامر.

لومةَ لائم، وأن يكون الجهاد خالصاً لله، لتكون كلمة الله هي العليا، لقوله ﷺ «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[1] ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي هو اختاركم لدينه، ونصرته لا غيره، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي من ضيق وشدة، بتكليف ما يشقُّ عليكم إقامته، فليس في دين الإسلام، ما يصعب أو يستحيل فعله، فقد بعث ﷺ «بالحنيفية السمحة» فيها اليسر والسهولة، كقصر المسافر للصلاة، والتيمم عند فقد الماء، وتشريع الدية في القتل الخطأ.. الخ ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أعني بالدين ملة أبيكم وإنما جعله أباهم، لأنه أب الرسول ﷺ، وهو كالأب لأمته، أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته فغلبوا على غيرهم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ في الكتب المتقدمة ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي وفي القرآن في قوله تعالى: ﴿ومن ذُرِّيتِنَا أُمةً مسلمَةً لك﴾ ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يوم القيامة ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بطاعة من أطاع، وعصيان من عصى ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل لهم ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي ثقوا بالله في أموركم ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ إذ لا مثل له، في الولاية والنصرة ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي نعم الناصرُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج».

* * *

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان البخاري، ومسلم.



مكية وهي مائة وثمان عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ كلمة «قد» ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت، والفلاحُ: هو الفوز بالمراد أي قد فازوا بكل خير، ونَجَوْا من كل ضر، حسبما كان متوقعاً من حالهم، فإن إيمانهم، وأعمالهم الصالحة، من دواعي الفلاح، بموجب الوعد الكريم ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ المصدِّقون بما عُلم من دين نبينا ﷺ، من التوحيد، والنبوة، والبعث، ونظائرها.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ الخشوعُ: الخوف والتذلُّل، وقيل: هو ترك الالتفات في الصلاة، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألتُ رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة، فقال: هو اختلاسٌ يختلسه الشيطانُ من صلاة العبد»[1] والاختلاسُ: هو الاختطاف، ورأى ﷺ مصلياً

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/١٩٤ في صفة الصلاة، وأبو داود رقم ٩١٠ باب الالتفات في الصلاة.

يعبث بلحيته، فقال: «لو خشع قلبُ هذا، لخشعتْ جوارحُه»[1] وقال ﷺ: «لا يزال الله مقبلاً على العبد، وهو في صلاته، ما لم يلتفت، فإذا التفت انصرف عنه»[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ ﴾ أي عن الكذب، والباطل، وكلِّ ما لا يعنيهم وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ أي في عامة أوقاتهم، ينزّهون أسماعهم عن كل باطل، وإقامة الإعراض مقام الترك، ليدل على تباعدهم عنه رأساً.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ مؤدون، ولفظ ﴿فاعلون﴾ يدل على المداومة بخلاف مؤدون.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ ممسكون لها عن الحرام، والفرج: اسم لسوأة الرجل والمرأة.

﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٢) أخرجه أبو داود رقم ٩٠٩ والنسائي ٣/٨ باب التشديد في الالتفات في الصلاة، وصححه الحاكم.

﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ أي لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم وفيه إيذان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلى ما لا يخفى، وأنهم حافظون لها، وبذلك يتحقق كمال العفة ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ أي سراريهم، والآية في الرجال خاصة، لأن المرأة لا يجوز أن تستمتع بمملوكها ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ تعليل لما يفيده الاستثناء، من عدم حفظها منهن، فإنهم غير ملومين على عدم حفظها منهن؛ بل يُباح لهم الاستمتاع بهنَّ من غير محظور.

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾.

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر من أربع من الحرائر، وما شاء من الإماء ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أي الكاملون في العدوان، وفيه ما يدل على تحريم المتعة، لأنها ليست زوجة له، ولأنهما لا يتوارثان بالإجماع.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ﴾ لما يؤتمنون عليه، من جهة الحق والخلق ﴿ رَٰعُونَ ﴾ قائمون عليها وحافظون لها على وجه الإصلاح.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ ﴾ المفروضة عليهم ﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ أي يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها، وليس فيه تكرير لما أن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ﴾.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ أي أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ أي الأحقاء بأن يسموا وُرَّاثاً دون من عداهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ بيان لما يرثونه، وتفسير لها بما سيلقونه منها، تفخيماً لشأنها، لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم، حسبما يقتضيه الوعد الكريم. والفردوسُ: هو أعلى الجنة، لما روي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجة ودرجة، كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تَفَجَّر أنهار الجنة، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[١] ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون.

روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: قرأ الرسول ﷺ: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى عشر آيات من أولها ثم استقبل القبلة وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، اللهم أرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل الله عليَّ عشر آياتٍ من أقامهن دخل الجنة»[٢] وتلا الآيات.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ شروع في بيان مبدأ خلق الإنسان، والمراد بالإنسان الجنس، أي وبالله لقد خلقنا جنس الإنسان، في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقاً إجمالياً ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ ﴾ من خلاصة سُلَّت من بين الكدر، والسلالة: الخلاصةُ ﴿ مِّن طِينٍ ﴾ أي كائنة من طين، و«من» بيانية، وذلك لأن الإنسان إنما يتولد من الأغذية، والأغذية تتولد من صفو الأرض، فالإنسان بالحقيقة من سُلالة من طين، وقيل: المراد بالطين آدم عليه السلام، لأنه خلق منه.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة رقم ٢٥٣٣ وأحمد في المسند ٥/ ٣٣٧.
(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٣ ورواه أحمد في المسند.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾ أي جعلنا نسله ﴿ نُطْفَةً ﴾ بأن خلقناه منها وجعلنا السلالة نطفة ﴿ فِى قَرَارٍ ﴾ أي مستقر، وهو الرحم، عبَّر عنها بالقرار مبالغة ﴿ مَّكِينٍ ﴾ أي حصين، سُمِّي مكيناً لمكانتها في نفسها، وحفظها فيه بدقة.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أي دماً جامداً، بأن أحلنا النطفة البيضاء إلى علقة حمراء ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي قطعة لحم ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ بأن صلَّبناها عموداً للبدن، على أوضاع مخصوصة، تقتضيها الحكمة ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ من بقية المضغة ما يليق به من اللحم، على المقدار اللائق به وهيئة مناسبة له، وحيث كان اللَّحمُ يستر العظم، جعله كالكسوة له ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ أي خلقاً مبايناً للخلق الأول، حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره عجائب فطرة، وغرائب حكمة ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ فتعالى شأنه في علمه الشامل، وقدرته الباهرة، والالتفات إلى الاسم الجليل، لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذُكر من أحكام الألوهية ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ أي أحسن المقدرين تقديراً، فحذف المميَّز لدلالة الخالقين عليه، والمراد أحسنُ من خلق وأبدع الخلق!!.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد ما ذكر من الأمور العجيبة ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ لسائرون إلى الموت لا محالة، عند انقضاء آجالكم.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي عند النفخة الثانية ﴿تُبۡعَثُونَ﴾ من قبوركم، للحساب والمجازاة، بالثواب والعقاب.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧﴾.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ﴾ أي خلقنا في جهة العلو فوقكم يا بني آدم ﴿سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ أي سبع سماوات، سُمّيت بذلك لأن بعضها فوق بعض، ولأنها طرائق الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ﴾ عن جميع المخلوقات من البشر ﴿غَٰفِلِينَ﴾ أي مهملين أمرها، بل نحفظها وندبِّرها، حتى تبلغ نهايتها في الحياة.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۢ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ﴾ هو المطر أنزلناه بحسب الحاجة ﴿بِقَدَرٖ﴾ أي بتقدير لائق، لا كثيراً فيتلف ويفسد، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، إنما أنزلناه بمقدار ما علمناه لمصالحهم ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي جعلناه ثابتاً قارّاً فيها ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۢ بِهِۦ﴾ أي على إزالته بالإفساد، أو التغوير في الأرض، بحيث يتعذر استنباطه ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله، فقيّدوا هذه النعمة بالشكر كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوراً فَمَنْ يأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾؟.

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا ﴾ في الجنات ﴿ فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ تتفهكون بها ﴿ وَمِنْهَا ﴾ أي من الجنات ﴿ تَأْكُلُونَ ﴾ أي لكم في ثمرتهما أنواع من الفواكه: الرطبُ، والعنبُ والتمرُ، والزبيبُ، والعصير، والدبسُ، وغير ذلك.

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ أي وشجرة الزيتون المباركة التي تنبت حول جبل الطور، وتخصيصها بالذكر، لاستقلالها بمنافع عديدة ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ أي تنبت بثمر الدهن يعني الزيت ﴿ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴾ أي وإدام للآكلين، والصِّبْغُ: ما يُصبغ به ويختص بكل إدام مائع، كالخلِّ ونحوه، وإنما أضيفت الشجرة إلى هذا الجبل، لأنها منه تشعَّبتْ في البلاد، وانتشرتْ، ومعظمُها هناك.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ أي تعتبرون بحالها، وتستدلون بها على عظمة الله وجلاله، وهذا بيانٌ للنعم الفائضة من جهة الحيوان ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا ﴾ تفصيل لما فيها من مواقع العبرة، والمراد بالبطون الجوف أو عن العلف الذي يتكون منه اللبن، أي نخرج من بطونها لبناً سائغاً ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ غير ما ذكر من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي لحومها، فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها.

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ أي على الأنعام، والمراد بها خاصة الإبل، لأنها هي المحمول عليها عندهم ﴿ وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وفي الجمع بينها وبين الفلك في إيقاع الحمل عليها، مبالغة في تحملها للحمل، وهو الداعي إلى تأخير ذكر هذه المنفعة، لأنها سفائن البر، قال ذو الرمة «سفينة بر تحت خدي زمامها» يريد ناقته، فإنها تحمله وتحمل أثقاله وزاده.

ولما بين تعالى دلائل التوحيد، أردفها بالقصص للعظة والاعتبار فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ أي ما لكم إلـه غير الله تعالى، وفي إيراد قصة نوح عليه السلام إثر قوله: ﴿وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ من حسن الموقع ما فيه، إذْ كانت نجاتُه ونجاةُ المؤمنين معه، بواسطة الفُلْك والآية شروع لبيان إهمال الأمم السابقة، وتركهم النظر والاعتبار، فيما عدّد من النعم، وعدم تذكرهم بتذكير رسلهم، وما حاق بهم من العذاب، تحذيراً للمخاطبين ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي أفلا تتقون عذابه، الذي يستوجبه ما أنتم عليه؟.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي هو بشر مثلكم،

يأكل ويشرب، وهو مشارك لكم في جميع الأمور، وصفوه بذلك، مبالغة في إنزال رتبته العالية، وحطِّها عن منصب النبوّة ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يريد أن يطلب الفضل عليكم، مع كونه مثلكم، يقولون ذلك، إغراءً لهم على معاداته ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لأرسل رسلاً من الملائكة ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي بمثل هذا الكلام، الذي هو الأمر بعبادة الله وحده ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي الماضين قبل بعثته عليه السلام، قالوه لفرط غلوهم في التكذيب.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي جنون ولذلك يقول ما يقول ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾ أي فاحتملوه واصبروا وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعله يفيق مما فيه وإلا قتلتموه، رضوا بالألوهية للحجر، ولم يرضوا بالنبوة للبشر.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام بعدما يئس من إيمانهم ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإهلاكهم فإنه حكاية إجمالية لقوله: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي أجبنا دعاءه وأوحينا عند ذلك إليه ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ أنْ مفسرة لما في الوحي من معنى القول ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً

بحفظنا، كأنّ معه عليه السلام منه عزَّ وجلَّ حُرَّاساً يكلؤونه بأعينهم من التعدي ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وتعليمنا لكيفية صنعها ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا والمراد بمجيئه كمال اقترابه، أي إذا جاء وقت عذابنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ هو التنُّورُ الذي يُخبز فيه، وقيل: هو وجهُ الأرض، روي ذلك عن ابن عباس قيل له: إذا فار الماء من التنور، اركبْ أنت ومن معك، فلما نبع منه الماء، أخبرته امرأته فركبوا ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي ادخل فيها، يقال: سلك فيه أي دخل فيه، قال الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَر﴾؟ ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي من كل صنف ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي فردين مزدوجين ذكر وأنثى ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ فإنه نص في الفردين، وذلك لئلا ينقطع ذلك الحيوان ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أهل بيتك أو من آمن معك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي سبق من الله تعالى القول بإهلاكه، وإنما جيء بعلى، لأن السابق ضار، كما جيء باللام في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى﴾ لكونها نافعاً ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾ بالدعاء لهم لإنجائهم ﴿فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ أي إذا تمكنتم ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ من السفينة إلى الأرض ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي إنزالاً مباركاً، يستتبع خيراً كثيراً ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ثناء مطابق لدعائه، أمره بأن يُشفعه به، مبالغة وتوسلاً به إلى الإجابة، إذْ بالشكر تدوم النِّعم.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ فيما فعل بنوح وقومه ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ جليلة يستدل بها أولو الأبصار، على عظمة الواحد القهار ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أي لمختبرين بهذه الآيات عبادنا، لننظر من يعتبر ويتذكر، بآيات الله الباهرة.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ هم «عاد» حسبما روي عن ابن عباس، وعليه أكثر المفسرين، وهو الأوفق لما هو المعهود في سائر السور الكريمة، من إيراد قصة هود، إثر قصة قوم نوح.

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ ﴾ لم يأتهم من غير مكانهم، ولم يكن غريباً عنهم، بل إنما نشأ من بين أظهرهم، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ أي من جملتهم نسباً ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي أفلا تخافون عذابه وانتقامه إن كفرتم؟.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ أي بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ونعَّمناهم ووسَّعنا عليهم في

الدنيا ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي ما هو إلا إنسان مثلكم وليس برسول ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة، وإيثار مثلكم على مثلنا، للمبالغة في تهوين أمره، والحطِّ من شأنه.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ أي امتثلتم بأوامره ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ عقولكم، حيث أذللتم أنفسكم بطاعة شخصٍ مثلِكم.

انظر كيف جعلوا اتّباع الرسول الحق، الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسراناً، دون عبادة الأصنام؟.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ أي أيعدكم بالحياة بعد الموت؟ والغرضُ زجرهم عن اتِّباعه، بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي أصبحتم عظاماً نَخِرة، مجرَّدة عن اللحوم والأعصاب ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من القبور أحياء.

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ أي بَعُد، بَعُد هذا الذي توعدونه، من الإخراج من القبور بعد موتكم، التكرير للتأكيد ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي لما يخبركم عنه من البعث، والحساب، والجزاء.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصله ما الحياة إلاّ حياتنا، فأُقيم الضميرُ مقام الأولى، لدلالة الثانية عليها، حذراً من التكرار، وإشعاراً بإغنائها عن

التصريح، كما في «هي النفس تتحمل ما حُمِّلتْ» ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ لم يريدوا بقولهم هذا «نموت ونحيا» الشخص الواحد، لأنهم منكرون للبعث، بل أرادوا أن البعضَ يموت، والبعض يحيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدَّعيه من إرساله إلينا رسولاً، وفيما يعدنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدّقين له فيما يقوله!!

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي هود عليه السلام، عند يأسه من إيمانهم، متضرعاً إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب تكذيبهم لي.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ تعالى إجابة لدعائه ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي عن زمان قليل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾ ليصيرن ﴿نَادِمِينَ﴾ على ما فعلوا من التكذيب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ لعلهم حين أصابتهم الريح العقيم، أصيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة أيضاً، روي أن شداد بن عاد حين أتم إرم سار

إليها بأهله فلما دنا منها بعث الله صيحة من السماء فهلكوا، وقيل: الصيحة نفس العذاب الذي نزل بهم، قال قائلهم:

صَاحَ الزمانُ بآلِ بَرْمَكَ صَيْحةً ... خَــرُّوا لشِــدَّتِهَــا عَلَــى الأَذْقَــانِ

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالأمر الثابت، الذي لا دافع له، وبالعدل ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي كغثاء السيل وهو حميله ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو من المصادر التي لا يكاد يستعمل ناصبها أي بعدوا بعداً، أي هلكوا واللام لبيان من قيل له بعداً، فبعداً بمنزلة اللعن، ذُكِر على وجه الاستخفاف والإهانة.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد هلاكهم ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ هم قوم صالح، ولوط، وشعيب، عليهم السلام وغيرهم.

إن الله سبحانه يقص القصص في القرآن، تارة مفصلاً، وتارة مجملاً كما هنا، والمعنى: ما أخلى الديارَ من المكلَّفين بل خَلَق بعدهم أمماً آخرين.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي ما تتقدم أمة على الوقت الذي عُيِّن لهلاكها، ولا تتأخر عنه.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ «ثم» للتراخي، يعني أن إرسال كل رسول، متأخر عن إنشاء قرن مخصوص بذلك الرسول، كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم

قروناً، قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولاً خاصاً به ﴿تَتْرَا﴾ أي متواترين واحداً بعد واحد، ومنه جاؤوا تترى أي متتابعين ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ في أول الملاقاة، وفيه تشنيع عليهم بكمال ضلالهم، حيث كذبت كل واحدة منهم رسولهم ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك، حسبما تبع بعضهم بعضاً في مباشرة أسبابه، التي هي الكفرُ، والتكذيب، وسائر المعاصي ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي لم يبق منهم إلا حكايات، يعتبر بها المعتبرون، وهو جمع أحدوثة، وهي ما يتحدث به تلهياً وتعجباً، أي جعلناهم قصصاً تُرْوىٰ، وأحاديث يتحدث بها تعجباً ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فهلاكاً ودماراً لقوم لا يؤمنون بالله.

اقتصر ههنا على وصفهم بعدم الإيمان، أما القرون الأولى فحيثُ نقل عنهم الغلوَّ في الكفر والعدوان، وصفوا بالظلم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ هي الآيات التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي حجة واضحة ملزمة للخصم، تدلُّ على صدقهما وتأييد الله لهما بالبراهين القاطعة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أشراف قومه ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانقياد ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين ومتمردين على الله ورسوله.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَقَالُوا﴾ أي قالوا فيما بينهم ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾؟ يعنون موسى وهارون عليهما السلام ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾؟ أي

خادمون، منقادون لنا كالعبيد، كأنهم قصدوا التعريض بشأنهما، وحطّ رتبتهما، بناء على زعمهم الفاسد، المؤسس على التقدم في نيل الحظوظ الدنية، مِن المال والجاه، كدأب قريش، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] ؟ وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة، هو السبق في إحراز الملكات السنية، بالقوة القدسية، مع صفاء الجوهر الذاتي، فأنى لهم هذا خذلهم الله!.

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أي فاستمروا على تكذيبهما، وأصرُّوا واستكبروا ﴿ فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ في البحر.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا ﴾ قوم ﴿ مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة بعد إهلاكهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى طريق الحق، بالعمل بما فيها.

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ دالة على عظيم قدرتنا، بولادته منها من غير مسيس بشر ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ إلى أرض مرتفعة هي بيت المقدس ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ أي مستقر يستقر عليها ساكنوها، وكانت ذات ثمار وزروع، لأجلها يستقر فيها الناس ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ أي وماءٍ معين ظاهر يجري على وجه الأرض، مَعَن الماءُ جرى، فهو معين.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣١.

نبّه سبحانه على كمال نعمه عليهما، بهذا اللفظ على اختصاره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ خوطب به كل رسول في عصره، وليس إباحة الطيبات من خصائص عيسى عليه السلام، بل هو شرع قديم، أي وقلنا لكل رسول: كلْ من الطيبات، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهبانية، من رفض الطيبات ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أي عملاً صالحاً موافقاً للشرع الشريف، وتقديم قوله: ﴿كلوا من الطيبات﴾ كالدلالة على أن العمل الصالح، لا بد أن يكون مسبوقاً بأكل الحلال الطيب ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، فأجازيكم عليه.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ أي خافوا عذابي وعقابي، وهو استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام، مسوقٌ لبيان أن ملة الإسلام والتوحيد، مما أُمر بها كافة الرسل والأمم، فمن دخل في الإسلام، يشعر بأنه صار أخاً لجميع المسلمين، وأن أمته هي الأمة الإسلامية، لا العربية، ولا الفارسية، ولا التركية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وقال ﷺ في خطبة الوداع: «يا أيها الناس، ألآ إن ربكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجميٍّ على عربي، إلاَّ بالتقوى» الحديث..

واليوم حدثت العصبية الجاهلية التي حرمها الإسلام، بعد أن ضعف العلم والدين، حتى قام بعض الأعاجم يفتخر بسلفه من الوثنيين والمجوس، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي فاحذروا مخالفتكم أمري، والأمر في حقِّ الرسل للتهييج، وفي حق الأمم للتحذير والإيجاب.

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أي تقطعوا أمر دينهم مع اتحاده، وجعلوه أدياناً مختلفة ﴿ زُبُرًا ﴾ أي قِطَعاً، جمع زبور بمعنى الفرقة، أي أدياناً مختلفة ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ ﴾ من المتحزّبين ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من الذي اختاروه ﴿ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون، ومعتقدون أنهم على الحق.

﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ ﴾ شبَّه ما هم فيه من الجهالة، بالماء الذي يغمر القامة، لأنهم مغمورون فيها، والغمرةُ: الانهماكُ في الباطل، والخطاب للرسول ﷺ، أي اتركهم على حالهم ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ هو حين موتهم، فهو وعيد لهم، والمراد به الحالة التي تقترن بها الحسرة والندامة.

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي نعطيهم إياه.

﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾؟ أي أيحسبون أنما نسارع به لهم، فيما فيه خيرهم وإكرامهم، معاجلة بالثواب على حسن صنيعهم؟. ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يشعرون بشيءٍ أصلاً، كالبهائم التي لا فطنة لها ولا شعور، ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراجٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهِمْ وَأَوْلاَدُهُمْ﴾[1] الآية.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٨٥.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم ﴾. بيان من له المسارعة في الخيرات، إثر إقناط الكفار عنها ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم ﴾ أي من خوف عذابه ﴿ مُّشْفِقُونَ ﴾ أي حذرون وخائفون.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ المنزلة على رسوله ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بتصديقها ولا يفرقون بين كتبه ورسله.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ شركاً جلياً ولا خفياً، ولا يعبدون معه غيره، بل يوحدّونه ويخلصون له العمل طلباً لمرضاته.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ ﴾ أي يعطون ما أعطوه من الصدقات والخيرات، وأنواع القربات والصالحات ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أي وهم خائفون مشفقون ألاّ يتقبل الله منهم، من قوة إيمانهم، وفرط إحسانهم، رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الذين يشربون الخمر، ويسرقون، ويخافون ربهم؟ قال: لا يا بنت الصِدِّيق، ولكنْ همُ الذين يصومون ويصلُّون ويتصدقون، ويخافون أن لا يُقبل منهم: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[1] ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ أي لأنهم يوقنون أنهم إلى الله عز وجل صائرون، للمجازاة.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٤ والحاكم ٢/ ٣٩٤ وصحّحه.

﴿أُولَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي أولئك المنعوتون ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي في نيل الخيرات الموعودة، كما في قوله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ وقد غيَّر الأسلوب، حيث لم يقل: نسارع لهم في الخيرات، بل أسند المسارعة إليهم، إيماءً إلى كمال استحقاقهم، لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي ينالونها قبل الآخرة، حيث عجلت لهم في الدنيا.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ أي ولا نكلف أحداً من العباد ما لا يطيق، تفضلاً منا وإحساناً، والآية سيقت للتحريض على ما وصف من فعل الطاعات، ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده ما ليس في وسعهم، وما عليهم إلا أن يبذلوا طاقتهم ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٌ﴾ أي صحائف الأعمال يقرؤونها عند الحساب ﴿يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي تظهر فيه أعمالهم، وكأنها تنطق عليهم بما عملوا، كقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] أي عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل أحد، على ما هي عليه، وقوله تعالى: ﴿يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي يُظهر الحقَّ، ويبين للناظر كما يبينه النطق للسامع، فيظهر هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها، ويترتب عليها أجزيتها ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي لا يظلمون بنقص ثواب، أو بزيادة عذاب، بل يجزون بقدر أعمالهم.

---

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٩.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ الضمير للكفرة ﴿قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي في عماية وغطاء، وغفلة غامرة، عن هذا القرآن ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ خبيثة كثيرة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر، من كون قلوبهم في غفلة، وهي: فنون كفرهم ومعاصيهم ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي مستمرون عليها، لا يكفُّون عنها، ولا ينزجرون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أي متنعميهم، وهم الذين أكرمهم الله بالمال والبنين، أي لا يزالون يعملون أعمالهم السيئة، إلى أن أخذنا رؤساءهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ هو القتلُ، والأسر، والجوعُ الذي أصابهم بالقحط، حتى أكلوا الكلاب والجيَف ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي فاجئوا الصراخ بالاستغاثة من الله عز وجل، وتخصيص مترفيهم، مع عموم العذاب للكل لغاية ظهور أمرهم، فإذا كان المترفون ذاقوا العذاب، فلأن يلقاها من عداهم من الأتباع والخدم أولى.

﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ أي لا تستغيثوا اليوم من العذاب ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ فإنكم لا تُمنعون من عذابنا، وهو تعليلٌ للنهي عن الجؤار، ببيان عدم نفعه، أي لا تلحقكم من جهتنا نصرةٌ تنجيكم.

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ﴾ تعليل لعدم النصر ﴿آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي تعرضون عن سماعها أشدَّ الإعراض، فضلاً عن تصديقها.

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ على المسلمين ﴿ بِهِۦ ﴾ أي بالبيت الحرام وبالحرم، تزعمون أنكم حماته وخدَّامه ﴿سَٰمِرًا﴾ أي تسمرون بذكر القرآن، والطعن فيه، حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن بالانتقاص ﴿ تَهْجُرُونَ﴾ من الهُجر وهو الفحش، هَجَر المريضُ في كلامه خَلَط وهذى، والهُجر بالضم الفحش.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي القرآن، والهمزة للإنكار، أي أفعلوا ما فعلوا من النكوص، والاستكبار، والهجر، فلم يتدبروا القرآن المعجز، ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم، وصحة الاستدلال، والإخبار عن الغيب أنه الحق من ربهم، فيؤمنوا به ﴿ أَمْ جَآءَهُم ﴾ أم منقطعة وما فيه من معنى بل للإضراب، والانتقال عن التوبيخ إلى توبيخ آخر، أي بل أجاءهم من الكتاب ﴿ مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ حتى استبدعوه، واستبعدوا نزوله، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال، يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى، سُنَّةٌ قديمة له تعالى، لا يكاد يتسنى إنكاره، وأن مجيء القرآن على طريقته، فمن أين ينكرونه ويعتقدون أن مجيء الرسل، أمرٌ على خلاف العادة، فقد عرفوا بالتواتر، أن الرسل عليهم السلام بعثوا إلى الأمم.

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ ﴾ إضراب من التوبيخ إلى توبيخ بوجه آخر، والهمزة لإنكار الوقوع أيضاً، أي بل ألم يعرفوا رسولهم ﷺ بالأمانة، والصدق، وحسن الأخلاق، وكمال العلم، مع عدم التعلم من أحد، مما

حاز به الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام؟ ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي جاحدون لنبوّته، فهو تأكيد لما قبله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي بل أيقولون به جنون، مع أنه أرجح الناس عقلاً وأثقبهم ذهناً، وأتقنهم رأياً، وأوفرهم رزانة ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ إضراب عما سبق، أي ليس الأمر كذلك في حق القرآن والرسول، بل جاءهم محمد بالصدق الثابت، الذي لا تخفى صحته وحسنه على عاقل، ولا مدخل للباطل عليه بوجه من الوجوه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ أي ومع وضوح الأمر، فإن أكثر المشركين يكرهون الحق، لما في جبلتهم من الزيغ والانحراف حيث علموا أنهم لو أقرّوه ﷺ لزالت مناصبهم ورياستهم، ولذا كرهوا هذا الحق الأبلج، وزاغوا عن الطريق الأنهج، وتخصيص أكثرهم بهذا الوصف، لا يقتضي عدم كراهة الباقين للحقِّ المبين، وإنما ذكر الأكثر لأن من اهتدى منهم أقل من القليل.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي لو كان ماكرهوه من الحق الذي من جملته ما جاء به ﷺ، موافقاً لأهوائهم الباطلة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية، لأن مناط النظام ليس إلا ذلك، وفيه من تنويه شأن الحق، والتنبيه على سموِّ مكانه، ما لا يخفى!! ﴿بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ انتقالٌ من تشنيعهم بكراهة الحق، تشنيعهم بالإعراض عن الرغبة فيما فيه خيرهم وسعادتهم، والمراد بالذكر القرآن الذي هو فخرهم وشرفهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ والمعنى: بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم، الذي كان يجب

عليهم أن يُقبلوا عليه أكمل إقبال، لأن الرسول ﷺ منهم، والقرآن بلغتهم، وهو أعظم شرف لهم ﴿فَهُمْ﴾ بما فعلوا من الإعراض والعناد ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ أي شرفهم خاصة ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ بسوء اختيارهم، ووَضَع الظاهر بدل الضمير، لمزيد التشنيع عليهم.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ جُعْلاً وأجراً على أداء الرسالة، انتقالٌ إلى التوبيخ بوجه آخر، كأنه قيل: أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة أجراً، فلذلك لا يؤمنون بك؟ والخَرْجُ، والخَرَاجُ: ما يحصل من غلَّة الأرض، ولذلك أُطلق على الجزية ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي رزقه في الدنيا، وثوابه في الآخرة خير لك يا محمد، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾ أي هو تعالى أفضل من تكرَّم فأعطى ورزق.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام، الذي تشهد العقول السليمة باستقامته، ليس فيه شائبة اعوجاج، ولقد ألزمهم الله عز وجل، وأزاح عللهم، في هذه الآيات، وبيَّن انتفاء ما عدا كراهتهم للحق، وقلَّة فطنتهم بمصالحهم، وما يسعدهم وينجيهم من عذاب الله.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وصفوا بذلك تشنيعاً لهم، بما هم عليه من الانهماك في الدنيا، وزعمهم أن لا حياة إلا الحياة الدنيا، وإشعاراً بعلة الحكم، فإن الإيمان بالآخرة، من أقوى الدواعي إلى طلب الحق،

وسلوك سبيله ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ أي عن جنس الصراط لعادلون عنه، فضلاً عن الصراط المستقيم، نكب عن الطريق: عَدَل ومال عنه.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي قحط وجدب ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ أي لتمادوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار، وعداوة الرسول والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عامهين عن الهدى، ومتحيرين، روي أنه لمَّا أسلم «ثمامة بن أُثال» ولحق باليمامة ومنع الميرة عن أهل مكة، وأخذهم الله بالسنين، حتى أكلوا الميتة والكلاب والحشرات، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ يرجوه الدعاء لكشف الضر، فنزلت الآية.

والمعنى: لو كشفنا عنهم ما أصابهم برحمتنا، لارتدوا إلى ما كانوا عليه، من الإفراط بالكفر والعصيان، وقد كان الأمرُ كذلك، فقد عادوا إلى الفجور والطغيان بعد أن أغاثهم الله بدعاء رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ هو ما نالهم يوم بدر، وما أصابهم من فنون العذاب، من جملتها القحط المذكور، واللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أخذناهم بالعذاب العاجل ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أي لم يخضعوا لله، بل أقاموا على العتو والاستكبار ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي وليس من عادتهم التضرع إليه تعالى[1].

---

(١) هكذا كان شأن الفجرة من طغاة مكة، لم يخضعوا لله ولم يستجيبوا لدعوة رسوله، وما رؤي منهم لينٌ وتوجه إلى الإسلام، وأما ما أظهره أبو سفيان من الاستكانة له =

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧ ﴾ .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴾ هو عذاب الآخرة، كما ينبىء عند التهويل بفتح الباب، والوصف بالشدة ﴿ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ متحيرون آيسون من كل خير، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾[1] أَبْلَسَ إبلاساً: سكتَ وأَيسَ.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ لتسمعوا بها الآيات التنزيلية ولتشاهدوا بها الآيات التكوينية، وخصَّهما بالذكر لأنهما يتعلق بهما كثير من المنافع الدينية والدنيوية ﴿ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ ﴾ لتفكروا بها ما تشاهدونه وتعتبروا وتستدلوا بها إلى غير ذلك ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ أي شكراً قليلاً تشكرون تلك النعم الجليلة، لأن العمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجله والإذعان لمانحها، وأنتم تُخِلُّون بذلك إخلالاً عظيماً، وليس المراد أن لهم شكراً وإن قلَّ، وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقاً.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٩ ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ ﴾ أي خلقكم وبثكم ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ بالتناسل ﴿ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ أي تجمعون يوم القيامة لا إلى غيره، فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه؟.

= تعالى، فإنما هو نوع خنوع إلى أن يتم له غرضه، فحاله كما قيل عن بعض الطغاة المتجبرين: إذا جاع ضَغَا، وإذا شبع طغا، وأكثرهم مستمرون على هذا الشأن.

(١) سورة الروم، آية: ١٢.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ من غير أن يشاركه في ذلك شيء من الأشياء ﴿ وَلَهُ ﴾ خاصة ﴿ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ ﴾ وهو المؤثر في اختلافهما أي تعاقبهما ازدياداً وانتقاصاً ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾؟ أي ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الكل منا! ؟.

﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ بَلۡ قَالُواْ ﴾ كفار مكة عطف على مضمر، أي فلم يعقلوا، بل قالوا ﴿ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ أي آباؤهم ومن دان بدينهم.

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ أي سنعود إلى الحياة مرةً أخرى؟.

﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا ﴾ أي البعث ﴿ مِن قَبۡلُ ﴾ متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم، أي وُعِد آباؤنا من قبل ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي ما هذا إلاّ خرافات وأباطيل الأمم السابقة، وأكاذيبهم التي سطَّروها، جمع أسطورة كأعجوبة والأساطيرُ: الأباطيل، واحدها إسطارة وأسطورة، كأنهم قالوا: إن هذا الوعد كما وقع منه ﷺ، فقد وقع قديماً، ولم يوجد مع طول العهد، فظنوا أن الإعادة تكون في دار الدنيا.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾؟ من المخلوقات وأورد «مَنْ» ولم يقل «ما» تغليباً للعقلاء على غيرهم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾؟ شيئاً فأخبروني به، وفيه استهانة بهم وسخرية، وتقرير لجهلهم، ولذلك أخبر بجوابهم، قبل أن يجيبوا.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ ﴾ لأن بديهة العقل، تضطرهم إلى الاعتراف بأنه خالقها ﴿ قُلْ ﴾ عند اعترافهم ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟ فتعلمون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداءً، قادر على إيجادها ثانياً؟ فإن البدء ليس بأهون من الإعادة، بل الأمر بالعكس في قياس العقل!؟ وفيه الترغيب في التدبر، ليعلموا بطلان ما هم عليه.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾؟ أعيد الرب تنويهاً لشأن العرش، ورفعاً لمحله عن أن يكون تبعاً للسماوات، وجوداً وذِكْراً.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ ﴾ إفحاماً لهم وتوبيخاً ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي أفلا تخافون عذابه؟ وكيف تنكرون قدرته على البعث وهو الخالق المبدع جلَّ وعلا!؟.

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مما ذُكر ومما لم يذكر، أي ملكه التام، والملكوتُ: الملك الواسع، والواو والتاء للمبالغة، فتنبيء عن عظم الملك ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾ يغيث غيره إذا شاء ويحرسه ﴿ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أي ولا يغيث أحد عليه، أي لا يمنع أحد منه أحداً إذا أراده بسوء ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك!!.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أي لله ملكوتُ كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه ﴿ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾؟ فمن أين تخدعون وتصرفون عن الرشد، إلى ما أنتم عليه من الغيِّ؟ فإن من لا يكون مسحوراً مختلَّ العقل، لا يكون كذلك.

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ ﴾ أي جئناكم بالأمر الصادق القاطع، الذي لا محيد عنه من التوحيد، والوعد بالبعث ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فيما قالوا من الشرك، وإنكار البعث.

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ كما يقوله النصارى، والقائلون الملائكة بنات الله، وهم مشركو مكة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ يشاركه في الألوهية كما يقوله عبدة الأوثان وغيرهم ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ

﴿إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لو كان معه آلهة كما يزعمون، لذهب كل واحد منهم بما خَلقه، واستبدَّ به، وامتاز ملكه عن ملك الآخرين، ووقع بينهم التغالب والتحارب، كما هو الجاري بين الملوك ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لغلب بعضهم على بعض، فلم يكن يقدر على كل شيء، ولم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء، ثمَّ نزَّه تعالى ذاته عز وجل فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من إثبات الولد والشريك، وحيث لم يُرَ أثر التمايز، والتغالب، في ملكوت السماوات والأرض، عُلم أنه إله واحد، بيده ملكوت كل شيء.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ هذا دليل آخر على انتفاء الشريك، بناءً على توافقهم في تفرده تعالى في ذلك، ولذلك رتب عليه بالفاء ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإن تفرّده تعالى بذلك، موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك، أو شبيه، أو نظير!.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ أي ما تعدهم من العذاب في الدنيا.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي قريناً لهم، فيما هم فيه من شؤم الكفر، وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه الإنسان.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ ولكنا نؤخره.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ بالخصلة التي هي أحسن، وهي الصفحُ، والإعراضُ، والصبرُ ﴿ ٱلسَّيِّئَةَۚ ﴾ يعني أذاهم، لكن لا بحيث يؤدي إلى وهن في الدين، وهو أبلغ من «ادفع بالحسنةِ السيئةَ» لما فيه من التنصيص على التفضيل، كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة، قيل هي منسوخة بآية السيف، والصحيح أنها محكمة، إذ المداراةُ محثوث عليها، ما لم تؤدِّ إلى ثَلْم دين، أو نقصان مروءة ﴿ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أي بما يصفونك به من الكهانة، والسحر، والكذب على الله، وفيه وعيد لهم، وتسلية للرسول ﷺ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي وساوسهم، وأصل الهمز: النخسُ، شُبِّه حثهم للناس على المعاصي، بهمز الرائض للدابة حتى تسرع، فالشياطين يُهيِّجون الكفار والفجَّار، على الكفر والعصيان.

﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴾ أي في شيء من أموري، وتخصيص حال الصلاة، وقراءة القرآن، وحلول الأجل، لأنها أحرى الأحوال بأن يخاف عليه، عن جبير بن المطعم عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال: «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من نفخه، ونفثه، وهمزه»[1] قيل: نفخهُ: الكِبرُ، ونفثُه: الشِّعْرُ، وهمزُه: الجنونُ.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه، وابن ماجه رقم ٧٩١ باب الاستعاذة في الصلاة.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ متعلق بيصفون، وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء عن السفهاء بالاستعاذة من الشيطان، أن يزله عن الحلم، ويغريه على الانتقام، أي يستمرون على الوصف المذكور حتى ﴿ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ وظهر له أحوال الآخرة ﴿ قَالَ ﴾ تحسراً على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ أي ردني إلى الدنيا، والواو لتعظيم المخاطب.

﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ أي فيما ضيَّعتُ من عمري ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع عن طلب الرجعة، واستبعاد لهم ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ لا محالة لتسليط الحسرة عليه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي أمامهم حائلٌ بينهم وبين الرجعة وهو القبر ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ يوم القيامة، وهو إقناط كلي عن الرجعة لما أنه لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا، بل إلى الآخرة.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ النفخة الثانية، التي يقع عندها البعث ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ تنفعهم لزوال التراحم، والتعاطف، من فرط الحيرة، واستيلاء الدهشة، بحيث «يفرُّ المرء من أخيه، وأمه، وأبيه، وصاحبته، وبنيه» ولا أنساب يفتخرون بها ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ كما يفعلون اليوم ﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً، لاشتغال كلٍّ بنفسه، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿وأقبل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لأن هذا عند ابتداء النفخة وذلك بعد المحاسبة ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣﴾.

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي من زادت حسناته على سيئاته، فهو الفائز بالسعادة، ومن كثرت سيئاته وقلّت حسناته، فهو الشقي الخاسر، المخلّد في نار جهنم.

﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾.

﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تحرقها، واللَّفحُ كالنفخ إلا أنه أشد تأثيراً منه، وتخصيص الوجوه بذلك، لأنها أشرف الأعضاء ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ من شدة الاحتراق، والكلوحُ: تقلُّصُ الشفتين عن الأسنان، والعبوسة[1].

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾.

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ على إضمار القول، أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً: ألم تكن آيات القرآن تتلى عليكم ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي في الدنيا تكذِّبون بها وتسخرون؟.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ التي اقترفناها بسوء اختيارنا ﴿وَكُنَّا﴾

---

(١) ورد تفسير الكلوح عن النبي ﷺ، في الحديث الذي يرويه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «تشويه النَّارُ، فتتقلَّصُ شفته العليا، حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفتُه السُّفلى، حتى تضرب سُرَّته» أخرجه الترمذي رقم ٣١٧٥ وأحمد في المسند ٣/ ٨٨.

بسبب ذلك ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحق، وهذا كما ترى اعتراف منهم، بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنهم لو كانوا مجبورين على ما صدر عنهم، لما سألوا الرجعة إلى الدنيا، ولما وَعَدُوا الإيمان والطاعة.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي اسكتوا سكوت هَوَانٍ، من خسأتُ الكلبَ إذا زجرته فخسأ أي ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي باستدعاء الإخراج من النار، وهو آخر كلامهم، ثم لا كلام لهم بعد ذلك، إلا الشهيق والزفير.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ هم المؤمنون المستضعفون، الذين كان المشركون منهم يسخرون، وقيل: هم أهل الصفة.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي اسكتوا عن الدعاء بالإخراج من النار، لأنكم كنتم في الدنيا تستهزئون بالداعين من عبادي ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ من فرط اشتغالكم باستهزائهم ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي تسخرون منهم وتضحكون عليهم، لأنكم لا تؤمنون بلقاء الله، ولا تفكّرون في حساب ولا جزاء.

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي جازيتهم على ما تحمّلوا في سبيل دينهم ﴿ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ أي بسبب صبرهم على أذيّتكم ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ أي هم الفائزون بالنعيم الأبدي. فجوزوا أحسن الجزاء.

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿ قَٰلَ ﴾ الله تعالى ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾؟ أي كم مكثتم أحياءً في الأرض التي تريدون أن ترجعوا إليها؟.

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ استقصاراً لمدة لبثهم فيها، بالنسبة إلى خلودهم في النار، ولأنها منقضية، والمنقضية في حكم المعدوم ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ أي الحاسبين المتمكّنين من العدِّ.

قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب، المدة التي مكثوها في الدنيا.

﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ قَٰلَ ﴾ تصديقاً لهم في ذلك ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كنتم من أهل العلم والفهم، لعلمتم قلة لبثكم فيها، والغرضُ تعريفهم قلة أيام الدنيا، في مقابلة أيام الآخرة.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ بغير حكمة، حتى أنكرتم البعث ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ للحساب والجزاء؟.

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ ﴾ استعظام له تعالى، أي ارتفع بذاته وتنزَّه عن المماثلة في ذاته وصفاته ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ الذي يحق له الملك على الإطلاق ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فإن كل ما عداه عبيده وهو الكبير المتعال ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ الذي يحيط بالأجرام، وهو أعظم المخلوقات، ووصف العرش بالكرم، لأنه ينزل منه الوحيُ، والخيرُ، والبركةُ.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ يعبده ﴿ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ صفة لازمة جيء به للتأكيد، وتنبيهاً على أن التدين بما لا دليل عليه باطل ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ ﴾ فهو مجاز له على قدر ما يستحقه، كأنه قيل: إن عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر أحد على حسابه إلاّ اللهُ عز وجل ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي لا يفوز ولا ينجح الجاحد المكذب، وضع الظاهر لأن «مَنْ» في معنى الجمع، بدأت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وختمت بنفي الفلاح عن الكافرين، ليظهر التفاوت الكبير بين الفريقين.

﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أمر الرسول ﷺ بالاستغفار، إيذاناً بأنه من أهم الأمور الدينية، حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من

ذنبه وما تأخر، روى البغوي بسنده أن رجلاً مصاباً، مُرَّ به على ابن مسعود رضي الله عنه فرقاه في أذنه ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ إلى آخر السورة، فبرأ.

نحمد الله حمد الشاكرين، ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المؤمنون».

* * *



سورة النور

مدنية وهي أربع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ .

﴿سُورَةٌ﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن، من جوامع سور القرآن ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ أي أوحينا بها إليك يا محمد في هذا الكتاب العزيز ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً، وإنما قال ذلك، لأن أكثر ما في هذه السورة، من باب الأحكام والحدود ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا﴾ في تضاعيف السورة ﴿آيَاتٍ﴾ التي نيطت بها الأحكام المذكورة ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على أحكامها، وتكرير الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون فتعملون بموجبها عند وقوع الحوادث.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ .

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ شروع في تفصيل ما ذكر من الآيات البينات، الزانية

هي المرأة المطاوعةُ للزنا، لا المزنية بها كرهاً، وتقديمها على الزاني لأنها الأصل في الفعل، بكون الداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع[1] ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ بيان لذلك الحكم، وكان هذا عاماً في حق المحصن وغيره، وقد نسخ في حق المحصن قطعاً، لأنه ﷺ رجم ماعزاً وغيره، فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة، وروي عن علي رضي الله عنه قال: «جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ» والجَلدُ ضربُ الجِلْد بالسوط ونحوه، وفيه إشارة إلى أنه لا يُبالغ فيه، والخطاب للأئمة، لأن إقامة الحد من الدين، وهو على الكل، إلاَّ أنهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الإمام منابهم، أو من يوكّله ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي رحمة ورقَّة في طاعته، وإقامة حدِّه، فتعطّلوه أو تسامحوا فيه، وقد قال ﷺ: «لو أن فاطمة بنت رسول الله سرقتْ لقطعتُ يَدَها»[2] ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ من باب التهييج، فإن الإيمان يقتضي الجد، في طاعته تعالى، وذِكْرُ اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب، في مقابلة المسامحة ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ أي لتحضره زيادةً في التنكيل، فإن التَّفضيح قد ينكِّل أكثر مما ينكِّل التعذيب ﴿طَآئِفَةٌ﴾ المراد به جمع يحصل به التشهير ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أقلها ثلاثة، وتسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾[3] هذا

---

(١) فإن قيل: لم قُدِّمت المرأة في حدّ الزنا، وأُخّرت في السرقة ﴿والسارقُ والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾؟ فالجواب أن الزنى بدافع الشهوة وهي في المرأة أقوى، والسرقة من الجرأة والقوة وهي في الرجل أقوى.

(٢) هذا طرف من حديث شهير رواه البخاري.

(٣) إنما قدَّم الرجل هنا ﴿الزاني لا ينكح﴾ لأن هذه الآية في حكم النكاح، والرجل هو =

حكمٌ مؤسسٌ على غالب المعتاد، جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزانيات، بعد زجرهم عن الزنا بهنَّ، وقد رَغِب بعضُ ضَعفَة وفقراء المهاجرين، في نكاح الموسرات من بغايا المشركين، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك، فنُفِّروا عنه، ببيان أنه من أفعال الزناة، وخصائص المشركين، كأنه قيل: الزاني لا يرغبُ إلاَّ في نكاح الزانية، فلا تحوموا حوله، كي لا تنتظموا في سلكها، أو تتَّسموا بسماتها، فالآية في التزهيد في نكاح البغايا، وهو نظير قوله تعالى: ﴿الخبيثاتُ للخبيثين﴾ ورُوي أن «مِرْثَد الغَنَوي» كانت له صديقة في الجاهلية، يقال لها: «عَنَاق» فلما أتاها بمكة، دعته إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حرَّم الزنا، قالت فانكحني، فقال: أسأل رسول الله ﷺ، قال: فأتيتُ الرسول ﷺ فقلت يا رسول الله: أأنكح عَنَاقا؟ فأمسك رسول الله ﷺ فنزلت الآية؟ فدعاني فقرأها عليَّ وقال: «لا تَنكِحْها»[1] وقال قومٌ: المراد من النكاح هو الجماع، وهذا قول الضحاك ورواية عن ابن عباس، وقال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم..﴾ ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أي نكاح الزانيات ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما فيه من التشبه بالفسقة، والتعرض للتهمة، والتسبب لسوء المقالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد، ما لا يكاد يليق بأحد من الأراذل، فضلاً عن المؤمنين، ولذلك عبَّر عن التنزيه بالتحريم مبالغةً[2].

= الأصل فيه، لأنه الراغب والطالب، فلذلك قُدِّم على الزانية، بخلاف الآية السابقة فإن فيها حكم الزانيين، والمرأة فيه هي الأصل، لأنه لولا رضاها لما حدثت الجريمة.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٦ والنسائي ٦/٦٦ وأبو داود رقم ٢٠٥١ كلاهما في النكاح.

(٢) ليس في الآية ما يدل على تحريم نكاح الزاني أو الزانية، وإنما مقصد الآية تشنيع الزنى، وتبشيع أمره، بأنه لا يليق إلا بالأشرار الخبثاء، فالفاسق الخبيث الذي من =

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾ بيانٌ لحكم العفائف، إذا نُسبْنَ إلى الزنا، ويعتبر في الإحصان ههنا العفةُ عن الزنا، والحرية، والبلوغُ، والإسلامُ، وفي التعبير بالرمي، المنبىء عن صلابة الآلات، وإيلام المرمى إيذان بشدة تأثيره فيهن، وكونه رجماً بالغيب، وقد أجمع العلماء على أن المراد الرمي بالزنى، بأن يقول يا زانية، أو زنيت، أما التعريض كقوله: «أمَّا أنا فما زنيتُ وليست أمي زانية» فليس بقذف، وعدم التصريح للاكتفاء بإيرادهن عقيب الزواني، ووصفهن بالإحصان، كأنه قيل: والذين يرمون العفائف بالزنا ﴿ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ يشهدون عليهن بما رموهن به ﴿ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾ لظهور كذبهم وافترائهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء، وتخصيص رميهن بهذا الحكم، مع أن حكم رمي المحصنين كذلك، لشيوع الرمي فيهن، والتهمة لهن أشنع وأبشع ﴿ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً ﴾ أي وزيدوا في عقوبتهم بعدم قبول شهادتهم، هدراً لكرامتهم، والغرض منه الزجر، لأنه مؤلم للقلب، وقد آذى المقذوف، فعوقب بإهدار منافعه جزاءً وفاقاً ﴿ أَبَدٗاۚ ﴾ مدة حياتهم وإن تابوا وأصلحوا، لأنه تتمة الحد، كأنه قيل: فاجلدوهم، وردُّوا شهادتهم، فبقي كأصله ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله، لإتيانهم بالذنب الكبير، والجرم الشنيع، وهو مقرر لما قبله، ومبين لسوء حالهم عند الله عزَّ وجل.

= شأنه الخبث والزنى، لا يرغب في نكاح الفاضلات الصالحات من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله، أو في مشركة نجسة، والفاسقة الخبيثة الزانية لا ترغب في نكاح الرجال الصلحاء الأفاضل، إنما ترغب في فاسق فاجر مثلها، وكما قيل: «إن الطيور على أشكالها تقع» وإذا زنى شاب ثم تاب وأراد الزواج بمن زنى بها ستراً عليها، فقد سئل عنها ابن عباس فقال: «أوله سفاح، وآخره نكاح، والحرام لا يحرِّم الحلال» فأفتى بجواز النكاح بالزانية، وبه أخذ الجمهور.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ استثناء من الفاسقين، كما ينبىء التعليل الآتي ﴿ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعد ذلك الذنب العظيم ﴿ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ أعمالهم التي من جملتها ما فرط منهم بالتلافي، ومنه الاستحلال من المقذوف ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فحينئذٍ لا يؤاخذهم الله بما فرط منهم، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين، وقد علق الشافعي رحمه الله الاستثناء بالنهي، وجعل الأبد عبارة عن مدة القذف، فتنتهي بالتوبة، فتقبل شهادته.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنا ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ ﴾ يشهدون بما رموهن به من الزنا ﴿ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ﴾ جعلوا من جملة الشهداء، إيذاناً بعدم إلغاء قولهم بالمرة، وبذلك ازداد حسن إضافة الشهادة إليهم، في قوله تعالى: ﴿ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ ﴾ أي شهادة واحدٍ منهم ﴿ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فيما رماها به من الزنا.

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةُ ﴾ أي الشهادة الخامسة، التي هي في مقابلة التزكية للشهود، وفيها تحقيق الخبر، وإظهار الصدق من الكذب، والبتُّ في هذه القضية الخطيرة، بأن يقول في المرَّة الخامسة ﴿ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فيما رماها به من الزنا، فإذا لاعن الزوج حُبست الزوجة، حتى تعترف أو تلاعن، والحكمة من هذا التشريع الخاص بالزوجين، أن الرجل إذا رأى من زوجته ما يريبه، أو رأى معها أجنبياً، فإن قتله عوقب، ولا

يمكنه الصبر، وطلب البيِّنة منه في مثل هذه الحالة متعذر، فلذلك شرع اللعان بين الزوجين، صيانة للعرض والشرف.

﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ أي العذاب الدنيوي وهو الرجم ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي تقول أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا.

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ ﴾ الزوج ﴿ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فيما رماني به من الزنا، وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء يستعملن اللعن، فربما يجترئن على التفوّه به، لسقوط وقعه عن قلوبهن، بخلاف غضبه تعالى، وسبب نزول هذه الآية ما روي عن سهل بن سعد الساعدي، أن عويمر العجلاني جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله أم كيف يفعل، فقال ﷺ: «قد أنزل الله تعالى فيك وفي صاحبتك قرآناً، فاذهبْ فأت بها، قال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ»[1] والفرقة بائنة عند أبي حنيفة ومحمد، ولا تقع الفرقة حتى يفرِّق القاضي بينهما، وعند أبي يوسف وزفر والشافعي هي فرقةٌ بغير طلاق، توجب تحريماً مؤبَّداً.

---

(١) أخرجه البخاري ٩/ ٣٢١ في الطلاق ومسلم رقم ١٤٩٢ في اللعان.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ متروك الجواب للتعظيم، أي لفضحكم، وعاجلكم بالعقوبة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ أي مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه، التي من جملتها ما شرع لكم في موضوع اللعان، لأنه تعالى لو لم يشرع اللعان لهم، لوجب على الزوج حدُّ القذف، مع أن الظاهر صدقه، لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضيحة، وبعدما شرع لهم ذلك، لو جعل الله شهادته موجبة لحد الزنا عليها، لفات النظر لها، ولو جعل شهادتها موجبة لحد القذف عليه، لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والرحمة، فجعل شهادات كل منهما، مع الجزم بكذب أحدهما، دارئة لما توجه إليه من العذاب الدنيوي، وفي ذلك من الحكم البالغة، وآثار الفضل والرحمة، ما لا يخفى، سبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع رحمته، وأدقَّ حكمته!!.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ سبب نزولها ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً، أقرع بين أزواجه، فأيها خرج سهمها خرج بها، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأقرع بيننا في غزوة غزاها «غزوة بني المصطلق» فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، فكنت أُحمَل في هودج، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل، ودنونا من المدينة، آذن ليلةً فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيت من شأني، أقبلت إلى رحلي فلمست

صدري، فإذا عِقْد لي من جزع أظفار ـ نوع من الخرز وهو حجر اليماني ـ قد انقطع، فرجعت فالتمستُه. فحبسني ابتغاؤه، قالت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحِّلون بي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذْ ذاك خِفَافاً، وكنتُ جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدتُ عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فيمَّمتُ أي قصدتُ ـ منزلي، الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فنمت، وكان «صفوان بن المعطّل السُّلمي» قد عَرَّس ـ التعريس نزول المسافر في آخر الليل ـ من وراء الجيش، فأدلج ـ والإدلاج سيرُ آخر الليل ـ فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل أن يضرب الحجابُ عليَّ، فاستيقظتُ باسترجاعه ـ أي بقوله: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون» ـ حين عرفني فخمّرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلَّمني كلمة ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها، فركبتُها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرِّسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني..»[1] الحديث. قوله تعالى: ﴿جَاءُوا بِٱلْإِفْكِ﴾ أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، والمراد ما قذفت به الصدّيقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفي لفظ المجيء، إشارة إلى أنهم أظهروا من عند أنفسهم، من غير أن يكون له أصل ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة منهم «عبد الله بن أبيّ، وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش» ومن ساعدهم ﴿مِّنكُمْ﴾ أي من جماعة المسلمين، وابن أُبيٍّ وإن كان رئيس المنافقين، فقد كان ينسب إلى الإيمان في الظاهر ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ خوطب به رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعائشة،

---

(١) أخرجه البخاري ٥/١٩٨ في الشهادات، وفي تفسير سورة النور، ومسلم في التوبة رقم ٢٧٧٠ باب حديث الإفك.

وصفوان، تسلية لهم، والضمير للإفك ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهور كرامتكم على الله تعالى، بإنزال ثمان عشرة آية في نزاهة ساحتكم، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ أي من أولئك العُصبة ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ بقدر ما خاض فيه ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ أي معظمه ﴿مِنْهُمْ﴾ من العصبة وهو «ابن أُبيّ» رأس النفاق فإنه بدأ به وأذاعه بين الناس ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة، أو في الدنيا أيضاً فإنهم جُلدوا ورُدَّت شهادتُهم، وصار ابنُ أُبي مطروداً، ومشهوداً عليه بالنفاق، و «حسان» أُعمي وصار مشلول اليدين، ومسطح صار مكفوف البصر، وكانت هذه عقوبة دنيوية عاجلة.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تلوين للخطاب، وصرف له عن رسول الله ﷺ وذويه، إلى الخائضين بطريق الالتفات، لتشديد التوبيخ، أي هلاَّ حين سمعتم هذا الافتراء والبهتان، ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي ظنوا بإخوانهم المؤمنين الخير، ولم يسرعوا إلى التهمة، وبخاصة في أهل بيت النبوة، وفيه عتاب شديد، وزجر بليغ فإن وصف الإيمان يحملهم على إحسان الظن بالمؤمنين، فإخلالهم بموجب ذلك الوصف أقبح وأشنع، أي كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات، أول ما سمعوه خيراً، فإن مقتضى الإيمان ألاَّ يصدّق مؤمنٌ على أخيه سوءاً، ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تردد ﴿وَقَالُوا۟﴾ في الحال ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر كونه إفكاً، كما يقول المتيقن المطلع على الحال. قال ابن الزبير: ذلك معاتبة للمؤمنين، إذ المؤمنُ لا يفجر بأمه، وعائشة رضي الله عنها أمُّ المؤمنين، فكيف بالصِّديقة بنت الصِدِّيق، أم المؤمنين، حَرَمُ رسول الله ﷺ؟ وروي أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه قالت له امرأته: أما

تسمعُ ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم، وذلك الكذب المكشوف، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا واللهِ، فقال: «فعائشةُ واللهِ خيرٌ منك» يريد أنها بريئة وطاهرة مطهرة من الزور والبهتان.

﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ ﴾ أي هلاَّ جاء الخائضون بأربعة شهداء، يشهدون على ما قالوا ﴿ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الخائضين ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي في حكمه ﴿ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ الكاملون في الكذب، فإن ما لا حجة عليه كذب عند الله، ولذلك رتب الحدُّ عليه.

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ خطاب للقذفة جميعاً ﴿ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ من فنون النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ من ضروب الآلاء التي من جملتها العفو بعد التوبة ﴿ لَمَسَّكُمۡ ﴾ عاجلاً ﴿ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ ﴾ بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، والإبهامُ لتهويل أمره، والاستهجان بذكره، يقال: خاض في الحديث، وخاض فيه ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يستحقر دونه الجلد، لِعظَم جرمه.

﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ ﴾ بحذف إحدى التائين، أي لمسكم ذلك العذاب العظيم

وقت تلقيكم إياه من المخترعين له ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، والتلقي، والتلقف، والتلقن، معان متقاربة، خلا أن في الأول معنى الاستقبال، وفي الثاني معنى الخطف، وفي الثالث معنى الحِذْق والمهارة ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي تقولون قولاً مختصاً بالأفواه، من غير أن يكون له مصداق، ومنشأ في القلوب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ سهلاً، لا تبعة فيه ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ﴾ والحال أنه عنده عزَّ وجلَّ ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره في الإثم واستحقاق العذاب، وفيه دلالة على أن لا يجوز الإخبار إلا مع العلم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(١) وإن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها، فهذه ثلاثة آثام في حادثة الإفك، عُلِّق بها مسُّ العذاب العظيم: ١ ـ تلقي الإفك بألسنتهم، ٢ ـ والتحدث به من غير تحقق، ٣ ـ واستصغارهم لذلك وهو عند الله عظيم.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ من المخترعين أو المشيعين ﴿قُلْتُم﴾ تكذيباً لهم ﴿مَّا يَكُونُ لَنَا﴾ أي ما يمكننا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ وما يصدر عنا ذلك بوجه من الوجوه، فإن قذف آحاد الناس محرَّم شرعاً، فضلاً عن التعرض للصِدِّيقة رضي الله عنها ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تعجبٌ ممن تفوَّه به، وتنزيه له تعالى عن أن تكون حَرَم نبيّه فاجرة ﴿هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ أي زورٌ يبهت من يسمع، لعظمته في المبهوت عليه، واستحالة صدقه.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي ينصحكم ﴿ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ ﴾ أي يزجركم من أن تعودوا لمثله ﴿ أَبَدًا ﴾ أي مدة حياتكم ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان وازع عنه، وفيه تهييجٌ على الامتناع عن قذف المؤمنات.

﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ ﴾ الدالة على الشرائع، ومحاسن الآداب، لتتَّعظوا، وتتأدبوا بها، أي ينزلها كذلك، لا أنه يبينها بعد أن لم تكن كذلك ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع تدابيره وأفعاله، ولهذا شرع من العقوبة، ما يضمن الحفاظ على الأعراض.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ﴾ أي يريدون ويقصدون ﴿ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾ أي تنتشر الخصلة المفرطة في القبح، وهي الرمي بالزنا أو الزنا نفسه، فالمراد بشيوعها شيوع خبرها، ويتصدون مع ذلك لإشاعتها ﴿ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي يحبون الفاحشة في حق المؤمنين ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ما ذكر ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ من الحدِّ وغيره ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ﴾ من عذاب النار ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ جميع الأمور، التي من جملتها ما في الضمائر ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ما يعلمه تعالى.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب، للتنبيه على كمال عظم الجريمة، وجواب «لو» محذوف لدلالة ما قبله عليه، كأنه قال: لهلكتم أو لعذبكم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لكنَّ الله رؤوف رحيم لا يعاجل بالعقوبة، وتغيير سبكه، وتصديره بحرف التحقيق

«أنَّ» لبيان اتصافه تعالى بالرأفة والرحمة على الدوام، لا بيان حدوثهما بهم في هذه الحالة.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ولمَّا بيَّن الله سبحانه ما على أهل الإفك، شرع بتحذير المؤمنين فقال: ﴿ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾ أي لا تسلكوا مسالكه، في كل ما تأتون وما تذرون، من الأفاعيل التي من جملتها إشاعة الفاحشة بالمؤمنات ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ وضع موضع ضميرهما لزيادة التقرير ﴿ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ أي فإن الشيطان يأمركم بكل قبيح، وبما تناهى بالفظاعة والشناعة[1] ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ أي لولا فضله عليكم بالتوفيق للتوبة والإنابة، وشرع الحدود المكفّرة للخطايا ﴿ مَا زَكَىٰ ﴾ أي ما طهر من دنسها ﴿ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أي أبد الدهر ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى ﴾ أي يطهّر ﴿ مَن يَشَآءُ ۗ ﴾ من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه، وحمله على التوبة ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ مبالغ في سماع الأقوال ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بجميع المعلومات، لا تخفى عليه خافية.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سلَّط الله تعالى الشيطان على البشر للابتلاء، فلهم تأثيرات ظاهراً، قال الله تعالى: ﴿زيَّن لهمُ الشيطَانُ أعْمَالَهُمْ﴾ وباطناً قال الله تعالى: ﴿الذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ﴾ فبرحمته تعالى لا يراهم البشر، لخبث صورتهم.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي لا يحلف، نزلت في شأن الصدّيق رضي الله عنه، حين حلف أن لا ينفق على «مِسْطح» بعد أن تكلم في عائشة، وكان ينفق عليه، لكونه ابن خالته، وكان من فقراء المهاجرين ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي في الدين، وكفى به دليلاً على فضل الصدِّيق وشرفه ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ على أن لا يؤتوا ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، تنبيهاً على أن كلا منها علة مستقلة، لاستحقاق الإيتاء، أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين، شيئاً ممّا كانوا يعطونهم من المال والإحسان، لذنب فعلوه ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ ما فرط منهم ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ بالإغضاء عنهم ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؟ بمقابلة عفوكم، وصفحكم، وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة، مع كمال قدرته على المؤاخذة، فلما قرأها الرسول ﷺ على أبي بكر رضي الله عنه قال: بل أحبُّ أن يغفر الله لي، وردَّ لمسطحٍ نفقته[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي العفائف بالفاحشة ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عنها على الإطلاق، بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها، ولا من مقدماتها أصلاً، ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي المتصفات بالإيمان الحقيقي، مع طهارة القلب، والمراد بهن زوجات رسول الله ﷺ الطاهرات، للتغليظ الذي ورد من ذكر اللعن في حق من قذفهن، قال ابن عباس: «هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة»[2]. ولا ريب في أن رمي غير أمهات

---

(١) انظر سبب النزول مفصلاً في كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام».
(٢) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٠.

المؤمنين ليس بكفر، فيجب أن يكون المراد إياهنَّ، فإنهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات، فجعل رميهنَّ كفراً، إبرازاً لكرامتهن، وحماية لحمى الرسالة، من أن يحوم حوله أحد بسوء، فمن أذنب ذنباً ثم تاب منه، قبلت توبته، إلاَّ من خاض في أمر عائشة رضي الله عنها، وهل هو إلا لتهويل أمر الإفك، والتنبيه على أنه كفر غليظ، ولهذا قال ﴿لُعِنُوا۟﴾ أي بما قالوه في حقهن ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين، والملائكة أبداً ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ما ذكر من اللعن الأبدي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هائلٌ، لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية، سئل سعيد بن جبير عمن قذف مؤمنة، هل يلعنه الله تعالى في الدنيا والآخرة، قال: ذاك لعائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ متصل بما قبله، أي في ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ تشهد على الإنسان جوارحه وأعضاؤه ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فتنطق الألسنة، والأيدي، والأرجل، بما اقترفت من سيِّىء الأعمال، وقبيح الفعال، ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها، أنه تعالى ينطقها بقدرته، فتخبر كل جارحة منها ما صدر عنها، ففيه من ضروب التهويل، بالإجمال والتفصيل، ما لا مزيد عليه.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة، يعطيهم الله جزاءهم الثابت العادل، وافياً كاملاً ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند معاينتهم الأهوال، حسبما نطق به القرآن الكريم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي العادل الثابت، الذي لا يظلم أحداً شيئاً، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ المظهر للأشياء كما هي في نفسها، ولو تتبعت ما في القرآن

المجيد من آيات الوعيد، لا تجد شيئاً منها فوق هذا التشديد، وما ذاك إلا لإظهار منزلة النبي ﷺ وإبراز رتبة الصديقة في النزاهة عما نُسب إليها.

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ ﴾ من النساء ﴿ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ من الرجال، أي مختصات بهن ﴿ وَٱلْخَبِيثُونَ ﴾ من الرجال ﴿ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾ من النساء، لأن المجانسة من دواعي الانضمام ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ من النساء ﴿ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ من الرجال ﴿ وَٱلطَّيِّبُونَ ﴾ منهم ﴿ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ منهن، وحيث كان ﷺ أطيب الأطيبين، تبيَّن كونُ الصدِّيقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة، واتضح بطلانُ ما قيل في حقها، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي أولئك الموصوفون بعلوِّ الشأن، مُبَرَّؤون مما يقوله أهل الإفك في حقهم، وقيل معنى الآية: الخبيثاتُ من القول، للخبيثين من الرجال والنساء، أي لا ينبغي أن تقال في حق غيرهم، وكذا الخبيثون من الفريقين، أحقاء بأن تقال في حقهم خبائث القول، والطيبات من الكلم للطَّيِّبين من الفريقين فمآله تنزيه الصديقة أيضاً ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ هو الجنة، وإلى هنا تمت قصة أهل الإفك ثم بيَّن تعالى آداب دخول البيوت، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا ﴾ وبعد ما فصَّل الزواجر عن الزنا، وعن رمي العفائف، شرع في تفصيل الزواجر عمَّا يؤدي لأحدهما، من

مخالطة الرجال بالنساء، ودخولهم عليهن، وتعليمهم الآداب الجميلة، فقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾ أي لا تدخلوا على أحدٍ في مسكنه وبيته الذي يسكنه وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ خارج مخرج العادة، التي هي سكنى كل أحد في ملكه، وإلاَّ فالمؤجّر والمعير أيضاً، منهيّان عن الدخول بغير إذن ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ أي تستأذنوا من أصحابها، من الاستئناس بمعنى الاستعلام، من آنس الشيء إذا أبصره، آنست شيئاً علمته وآنسته أبصرته ﴿وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ عند الاستئذان، بأن تقولوا السلام عليكم، أأدخل؟ فإن أذن له دخل وإلاَّ رجع، لما روي عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يُؤذن له، فلْيرجع»[1] وروي عن كُرْز بن حنبل قال: دخلتُ على النبي ﷺ ولم أسلِّم ولم أستأذن، فقال ﷺ: «ارجع فقلْ السلامُ عليكم، أأدخل؟»[2] وروى عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أأستأذن على أمي؟ قال: «نعم» فقال الرجل: فإني خادمها، فقال ﷺ: « استأذن عليها، أتحبُ أن تُرَىٰ عُريانة»؟[3] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي الاستئذان مع التسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أن تدخلوا بغتة، وخير من تحية الجاهلية، كقولهم حُيِّيتم صباحاً، أو مساءً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا وتتعظوا، وتعملوا بموجبه.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/ ٢٣ ومسلم رقم ٢١٥٣ في قصةٍ جرتْ لأبي موسى الأشعري مع عمر رضي الله عنهما، فطلب عمر منه البيّنة، وهدَّده بالعقوبة إن لم يأت بها.

(٢) أخرجه أبوا داود رقم ٥١٧٧ في الأدب وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٦٣ والطبري في تفسيره ١٨/ ١١٢.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا﴾ أي ممن يملك الإذن من أهل البيت، وعبارة النصّ هو النهيُ عن دخول البيوت الخالية، لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفاءه، مع أن التصرف في ملك الغير محظور مطلقاً، وأمَّا حرمةُ دخول ما فيه النساء، والولدان، فثابت بدلالة النص، لأن الدخول حيث حُرم مع ما ذكر من العلة، فلأن يحرم عند انضمام ما هو أقوى ـ أعني الاطلاع على العورات ـ أولى ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ واصبروا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ من جهة من يملك الإذن عند إتيانه ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي إن أُمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع فارجعوا، ولا تُلحُّوا بتكرير الاستئذان، وكلِّ ما يؤدي إلى الكراهة، من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك، فإنه مما يقدح في المروءة ﴿هُوَ﴾ أي الرجوع ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي أطهر وأنفع لدينكم ودنياكم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون، فيجازيكم عليه.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اطَّلع في بيت قوم، بغير إذنهم، فقد حلَّ لهم أن يفقؤوا عينه»[1].

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟﴾ أي بغير استئذان ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة، بل ليتمتَّع بها من يضطر إليها، كالرباط، والخانات، والحوانيت، ونحوها، فإنها معدة لمصالح الناس كافة، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ أي فيها حق تمتع لكم،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الديات ١٢/٢٤٣ فتح الباري، ومسلم في الآداب رقم ٢١٥٨ وفي الحديث الشريف «كلُّ عينٍ باكيةٌ يوم القيامة، إلاَّ عينٌ غضَّت عن محارم الله، وعين سهرت في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله» أخرجه الترمذي.

كالاستظلال من الحرِّ والبرد، وإيواء الأمتعة، والبيع والشراء، والاغتسال، وغير ذلك مما يليق بحال البيوت، فلا بأس بدخولها بغير استئذان ممن يتولى أمرها ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل للفساد.

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ شروعٌ في بيان أحكام شاملة للمؤمنين، يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجاً أولياً، ومفعول الأمر أمرٌ آخر، وقد حذف تعويلاً على دلالة جوابه، أي قل لهم غضوا ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي يصرفوا أبصارهم عمَّا يحرم النظر إليه، ويقتصروا على ما يحلُّ، وإنما خصَّ المؤمنين بذلك، لأن هذه الأحكام كالفروع للإسلام، والمؤمنون مأمورون بها ابتداء ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ إلاَّ على أزواجهم، أو ما ملكت أيمانهم، وتقييد الغضِّ «بمن» التبعيضية، دون الحفظ، لما في أمر النظر من السعة[1]، وقيل: المراد بالحفظ ههنا خاصة هو الستر ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الغضِّ والحفظ ﴿أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ أي أطهر لهم من دنس الريبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء، فليكونوا على حذر منه، في كل ما يأتون وما يذرون، وفيه ترغيبٌ وترهيب، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[2] قال أبو العالية: كلُّ ما في القرآن من حفظ الفرج، فهو الحفظُ عن الزنا، إلاَّ ههنا فإنه تعالى أراد به الاستتار، حتى لا يقع بصرُ الإنسان عليه، روي عن أبي سعيد الخدري أن

---

(١) فإن قيل: ما فائدة قوله «منْ» في غضّ البصر، دون حفظ الفرج؟ فالجواب: فائدته أنَّ حكم النظر أخفُّ من حكم الفرج، إذ يحلُّ النظر إلى بعض أعضاء المحارم، ولا يحلُّ إلى شيء من فروجهن، فأمر الفروج أعظم وأخطر.

(٢) سورة غافر، آية: ١٩.

رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجلُ إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوبٍ واحد، ولا تُفضي المرأةُ إلى المرأة في الثوب الواحد»[1]. وعن جرير بن عبد الله قال: «سألتُ رسول الله ﷺ عن نَظَر الفَجْأة، قال: اصرفْ بَصَرك»[2] وعن بريرة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ لعلي: «لا تُتبعِ النظرةَ النظرةَ، فإن لك الأولى، وليست لك الثانية»[3].

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحلُّ لهنَّ النظرُ إليه من الرجال، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة، إذْ أَقبل ابنُ أمّ مكتوم، فقال ﷺ: احتجبا منه، فقلنا يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال: أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟»[4]

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٣٣٨ باب تحريم النظر إلى العورات.

(٢) رواه مسلم رقم ٢١٥٩ باب نظر الفجأة.

(٣) رواه أبو داود رقم ٢١٤٥ في النكاح والترمذي رقم ٢٧٧٧ في الأدب.

(٤) أخرجه الترمذي رقم ١٧٧٩ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ بالتستر والتصوُّن عن الزنا، وتقديم الغضِّ لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفساد ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ كالحلي، والخِضَاب، والزينةُ ما تضعه المرأة من حلي، أو كحل، أو خضاب، وفيه من المبالغة في النهي عن إبداء موضعها ما لا يخفى ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ عند مزاولة الأمور التي لا بدَّ منها عادة، فإن في سترها حَرَجاً بيِّناً، وقيل: المراد بالزينة: مواضُعها، على حذف المضاف، وما يعم المحاسن الخلقية، والمستثنى هو الوجه والكفان، لأنهما ليسا بعورة، والأظهر أن هذا في الصلاة، لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة، لا يحل لغير الزوج والمحرم، النظر إلى شيءٍ منها، إلا لضرورة كالمعالجة، وتحمُّل الشهادة ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ كانت النساء على عادة الجاهلية، يسدلن خمرهنَّ من خلفهنَّ، فتبدو نحورُهنَّ مكشوفةً عارية، وتظهر قلائدهنَّ من جيوبهنَّ، فأمرن بإرسال خمرهنَّ إلى جيوبهن[1]، ستراً لما يبدو منها ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ أي مواضع الزينة، كالعُنق، والأذن، والصدر، والمعصم، فإن هذه أماكن الزينة ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهنَّ، وقلة توقع الفتنة من قبلهم، لما في طباع الفريقين من النفرة عن مماسة القرائِب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ المختصات بهنَّ بالصحبةِ، والخدمة، من حرائر المؤمنات، فإن الكوافر لا يتحرجن عن وصفهن للرجال، ولأن الله تعالى قال: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ والذميَّةُ والكافرة ليست من نسائنا، ولأنها أجنبية في الدين، كتب عمر رضي الله عنه إلى

---

(١) الخُمُرُ: جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، والجيوبُ جمع جيب، وهو ما جيب من القميص، أي قطع لإدخال الرأس، والمعنى: وليلقين مقانعهن على جيوبهن، ليسترن بذلك شعورهن، وأعناقهن عن الأجانب، وفيه دليل على أن صدر المرأة ونحرها عورة، لا يجوز للأجنبي النظر إليها.

أبي عبيدة أن يمنع نساء أهل الكتاب، أن يدخلن الحمام مع المسلمات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ أي من الإماء، فإن عبد المرأة، بمنزلة الأجنبي منها، قال سعيد بن المسيب: لا تغرنكم سورةُ النور، فإنها في الإماء دون الذكور وقيل: من الإماء، والعبيد، وهو ظاهر القرآن، روي ذلك عن أم سلمة وعائشة، وروى أنس «أن النبي ﷺ أتى إلى فاطمة بعبد، قد وهبه إيَّاها، وعلى فاطمة ثوبٌ إذا قنَّعت به رأسها لم يبلغ رجليْها، وإذا غطّت به رجليْها، لم يبلغ رأسها، فلما رأى ﷺ ما تلقى، قال: إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوك وغلامك[1]» ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي غير أولي الحاجة إلى النساء، وهم الشيوخ الهرمون وقيل: هم البُلْهُ الذين يتبعون الناسَ لفضل طعامهم، ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي الأطفال الصغار لعدم تمييزهم ولعدم بلوغهم حدَّ الشهوة ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ ولا يضربن بأرجلهن الأرض، فيعلم أنهن ذوات خلخال، فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن، ويوهم أن لهن ميلاً إليهم، وفي النهي عن إبداء صوت الحلي، بعد النهي عن إبداء عينها من المبالغة، والزجر عن إبداء مواضعها ما لا يخفى، وإذا كان سماع صوت خلخالها للأجانب حراماً، كان رفع صوتها بالكلام، أو الغناء بحيث يسمعه الأجانب حراماً بطريق الأولى، لأن صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها. ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ إلى الكل، لإبراز كمال العناية بأمر التوبة، لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلفين، عن نوع تفريط وتقصير في إقامة موجبات التكاليف، لا سيما إذا كان المأمور به الكفّ عن الشهوات، وفي قوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للوجوب، وإيذانٌ بأن وصفَ الإيمان موجب للامتثال حتماً ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تنالوا رضى الله، وتفوزوا بسعادة الدارين.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود من حديث أنس، وانظر تفسير ابن كثير ٣/٢٩٦.

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ وَأَنكِحُواْ ﴾ بعدما زجر اللهُ تعالى عن السفاح ومباديه، أمر بالنكاح ورغَّب فيه، فإنه مع كونه مقصوداً لبقاء النوع الإنساني، هو مزجرة عن ارتكاب الفاحشة، وأجمع السلف على أن الأمر للندب، وقيل في الآية دليل على أن تزويج الأيامى للأولياء، قلنا: الرجلُ لا يلي على الرجل الأيِّم إلاَّ بإذنه من الأحرار، وكذا لا يلي على المرأة إلاَّ بإذنها، لأن الأيِّم ينتظمهما ﴿ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ ﴾ جمع أيِّم، وهو من لا زوج له من الرجال والنساء والأيِّـمُ: العَـزَبُ رجـلاً كـان أو امـرأة، فيقـال رجـلٌ أيِّـمٌ، وامـرأة أيِّـم، والمعنى: زوّجوا من لا زوج له ﴿ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ ﴾ الخطاب للأولياء والسادات، واعتبار الصلاح في الأرقاء، لأن من لا صلاح له منهم، بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتني مولاه بشأنه، بل حقه أن لا يستبقيه عنده، فإذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الأولياء لهم، وقيل: المراد هو الصلاح للنكاح، والقيام بحقوقه ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴾ أي لا يمنعنَّ فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة، فإن فضل الله يغنيه عن المال، فإنه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب، وفيه وعدٌ منه سبحانه بالإغناء، لكن مشروط بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾[1] ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ غني ذو سعة، لا ينقصه إغناء الخلائق، إذ لا نفاد لنعمته، ولا غاية لقدرته ﴿ عَلِيمٞ ﴾ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، حسبما تقتضيه الحكمةُ، والمصلحةُ. عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعها المرأةُ الصالحة»[2].

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢٨.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٤٦٧.

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ﴾ إرشاد للعاجزين عن مبادىء النكاح وأسبابها، أي ليجتهدْ في العفة وقمع الشهوة ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ أي أسباب النكاح ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى، ولطف بهم، وتقويةٌ لقلوبهم بأن فضله تعالى أولى بالصلحاء، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فَلْيتزوَّجْ، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفَرْج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[1] ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي والذين يطلبون المكاتبة، ليتحرروا من رقِّ العبودية، والكتاب مصدر كَاتَب كالمكاتبة، أي يطلبون المكاتبة ﴿ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ عبداً كان أو أمة، وهي أن يقول المولى لمملوكه: كاتبتُك على كذا درهماً تؤديه إليَّ وتعتق، ويقول المملوك قبلتُه، أو نحو ذلك فإن أداه إليه عتق ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ والأمر فيه للندب، لأن الكتابة عقد يتضمن الإرفاق، فلا تجب كغيرها، ويجوز حالاً ومؤجَّلاً، وعند الشافعي لا يجوز إلاَّ مؤجلاً ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ أي أمانة ورشداً، أو قدرة على أداء المال، بتحصيله من وجه حلالٍ، وصلاحاً في الدين ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي ببذل شيء من أموالكم، وفي حكمه حطُّ شيء من مال الكتابة، ويكفي فيه أقل ما يتمول، وعن علي حطُّ الربع، وعن ابن عباس الثلث، وهو للندب عندنا، وعند الشافعي للوجوب، وإضافة المال إلى الله تعالى، ووصفه بإيتائه للحث على الامتثال

(١) أخرجه البخاري في الصوم ٤/١٠٦ ومسلم في النكاح رقم ١٤٠٠.

بالأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1] وقيل هو أمر بإعطاء سهمهم من الصدقات، فالأمر للوجوب، وقيل: هو أمر ندب للعامة، بإعانة المكاتبين، بالتصدق عليهم، ويحل ذلك للمولى وإن كان غنياً، لتبدل العنوان حسبما ينطق به قوله ﷺ في حديث بريرة: «هو لها صدقة، ولنا هدية» ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ أي إماءكم، وهذه العبارة في هذا المقام ﴿فتياتكم﴾ لها حسنُ موقع، لقوله تعالى ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء، لأنهن اللاتي يتوقع منهن ذلك غالباً، دون العجائز والصغار ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس لتخصيص النهي عند إرادتهن التعفف عن الزنا، لبيان شناعة عادتهم الجاهلية، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء، وهنَّ يردن التعفف عنه، مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور، روى مسلم عن جابر قال: كان عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول يقول لجاريته: اذهبي فابغنا شيئاً، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ﴾[2] الآية، وفيه تقبيح لحالهم وبيان ما كانوا عليه من الفجور ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لا تفعلوا ما أنتم عليه، من إكراههن على البغاء، لطلب المتاع السريع الزوال، الدنيء الكسب ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ أي ومن يجبرهنَّ على الزنا، فعقوبة المُكْرِه تقع على من أكرهه، والله يغفر زلة المُكْرَه على الفعل ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لهنَّ لعدم رضاهنَّ، ولا يرد عليه أن المكرَهة غير آثمة، فلا حاجة إلى المغفرة، لأن الإكراه لا ينافي المؤاخذة بالذات، ولذا حرم على المُكْرَهِ القتلُ، وأوجب عليه القصاص.

---

(١) سورة الحديد، آية: ٧.

(٢) أخرجه مسلم في التفسير رقم ٣٠٢٩ وأبو داود رقم ٢٣١١ في الطلاق، باب تعظيم الزنى.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي وبالله لقد أنزلنا إليكم، في هذه السورة الكريمة، آيات مبينات لكل ما بكم من حاجة إلى بيانه، من الحدود، والآداب وسائر الأحكام ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي وأنزلنا مثلاً كائناً من أمثال الذين مضوا من قبلكم، من القصص العجيبة ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ تتعظون به، وتنزجرون عما لا ينبغي من المحرمات، وسائر ما يخل بمحاسن الآداب ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فهم المنتفعون، وإن كانت للكل.

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي الله جلَّ وعلا منوِّر الكائنات، بنوره يهتدي أهل السماوات والأرض، وهذا تمثيل، حيث مثَّل لهدايته بالنور الوضاء، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ وكثيراً ما يُطلق النور على الهدى، والظلام على الكفر، كقوله سبحانه: ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾. قال ابن عباس في تفسير الآية: أي هادي أهل السماوات والأرض، فهم بنوره يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ أي نوره الفائض منه تعالى على الأشياء وهو نور الإيمان في قلب العبد المؤمن(١) أي صفة نوره العجيبة

(١) فإن قيل لمَ مثَّل سبحانه، نور معرفة الله تعالى، في قلب المؤمن، بنور المصباح، =

﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ أي كصفة كوّة غير نافذة في الجدار، مثلها في الإنارة والتنوير ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ﴾ سراج ضخم ثاقب ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ﴾ أي قنديل من الزجاج الصافي الأزهر ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ متلألىء، وقّاد، شبيهٌ بالدر في صفائه وزهرته، شبَّهه بالكوكب دون الشمس والقمر لأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف بخلاف الكواكب ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ ﴾ أي يبدأ إيقاد المصباح من شجرة ﴿ مُّبَـٰرَكَةٍ ﴾ أي كثيرة المنافع تنبُت في الأرض المباركة ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ في إبهامها، ووصفها بالبركة، ثم الإبدال منها، تفخيمٌ لشأنها ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ كالتي على ربوة أو في صحراء واسعة، فتقع عليها الشمسُ، حالتي الطلوع والغروب ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾ أي هو في الصفاء والإنارة، بحيث يضيء بنفسه، من غير مساس نار أصلاً ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ ﴾ كلمة «لو» في أمثال هذه المواضع، لبيان تحقق ما يفيده الكلام ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ ﴾ أي ذلك النور نور عظيم، كائن على نور، فهو نور متضاعف، فإن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له، وأجمع لنوره، بخلاف المكان المتسع، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، كذلك الزيت، روي عن ابن عمر رضي الله عنه في هذه الآية أنه قال: «المشكاةُ جوفُ الرسول، والزجاجةُ قلبه، والمصباحُ النور الذي جعله فيه، لا شرقية ولا غربية أي لا يهودية ولا نصرانية، يوقد من شجرة مباركة أي شجرة إبراهيم عليه السلام» ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ ﴾ أي يهدي هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ﴿ مَن يَشَآءُۚ ﴾ هدايته من عباده، بأن يوفقهم لفهم ما فيه من دلائل حقيته، وكونه من عند الله تعالى من الإعجاز والإخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان به ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِۗ ﴾ في تضاعيف الهداية وفي باب الإرشاد، ولذلك مثَّل نوره المعبر به عن القرآن المبين، بنور المشكاة، تقريباً إلى أفهامهم، وتسهيلاً لسبيل

= دون نور الشمس؟ فالجواب لأن المقصود تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدرُ في البدن، فناسب التمثيل له بنور المصباح في كوة الجدار.

إدراكهم، ليعتبروا فيؤمنوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً كان أو باطناً، والفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ في الأكثر، فلا بدَّ من هاد ومرشد، ولا مرشد فوق كلام الله تعالى، فتكون منزلةُ الآيات القرآنية عند عين العقل، بمنزلة نور الشمس عند عين الباصرة، وبهذا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾[1].

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ المراد بالبيوت المساجد كلها، حسبما روي عن ابن عباس، وقيل: هي المساجد التي بناها الأنبياء عليهم السلام، كالكعبة، وبيت المقدس، ومسجد المدينة، وتنكيرها للتفخيم ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ أي أمر ببنائها رفيعة لعبادة الله تعالى فيها ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ المراد باسمه تعالى ما يعمُّ طرق العبادة، أي يعبد فيها الله بذكره، وتلاوة آياته البينات، ومجالس الفقه، وحِلَق الذكر، الخ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي يُنزِّه ويقدّس، ويصلي فيها لله سبحانه ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أي في الصباح والمساء وسائر الأوقات.

﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿رِجَالٞ﴾ خصَّ الرجال بالذكر، لأن النساء لسن من أهل التجارة ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ﴾ صفة للرجال مفيدة لكمال تبتلهم إلى الله تعالى، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح ﴿تِجَٰرَةٞ﴾ أي لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة

(١) سورة التغابن، آية: ٨.

﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ أي لا يلهيهم البيع والشراء عن عبادة الله وإن كان في غاية الربح ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالتسبيح والتحميد ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي المال الذي فرض إخراجها للمستحقين، وإيراده ههنا لكونه قرينة للصلاة لا يفارقها، على أن محاسن أعمالها غير منحصرة فيما يقع في المساجد، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ يعني هؤلاء الرجال وإن بالغوا في ذكر الله وطاعته، فإنهم مع ذلك خائفون، وليس خوفهم مقصوراً على كونهم في المساجد ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي تضطرب وتتغير في أنفسها من الهول، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يفعلون ما يفعلون، من المداومة على العبادات ليجزيهم الله ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم، حسبما وعد لهم، بمقابلة حسنة واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يتفضل عليهم بأشياء لم توعد لهم ولم تخطر ببالهم ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي وهو سبحانه يعطي عطاءً واسعاً، بلا حدّ ولا عدّ، من شاء من عباده، وفيه التنبيه على أن مناط الرزق المذكور، محضُ مشيئته تعالى، لا أعمالهم المحكية.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ لما ذكر تعالى جزاء المؤمن ومآله، ذكر جزاء الكافر وخسرانه، أي وأمَّا الكافرون الجاحدون لفضل الله ﴿ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي فإن أعمالهم التي هي من أعمال البر، كصلة الأرحام، وسقاية الحاج، ونحو ذلك ﴿ كَسَرَابِۭ ﴾ وهو ما يُرى في الفَلوات، فيظن أنه ماء من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ أي كائن في قاع، وهي الأرض المنبسطة المستوية ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماءً جارياً، وهذا تكميل للتشبيه في شدة الخيبة، عند مسيس الحاجة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ ﴾ أي إذا جاء العطشان ما حسبه ماءً ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ أي لم ير شيئاً، لا ماءً ولا شراباً، وإنما شاهد سراباً فعظمت حسرته ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي وجد الله له بالمرصاد فوفَّاه جزاء عمله، وهكذا إذا جاء الكفرة يوم القيامة، بأعمالهم التي كانوا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة، لم يجدوها شيئاً، ووجدوا الله، أي حكمه وقضاءه عند المجيء، فأعطاهم حسابهم وعذابهم وافياً كاملاً، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1] وقوله: ﴿مثل الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ به الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾[2].

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ ﴾ كلمة «أو» للتنويع، مُثِّلت أعمالهم القبيحة، التي ليس فيها شائبة خيرية، بظلمات كائنة ﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ أي عميق، منسوب

---

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٤.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ١٨.

إلى اللُّجِّ وهو معظم ماء البحر البعيد القعر ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ أي يستره ويغطيه بالكلية ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي يغشاه أمواج متراكمة، بعضها على بعض ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ﴾ أي فوق ذلك الموج، سحاب ظلماني، ستَر أضواءَ النجوم، وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها، حتى كأنها بلغت السحاب ﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هي ظلمات ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي متكاثفة، وهذا بيان لكمال شدة الظلمات، كما أن قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ بيان لقوة النور ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾ أي من ابتلي بها ﴿يَدَهُۥ﴾ وجعلها بمرأى منه قريبة من عينيه لينظر إليها ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ﴾ وهي أقرب شيء منه لشدة الظلمة ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ أي ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره، الذي هو القرآن، ولم يوفقه للإيمان به، بسبب أفعالهم وأفكارهم الشنيعة ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي فما له هداية ما من أحدٍ أصلاً، وفي كيفية هذا التشبيه وجوه: أحدها ثلاث ظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الأمواج، وظلمة السحاب، وللكافر ظلمات ثلاث: ظلمةُ الاعتقاد، وظلمةُ القول، وظلمة العمل، وثانيها شبَّه بها ظلمة قلبه، وظلمة سمعه، وظلمة بصره، فهو كالأعمى الأصمّ الأبكم، وكالبهيمة التي لا تعقل ما يفعل بها [1].

---

(١) ضرب الله سبحانه مثلين للكفرة ولأعمالهم: المثل الأولُ يقتضي بطلان أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وظنوها أعمالاً صالحة، فلم ينتفعوا بها، فشبَّه أعمالهم في ضياعها وفقدان ثمرتها، بسراب في مكان منخفض، ظنه العطشان ماءً، فقصده وأتعب نفسه في الوصول إليه، حتى إذا جاء إلى مكان السراب الذي تخيَّله، لم يجد شراباً ولا ماءً، وظهرت له الحقيقة أنه سراب، ففقد أمله في النجاة، كذلك الكافر يظن أن عمله نافعه، حتى إذا أفضى للآخرة وجده هباءً منثوراً، وإلى هذا المثل الإشارة بقوله سبحانه: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة..﴾ الآية، أما المثل الثاني فقد شبَّه تعالى أعمال الكفار بالظلمات المتكاثفة التي لا يرى معها الإنسان شيئاً، وبخاصة إذا كان في وسط البحر، وغطت ظلمات السحاب كل شيء حوله، وعلاه الموج من كل مكان، فصار الظلام حوله شبحاً مخيفاً، بحيث لا يكاد يرى يده وهي أقرب شيء إليه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أو كظلمات في بحر لجي =

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ خوطب به النبي ﷺ، للإيذان بأنه تعالى قد أفاض عليه ﷺ أعلى مراتب النور، وبيّن له أسرار الملك والملكوت، أدقَّها وأخفاها، والهمزة للتقرير، أي قد علمت علماً يقينياً بالوحي والاستدلال ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ ﴾ أي ينزّهه تعالى على الدوام، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، ينزهه عن كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ما فيهما من العقلاء وغيرهم، فإنَّ كلَّ موجود من الموجودات، من حيث ماهيتُه ووجوده، يدلُّ على وجود الصانع الواجب الوجود، المتصف بصفات الكمال، وقد نبه على كمال قوة الدلالة، بما يخصُّ العقلاءَ من التسبيح، الذي هو أقوى مراتب التنزيه، تنزيلاً للسانِ الحال، منزلة لسان المقال، كأنّ كلَّ شيء عاقل ناطق، ومخبر صادق، يسبّح الله تعالى، وخلق العقلاء أشد دلالةً على وجود الصانع تعالى، لأن الغرائب في خلقهم أكثر، وهي العقل، والنطق، والفهم ﴿ وَٱلطَّيْرُ ﴾ تخصيصها بالذكر، لاستقلالها بصنع بارع، حيث تسبح في جو السماء تسبح الله ﴿ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾ أي تسبّحه تعالى، حال كونها صافات أجنحتها، فإن إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة، ما تتمكن به من الوقوف في الجو، والحركة كيف تشاء، حجة نيرة، وآية بينة، دالة على كمال قدرة الصانع جلَّ وعلا ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ أي كل من الملائكة، والإنس، والطير، قد أرشده الله وهداه لطريقته ومسلكه في عبادة ربه، والضمير يعود إلى الطير ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي عالم بما يفعلونه، لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم

= يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ الآية، وإنه لتشبيه بديع في منتهى الجمال والروعة، فالكافر كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وقيل: الضمير، يعود على الله، أي قد علم الله صلاة كل واحدٍ، ممَّا في السماوات والأرض، وتسبيحَه، ولا غرابة أن تسبِّح الطير، والأشجار، والأنهار، فكلٌّ ما في الكون يسبح الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ من شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [1] وقال بعض المتفلسفة: إذا كانت الطير عارفة بالله، كانت كالعقلاء، لكنها ليست كذلك، لأنها أشد نقصاناً من الصبي، الذي لا يعرف، وإذا ثبت أنها لا تعرف الله، استحال كونها مسبِّحة له بالنطق، فثبت أنها لا تسبِّح الله إلاَّ بلسان الحال، وللرد على هذا نقول: إنا نشاهد أن الله تعالى ألهم بعض الحيوانات، أعمالاً لطيفة، يعجز عنها العقلاء، وإذا كان كذلك فلمَ لا يجوز أن يُلهمها معرفته، ودعاءه، وتسبيحه، فتأمل في العنكبوت كيف يأتي بالحيل، في اصطياد الذباب، وفي النحل وما لها من الرياسة، وبناء البيوت، وانتقال الكركي واللقالق من أطراف العالم، والخطاف صانع جيد في اتخاذ العش، وناقر الخشب ينقر الموضع الذي يعلم أن فيه دوداً ونحو ذلك، فإلهامه تعالى لكل نوع من المخلوقات علوماً دقيقة، لا يكاد يهتدي إليها جهابذة العلماء، مما لا سبيل إلى إنكاره، فلماذا ينكر الجاحد تسبيح الطيور والأشجار؟.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي إلى الله وحده مصير الخلائق جميعاً، فيجازيهم على أعمالهم، واللفظ مع وجازته، فيه دلالة على تمام علم المبدأ، والمعاد.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ أي يسوقه إلى حيث يشاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ أي بين أجزائه، بضم بعضها إلى بعض ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ أي متراكماً، والرَّكْمُ جمعك شيئاً فوق شيء، حتى تجعله مركوماً ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ أي المطر إثر تراكمه ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ من فتوقه ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي ينزل من الغمام، فإنَّ كل ما علاك سماء ﴿ مِن جِبَالٍ ﴾ أي من قِطَعٍ عظامٍ تشبه الجبال في العظم، كائنة ﴿ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ أي ينزل من السماء من جبال، فيها بعض برد، والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت إن كانت قليلة وكان في الهواء ما يحلل ذلك البخار، فحينئذٍ ينحلُّ وينقلب هواءً، وإن كان كثيراً ولم تحللها حرارة، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء، واجتمع هناك صار سحاباً، وإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً، وإلا نزل بَرَداً، وكلُّ ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى، ومشيئته المبنيّة على الحِكَم، والمصالح ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ أي بما ينزله من البرد ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ أن يصيبه به فيناله ما يناله من ضرر، في نفسه وما له ﴿ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ أن يصرفه عنه، فينجو من غائلته ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ ﴾ أي ضوء برق السحاب ﴿ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي يخطفها من فرط الإضاءة، وسرعة ورودها، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة، من حيث إنه توليد للضدِّ من الضدِّ، لأن البرق لا بدَّ أن يكون من نار، والنَّارُ ضدُّ الماء.

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ بالمعاقبة بينهما، وبنقص أحدهما وزيادة الآخر ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما فُصِّل آنفاً ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ لدلالةً واضحةً على

وجود الصانع، ووحدته، وكمال قدرته ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي لمن له بصرٌ وبصيرة، وهذا من الدلائل على ربوبيته ووحدانيته.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ أي كل حيوان يدبُّ على الأرض ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو أحد العناصر الأربعة، أو من ماء مخصوص هو النطفة، فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل، فجميع الحيوان سوى الملائكة والجن مخلوق من نطفة ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية والديدان، وتسمية حركتها مشياً، مع كونها زحفاً، بطريق الاستعارة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس، والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالدوابِّ، والوحش ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذُكر وممَّا لم يُذكَر على ما يشاء من الصور، والهيئات، والحركاتِ، والطبائع مع اتحاد العنصر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل الله ما يشاء كما يشاء، من الصور والأعضاء.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ وهو القرآن وما فيه من الدلائل البيّنات، لكل ما يليق بيانه من الأحكام الدينية، والأسرار التكوينية ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه، بتوفيقه للنظر الصحيح فيها، وإرشاده إلى التأمل في مطاويها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام، الموصل إلى الحق، وإلى الفوز بالجنة.

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ نزلت في «بِشْر» المنافق، وكان قد خاصم يهودياً في أرضٍ، وكان اليهودي يدعوه إلى رسول الله ﷺ، والمنافق يجره إلى كعب ابن الأشرف زعيم المنافقين، فيأبى أن يتحاكم إلى الرسول ﷺ ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ أي أطعنا أمر الله ورسوله ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ ﴾ عن قبول حكمه ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعدما صدر عنهم من ادعاء الإيمان ﴿ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ أي وما أولئك الذين يدَّعون الإيمان والطاعة ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام، أي من المعهودين بالإخلاص.

﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي إلى حكم الله ﴿ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ لأنه ﷺ المباشر حقيقة، والحكم حكم الله سبحانه ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة، لكون الحق عليهم، وعلمهم بأنه ﷺ يحكم بالحق، وهو شرح للتولي والإعراض.

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ لا عليهم ﴿ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي منقادين والإذعان: الإسراعُ في الطاعة والانقياد، أي يسرعون لجزمهم أنه ﷺ يحكم لهم، لأنهم في هذه الحالة على حق.

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؟ أي كفر ونفاق ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾؟ في نبوته ﷺ مع ظهور حقيَّتها ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾؟ أي أم أنهم يخافون أن يجور رسول الله ﷺ عليهم في الحكم؟ ثم أضرب عن الكل، وحكم بأن المنشأ شيء آخر من شنائعهم حيث قال: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي بل هم ظلمة فجرة، كاملون في الظلم والعناد، ولذلك يعرضون عن حكم الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الآية بيان لحقيقة الإيمان، وصفة المؤمن، أي إنما كان الواجب عليهم، والقول الصادر عن المؤمنين الصادقين ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي بينهم وبين خصومهم، ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ أي أن يقولوا سمعاً وطاعة، ويسارعوا إلى قبول حكمه ﷺ وهكذا شأن المؤمن ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدق القول ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استئناف جيء به لتقرير مضمون ما قبله، أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله، في كل فعل وعمل، ويقبل بحكم الرسول ﷺ مع التسليم والإذعان ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ﴾ أي يخاف الله تعالى على ما مضى من ذنوبه، ويتقه فيما يستقبل ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم، لا من عداهم، وهي جامعة لأسباب الفوز والسعادة، وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية شافية، فَتُلِيَتْ له هذه الآية، لأنها جمعت أصول الإيمان، والطاعة، وأسباب السعادة!.

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ حكاية لبعض آخر من أكاذيبهم مؤكد بالأيمان الفاجرة، أي أقسموا بالله بالغينَ أقصى مراتب اليمين في الشدة ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ أي بالخروج إلى الغزو ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ أي ليخرجن معك للجهاد، وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة، أُمر ﷺ بردّها ﴿ قُل ﴾ رداً عليهم ﴿ لَّا تُقْسِمُوا۟ ﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة، وأفعالكم تكذب أقوالكم ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي لا تقسموا على ما تدّعون من الطاعة، لأن طاعتكم طاعة نفاقية، لا إيمانية، لأنها باللسان دون القلب، وإنما عبر عنها «بمعروفة» للإيذان بأن كونها كذلك، مشهورة ومعروفة لدى كل أحد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب، وما تضمرونه من النفاق والضلال.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ كرر الأمر لإبراز كمال العناية به، فإن شأن المؤمن الاستجابة لله ورسوله وطاعتهما ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ خطابٌ للمأمورين بالطاعة، من جهته تعالى، واردٌ لتأكيد الأمر بها، والحمل عليه، بالترهيب والترغيب، أي إنْ تتولوا عن الطاعة ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ ﷺ ﴿ مَا حُمِّلَ ﴾ أي ما أمر به من التبليغ، ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أي ما أُمرتم به من الطاعة، والتسليم، ولعلّ التعبير بالتحميل، للإشعار بثقله، وكونه مؤنةً باقية في عهدتهم، كأنه قيل: وحيث توليتم عن ذلك، فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي

وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق النجاة والسعادة، وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، لا وضع الإيمان في قلوب الناس.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٥٥) ﴾.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ استئناف مبيِّنٌ لتفاصيل ما أجمل فيه من الوعد، أي وعد الله عباده المؤمنين، كل من اتصف بالإيمان، لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وعملوا في هذه الدنيا الأعمال الصالحة ابتغاء وجه الله وطلباً لرضوانه ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ليجعلنهم خلفاء، متصرفين في الأرض، تصرف الملوك في ممالكهم ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هم بنو إسرائيل، استخلفهم الله عزَّ وجلَّ في فلسطين، بعد إهلاك الجبابرة ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ أي وليجعلنَّ دينهم ثابتاً، عزيزاً مكيناً، عالياً على كل الأديان، وهو الدين الذي ارتضاه لهم بقوله: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ بحيثُ يستمرون على العمل بأحكامه، ويرجعون إليه في كل شؤونهم، والتعبير عن ذلك بالتمكين الذي جعل الشيء مكاناً لآخر، للدلالة على كمال ثبات الدين، ورصانة أحكامه، وتشبيهه بالأرض في الثبات والقرار، مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ أي من الأعداء ﴿أَمْنًا﴾ حيث كان أصحاب النبي ﷺ قبل الهجرة خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة، وكانوا يصبحون في السلاح، ويمسون كذلك، حتى قال رجل منهم: ما يأتي يوم علينا، نأمن فيه؟ فأنزل الله هذه الآية، وأنجز وعده له، وأظهرهم على جزيرة العرب، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وصاروا إلى حال يخافهم كلُّ من عداهم، وفيه من الدلالة على صحة

النبوة، للإخبار بالغيب ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ أي يوحدونني ويخلصون لي العبادة، لا يعبدون إلهاً غيري، وهو مفيدٌ لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أي يعبدونني غير مشركين معي في العبادة أحداً ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي اتصف بالكفر، ولم يتأثر بما مرَّ من الترغيب والترهيب، فإن الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد، كفر مستأنف، زائدٌ على الأصل، أو كفر بعد الإيمان ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد ذلك الوعد ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ البعداء عن الحق ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الكاملون في الفسق والطغيان، والاستخلافُ الذي وُصف، إنما كان في أيام، أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم، وحصل له التمكينُ، والأمنُ، وظهورُ الدين.

قال الروافض: نحمله على الأئمة الإثني عشر، وهو باطلٌ، لأن قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ يدلُّ على أن هذا الخطاب كان مع الحاضرين في زمن النبي ﷺ وما وعدهم به من القوةِ والشوكة لم يوجد في الأئمة الاثني عشر، وقال أهل التفسير أول من كفر بهذه النعمة، الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه فلما فعلوا ذلك غيَّر الله تعالى حالهم، وأدخل عليهم الخوف، حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً متحابين.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أدُّوا يا معشر المؤمنين الصلاة التي فرضها الله عليكم، وادفعوا زكاة أموالكم إلى الفقراء والمساكين، وأطيعوا نبيكم محمداً ﷺ في سائر ما أمركم به، لتنالوا رحمة الله.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لمَّا بيَّن حال من أطاعه ﷺ، عقَّب ذلك ببيان حال من عصاه، ومآل أمره، تكميلاً لأمر الترغيب والترهيب، والخطاب إما للرسول ﷺ، أو لكل أحد ممن يصلح له، كائناً من كان ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي لا تحسبنهم معجزين الله عزَّ وجلَّ، عن إدراكهم وإهلاكهم، في قطرٍ من أقطار الأرض بما رحبت، وإن هربوا فيها كل مهرب ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ معطوف على جملة مقدرة كأنه قيل: لا تحسبن الذين كفروا معجزين ربهم في الأرض، فإنهم مدركون ومأواهم النار، وفي إيراد النار بعنوان كونها مأوى، إثر نفي قوتهم بالهرب، من الجزالة ما لا غاية وراءه، فاللهُ درُّ شأن التنزيل ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جواب لقسم مقدَّر، أي وبالله لبئس المصير والمسكن نار جهنم، والجملة جوابٌ مقرر لما قبله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ رجوع إلى بيان تتمة الأحكام السابقة، بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي، الواردة فيها، روي أن غلاماً لأسماء بنت أبي مرثد، دخل عليها في وقت كرهته، فنزلت ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ من العبيد والجواري، وظاهر قوله تعالى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يدخل فيه البالغون، والصغار، وعن ابن المسيّب رحمه الله قال: لا يغرنكم قوله: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ لا ينبغي للمرأة أن ينظر عبدُها إلى قرطها، وشعرها، وشيءٍ من محاسنها، وعن ابن عباس أن المراد

الصغار ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾ أي الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ، والتعبير عنه بالحُلُم، لكونه أظهر دلائله ﴿مِنكُمْ﴾ أي من الأحرار ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أي ثلاث أوقات في اليوم والليلة، لأنه تعالى فسَّرها بالأوقات، وإنما قيل ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ لأنه تعالى أراد مرة في كل وقت ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ التي تلبسونها في النهار، وتخلعونها لأجل القيلولة ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وهي شدة الحر، عند انتصاف النهار، والتصريحُ بوضع الثياب في هذا الحين، لما أن التجرد عن الثياب فيه قليل، أمَّا في الوقتين المذكورين، فالتجُردُ متحققٌ ومعروف لا يحتاج إلى التصريح ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ ضرورة أنه وقت للتجرد عن اللباس، والالتحاف باللحاف ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ أي ثلاث أوقات هي التي يبدو فيها انكشاف العورة، وقيل للسوءة عورة: لقبح النظر إليها، وكل شيء يستره الإنسان أنفةً وحياء، عورة أُطلقت على الأوقات المذكورة مبالغة، كأنها نفس العورة ﴿لَّكُمْ﴾ أي كائنة لكم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي المماليك والصبيان ﴿جُنَاحٌ﴾ أي إثم في الدخول بغير استئذان، لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر، والإطلاع على العورات ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد كل واحدة من تلك العورات، وهي الأوقات المتخلّلة بين كل اثنين منهنَّ ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بيان للعذر وتعليل له، أي لأنهم خَدَمُكم يطوفون عليكم للخدمة، ولو كُلّفوا بالاستئذان في كل مرة، لضاق الأمر عليهم، ومعنى الطواف: الدّورانُ، أي يمضون ويجيئون عليكم لخدمتكم، ولهذا رخَّص تعالى لهم في ترك الاستئذان، وهي المخالطة الضرورية، وفيه دليل على تعليل الأحكام ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على الأحكام، يعني ينزّلها بينة واضحة الدلالة عليها، لا أنه تعالى بينها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بجميع المعلومات، فيعلم أحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم، معاشاً ومعاداً.

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) ﴾.

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ﴾ لما بيّن حكم الأطفال، في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، عقَّب ببيان حالهم بعد البلوغ، أي إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب سن الرشد ﴿ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ ﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي فليسأذنوا في جميع الأوقات ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كرره للتأكيد والمبالغة في أمر الاستئذان.

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾ .

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي النساء العجائز اللاتي قعدن عن الحيض، والحمل، ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ ﴾ جمع قاعد، لأنها من الصفات المختصة بالنساء، كالحائض ﴿ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي إذا بلغن في السنِّ، بحيث لا يرغب فيهن الرجال لكبرهنّ، وهي العجوز التي إذا رآها الرجل لم يَشْتَهِها، أما من فيها بقية جمال فهي محل الشهوة، فلا تدخل في حكم هذه الآية، وإنما خصهن الله بذلك، لأن التهمة مرتفعة عنهن ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي الثياب الظاهرة كالجلباب ونحوه، والملحفة التي فوق الخمار، وأما الخمار فلا يجوز إزالته ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ أي غير مظهرات للزينة التي أمر الله بإخفائها في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ بترك الوضع ﴿ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ من الوضع لبعده من التهمة ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ يعلم خفايا

النفوس، فيسمع ما يجري بينهن وبين الرجال ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم مقاصدهن، وفيه من الترهيب والوعيد ما يكفي اللبيب.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ الحرج في اللغة: الضِّيقُ، ومعناه هنا الإثم، وقد كان هؤلاء الطوائف، الأعمى، والأعرج، والمريض، يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء، حذراً من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تأذيهم، بأفعالهم وأوضاعهم، وقيل: كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم، أو إلى بعض من سماهم الله تعالى في الآية الكريمة، فكانوا يتحرجون من الأكل معهم، ويقولون: ذهب بنا إلى بيت غيره، وكذا كانوا يتحرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو، وخلّفوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفعوا إليهم مفاتحها، وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها، مخافة أن لا يكون إذنهم عن طيب نفس، فقيل لهم: ليس على الطوائف المعذورة إثم ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي عليكم وعلى ما يماثلكم من المؤمنين حرج ﴿أَن تَأْكُلُوا۟﴾ أنتم وهم معكم ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي البيوت التي فيها عيالكم، فيدخل فيها بيوت الأولاد، لأن بيتهم كبيته،

لقوله (ﷺ): «أنت ومالُكَ لأبيك» ولأنَّه سبحانه عدَّد الأقارب، ولم يذكر الأولاد، وإذا كان السبب في الرخصة هو القرابة، كان الذي هو أقرب منهم أولى ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ من البيوت التي تملكون التصرف فيها، بإذن أربابها، على الوجه الذي مرَّ بيانه، ومثله وكيل الرجل في ضيعته أو ماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من أثر ضيعته، ويشرب من ماشيته ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي أو بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية، فإنهم أرضى بالتبسط، وأسرُّ به من كثير من الأقرباء، ويحكى عن الحسن البصري رحمه الله أنه دخل داره، وإذا حلقة من أصدقائه، قد أخرجوا من تحت سريره، سلالاً من أطايب الأطعمة، وهم مكبُّون عليها يأكلون، فتهلَّلت أسارير وجهه سروراً، وضحك وقال: هكذا وجدناهم، يريد كبراء الأصحاب رضي الله عنهم، والصَّدِيقُ: يقع على الواحد والجمع، والصديق الصادق اشتقاقه من الصدق، لأنه أخلص الودَّ والنصح لصاحبه، وهذا فيما إذا عُلم رضاء صاحب البيت، بصريح الإذن أو بقرينة دالة عليه، وخُصّص هؤلاء بالذكر، لاعتيادهم التبسط فيما بينهم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ حكم آخر من جنس ما قبله، فقد كان الرجل منهم لا يأكل وحده، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً، فرخص لهم في أن يأكلوا كيف شاؤوا. أشتاتاً جمع شتٌّ بمعنى مفترق، والشتات: الفرقة، أي ليس عليكم جناحٌ أن تأكلوا مجتمعين، أو متفرقين ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من البيوت المذكورة، وهو بيان للآداب الاجتماعية ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية، وإن دخلتم بيوتاً فارغة، أو مسجداً فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي ثابتة بأمره، ومشروعة من لدنه ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ باركها الله تعالى لزيادة

الخير والثواب ودوامها ﴿طَيِّبَةً﴾ تطيبُ بها نفسُ المستمع، وصفها بالبركة، لأنها دعوة مؤمنٍ لمؤمنٍ، يرجى بها زيادة الخير، وطيب الرزق ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ تكرير لتأكيد الأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ما فيها من الأحكام الشرعية، وتعملوا بموجبها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إنما ذكر الإيمان بالله ورسوله، مع تضمنه «المؤمنون» تقريراً لما قبله، وتمهيداً لما بعده، وإيذاناً بأن حقيقة الإيمان، الإيمان بهما معاً ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان، الذين آمنوا بالله ورسوله، وأطاعوهما في جميع الأحكام، وإذا كانوا معه ﷺ على أمرٍ مهم، كالحروب، وغيرها، من الأمور الداعية إلى الاجتماع من أهل الآراء والتجارب، ووصف الأمر بأنه «جامع» للمبالغة في أهمية الأمر ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي لم يتركوا مجلسه عليه السلام ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ في الذهاب فيأذن لهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا توكيد لما تقدم تفخيماً وتعظيماً لشأن الرسول ﷺ، أي إن الذين يستأذنونك يا محمد أولئك المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، وهذا يفيد أن المستأذن مؤمن، وأن الذاهب لغير إذنه ليس كذلك ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ أي فإذا استأذنك هؤلاء المؤمنون لبعض شؤونهم ومهامهم الضرورية ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي لبعض ما يعرض لهم من المهام ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ إذا علمتَ في ذلك حكمة ومصلحة، واستدل به على أن بعض الأحكام، مفوضة إلى رأيه ﷺ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ لأن الاستئذان وإن كان لعذر قوي، لا يخلو من نوع تقصير، لتقديم

أمر الدنيا، على أمر الآخرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ مبالغ في مغفرة خطايا العباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في آثار الرحمة عليهم، وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم وعلمائهم في الدين، يظاهرونهم، ولا يتفرقون عنهم.

قيل: نزلت يوم الخندق حيث كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم، من غير استئذان من النبي عليه الصلاة والسلام.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تجعلوا دعوته، وأمره إياكم لما فيه عز الدين، وصلاح الأمة ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي لا تقيسوا دعوته إياكم إلى شيء من الأمور، على دعوة بعضكم بعضاً في جواز الإعراض، والتساهل في الإجابة، والرجوع بغير إذن، وتكون الآية كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُول إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾[1] الآية، وقيل: لا تجعلوا دعاءه ﷺ ربه، كدعائكم، فإن دعاءه ﷺ مستجابٌ لامردَّ له عند الله عزَّ وجلَّ، وقيل: المعنى: لا تجعلوا نداءه كنداء بعضكم بعضاً، باسمه، ورفع الصوت، ولكن وقِّروه وعظِّموه، فقولوا: يا نبيَّ الله، يا رسول الله، يا أبا القاسم، مع خفض الصوت والتواضع، فتعظيمه تعظيمٌ لله عزَّ وجلَّ لأنه رسوله[2]. ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) الآية إنما وردت في بيان مقام الرسول ﷺ ووجوب التأدب في حضرته، وفي مخاطبته، فالغرضُ توقير النبي وإجلاله، وليس الغرض أن دعاءه ﷺ مستجاب لا مردَّ له، فذلك أمر مقطوع به، ولكنه بعيد عن فحوى الآية، قال الفراء في معانيه ٢/٢٦٢: أي لا تدعوه بقولكم يا محمد، كما يدعو بعضكم بعضاً، ولكنْ وقّروه =

﴿ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ وعيد لمخالفي أمره ﷺ، والتسلُّل: الخروجُ من البين بطريق المراوغة والخفية، و «قد» للتحقيق، أي يعلم الذين يخرجون من الجماعة، قليلاً قليلاً، على سبيل الخفية، لئلا يراه أحد ﴿لِوَاذًاۚ﴾ أي ملاوذةً بأن يتستَّر بعضُهم ببعض حتى يخرج، وهكذا كان المنافقون ينصرفون عند حفر الخندق، ويثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة، فيخرجون في استتار ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي يخالفون أمره ﷺ بترك مقتضاه، ويتركون منهجه، وسنَّته وطريقته، والضمير للرسول ﷺ لأنه المقصود بالذكر ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة شديدة في الدنيا بقتل، أو زلازل، أو تسليط سلطان جائر ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة وكلمة «أو» لمنع الخلوِّ دون الجمع، وإعادة الفعل للاعتناء بالتهديد والتحذير، واستدل به على أن الأمر للإيجاب، فإن ترتب العذابين على مخالفته ﷺ يوجب الامتثال به حتماً.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ من الموجودات بأسرها، مِلْكاً، وخلقاً، وتصرفاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع التي من جملتها الموافقة والمخالفة، والإخلاص والنفاق، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن اجتهدوا في سترها؟ ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يعلم يوم يرجع المنافقون للجزاء والعقاب ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ۗ﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها مخالفة الأمر، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض

= وعظِّموه، فقولوا يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، وكذلك قال الحافظ ابن كثير ٦/ ٩٦ وهو الأنسب بالسياق والله أعلم.

ولا في السماء، لأن الكلَّ خلقُه وملكُه. وفي الأثر عن عائشة رضي الله عنها «لا تُنزلوا النساء الغُرَف، وعَلّموهنَّ الغزل، وسورة النور» وروي أن ابن عباس رضي الله عنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم، وفسَّرها على وجهٍ لو سمعتِ الرومُ به لأسلمتْ. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله تعالى على الرسول ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النور»

* * *

فهرس المجلد الثالث

بعونِ الله تعالى تمّ انتهاء المجلّد الثالث ويليه المجلّد الرّابع
ويبدأُ بتفسير سُورة الفرقان